المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

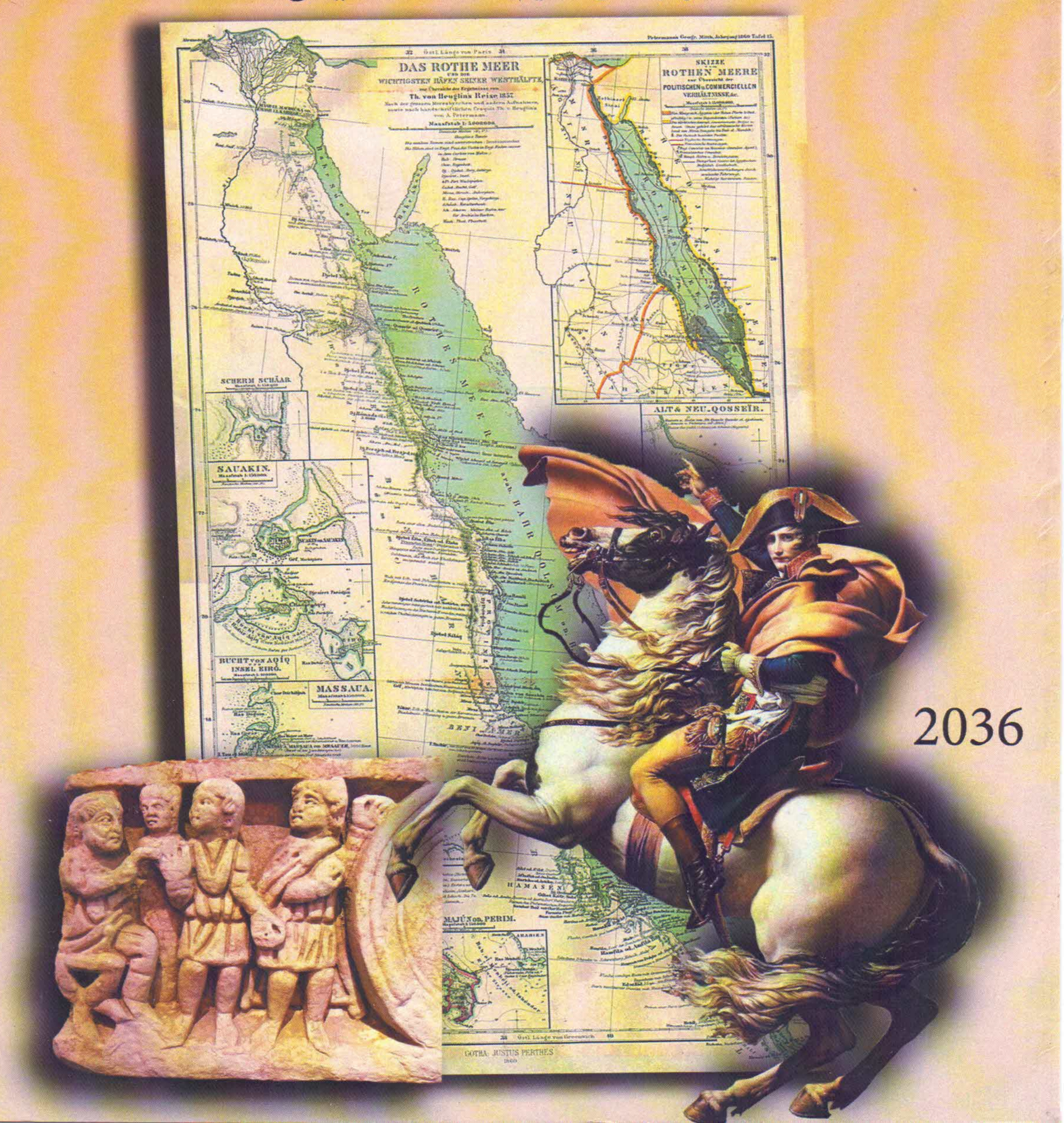
روجيه جوانت داجنت

تاريخ البحر الأحمر

من موسى حتى بونابرت

ترجمة: حسن نصر الدين

مراجعة وتقديم: محمد عفيفى



2036



يرسم لنا روجيه جوانت داجنت فى هذا الكتاب لوحة لتلك الشعوب والدول التى عاشت على ضفاف البحر الأحمر، والتي تصارعت على سواحله، ويصف الصراع بين الحضارات المصرية وحضارات بلاد ما بين النهرين، وهجرات العبرانيين والشعوب السامية الأخرى، وغزو الإسكندر والسيطرة الرومانية، وتغلغل المسيحية في مصر والنوبة والحبشة وظهور الإسلام وانتشاره، والحروب الصليبية ووصول الملاحيين البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر والتوسع العثماني. تلك هي المراحل الكبرى في تاريخ البحر الأحمر، ويتوقف المؤلف في هذا الجزء عند حملة بونابرت التي سوف تغير تاريخ مصر ودور البحر الأحمر الذي استوعب الإنجليز والفرنسيين أهميته الإستراتيجية والتجارية.

تصميم الغلاف: ياسر عبد القوي

تاريخ البحر الأحمر

من موسى حتى بونابرت

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2036
- تاريخ البحر الأحمر: من موسى حتى بونابرت
- روجيه جوانت داجنت
- حسن نصر الدين
- محمد عفيفى
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

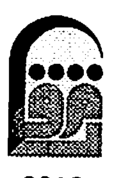
Histoire de la mer rouge:
De Moïse à Bonaparte
Par: Roger JOINT DAGUENET

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ البحر الأحمر

من موسى حتى بونابرت

تأليـــــــف : روجيه جوانت داجنت
ترجمـــــــة : حسن نصر الدين
مراجعة وتقديم : محمد عفيفى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

داجنت، روجيه جوانت.
تاريخ البحر الأحمر من موسى حتى بونابرت/ تأليف: روجيه جوانت داجنت، ترجمة: حسن نصر الدين، مراجعة وتقديم: محمد عفيفى.
ط١ ، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣
٤١٢ ص ، ٢٤ سم
١ - مصر القديمة - تاريخ.
٢ - البحر الأحمر.
(أ) نصر الدين، حسن (مترجم)
(أ) عفيفى، محمد (مراجع ومقدم)
(ب) العنوان ٩٣٢

رقم الإيداع ٢٠١١/١٩٤٨٤
الترقيم الدولى 6-831-704-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

بقلم محمد عفيفى

شغل البحر المتوسط اهتمام الكثير من المؤرخين والمفكرين المصريين، ودارت مناقشات حادة - وأحيانًا جدل عقيم - حول الهوية "المتوسطية" لمصر، ويقصد بها بطبيعة الحال انتماء مصر لعالم البحر المتوسط. وزاد من تعقيدات هذا الأمر ارتباط ذلك بمسألة التبعية للغرب، الذى يمثل الضفة الشمالية لهذا البحر، مع بعض المبالغة فى ذلك بطبيعة الحال. هذا فضلاً عن مدى تعارض هذا الانتماء "المتوسطى" مع الهويات الأخرى لمصر، ونقصد بذلك الهوية العربية أو حتى الإسلامية.

ولم يحظ البحر الأحمر بنفس النوع من هذا الجدل، رغم تمتع مصر بسواحل طويلة على هذا البحر، وكون مصر تمثل عامل "الشمال" الجغرافى والحضارى لهذا البحر، على عكس الحال بالنسبة للبحر المتوسط.

ولا يعنى ذلك إهمال المؤرخين المصريين أو حتى الخبراء الإستراتيجيين لمسألة البحر الأحمر، فقد صدرت العديد من الدراسات حول ذلك، ولكن لم يتحول البحر الأحمر إلى مسألة "هوية" أو "انتماء" مثلما أصبحت عليه حال البحر المتوسط. وبطبيعة الحال هناك العديد من الأسباب وراء ذلك، ربما نعتقد أن على رأسها، أن الهوية المتوسطية كانت تمثل دائمًا "حلمًا" حضاريًا لمصر يربطها بعالم الشمال، بينما الحال ليست كذلك فى حالة البحر الأحمر، إذ شكلت مصر دائمًا ما يمكن أن نسميه "الشمال" الحضارى بالنسبة لعالم البحر الأحمر، وكانت الحضارة المصرية - كما سنرى - منذ عهد الفراعنة وحتى العصر الحديث هى الحضارة الجاذبة فى عالم البحر الأحمر.

وإذا نظرنا إلى المسألة من منظور إستراتيجى، سنجد أن هناك دائمًا سياسة مصرية ثابتة تجاه البحر الأحمر، وأن مصر هى القوة الأولى فى هذا العالم على مر العصور.

ومن ناحية أخرى يختلف البحر الأحمر عن مثيله المتوسط من ناحية أمن مصر القومى؛ فحوادث التاريخ تخبرنا دائمًا بإمكانية غزو مصر من عالم الشمال، سواء برًا عن طريق سيناء، أو بحرًا مثلما الحال مع الرومان والصليبيين أو حتى الحملة الفرنسية والاحتلال الإنجليزى، نهايةً بالعدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ .

لكن مصر لا يمكن غزوها عن طريق البحر الأحمر، سواء لتسيُّد الأساطيل المصرية على مر العصور لهذا العالم، أو حتى لأن مصر هى الدولة المركزية الأقدم فى هذا العالم - مع احترام وضع "الحبشة" إثيوبيا - والمتسيدة عليه، سواء كانت دولة مستقلة أم حتى ولاية، بينما اتسمت المجتمعات حول البحر الأحمر بالتفتت والضعف السياسى.

أمر آخر يتعلق بالبعد الحضارى للبحر الأحمر واختلافه عن مثيله المتوسط، فبينما يختلف البعض حول انتماء مصر "المتوسطى" لعالم البحر المتوسط، للأسباب التى ذُكرت سابقًا، لا نجد ذلك فى حالة البحر الأحمر. إذ إن الوجود المصرى فى عالم البحر الأحمر يُعمِّق انتماءها العربى، حيث يسود البعد العربى كل الساحل الشرقى، فضلاً عن أجزاء كبيرة من الساحل الغربى. كما يرسخ ذلك أيضًا، وبالتعاون مع نهر النيل، من انتماء مصر الأفريقى، هذا الانتماء الذى حرصت عليه مصر منذ عهود الفراعنة وحتى وقت قريب.

من هنا نحتفى بهذا الجزء من هذا السفر القيِّم، الذى تصدر ترجمته العربية لتسد نقصًا مهمًا فى المكتبة العربية، وأقصد بذلك الحاجة إلى وجود كتاب موسوعى أو "مرجعى" عن تاريخ البحر الأحمر، أو فى الحقيقة عالم البحر الأحمر منذ أقدم العصور وحتى مطلع القرن التاسع عشر.

ويدعم هذا الكتاب - من وجهة نظرنا - من قدم وأهمية الوجود المصرى الحضارى والإستراتيجى فى عالم البحر الأحمر. فعندما يبدأ كتابه فى العصور السحيقة يبدأ بمصر، وعندما ينهى كتابه فى مطلع العصر الحديث، ينتهى بمصر وقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م.

إذ يبدأ المؤلف بدراسة الشعوب القديمة حول البحر الأحمر فى التاريخ القديم، ويبرز ما أطلق عليه "الدور المصرى" فى البحر الأحمر عبر العصور المختلفة للحضارة المصرية القديمة. ثم يأتى بعد ذلك على دراسة دور بقية شعوب عالم البحر الأحمر.

وعندما ينتقل إلى العصر اليونانى، والحضارة الهيلينستية، يبرز مدى تأثير غزو الإسكندر الأكبر لمصر على المتغيرات الإستراتيجية والحضارية فى عالم البحر الأحمر. وينطبق نفس الشىء على العصر الرومانى، فمع تحول مصر إلى ولاية رومانية، تصبح هناك سياسة رومانية تجاه البحر الأحمر، يدعمها أيضًا أهمية تجارة التوابل، وبروز البحر الأحمر كطريق مهم بين الشرق والغرب.

ومع ظهور المسيحية، تلعب الكنيسة القبطية المصرية دورًا مهمًا فى انتشار المسيحية فى عالم البحر الأحمر. إذ يتجاوز النفوذ الدينى لهذه الكنيسة حدود مصر جنوبًا، مارًا بالنوبة وصولاً للحبشة، ويصبح البابا القبطى هو الأب الروحى لكنائس أفريقيا. ولم يتغير ذلك الوضع إلا مع مجىء الاستعمار والتبشير إلى أفريقيا، ونجاح هذه السياسة فى اختطاف كنائس أفريقيا من الكنيسة الأم، الكنيسة القبطية.

ويبدأ المؤلف فصله المعنون بـ"البحر الأحمر الإسلامى" بدراسة الإسلام فى مصر، مؤكدًا على الدور المصرى فى هذه الفترة، إذ لعب الأزهر دورًا حضاريًا كمنارة للثقافة العربية الإسلامية فى عالم البحر الأحمر. هل ننسى دور أروقة الأزهر فى هذا الشأن؟ وكان هناك رواق سنار لأهل السودان، ورواق الجبرت لأهل شرق أفريقيا. هل ننسى أهم مؤرخ مصرى فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، شيخنا الجليل عبد الرحمن الجبرتى؟ لقد أتى جده الأعلى فى القرن السادس عشر من شرق

أفريقيا للحج. ثم درس في الأزهر وطاب له المقام في مصر، وكان من ذريته الشيخ حسن الجبرتي العالم الأزهري والفلكي الشهير، ووالد مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي.

وعلى المستوى السياسي يوضح المؤلف الدور المهم لمصر في هذا البحر لاسيما منذ أيام دولة سلاطين المماليك، وكيف عادت الإستراتيجية القديمة لتحكم دولة الشمال القوية "مصر" لهذا العالم. كما يشير إلى أهمية هذا الطريق البحري الشهير في التجارة الدولية، وكيف أدت هذه الإستراتيجية المصرية إلى زيادة العوائد الجمركية من تحكم مصر في تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب آنذاك.

ولعل هذا كان من أهم أسباب الالتفاف البرتغالي حول أفريقيا، واكتشاف الطريق التجاري الجديد، طريق رأس الرجاء الصالح، لضرب طريق التجارة القديم، البحر الأحمر، الذي تسيطر عليه القوى الإسلامية وعلى رأسها دولة سلاطين المماليك.

من هنا كان التحالف البحري الشهير بين سلاطين المماليك، وأمراء الهند للوقوف في وجه هذا الغزو الأوربي للمياه الجنوبية. لكن هذا التحالف لن يصمد أمام قوة المدافع البرتغالية، إذ سينهار أسطول التحالف الإسلامي في موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩، مشيراً إلى بداية التسيُّد الغربي للمياه الجنوبية.

وفي تلك الأثناء دخل العثمانيون مصر في عام ١٥١٧، ودان لهم الحجاز بالولاء - كما سيدخل اليمن بعد ذلك في طاعتهم - وحاول البرتغاليون اقتحام البحر الأحمر ونشر السيادة عليه. ودارت أقاويل عديدة حول رغبة البرتغاليين في احتلال ميناء جدة وتوجيه المدافع البرتغالية لضرب الحرم المكي الشريف، وعلينا تذكر طبيعة الروح الدينية المتعصبة آنذاك، لاسيما بعد قيام دولتي إسبانيا والبرتغال بعد سقوط الأندلس الإسلامية.

من هنا رأى العثمانيون ضرورة تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية، ومنع السفن الأجنبية من الإبحار فيه. ولم يكن الغرض من ذلك بطبيعة الحال دينيًا في

الأساس وإنما كان اقتصاديًا وسياسيًا، إذ حرص العثمانيون - فى لحظات قوتهم - على السيادة فى مياه البحر الأحمر، الذى هو ممر تجارى مهم، يدر عوائد مالية كثيرة، وأيضًا طريق للحج والأراضى المقدسة.

وربما أدت هذه السياسة العثمانية تجاه البحر الأحمر، فضلاً عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، إلى إضعاف دور البحر الأحمر فى الإستراتيجية والتجارة الدولية فى القرن السادس عشر. لكن الأمور سرعان ما تغيرت وعادت أهمية البحر الأحمر فى التجارة الدولية من جديد ولكن تحت رقابة العثمانيين، حيث لعبت ولاية مصر دورًا مهمًا فى هذا الشأن.

وبمجىء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨، ستنقلب السياسات القديمة تجاه البحر الأحمر رأسًا على عقب؛ إذ ستبرز هذه الحملة مدى أهمية البحر الأحمر فى الإستراتيجية الدولية. فالهدف الأول لهذه الحملة كان قطع الطريق الرئيسى بين إنجلترا وأكبر مستعمراتها فى آسيا، وهى الهند. ومنذ ذلك الوقت ستعود الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر من جديد على الساحة الدولية، وسيبدأ الصراع الدولى حول هذا البحر، لاسيما مع عودة الفكرة القديمة لربط البحرين المتوسط بالأحمر. هذه الفكرة التى بدأت بقناة سيزوستريس فى مصر القديمة، وخليج أمير المؤمنين فى مصر الإسلامية، ثم قناة السويس التى طرحها من جديد علماء الحملة الفرنسية. وستصبح هذه المسألة هى المفتاح للجزء الثانى من هذا الكتاب المهم.

وقد استطاع المؤلف أن يُلم تقريبًا بكل تفاصيل المتغيرات السياسية والاقتصادية، فضلاً عن الاجتماعية، للمجتمعات التى عاشت على ضفتى البحر الأحمر. وسينبهر القارئ بهذا الكم الكبير من المصادر التاريخية، المكتوبة بلغاتٍ عدة والتى رجع إليها المؤلف لإعداد هذا العمل الموسوعى عن عالم البحر الأحمر.

ولا يسعنى فى النهاية إلا شكر المترجم الصديق العزيز حسن نصر الدين، على جرأته ودأبه على ترجمة مثل هذا الكتاب؛ كما أشكر المركز القومى للترجمة على دعمه

لترجمة هذا الكتاب، فى وقتٍ مهم فى تاريخ مصر، نحاول فيه جميعًا استعادة الدور التاريخى لمصر فى عالم البحر الأحمر، لتدعيم البعد الأفريقى لمصر، الذى هو فى الحقيقة بمثابة شريان الحياة لنا.

والله ولىّ التوفيق

محمد عفيفى

الدقى، ٢٠١٠

الفصل الأول

مقدمة

البحر الأحمر، الـ (Sinus Arabicus) الرومانى، شق كبير يفصل أفريقيا عن آسيا، جُرْح باقٍ من قارة كبيرة جدا وقديمة جدا، يجتذب البشر رغم المخاطر الكبيرة التى يخبئها لهم، أسماه البحارة العرب قديمًا "بحر القلزم"، "البحر المغلق"، ثم البحر الأحمر و هى ترجمة للاسم الذى نسميه نحن به اليوم.

لا تحتفظ المياه بالذكريات، لكننا يجب أن نبحث على ضفافها عن تاريخ وآثار الإنسان. إن تاريخ البحر الأحمر لا يعنى تاريخ الشعوب التى تعيش من حوله، فهذا موضوع كبير جدًا يتم تناوله بشكل شامل ولا مكان له هنا. فهدف الكتاب إلقاء الضوء على أولئك الذين تنازعوا وتنافسوا فيما بينهم حول ضفتيه من أجل الحياة عبر آلاف السنين.

يمتد البحر الأحمر بشكل طبيعى نحو خليج عدن والمحيط الهندى، وينشط فى اتجاه الجزيرة العربية والقرن الأفريقى. والجزء الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا، وقد سمى بذلك لأنه يشبه فى هيئته الطرف الأنفى لوحيد القرن، وعلى الرغم من أنه بلا شك أفريقى، فإنه يختلف عن باقى القارة.

وتوضح الصورة الملتقطة بالقمر الصناعى تشابه سواحل الجزيرة العربية والضفة الأفريقية لخليج عدن، وحضر موت والصومال فهى تتكامل تمامًا. ويتمدد هذا القرن حتى يلتحم بشبه الجزيرة العربية. إن تحطم جوندوانا منذ ملايين السنين أوجد قارات،

باعدت بينها شيئًا فشيئًا، أراضٍ منفصلة ولكنها لا تزال متشابهة في تضاريسها ومناخها ونباتاتها.

لذلك يمثل البحر الأحمر وخليج عدن في مركزهما أخدودًا عميقًا، ومضيق باب المندب وبلدة دنكالي الواقعين شمال ملتقى ثلاثة تصدعات[١] يقعان ضمن الأراضي العربية ويميلان معها تجاه الشمال الشرقي. أما أخدود عفار ووادي ريفت (Rift valley) فيشكلان ناحية الغرب حدًا آخر يوضح سماته الخاصة. والصومال في الواقع مركز بنيوي منفصل تمامًا عن المراكز العربية والنوبية عن طريق تصدع قاري وتصدعين مُحيطيّين[٢].

أفريقيا وآسيا منفصلتان هنا على كره منهما، وقد ترسخت كل منهما في مواجهة الأخرى لملايين السنين ليوجدا بينهما بحيرة عملاقة تبلغ نحو ٢٠٠٠كم طولاً، و ٢٠٠كم عرضًا. وعند انفضاض عناقهما منذ ١٢٥٠٠٠ سنة، فتح مضيق بوغاز باب المندب الذي يفصل ما بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. وهما متباعدتان بشكل كاف لتأكيد خصوصيتهما مع احتفاظ كل منهما بآثار دافعة لانفتاقهما، ومع ذلك لا تزالان محتفظتين فيما بينهما بالصلات على المستوى البشري. وقد قدر لهما أن تكونا بوتقة الإنسان التي شهدت قفزاته الكبرى في المجال الفكري؛ لذا لا يمكن لهذه الأرض أن تنفصل كلية.

وقد أسهم البحر الأحمر وخليج عدن، بوصفهما مسطحات للنقل أكثر من كونهما عوائق، في تحقيق الاندماج بين الجزيرة العربية والنوبة والصومال. ولكن لا ينبغي أن نخدع أنفسنا؛ فالبحر الأحمر ساحة مغلقة لمواجهات أفريقية آسيوية كل يراقب الآخر من مكانه.

إن الرهان لكبير؛ حيث يتعلق الأمر بالسيطرة على تجارة الصين والهند. والبحر المفتوح أمام كل المغامرين يمكن الوصول إليه عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق

خليج عدن ,حيث يصل البحر الأحمر، ولكن هذه الطرق مغلقة حتى نهاياتها، ويجب الاستعانة بطرق برية من السهل التحكم فيها. ولدت إمبراطوريات وتصارعت فيما بينها وسقط الملايين ضحايا معارك ساذجة؛ من أجل تأكيد حدود تسمح بالمرور نحو الشمال. دروب طويلة تبدأ من البحر وتصعد مع الأنهار فى بلاد ما بين النهرين فى اتجاه سوريا ودمشق وصور وحلب، وأخرى تنطلق من أطراف الخلجان المحيطة بسيناء، تغذى مصر وفلسطين وفينيقيا، والتجارة المتوسطية لهذه المنتجات النادرة التى يحلم بها الناس: البخور والمر والبهارات واللؤلؤ.

وتستخدم مصر بشكل طبيعى تمامًا البحر الأحمر، أليس "طريقًا بحريًا مناظرًا للنيل"[٣]؟ لأنهم غير مهرة فى الإبحار جنوبيًا، وفقد اتخذ المصريون من منافسيهم الفينيقيين حلفاء. وتطلعت إمبراطوريات بلاد ما بين النهرين إلى سوريا وفتح منفذ موصل للبحر المتوسط، وأزعجت بذلك الهدوء المصرى. العملاقان الكبيران فى العالم القديم سوف يفكران فى أن امتلاك الطريقين البحريين يضمن لهما السيطرة التجارية، وهو ما سبق إليه الفرس لفترة محددة. أما اليونانيون والرومان فلم يتمكنا من السيطرة التامة على الطريقين البحريين، ولكن العرب المسلمين فقط هم الذين وصلوا وتحكموا فيهما. ونظرًا لأن البرتغاليين هم الذين اكتشفوا الطريق المار عن طريق جنوب أفريقيا والطريق بعرض البحر، فقد حاولوا - دون أن ينجحوا فى ذلك - إغلاق الخليجين وتدمير التجارة.

وسوف يستوجب الأمر انتظار افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ حتى تكون لطريق البحر الأحمر الصدارة على طريق الخليج الفارسى[٤]. وبعد سقوط الإمبراطورية العثمانية سيطرت إنجلترا تمامًا على هذا الطريق، وسوف تحقق لفترة حلمًا قديمًا بالإشراف من قريب على الطرق المارة بالخليجين. وسوف يضمن لها أسطولها البحرى ومستعمراتها أو تأثيرها على الإقليم وشعوبه الخاضعة سيادة لا تنازع.

أشار ألبرت كامرير[٥]- سفير فرنسا- إلى أن البحر الأحمر تحكم فى مصير العالم ثلاث مرات[٦]: عندما استولى الإسكندر على صور وأسس الإسكندرية، وعندما وصل البرتغال إلى باب المندب، واستحوذوا على تجارة المدن المطلة على المتوسط، وعندما شق فرديناند ديلسبس برزخ قناة السويس "ليهب الحياة من جديد للبحر المتوسط، تلك الحياة التى تباعدت عنه، ويجعل تجارة الهند والشرق الأقصى تمر به، تلك التى افتقدها كريستوفر كولمبس عندما ذهب لأمريكا"[٧].

إن مصيراً رائعًا ينتظر هذا الإقليم الذى يمتد طبيعيًا نحو القرن الأفريقى، حيث البلاد العربية التى ولد بها العرب[٨] والعبرانيون. وإنه لشىء معجز، فعند أطراف الإصبعين العملاقين ، تتدفق أمواه الأنهار الخصبة التى سمحت بازدهار حضارات بلاد ما بين النهرين والحضارة المصرية، وميلاد ثلاث ديانات إلى الشمال من الجزيرة العربية فى الجزء الخصيب منها. فكيف ندهش أن يجتذب هذا الإقليم شخصيات قوية ومغامرين وشعراء؟

تحاول دراسة البحر الأحمر المقترحة أن تفسر السر والغموض اللذين يحيطان بهذا البحر دون ادعاء أنها استوفت كل شىء؛ لأن ثراء الموضوع يتسع لجهود باحثين آخرين. هذا الجزء الأول وعنوانه "من موسى حتى بونابرت" يتناول الفترة الممتدة من العصور البعيدة فى القدم حتى بداية القرن التاسع عشر، عندما أثارت حملة بونابرت على مصر موجة من الاهتمام بالبحر الأحمر، أما الجزء الثانى فهو بعنوان "من فرديناند ديلسبس حتى يومنا هذا" وقد خصصته لعصر الاستعمار وما بعد الاستعمار.

الهوامش

(١) طبقًا للمصطلح الأنجلو ساكسونى يسمى "Rilto" أى "تصدعات".

(٢) تاريخ باب المندب مضيق يصل البحر الأحمر بخليج عدن، متأثر كثيرًا بالبنية الكلية النشطة بهذا الإقليم، وهو قريب من نقطة التقاء تصدعات ثلاثة تفصل ما بين الأرض العربية والنوبية والصومالية. التكوينات البحرية لأكثر قدمًا والتى نعرفها بالضفة اليمنى لمضيق باب المندب كانت موضع دراسة حديثًا، فهو عبارة عن حجر جيرى صخرى ذى حفر كثيرة يمتد لعشرات الكيلومترات.

(٣) هذا التعبير الجميل من كلام جابريل هانوتو، المتخصص الفرنسى الكبير فى الشأن المصرى.

(٤) كثف اكتشاف البترول الحركة البحرية بين الخليجين، وإغلاق القناة عام ١٩٦٧ جعل حركة البترول تتجه كلية من الخليج الفارسى إلى رأس الرجاء الصالح مفتتحة عصر "الشاحنات العملاقة".

(٥) ألبرت كامرير، مؤرخ من الجزء الأول من القرن العشرين، مؤلف للعديد من الكتب عن ألمانيا وقبرص والحبشة والعربية والبحر الأحمر.

(٦) G.Hanotaux,Introduction à la Mer Rouge,l'Abyssinie et l'Arabie de A.Kammerer,t.Ier,P.VII.

(٧) Ibid.

(٨) كلمة عربى جاءت من عرابة، أرض صغيرة جنوب الحجاز، وهكذا تسمى يعرب من نسل سام من أبناء نوح.

الفصل الثانى

الجغرافيا الطبيعية

تولد عن تفكك قارة جوندوانا العملاقة والفريدة المحيط الأطلنطى والهندى، وقبل ذلك كانت أفريقيا والجزيرة العربية تشكلان كتلة واحدة.

فى النصف الثانى من العصر الثالث، أوجدت حركة المراكز القارية ثنيات تسمى بالثنيات الألبية: تمتد إحداها شمالاً من جبال البرانس حتى كارباتس، والأخرى جنوبًا من إيجة وكريت ورودس وتصل حتى آسيا الصغرى. والطوروس يشتمل على الأناضول وفارس ثم الهندكوش والهيمالايا، ويصل حتى جزر السند.

تصطدم هذه الموجات الضخمة أحيانًا بتكوينات قديمة أكثر استقراراً، فتؤثر فيها وتجعلها تتحول. وحدث هذا مع المسطح الذى يضم مصر والجزيرة العربية وسوريا ومركزها يقع فى سيناء. وهو مركز مرتفع؛ لأن سيناء ترتفع نحو ٢٥٠٠م على سطح البحر والحجاز نحو ٢٧٥٠م وسطح العربية نحو ١٥٠٠م[١].

وهكذا تسببت الطاقة الناجمة عن حركة باطن الأرض فى حدوث تصدعات هائلة، وأوجدت الطبيعة الجيولوجية المصرية- العربية المقاومة تصدعًا يبدأ من الطوروس ويمتد بطول أمانوس والأورانتو والأردن والبحر الميت ومنخفض عفار والبحيرات الأفريقية الشرقية ليصل موزمبيق ورأس كورينتس.

ويبلغ طول وادى الصدع الكبير نحو ٦١٢٢ كيلو متر، ويلاحظ وجود فرق فى الارتفاع بين الشطآن والعمق يبلغ نحو ٣٩٥٠م وسوف تظهر منخفضات أخرى موازية للبحر الأحمر مثل وادى النيل والواحات والفيوم.

انفصلت أفريقيا وآسيا ونشأ التصدع الشرقى، وعلى الرغم من بعدهما عن بعضهما البعض، وعن السواحل الأفريقية والسواحل العربية على خليج عدن فإنهما يوضحان تشابهًا وتكاملاً. للمرة الأولى، يغزو البحر بوغاز السويس الذى يسد شيئًا فشيئًا فجوات بحيرية بالترسيب. وتم التحول العام فى نهاية عصر البليوسين ليجعل من البحر الأحمر بحيرة تصل المحيط الهندى بمنخفض عفار. وأسهم فى تكوين الشكل الطبيعى الحالى هبوط الخليج الفارسى وباب المندب منذ نحو ١٢٥٠٠٠ عام وإيجاد مستوى مختلف للبحر[٢].

السمات الفيزيائية للبلدان النهرية

تقع البلدان النهرية للبحر الأحمر وخليج عدن بالتقريب بين خط عرض ١٠ و٣٠ شمالاً و٣٠ و٥٠ طولاً غربًا، وهى منطقة تغطى نحو ٤,٥ مليون كيلو متر مربع أى نحو ٨ مرات مساحة فرنسا.

إفريقيا وآسيا لم تعودا متصلتين إلا عن طريق نقطة اتصال ضيقة عند بوغاز السويس، حيث ستولد الحضارات الأولى بمصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين. أى أننا هنا أمام أهمية مكان المرور أو العبور والتى لا تعدو أن تكون أحجارًا وحصى تفضى إلى الصحراء العربية. وكان البشر وراء هذه الأرض الفاصلة، فهم موجودون حيث تجرى الأنهار: النيل ودجلة والفرات والأردن و البحر والصحراء لا تفصلهم حقيقة.

ومنذ نشأته بحث الإنسان عن الاتصال بأمثاله بانتظام وجدية واكتشفت طرق برية وبحرية وتكونت بهذه الأماكن قارات ثلاث: آسيا وأفريقيا وأوربا. وسوف تكون

هذه طرق التجارة والغزو. وجعل الوضع الجغرافى الاتصال صعبًا وكذلك التعارف المتنامى مع الآخر. وسوف يؤدى عن طريق الفراغ البحرى والصحراوى إلى الاكتشاف الحربى والغزو. ومن أجل هذه الأسباب فإن تاريخ البحر الأحمر لا ينفصل عن تاريخ الشرق الأدنى، لأن الإنسان هو موضع بحثنا الأكاديمى. فعندما يجد طريقًا يسلكه ويبحث عن الجديد بحثًا حثيثًا: Dove che la voglia che ume viai.

بوغاز السويس وامتداداته

يجب أن نفرق بين الدور البحرى لشبه جزيرة سيناء حيث ينتهى البحر الأحمر بفرعين عند قناة السويس وعند العقبة والدور الأرضى تمامًا لبوغاز السويس نفسه.

إن خليج السويس مناسب تمامًا للملاحة، فطوله ١٧٠ ميلاً بحريا، وهو محاط بالجبال التى يصل ارتفاعها ١٢٠٠ غربًا و٦٠٠م شرقًا على حواف مباشرة، والساحل يتضاعف على مسافات متنوعة والمخاطر الصخرية والمرجانية والارتفاعات فى القاع عديدة.

وخليج العقبة مفضل للملاحة، فسواحله بها كثير من الدعامات للسفن. وعلى شاطئ سيناء، جبال بارتفاع أكثر من ١١٠٠م لعدة أميال امتدادًا. وعمق الخليج واد عميق واقع بين سلسلتين من الجبال، وهنالك بلا شك توجد أسيون - جابر (Asion-Gaber) ميناء سليمان[٣].

وبالنسبة للبوغاز الذى يفتح على سيناء فهو أقل عمرانًا مع أنه بهذا الاعتبار يشكل حائط صد يعتبر نقطة مرور إجبارية والضرورة لها قانون، وكل اتصال أرضى بين شبه الجزيرة العربية ومصر العليا والسفلى إما أن يمر من هنا وإما ألا يكون مرور. ولفترة طويلة لم يكن... "نصفا الكرة الأرضية يعيشان، لايعرف أحدهما شيئًا عن الآخر[٤]". ونضيف لصعوبات هذا المجرى صعوبات البحر الأحمر تلك التى تسبب

إحباطًا لأى قادم جديد، وهو الأمر الذى جعل كريستوفر كولبس يعتقد، وبسبب هذه المخاطر، أنه يجب أن يقضى ستة أشهر لعبوره. ومع ذلك فإن الطريق الذى استخدمه كان بفضل بحارة حضر موت. الإبحار فى البحر الأحمر وسيلة عملية للوصول للضفتين وللتوغل للداخل.

البلد الأول الذى تصله برا عبر سيناء هو لبنان الذى يفصل الجزيرة العربية عن البحر المتوسط. ويتكون (هذا البلد) من سلسلة من الجبال المحاذية للبحر والتى يقل ارتفاعها كلما اقتربنا من الساحل؛ والمنخفض الناتج عن التصدع يقسم هذه السلسلة إلى قسمين: لبنان نفسه فى الغرب وما قبل لبنان فى الشرق، ويستقبل نهرين؛ الأورانتو فى الشمال يجرى محصوراً بين جبلين ضخمين يصل ارتفاعهما أحيانًا ٣٠٠٠م، ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من خليج ألكسندرته[٥]. يجرى نهر الأردن فى اتجاه الجنوب ليصب فى البحر الميت. وإلى الشرق من الأورانتو ينخفض الجزء الذى يشكل ما قبل لبنان مكونًا طريقًا طبيعياً يوصل إلى حلب بالقرب من الفرات. ويمكن الوصول إلى دمشق بواسطة طريق ملىء بالواحات أشهرها بالمير (Palmyre)، ونصل بسهولة إلى الفرات وما بين النهرين.

وتغطى لبنان غابات الأرز والصنوبر وأشجار السرو، بينما يمثل الخشب مادة نادرة فى مصر والجزيرة العربية، وهكذا تولدت تجارة مهمة أضحت من أهم أنشطة الفينيقيين.

ولا شك أن لبنان يشغل موقعًا مهما، حيث يقع على مفرق طرق تصل ما بين بلاد النهرين وسوريا ومصر. وهذه البقعة التى تمتد من حدود سيناء حتى سوريا الحالية عبارة عن قطب حوله ثلاثة محاور، توصل لثلاث قارات. الصحراء كونها قاحلة، فالمرور يكون عن طريق الجزء الشمالى (أى من لبنان)؛ ومن هنا صارت لبنان مكانًا ممتازًا للعبور[٦]. سيوجد بحكم قوة الأشياء فى قلب أمواج من الهجرات والتجار ممن يبحثون

عن منفذ للوصول للبحر. ستعانى منذ آماد بعيدة من غزوات متكررة تأتيها من الغرب والشرق والجنوب لدرجة تجعلها عرضة لأخطار لا مفر منها.

يمتد شريط ضيق بين البحر المتوسط وجبال لبنان سيحتفظ بمصير أفضل يصل هذا السهل الساحلى أحيانًا الجبل، وأحيانًا يتعدى قليلاً اثنى عشر كيلو متراً فى عرضه، على أنه يصل فى أطرافه الشمالية والجنوبية نحو ٥٠ كيلو متراً، وهنا تنشأ ثلاث مدن فينيقية جميلة: صور وصيدا وجبيل.

تستمر سلسلة جبال لبنان فى الشمال الشرقى فى هيئة قوس يتكون من جبال أرمينيا وفارس، وبين الجبال والصحراء يجرى نهران مختلفان فى المنبع، ولكنهما حاليًا يتحدان فى دلتا مشتركة دجلة والفرات ويشتملان فيما بينهما على إقليم خصيب أطلق عليه اليونان اسم "ميزوبوتاميا" أى "بلاد ما بين النهرين". تطورت هنا حضارات مشابهة لحضارة وادى النيل، منعت قوتها خلال آلاف السنين توسعات بدو الجزيرة العربية نحو الأماكن الأكثر عمرانًا.

وتلاقت عن طريق البوغاز حضارات ما بين النهرين والحضارة المصرية وتصارعت كذلك. وفيما بعد سادت فارس وأخضعت مصر لفترة أولاً بواسطة هذا الطريق ثم بعد ذلك عن طريق البحر الأحمر.

سواحل البحر الأحمر

يمتد الساحل الغربى لأكثر من ٢٠٠٠ كيلو متر، ويشتمل على الكيانات السياسية الحديثة الكبرى ممثلة فى مصر والسودان وإريتريا. وهناك سلسلة من الجبال محاذية للساحل تحد الضفة السهلة والرملية. فى الجنوب تحد الساحل صخور أو جزر تتوغل بعيداً فى البحر، لنحو ٤٠ ميلاً بحريا فى أرخبيل الدحاليك على الساحل الإريترى.

وتحمل بعض الوديان[٧] غالبًا على فترات متقطعة إلى البحر ترسبات من الجبال ولكن لا شيء مستمر. ولا يمكن التوغل للداخل عن طريق الماء؛ فالساحل يقدم مأوى كبيرًا للقوارب الوطنية الشراعية الصغيرة وشهد بعضهم تطورًا مهما: "ميوس- هورموس: Myos- Hormos" النقطة الأكثر قربًا للنيل حيث تصل المراكب بحمولتها، وبيرينيس، بسبب الجزيرة التى تحميها وسواكن التى تخدم مروى، وأخيرًا عدوليس ميناء مملكة أكسوم الواقعة داخل سهل زولا.

وتحيط بالساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى جدة[٨] جبال الحجاز الصخرية فى بترا بالجزيرة العربية[٩]، والتى تحده على مسافات مختلفة من ٢٥ إلى ١٢٠كم. ارتفاعها كبير قد يصل نحو ٢٧٠٠م، وجوانبها الغربية شديدة الوعورة والانحدار تكاد تكون رأسية. وأيضًا هناك سلسلة ثانية من الجبال، موازية للأولى ولكنها أقل منها ارتفاعًا وتفصلها عن البحر.

فى الجزء الشمالى، فيما بين خليج العقبة وجدة نجد سهلاً ساحليا غير منتظم العرض، وهو عمومًا غير مطروق ويسمى تهامة. وبالحجاز ومنذ وقت مبكر وجدت بعض الموانئ فى مواجهة مصر.

وفى الداخل، باتجاه الشرق تتدرج الجبال فى الانخفاض لنصل إلى أكوام من الحجارة والرمال تهبط فى اتجاه بلاد ما بين النهرين والخليج الفارسى. إنها الصحراء العربية؛ حيث قاوم الإنسان منذ ٨٠٠٠ عام ليعيش فيما حول واحات نادرة وينتقل بين الواحدة والأخرى ليتاجر أو ليبحث عن قوته.

الجزء الجنوبى كذلك محاط بالجبال لكنه أقل وعورة وأقل ارتفاعًا. إنه اليمن[١٠] اليمن العربى السعيد عند الأقدمين، السهل الغنى والصحى المواجه لإثيوبيا، وهنا شهدت الأنظمة السياسية والمنظمة مولدها والتى وصل تأثيرها سريعًا للحبشة[١١].

علي الشاطئ الأفريقى شهد الساحل الشرقى الشيء نفسه، وديان تنمو على مياه المطر، أحدها وادى الحمد- وهو الأكثر أهمية- يمر بالمدينة، ويحيط بالساحل عديد من المسطحات الصخرية التى تتوغل بعيداً فى البحر؛ مثل صخور فرسان التى تحده لنحو ١٠٠كم. وأوجدت نفس الأسباب نفس الآثار، أوجد القرب من مكة ميناء جدة، وكانت التجارة مع اليمن التى أبرزت "موكا: Mokka"، وهذا الساحل قاحل وإن كان معدا لاستقبال المراكب الشراعية المحلية، إلا أن صعوبة الملاحة تشكل عائقًا أمام الملاح غير الماهر. ومن الناحية السياسية نجده مقسماً بين دول الجزيرة العربية الحديثة واليمن.

بالخروج من البحر الأحمر وصولاً إلى باب المندب، بوابة جهنم، يضيق الممر فى المضيق الكبير لدرجة أنك لا تستطيع أن تتخطى نحو ١٢ ميلاً بحريا فيما بين جزيرة بريم والساحل الأفريقى وعدة أميال فقط فى المضيق الصغير، فى اتجاه الساحل الآسيوى.

بريم التى يسميها المحليون "مايوم: Mayoum" جزيرة لا ماء بها مطلقًا على ارتفاع نحو ٨٠م فى شكل حدوة حصان ضيقة تحد فتحة كبيرة محاطة بهضاب بركانية سوداء. وهذه البحيرة الحقيقية بالداخل تمتد لنحو ١٨٠٠م طولاً ونصلها عن طريق ممر يبلغ طوله نحو ٥٠٠م.

الضفة الأفريقية المواجهة لها جنوبًا تتبع حاليًا جمهورية جيبوتى، أما الضفة الآسيوية ففى اليمن.

سواحل خليج عدن

يمتد الساحل الشمالى لخليج عدن بين باب المندب، وأبعد نقطة من شبه الجزيرة العربية، عند مدخل خليج عمان، لنحو ٢٧٠٠كم تقريبا.

تحد الساحل سلسلة من الجبال، وينخفض ارتفاعها من الغرب للشرق، تبدأ بقمم تبلغ ٢٠٠٠م، يليها سهل يقع على ارتفاع ما بين ٩٠٠ و١٢٠٠م وينتهى بهضاب قليلة الارتفاع توجد عند مدخل خليج عمان.

السهل الساحلى الضيق قاحل جدا، جعل من عدن ميناء طبيعية معروفة منذ العصور القديمة بنشاطها المكثف، وهى مأوى للبحارة عند مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندى، وكانت تجبر السفن الشراعية القادمة من الشمال أو من الشرق على إفراغ حمولاتها قبل الاستمرار فى الإبحار. وهكذا أصبحت عدن مخزنًا كبيراً للبضائع والتجارة[١٢].

"كانيه: Kané" على ساحل حضر موت، نقطة انطلاق القوافل البرية المتجهة إلى شبوه ومكة والبطراء وغزة التى شهدت أيضًا نشاطًا كبيراً؛ لأنها أتاحت للبحارة الهنود أن يتجنبوا مخاطر البحر الأحمر، واحتكار ميناء عدن. وعلى مدار قرون لعبت كانيه دوراً مهما فى التبادل التجارى الأرضى، وكان لعدن دورها فى العبور البحرى.

يمتد الساحل الأفريقى لخليج عدن من رأس دوميرا إلى الشمال قليلا من بريم حتى رأس جاردافوى التى تشكل الطرف الشرقى للقارة الأفريقية[١٣]. ينحرف الساحل فجأة تجاه الجنوب الغربى، فهذا هو القرن الأفريقى.

يشتمل هذا الساحل على جزءين: خليج تاجوره الذى يمتد حتى لويادا والساحل الصومالى: الأول أخدود عميق يمتد فى الأراضى عن طريق حوض واسع جدا يفصله عن الخليج ممر ضيق، مضيق الشيطان "أوجبة خرا: Ghubbet khara" الأراضى التى تحيط بالخليج غالبًا مرتفعة والسواحل وعرة. الجزء الثانى الذى يشتمل على الساحل الصومالى نفسه عبارة عن تتابع من السهول الضيقة التى تفصل بعضها عن بعض منحدرات جبلية بالداخل . وتميز الساحل الوديان المتعددة التى يحفرها الوادى (Wadi) الذى لا يصل البحر إلا فى موسم الأمطار.

الساحل الأفريقى لخليج عدن سهل الوصول إليه وسهل التعامل معه أكثر من الساحل العربى، وبه العديد من المراسى العنيفة مثل عواليت (زيلع) مالاو (بربرة) وموندوس (هس أوميت) وموسيون ونيلون بطلوميون وتاباتيجى ودفنون.

وكل هذه الأماكن بها مواضع لإمداد السفن، فهى مأوى ونقاط تبادل تجارى متاحة أمام الملاحين.

طرق التغلغل الممكنة

آخذين فى الاعتبار السمات الطبيعية للبحر الأحمر وتلك الخاصة بالبلدان النهرية، نتأكد من وجود ممرين ممكنين فحسب بين أفريقيا وآسيا: طريق أرضى ضيق هو بوغاز السويس، والطريق البحرى هو البحر الأحمر.

ولا يعد البحر الأحمر فى الواقع طريقًا مهما للغزو، كما أن التوغل كثيرًا عبر سواحله صعب، فالغزو الذى يهدف إلى الاحتلال الدائم لا بد أن يمر بالطريق البرى عبر البوغاز، أما الطريق البحرى فيستخدم لاستكمال غزو برى أو لإعادة احتلال أرض معلومة كما فعل الفرس، وأيضا لو كان فى رحلة استكتشاف كتلك الرحلات البرتغالية.

نقول: إن البحر الأحمر فى الأصل ذو طابع تجارى أكثر منه حربى، ثم غلبت عليه الصفة الحربية ابتداء من الاحتلال التركى لمصر ثم عند وصول البرتغال فى القرن السادس عشر.

لا شك أن تكوين الإمبراطوريات الأوربية فى الهند قد أعطى للبحر الأحمر بعداً إستراتيجيا مهما ازداد بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وهو البعد الذى تطابق مع المصالح الاقتصادية.

الصلات بين أفريقيا وآسيا سوف تصبح عرضية وطولية، فى الحالة الأولى الطريق الأرضى يستخدم قناة السويس والطريق البحرى يعبر البحر الأحمر عن طريق الجزر المتتالية من كماران حتى دحاليك مرورًا بزبير، أو إلى الجنوب عن طريق زوجان وحنيش الكبير، وفى الحالة الثانية يُقطع البحر الأحمر بطوله كله من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى عن طريق خليج عدن وباب المندب، وفى الحالتين يلزم البحارة التزود بالماء ووسائل الانتقال. وتنتقل القوافل من واحة إلى أخرى فوق ظهور الجمال وتنتقل المراكب الشراعية من مرفأ للسفن إلى آخر تحملها الرياح الموسمية. وهؤلاء وأولئك عليهم أن يختاروا الوقت المناسب مناخيا، فلا يعبرون الصحراء فى عدن منتصف فصل الصيف، ولا يركبون البحر عند هيجانه أو عندما تكون الرياح معاكسة.

الملاحة قديماً

منذ العصور القديمة إلى القرن التاسع عشر الميلادى كان "إيول: Eole" ملكًا فى البحر الأحمر والمحيط الهندى. هنا- مثل أى مكان- الملاحة تتوقف على استخدام طاقة الريح، القوة الوحيدة التى تدفع السفن لمسافات بعيدة الملاحة باستخدام المجاديف عرفها المصريون واليونان والرومان وكذلك الصليبيون فى العصور الوسطى. لكنها لا تتماشى مع البحر الأحمر؛ "فالبحر قصير جدا والريح عاتية[١٤]. فالملاحة تعتمد من ثم على الاتجاه وقوة الريح وفترة استمرارها، وكذلك الخبرة بهذه العوامل عبر الفترات المختلفة من السنة.

العوامل الثلاثة الأولى متحدة بشكل موات، ويمكن أن تدفعنا فى الاتجاه المراد، ولكنها لا تعنى إهمال العامل الرابع: معرفة اتجاه الريح، عند العودة.

فيما يخص عالمنا المتوسطى، ويتغير الاتجاه فى الكثافة والمدة، فيكفى للانتقالات التى تبقى محدودة زمنيا نسبيا وضمان العودة مرهون بعدم الاستقرار نفسه؛ لأن الإنسان يمكنه دومًا انتظار الريح المواتية. وإذا ما أراد الإنسان تفرغًا دائمًا كان يستخدم الشراع لأن المسافات قصيرة نسبيا.

لا شىء من ذلك يؤخذ به فى المحيط الهندى، فالرياح ذات اتجاه ثابت لفترة طويلة، أداة مهمة للمهرة والخبراء وعقبة كأداء للآخرين. فالملاحة فيه تختلف تمامًا عن تلك الملاحة التى عرفها الفينيقيون واليونان والرومان فى البحر المتوسط، إلى الشرق، طريق مسدودة فى لبنان وفلسطين وبوغاز السويس، وهو بالنسبة للبحارة عالم آخر.

نظام الرياح الموسمية

الظاهرة المناخية للرياح الموسمية[١٥] تسبب فى المحيط الهندى رياحًا فى اتجاه ثابت ينعكس كل موسم: شمال شرق فى "موسم الشتاء"[١٦]، وجنوب غرب فى "موسم الصيف"[١٧]. وقد اكتشف هذه الظاهرة اليونانى "هيبال: Hippale"[١٨]، وظلت هذه الظاهرة تعرف باسمه لفترة طويلة لدى الرومان[١٩].

يمكن أن نفيد من هذه الرياح فى ملاحة بعيدة تستغرق أسابيع طويلة وتصل حتى خط الاستواء، خلال ستة أشهر تدفع السفن الشراعية من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، وخلال النصف الثانى من العام يمكن نظريا أن تعيدها لمكانها ثانية، والحقيقة أن الأمر ليس بهذه البساطة؛ لأن الرياح الموسمية تتسبب فى حدوث أنواع من الرياح المحلية فى اتجاه متغير، وهناك تنوع فى قوة الرياح وحتى فى الفواصل بين المواسم بلا رياح.

هذه الظاهرة ذات صلة بالحاضر، فتحدث فى نهاية يونيه، بسبب منخفض شديد واقع فى مركز القارة الآسيوية[٢٠]، فتتسبب فى هبوب الرياح واندفاع الهواء من

الجنوب الشرقى ليرتطم بالقارة الأفريقية حتى إقليم البحيرات العظمى، وهو بالتالى هواء مشتهى فى الشمال الشرقى نحو شبه الجزيرة العربية وآسيا، محدثا فى كل القرن رياحا فى الجزء الجنوبى الغربى(٢١). يتمركز المنخفض فى ديسمبر فى أفريقيا الجنوبية، وتنعكس الظاهرة حيث تهب الرياح الشمالية الشرقية(٢٢). وبشكل عام نلاحظ فوق المحيط الهندى هبوب الرياح الشمالية الشرقية فى موسم الشتاء ابتداء من فبراير حتى يونيه، أو تمر بالتدريج شمالاً على الساحل الغربى للهند، ثم تستمر ببطء فى الجنوب الغربى.

فى البحر الأحمر الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تسبب رياحًا شمالية خفيفة حتى بريم من أبريل حتى سبتمبر وتصل حتى خليج عدن.

تهب رياح الجنوب ابتداء من أكتوبر، لكنها لا تشتد إلا ابتداء من نوفمبر وديسمبر حتى مارس، ولا تهب فى الشمال إلا نادراً: وثلاث أو أربع مرات فى العام خلال من عشر إلى اثنتى عشرة ساعة ولكنها تكون ريحًا عاصفة(٢٣)، مما يعنى أن صعود البحر الأحمر حتى طرفه الشمالى يشكل عقبة يصعب تخطيها بالنسبة للسفن الشراعية الأقل كفاءة فى السير ضد الرياح.

إن من يملكون سر تقلب الرياح الموسمية هم فقط العرب الصابئة فى حضرموت، وهم الملاحون الأوائل فى العصور القديمة فى القرن الأفريقى، ويتبعهم الفينيقيون والفرس، ثم فقدت المعرفة فلم يجدها اليونان والرومان إلا مع هيبال. ثم أفقد تراجع الإمبراطورية الرومانية الغرب السرَّ من جديد، ولم يستعده إلا البرتغال فى القرن السادس عشر(٢٤).

الطرق البحرية الساحلية

السفن الشراعية لا مأوى لها فى أعالى البحار، وفى البحر الأحمر تبحر غالبًا بجوار السواحل، ملاحة السواحل، ومن هذه الزاوية يختلف الساحلان.

على الساحل الأفريقى، إلى الشمال من جزر الدحاليك لا توجد أية صخور ولا أية جزيرة ولا أى أرخبيل يحمى من اضطراب الموج بفعل الريح العاصف، ومن هنا يجب استخدام تجوفات الساحل وإعدادها لذلك. ولمدة طويلة آثر التجار العرب الساحل العربى، فهو محفوف بشريط مستمر من الصخور والجزر الصغيرة الوعرة، لكنه "ممر مائى ساحلى هادئ نسبيا وبدون تيارات"(٢٥)، حيث يهب الهواء من الأرض على البحر ليجعل الملاحة أكثر راحة.

لكن هذه الراحة تحولت إلى عقبة فى وجه البحارة بسبب القبائل العربية التى تقطع عند الرسو الليلى الاضطرارى؛ حيث تمزق الأشرعة أيا ما كانت وتنهب البضائع تقتل البحارة أو تأخذهم عبيداً.

أعطى العرب بخبرتهم ومهارتهم الملاحة فى البحر الأحمر مدخلها العلمى لأول مرة، فهم يعرفون الطريق بدقة متناهية(٢٦).

الهوامش

(١) يرى علماء العصر الباليوليتى فى هذه الحواجز الجبلية التى نشأت فجأة فى طريق الرياح سبباً فى تناوب الرياح الموسمية. تمركز السرعات فى القرن الأفريقى فى فترتين قصيرتين سنوياً، مما تسبب فى اختفاء الغابات لتحل محلها السافانا، وسوف تسمح هذه الظاهرة فيما بعد للإنسان بأن يبدأ حياته من نحو ثلاثة ملايين من السنين، انظر إيف كوبان.

(٢) A . Moret, Histoire de l' orient,p.4 et suivantes.

(٣) الحفائر التى تمتد فيما بين عام ١٩٣٧ و ١٩٤٠ تجعل أسيون جابر فى تل الحليفة على خليج العقبة. ثلاث حملات قصيرة بالموقع أخرجت بعض النحاس الذى يرجع للقرن العاشر ق.م من عهد سليمان انظر:
w .f . Albright. l' Archeologie de la Palestine,p.47.

(٤) G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptiene, Paris, 1931,t.i, introduction generale,p.11.

(٥) على بعد مئات الكيلومترات من قاماجوستا نجد الطرف الشرقى لجزيرة قبرص.

(٦) S . Moscati, Histoire et civiisation des peuples sémitiques,p.17.

(٧) وديان، أنهار.

(٨) جدة تعنى "الطريق العريض والطويل"، المدينة التى كانت تسمى فيما مضى "غادة البحر الأحمر" والذى أطلق عليها هذا اللقب هو الخليفة العثمانى، الخليفة الثالث لمحمد (ص)، لتكريم وفود الحجاج الذين ينزلون بها فى طريقهم إلى مكة، انظر: S . Zeghibour,la vie quotidienne á la Mecque,p.59.

(٩) De petra، حجر باللاتينية.

(١٠) اليمن يعنى "اليمين" لأن البلد يقع فى هذا الاتجاه بالنسبة للكعبة فى مكة

(١١) الحبشة وإثيوبيا مترادفتان اليوم لكن التسمية الرسمية هى إثيوبيا، ويشير المصريون لكل سكان الجنوب باسم كوش التى تعنى "أسود". الكلمة إثيوبى كانت من العبرية واستخدمها الإنجيل اللاتينى، وبالنسبة لمصطلح "الحبشة" بلاد الأحباش، جاء من اسم قبيلة باليمن، الحبشات (Habassats) الذين أسسوا مملكة أكسوم قبل العصر المسيحى.

(١٢) لم تكن لدى عدن الوسائل لاحترام هذه القاعدة والكثير من السفن الشراعية تفرغ حمولاتها على الساحل الأفريقى لخليج عدن، لكن ما تعرفه أن هذا لم يكن قاعدة خاملة ولكن كان هناك تمييزاً بين المرور بهذا الطول، وتأتى السفن الشراعية من الهند لتنهى رحلها فى كانى (kané: ماكولا) فى عدن أو فى بربره. هذا التحديد مشابه لتعيين القوافل التى تأخذ وقتًا لتضمن تكاليف عودتها.

(١٣) بالرغم من أن رأس صفون تقع قليلاً إلى الشرق.

(١٤) H .de Monfried, la Route interditep.g.

(١٥) كلمة Mousson: جاءت من الكلمة العربية موسم التى تعنى "فترة محددة" أى فصلاً.

(١٦) الرياح الموسمية الشمالية الشرقية أو الرياح الموسمية الشتوية تبدأ فى نوفمبر وتستمر حتى نهاية فبراير.

(١٧) الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أو الرياح الموسمية الصيفية تبدأ نحو ١٥ أو ٣٠ أبريل وتستمر حتى نهاية سبتمبر.

(١٨) مكافأة له، أصبح أميرال الأسطول الرومانى عام ٤٧ بعد الميلاد.

(١٩) H.de Monfried,la Route interdite,op.cit.,p.283.

(٢٠) انظر ملاحظة (١) رأى علماء العصور القديمة حول أصول الرياح الموسمية وأثرها على المناخ وظهور الإنسان.

(٢١) ابتداء من ١٥ مايو، الرياح الموسمية الصيفية تسير بالفعل فى اتجاهها والرياح الجنوبية -الجنوبية- الغربية آتية فى يونيه حتى سبتمبر على امتداد الساحل الشرقى إلى الشمال من خط الاستواء.

(٢٢) الرياح الموسمية الشتوية "عصيب: Asieb" كما سماها العرب تسبب هبوب هواء معتدل من الشمال الشرقى.

(٢٣) H .de Monfried, la Route interdite ,op.cit.,p. 283.

(٢٤) هواة الملاحة الشراعية الراغبون فى المعرفة المتعمقة حول تقنية الأشرعة، انظر Monfreid,la Route--interdei to op.cit.,pp.15,16 et.17.

(٢٥) H . de Monfreid, la route interdite,op,cit,.p.10.

(٢٦) ملخص لنهايات تقوى الذاكرة فى قصيدة بعنوان "السباعية"، حدد الطريق لدرجة الإشارة لبعض صخور البحر، تحديد ٣,٦ دقيقة فى الزاوية فقط، أى نحو ٥ كم... انظر Grosset-Grange,Glossaire nautique arabe de l'océan Indien,p.22.

الفصل الثالث

هجرات ما قبل التاريخ

توجد أقدم آثار للإنسان فى أفريقيا الشرقية، وأكبر حضارتين قديمتين تطورتا فى مصر وبلاد ما بين النهرين، وهكذا يتحدد لنا "مثلث الأصل" الذى يشتمل على البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية. ماذا نعرف عن هذه الشعوب، فهل هى ذات أصول تنتهى لهذه المنطقة أم هاجرت إليها من مناطق أخرى؟

مصر

يرجع استقرار الشعوب الأولى بوادى النيل[١] لعصور بالغة القدم ، إذا ما كانت أماكن سكناها معروفة، فما نعرفه عن أصولها وعن حركات هجراتها قليل. ونحن لا نملك إلا أن نحدد بعض المعالم عن هذه الهجرات خلال عصر ما قبل الأسرات.

أحدث انتهاء عصر الجليد فى أوربا خللاً فى المناخ فى أفريقيا، حيث تأثرت بلدان جنوب البحر المتوسط بقلة هطول الأمطار فى الصحراء الأفريقية، وتسببت هذه الظاهرة فى وصول البدو الرحل إلى وادى النيل، النهر الوحيد الدائم، وهنا مثلما هو فى بلاد ما بين النهرين، جعل جفاف البحيرات والمستنقعات الوصول إليه ممكنًا، وكان ذلك فى بداية العصر النيوليثى (الحجرى الحديث)، نحو ٧٠٠٠ق.م، عندما عثروا على استقرار أول جماعة بهذا الإقليم قادمة من الخارج[٢]. الأدوات المسماة بالأدوات

"الفيومية B ب" تشبه مثيلاتها بالصحراء الغربية التى عثروا على شواهد لها فى مصر السفلى[٣]، كان هؤلاء السكان من سلالة بيضاء[٤] من جنس "متوسطى" مستطيل الرأس ذى شعر أسود وعيون سوداء وأنف معقوف. كانوا نسبيا كثيرين. هؤلاء القادمون الجدد سوف يكونون الأصول الأقدم التى عثر على آثارهم، و رسوماتهم الأولية وأدواتهم من الحصى من نوع (Old way).

وسوف يقوم هؤلاء السكان الجدد بتمدين أنفسهم مقلدين فى ذلك حضارة أقدم يبدو أنها نشأت فى صعيد مصر. سوف يلمون سريعًا بخبرة استخراج النحاس من مناجم سيناء، ولكن سوف يظل استخدامهم لها محدوداً. ولا ندرى إلى أى مدى أجادوا هذه التقنية ومن أين أتوا بها؟ أمن آسيا أم من قبرص أم هى اكتشاف محلى لأنهار معاصرة لما فى هذه الأماكن؟[٥].

تنتهى اللغة المصرية إلى مجموعة لغات ما قبل السامية دون أن تربطها أى صلة باللغات الأفريقية الأخرى، اللهم إلا عن طريق بعض الاقتباسات من هذه الأخيره[٦]. ولكن مما لا شك فيه أن الاختلاط العرقى متأصل فى عمق الحضارة المصرية القديمة، ومن هنا جاءت صيغة جابريل هانوتو(*):

الإنسانية "قادمة من الغرب ومن الشرق من الجنوب ومن الشمال، باحثة عن الاستقرار، ووجدته هنا حيث تكونت أول أسرة، وهو تكوين مختلط بلا شك، ولكنه مستقر، وكانت مصر هى الملتقى، فهى تقع على مفرق الجهات التقليدية الأربع"[٧].

معًا، أفاد هؤلاء الناس من النيل "هبة السماء"، قال عنه هيرودوت: "إنه يجرى عكس الأنهار الأخرى"؛ لأنه يفيض فى نفس الوقت الذى تغيض فيه أنهار أوربا. يحمل

(*) هانوتو (١٨٥٣-١٩٤٤) كان عضوا فى المجمع اللغوى الفرنسى ووزير خارجية فرنسا، ورجع إليه المؤلف كثيرا وتأثر بآرائه. المترجم.

لهم هذا النهر الماء والغرين الطبيعى. والمناخ موات فلا تجده باردًا أو ذا سحاب بشكل يؤثر على المحاصيل التى تجمع عدة مرات فى العام. جهد عادى يكفى وباقى الوقت متروك للإنسان؛ لكى يتأمل ويفكر ويهتدى لتنظيم اجتماعى. أليست هذه هى العناصر الأولى الضرورية لازدهار حضارة؟

أما بالنسبة لتاريخ هذا البدء تحديدًا، فلا أحد يمكنه أن يهتدى إليه. لقد وصلتنا آثار ترجع لستة آلاف عام لكن بشكل شبه انتقائى، ولم يتردد بعض مؤلفى القرن التاسع عشر فى أن يروا فى "قطعة فنية بسيطة غير مكتملة فى خطوطها العامة"[8]، علامة نضج ولعلها ترجع لأربعين قرنًا[9].

وسوف تستقبل مصر بعد ذلك فيما بين ٢٠٠٠ و١٢٠٠ تقريبًا من سكان الجبال القادمين من بلاد ما بين النهرين ليصلوا ضفاف النيل، الحبشيين والكاسيين والهكسوس[10]، الذين اصطحبوا معهم الحصان والعربة الحربية، وهؤلاء الأخيرون ساميون، فأحجامهم صغيرة وشعورهم طويلة سوداء، قدموا من الجزيرة العربية، بلدهم الأصلى، ومروا ببلاد ما بين النهرين ولبنان.

وفى الطريق نجد "الشماليين" قادمين فى موجتين متتابعتين، الأولى فيما بين عام ١٢٠٠ و٦٠٠ ق.م، جاءت لتضع نهاية للإمبراطورية المصرية ولتردها ثانية إلى حدودها حول ضفاف النيل، أما الثانية فقد اشتملت على الميديين والفرس الذين قضوا على آشور وبابل، وفككوا الممالك الصغيرة التابعة لهما وأخضعوا مصر لحكمهم لفترة من الزمن.

الصومال

تشغل الصومال القرن الشرقى لأفريقيا وتكون مجموعة عرقية متجانسة، فهم يتحدثون نفس اللغة الكوشية الحامية، وهم ذوو بشرة فاتحة نسبيا، فلا تتجسد فيهم

السمات الزنجية المعروفة عند أغلب سكان أفريقيا. وهم من ناحية الشكل أوربيون أو قوقازيون أكثر منهم زنوجًا.

نعرف أنه ابتداء من العصر الميزوليثي عرف هذا الإقليم السكنى حيث توطنه سكان من نوعية "القوقاز" القريبين من سكان الصومال الحاليين، فهل كانوا مواطنين أصليين أم جاءوا من أماكن أخرى؟ يبقى السؤال معلقًا لنقص الأدلة، لكنا نورد ثلاثة أصول محتملة: أصل أفريقى (ربما نيوليثى)، هندو- أوربى أو سامٍ حامى.

يميز بعض المؤلفين مثل فيراند[١١] بين خمس مراحل متتابعة أسهمت فى التكوين العرقى الصومالى: زنجى وكوشى وحامى وجالا وسامٍ. هذا التصنيف القاطع لم يعد يعتد به؛ ولذلك لم يعد الأخذ باللغة المنطوقة بين عوامل أخرى ذا دلالة قاطعة على العرق[١٢].

توجد ظواهر التهجين فى مناطق التماس مع السكان السود أو الجالا، لكنهم لم يكونوا ذوى دور حاسم ليشكلوا الأصل العرقى الصومالى. لم يكن الصوماليون، فيما يبدو، نتاجًا "للتهجين على مستوى كبير" باستثناء جزء منهم بشكل خاص.

تميل الدراسات اللغوية التى قام بها جرينبرج إلى إثبات وجود مركز لهم يقع فى الجنوب الشرقى فى أعمال الصومال، لكن هذا المؤلف نفسه يَعدُّهم أفرو- أسيويين[١٣]، وهو افتراض مناقض للافتراض. نعتقد[١٤] إذا ما قبلنا بوجود هجرتين، أن التناقض الموجود هنا تناقض ظاهرى: فالهجرة الأولى فى العصر الباليوليثى، حيث قدم الجالا ثم الصوماليون إلى أعالى الصومال، أما الهجرة الثانية فقد تسببت فى تراجع هذه القبائل، وبنفس الترتيب إلى طرف القرن. يرى "هونيا: Honea" فى الجالا الصوماليين والعفار يشكلون الموجة الثالثة من الهجرات التى يسميها "الحاميون من النوع C" الذين أتوا إلى القرن فى العصر الباليوليثى، مرورًا بالجزيرة العربية، وصل الجالا أولاً واختلطوا عند اتصالهم بالسكان المحليين من الزنوج، أما الصوماليون فقد جاءوا فيما بعد متأخرين، وربما أزاحوا الجالا واحتفظوا بشكل أفضل بملامحهم الأوربية[١٥].

يختلف لون البشرة بشكل كبير ما بين الدارود فى الشمال والدجيل فى الجنوب، وينتج هذا من جهة بسبب التهجين وبسبب التكيف مع الطقس من جهة أخرى.

يحتفظ كل الصوماليين بذكرى حركات الهجرة الكبرى، فهم يبحثون عن أصولهم فى الجزيرة العربية، وهم فى ذلك متأثرون بالإسلام والهجرات الفارسية والعربية التى نتجت عن الصراعات بين السنة والشيعة، وهم بهذا لديهم ميل للقول بوجود صلة بذكرى سالفة للهجرات تؤرخ بالعصر الحجرى. وقد يفيد البحث المتعمق فى العالم العربى فيما يتعلق بالعرق والدين.

هل يمكن أن نتخيل أن الصوماليين، وهم ليسوا فى عداد البحارة ولكنهم من البدو الرعاة، قد عبروا باب المندب على أقدامهم؟ تؤرخ الدراسات الجادة[١٦] تصدع هذا المضيق منذ نحو ١٢٥٠٠٠ عام، ولكن ما الجديد بالنسبة للبحر قبل نهاية عصر الجليد الأخير أى منذ ١٠٠٠٠ عام؟ لاحظنا فى هذا العام اختلافات فى مستوى البحيرات، وارتفع البحر فى هذه الأقاليم إلى نحو ٢٠٠م[١٧]. فقط الصدع الكبير المركزى للبحر الأحمر نشأ آنذاك، ولم يتبق ممر فى باب المندب رغم تصدعه؟

الجزيرة العربية

الجزيرة العربية هى شبه جزيرة شاسعة المساحة تغطى صحارى وتقع بين ثلاثة بحار. يسميها العرب الجزيرة، وهى مسطح هائل، وظلت غير معروفة بشكل جيد حتى القرن الماضى: تستحيل الحياة فى وسط الصحراء، رغم بعض الشك، حيث يبدو أن ذلك كان ممكنًا منذ نحو ٨٠٠٠ عام.

هل كان هناك سكان وإعمار قبل هذا التصحر؟ هل هجر البشر شبه الجزيرة أو هل هى خلت من كل أشكال الحياة قبل هذا العصر؟ أو بتعبير آخر هل الساميون، الذين يرتبط تاريخهم بالبحر الأحمر، هم سكان شبه الجزيرة العربية الأصليون أم لا؟

نعرف بكل تأكيد أن كل أشكال الهجرات السامية المعروفة فى العصر التاريخى جاءت من شبه الجزيرة ولكننا نرجعها إلى عام ٢٠٠٠ فقط[١٨]. يقابل هذا الفرض بارتياح من الدراسات اللغوية التى تميل للبرهنة على "السمة المحافظة جدا للغة العربية"، فكل شىء يشير للجزيرة العربية على أنها مركز انطلاق الساميين.

ولكن هل هم أصلاً من شبه الجزيرة العربية أم أنهم جاءوا من أماكن أخرى واستوطنوها فترات طويلة حتى أصبح لهم سمت عرقى خاص بهم بقى فى البدو الذين تأقلموا مع البلد؟ تميل دراسات قديمة لإثبات قرابة بين اللغات السامية والحامية؛ لأنهما تفرعتا من جذر لغوى مشترك، وطبقًا لهذه النظرية فإن الساميين والحاميين قد اشتركا معًا فى سكنى نفس المناطق منذ عصر بعيد جداً، واقترحوا لهما أصولاً أسيوية. والافتراض القائل بأن "الحاميين– الساميين" "بلا تمييز" قد استوطنوا شبه الجزيرة العربية خلال عصر ما قبل التاريخ تاركين بعض المجموعات الحامية ترحل نحو القرن الأفريقى، لا يصمد أمام الأصل المقترح للعفاريين والجالا والصوماليين، ويبقى القول بأن هذا الكلام لا يستند حتى الآن على أسس عملية.

وفى المقابل نعلم أن الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية– اليمن الحالى بلد مضياف جدا– حيث استقبل منذ وقت مبكر جدا سكانه الأوائل ذوى دماء مختلطة جدا، وربما كانوا من الضفة الأخرى للبحر الأحمر، من الحبشة.

واستقرت الحياة فى الجزيرة العربية، رغم التصحر، بطول سلسلة من الواحات الممتدة من اليمن حتى الحجاز مروراً بالمدينة ومكة فى قلب الجزيرة العربية الصخرية بطول ساحل البحر الأحمر حتى داخل اليابسة. وهكذا نشأت حتى حافة البحر المتوسط دائرة للقوافل التجارية، ولا سيما التجارة المحلية التى فقد أصلها فى غفلة من الزمن ستكون الملاحة فى البحر الأحمر ولو اضطراراً عن طريق المرور حول شبه الجزيرة العربية، موضع ترحيب من التجارة العالمية[١٩].

بلاد ما بين النهرين

كما ازدهرت فى مصر حضارة كبيرة، سوف تنشأ إمبراطورية أسيوية فى حوض دجلة والفرات: الإمبراطورية الآشورية والكلدانية. والهجرات الأولى فى بلاد ما بين النهرين أقل حجماً من تلك التى شهدها وادى النيل، فهل هما متعاصرتان؟ ربما ترجع هذه الهجرات لـ ٦٠٠٠ سنة بالمواقع الأكثر قدماً فى جرمو وحسونة. وقد ظهرت فى الأصل نفس الظاهرة: انتقال البدو الرحل المحرومين من الماء إلى حيث تجرى الأنهار متبعين مواطن الزراعة والرعى.

ليست بلاد ما بين النهرين بلاداً نهرية ذات صلة بالبحر الأحمر، والأدلة على اتصالات فيما قبل التاريخ غير واضحة مع مصر ما قبل الأسرات[٢٠]. ولكننا مع ذلك نشير لنقش فى وادى الحمامات لا يصور سفناً مصرية ولكنه يصور أشكالاً لسفن غير مصرية تبحر على متن النيل، هى سفن بلاد ما بين النهرين، وأخيراً القبضة العاجية لسكين من الصوان التى عثر عليها فى جبل العرك، وعليها عناصر زخرفيه سومرية تشير لمراكب بحار "أجنبية" عن النيل[٢١].

بقى المناخ رطباً مع نهاية العصر النيوليثى، ويقرر الجغرافيون أنه خلال الحقبة التى سبقت الأسرات المصرية، حتى نحو عام ٣٠٠٠، كانت الصحراء العربية الواقعة بين بلاد ما بين النهرين والبحر الأحمر مهيأة للإنسان، ووصلت التأثيرات العراقية الأولى إلى مصر من هذا الطريق [٢٢].

ظلت معلوماتنا عن هذه الحضارات حتى القرن التاسع عشر قليلة، وكتب عنها هيرودوت تاريخاً مفقوداً حتى الآن، ولكننا نعرف وصفه لجبيل فى الموسيس (Muses). بيروس، كاهن كلدانى عاش قبل ثلاثة قرون من عصرنا كتب أيضاً تاريخ آشور، لم يتبق منه إلا نتف. ويشير الإنجيل لسكان هذه الإمبراطورية باسم "الشعب المتوحش"[٢٣].

هنا، كما فى مصر، النهران "هبة من السماء" يحملان الطمى الخصب، ومن ثم فإن المحاصيل وفيرة. وتتميز بلاد ما بين النهرين بأنها مفرق لكل طرق القوافل التى سوف تستقر فيما بعد فى الهند وسوريا وفينيقيا ومصر. والوصول منها لآسيا الصغرى سهل، ويمكن للمراكب أن تصل سواحلها بسهولة قادمة من النهر والبحر الأحمر وأفريقيا الشرقية والجزيرة العربية.

ساحل البحر المتوسط

ربما يبدو أن استقرار الإنسان على الساحل المسمى الساحل الفلسطينى أكثر قدمًا، ربما يرجع لنحو ٨٠٠٠ عام، ولكننا لا نمتلك من مظاهره سوى الزراعة والقرى الأولى فى "البيضاء: Beidha(*)، وأريحا: Jericho" بين عام ٧٠٠٠ و٦٥٠٠، والصلات مع مصر والبحر الأحمر عن طريق بوغاز السويس ترجع لعصور بعيدة، لكنها لم تتعمق إلا مع بداية الألفية الثالثة، ومع بداية الدولة القديمة[٢٤]. ماذا حدث فى هذا العصر؟ وصول الكنعانيين.

نحو عام ٤٥٠٠ نعلم يقينًا وجود "قرية كبيرة مكونة من كهوف بدائية مدهونة بالصلصال على أرضية مغطاة بالحصباء"[٢٥]، جنوب الميناء الحالية فى جبيل على الساحل، ونحو عام ٣٥٠٠ أصبحت الجدران من الحجارة تعلوها دعائم سقف، ازدهرت هنا قرية سرعان ما أتى عليها حريق هائل نحو عام ٢٩٠٠.

ويُنسب للفينيقيين تدمير هذه المدينة الصغيرة حيث شادوا عاصمتهم، جوبلا Gu-bla – التى سماها اليونان "جبيل: Byblos". لم يعد الأمر فى الواقع يتعلق بالفينيقيين،

(*) البيضاء أو البتراء الصغرى بالأردن. المترجم.

ولكن بالكنعانيين، وهذا الاسم لم يعطه إياهم اليونان إلا فى الألف الأولى وانسحب على السلالة كلها[٢٦].

يجعل الإنجيل[٢٧] كنعان من نسل حام، جد الشعوب الأفريقية، ويبدو أن الكتاب المقدس وقع فى الخطأ؛ لأن الكنعانيين ساميون[٢٨]، سوف تأخذ فى الاعتبار الضعف من الناحية التاريخية لشهادة الإنجيل.

سمَّى الكنعانيون أنفسهم فى لغتهم بالأكديين، "كيناهو: Kinahu". كل المؤلفين القدامى من أمثال هيرودوت وسترابون وبلينى يقولون بقدومهم من الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين ثم الفرات حتى الأردن.

ويتفق مؤرخون معاصرون[٢٩] مع القول بوجود هجرة قديمة جدا، فلم يعد رأى مؤرخ كبير معاصر يقول "تكوين الأمة الفينيقية ظهر ثمرة لتطور تاريخى فى الإقليم السورى- الفلسطينى وليس بوصفه نتيجة هجرة قادمة من الخارج"[٣٠]. تهدم أساطير محلية هذه النظرية؛ حيث تؤكد أن الغزاة كانوا مهاجرين[٣١] ، أيا ما كان أصل الغزاة فهم غزاة ثم هم قد استوطنوا وسكنوا، إما أن يكونوا قد سكنوا الإقليم السورى الفلسطينى منذ وقت طويل أو يكونوا قد جاءوا منذ قليل فهذا لا يغير فى الأمر شيئا بالنسبة لزاوية تناولنا هنا، فهذا لا يشكك فى السمة السامية للكنعانيين وحتى يثبت العكس، فإن الساميين قد أتوا من الجزيرة العربية ولعبوا دوراً مهما للغاية فى حوض البحر المتوسط بأسره، وفى المقدمة منه مصر[٣٢].

وخلاصة القول: عندما بدأت الحقبة التاريخية فى البحر الأحمر، نجد فى "مثلث الأصل". شعوبًا متجاورة يجهل بعضها بعضًا:

- فى الشمال، المصريون قادمون من أفريقيا عن طريق الغرب، واستقروا فى دلتا النيل ثم صعدوا واديه.

– فى الجنوب الجالا والأوروموبى والصوماليون قادمون من آسيا عن طريق شبه الجزيرة العربية، وانفصلوا عن الشعوب الأخرى التى بقيت فى الجزيرة العربية واليمن.

– فى الجزيرة العربية شعوب سامية متشابهة بلا شك فى ظروف هجراتها لكنها لم تتغير بعد بشكل واضح.

– ما وراء شبه الجزيرة العربية والبحر الكاسبى (Caspienne) شعوب قادمة بلا شك من آسيا الوسطى قضوا على حضارات منافسة ولم يتوقفوا– عن طريق بوغاز السويس أو عن طريق البحر الأحمر– عن محاولة تدمير مصر.

الهوامش

(١) جاءت كلمة النيل من تسمية اليونان لهذا النهر باسم نيلوس التى جاءت بلا شك من العبرية نخال أو نهر التى تعنى نهراً، مجرى ماء، واشتقوها كذلك من فى- إيالو فروع النيـل، انظر Histoire ancienne des-peoples de l'orient classique ,p,43.

(٢) A.Abu Bakr ,l'Egypté pharaonique ,histoire générale de l'Afrique ,Unesco,vol è?,p.73.

(٣) F.Debona ,Préhistoire de la vallèe du Nile ,H,G,A.Unesco ,vol .L,P.683

(٤) لا نتخذ هنا موقفًا معاكسًا للزنجية المقترحة كأصل للمصريين القدماء، وهو الاقتراح الذى دافع عنه البـروفيسور الشيخ عنتاديوب، ونجد هذا الرأى وتطوره فى Histoire gènérale de-l'Afique,Unesco,,vol.II,P.39 - مع ملاحظة أنه لم يورد أبحاث "مؤتمر حول سكان مصر القديمة" الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٧٤.

(٥) J.Vercoutter,Invention et diffusion des mètaux et développement des systémes sociaux jusqu'au ve siécle avant notre ère,H.G.A.,Unesco,vol.I p.752.

(٦) A.M.Abdalla ,Intervention au "colloque sur le peuplement de l'Egypte ancienne "le Caire ,1974.

(٧) G.Hanotaux ,Histoire de la nation égyptienne,t.I,P.VII.

(٨) G.Maspero ,op cit .,p.44.

(٩) قصر فترة ظهور هذا الفن وغياب آثاره خلال هذه القرون الأربعين من النضج، جعلت افتراض وجود تقنية خارجية جاءت من خارج الأرض يلقى صدى.

(١٠) طبقًا لأولبريت، الهكسوس الذين يمكن أن نجعل وصولهم بين ١٦٠٠ و ١٢٥٠ ق.م، هم هندو- أوروبيون، والدليل هو تشابه أسماء الأشخاص مع الستريتيين والهوية تتشابه مع المعبودات الهندية، انظر: W.F.Albright ,op.,cit.,p.197.

(١١) G. Ferrand, Les Comalis,Paris,1903.

(١٢) على سـبـيل المثـال، أعـمـال مـوريـنو (M.M.Moreno,manuale di sidamo ,Milano ,1904) (J.H.Greenberg ,studies in African linguistic classification ,new haven ,1955 et essays in linguistics ,Chincago .1957 et Flaming (H.C .Flaming ,Baiso and Randille ,Somali outlers ,in Rassegna de studi Etiopici XX,1964 ,pp.35-96)(H.Lewis ,The origins of the Galla and Somali ,Journal of African history v?,,11966,p.39.على حسب نحو ٢٢ لغة، منها الكوشية فى القرن والصومالية لم تكن سوى اللغة الرئيسية لأحد فروع أربعة.

(١٣) J.H.Greenberg ,op.cit.

(١٤) P.Joint Daguenet ,La situation sur la côte africaine du Golfe d'aden au XIXe Siecle ,DEA,université, d'Aix -en province ,1990.

(١٥) K.H.Honea ,Acontribution of the History of Hamitic people of Africa ,vienne 1958.

(١٦) دراسة أرنو، أعلاه.

(١٧) D.W .Philpson,The Laterprehistory of Eastern and Southeren Africa ,Heinemann ,London ,1977,p.19.

(١٨) S.Moscati,op.cit.,p.44.

(١٩) Ibid.,pp.18-19 et 31à 36.

(٢٠) فيما بعد عندما تعارضت مصالح الإمبراطوريتين اللتين اتخذتا من البحر الأحمر مسرحًا لصراعاتهما وأيضًا بوغاز السويس.

(٢١) A.Moret ,prèhistoire IV e el IIIe millènaires ,p.88-89.

(٢٢) G.Mokhtar ,H.G.A,Unesco ,vol .II,P.35.

(٢٣) Edouard Petit ,Histoire universelle des pays et des peuples ,p.295.

(٢٤) Ibid.

(٢٥) G.Herm ,Die ph?nizier ,p.34.

(٢٦) كلمة "فينيقى" جاءت من تجارة الأرجوان، وهو لون قرمزى يطلق عليه اسم "فوينكس: "Phoinix باليونانية يستخرج من الصدف وكذلك من بعض الرخويات.

(٢٧) ,chap.X. Genése.

(٢٨) يعنى ذلك أنهم يتحدثون لهجات سامية، ليس أكثر، ولكن من المنطقى أنهم بذلك ينحدرون من سام.

C'est -à-dire qu'ils parlaient des dialectes sémitiques ,rien de plus ,mais en toute logique ils devraient descendre de sem ì

(٢٩) O.Essfeldt ,philister und ph?nizer ,leipzing,1939.

(٣٠) S.Moscaati,l'?popée 1971,pp.21-22 .,Fayard des phénicieens

(٣١) C.Commeaux ,"les phéniciens ,un people méconnu et contesté " ,in .les cahiers de l'Histoire,n 95 ,mai-juin 1972.

(٣٢) I.C.Commeaux "les phéniciens,un peuple méconnu et contesté " in,les cahiers de l'histoire ,n 59 ,mai-juin 1972.

ملاحظة لا توجد إشارة لهذا الهامش فى متن الكتاب..المترجم.

الفصل الرابع

الشعوب القديمة بالبحر الأحمر

سوف تشهد أسس الحضارات التى تتمركز حول البحر الأحمر تطوراً نحو مصائرها المتتابعة، فالشعوب القديمة التى سوف تبرز من مكامنها باحثة أولاً عن سبل بقائها ومن ثم طرق سيادتها وغلبة جماعتها العرقية، ستمتلك أولاً المصادر الطبيعية التى تتطلع للسيطرة عليها، والتدفق التجارى الذى تستطيع أن تعترضه والطرق التى تؤدى إلى المصادر أو الأسواق. وسيقوم البحر الأحمر وامتداده الأرضى الطبيعى مصر.

سيقوم كلٌ بدوره التجارى أو الحربى حسب توازنات اللحظة وما تعطيه من إرضاء المطامع وتلبية للمطامح أو إذا ما شاءوا يقلب أى الفريقين الأمر لصالحه.

المصريون المهمومون دومًا بالسيطرة على نهر تعتمد عليه حياتهم بصورة كلية، سوف يشيدون عبر آلاف السنين إمبراطورية تكون محل أطماع متكررة. وستجد مصر حارسة الطريق الأرضى المؤدى إلى البحر الأحمر، تكاملاً تجاريًا متعدداً فى البحر الأحمر مع الصومال التى تصدر البخور، وتستخدم فى سبيل ذلك البحارة الفينيقيين كما أنها سوف تتعرض لمضايقات المهاجرين بلا انقطاع أو لأطماع الغزاة القادمين من الشرق ممن جذبهم ثراؤها.

وقد تجاورت فى بلاد ما بين النهرين إمبراطوريات متصارعة، خضعت أخيراً للإمبراطورية الفارسية، وسوف تحتل هذه الأخيرة فى القرن السادس الإقليم لمدة ثلاثة

قرون. وسوف تؤجج المنافسة بين ملاك الطرق التجارية فى الخليج الفارسى والبحر الأحمر صراعات لا تتوقف كانت كلها موجهة ضد مصر.

فى الجزيرة العربية، ستهاجر وتتفرق القبائل السامية بعد فترة سكون أو كمون طويلة، سينشئ الكنعانيون المدن المسماة بـ "الفينيقية" على الساحل اللبنانى مصوبين نظرهم بشكل رئيسى نحو البحر المتوسط؛ سيتخذ تدخلهم فى البحر الأحمر أولاً شكل أداء خدمة بوصفهم تجاراً مهرة، ثم فيما بعد سيستأثرون بالتجارة لصالحهم. وسينشئ العبريون مملكتى إسرائيل ويهوذا، وسوف يرسل سليمان بمساعدة الفينيقيين أساطيله لكى تبحث عن الذهب فتصل حتى "أوفير: Ophir" فى موزمبيق، أبعد من البحر الأحمر، وسوف تعرف قبائل اليمن النظام والتنظيم مع بدو الجزيرة العربية؛ ليضمنوا نقل القوافل والتبادل التجارى مع الهند، وسوف يعبر الأحباش البحر الأحمر لكى يؤسسوا فى أفريقيا الشرقية مملكة الحبشة.

ستضع غزوات الإسكندر فى القرن الرابع ق.م نهاية لاستقلال مصر، وستكون للأسرة اليونانية من البطالمة الذين سيستقرون بها أول مشاركة سياسية من أوربا، ثم يلى هذا التأثير اليونانى تدخل أوربى آخر على يد الإمبراطورية الرومانية.

على امتداد خمسين قرناً، كان لكل شعب مصيره الخاص به، سواء قرره هو أو فرض عليه. وسنرصد هنا التحركات التى قامت بها شعوب الإقليم، أحدها ضد الآخر، حول البحر الأحمر، سواء عن طريق البحر أو عن طريق البر، وأيا ما كان هدف هذه التحركات.

انقضت فترات طويلة شهدت عملاً وسلاماً ازدهرت فى ظلهما التجارة حول هذا البحر. وكانت هناك حملات عسكرية وتجارية بعيدة ورحلات استكشاف، وهناك هجرات شعوب وخروج وغزوات واحتلال، وبطبيعة الحال فإن وصف كل هذا محال، لكننا نرصد

الأحداث الناتجة عن نشاط الإقليم الذى قام به الفرقاء السياسيون والتجاريون، سواء من أجل التكامل أو من أجل التمايز.

وقد احتفظ البحر الأحمر خلال هذا العصر القديم الممتد بسمته الثابتة وهى أنه كان طريقًا مائيا للتجارة، تخللته بعض الحملات الحربية. أما الطريق البرى الذى يمر بسيناء فهو طريق للغزو بلا انقطاع، فالقبائل الفقيرة تجتذبها الحضارة المصرية المزدهرة فلا تجد وقتًا للالتفات للبحر الأحمر. أما المحتلون فإنهم يحرصون على السيطرة على مصر بهدف القضاء على دورها التجارى لمصلحة الخليج الفارسى.

دور مصر

لم يكن المصريون ملاحين خبراء فى أعمال البحار، فمراكبهم وسفنهم لم تُعَدّ لمثل هذا النوع من الملاحة. كان النيل، بوتوميا القديم (Potomia) هو طريقها وليس البحر الأحمر، وانصب اهتمام المصريين على وادى النهر العجيب الذى يهبهم الحياة، ويصلون عبره إلى مصر العليا وهى أعلى مكان يصلونه.

وكانت الرحلات المصرية القصيرة فى البحر الأحمر تجرى بهدف الإمدادات وليس الاحتلال، وهم يستخدمون مراكب ذات تركيب أجنبى يقودها فينيقيون.

أما رحلات المصريين الأرضية فلم تذهب إلى أبعد من المناجم والمحاجر فى سيناء، كما أن خطوط دفاعهم فى شرق وغرب الدلتا كانت تهدف أساسًا إلى منع الشعوب المعدمة التى يجتذبها رخاء مصر، وقد اتجهت هجماتهم التى جاءت فيما بعد وكانت بشكل رئيسى صوب الشرق، وكانت تهدف للبعد بالبلاد عن الاحتلال وكذلك دفع الغزاة الذين يعتبرهم المصريون خطرًا مميتًا.

عصر ما قبل الأسرات(*)

ترجع أقدم الإشارات التاريخية إلى الاتصالات البحرية المصرية مع بلاد ما بين النهرين إلى عصر ما قبل الأسرات، ففى نقوش وادى الحمامات مناظر صخرية لا تصور مراكب مصرية معدة للإبحار فى النيل، ولكنها تصور سفن بلاد ما بين النهرين ذات الحواف العالية المجهزة للإبحار لمسافات بعيدة[١].

سكين من الظران ذات مقبض من العاج عثر عليها من نفس الإقليم بجبل العركى[٢] تطرح مشكلة عصية على التفسير. هذا الأثر الجميل يمثل سلاحًا وربما كان نذرًا كما يقول لنا "موريه: Moret" الذى يصفه بأسلوب شائق قائلاً:

"على الواجهة الأساسية مستويات فوق بعضها، عراك بين رجال من نفس الحجم يرتدون نقبًا قصيرة، وبعضهم من شعوب البحر المتوسط من ذوى الرؤوس الكبيرة يضربون بشدة أعداءهم بالمقامع، وهناك ذوو رؤوس صغيرة يرتدون خصلة شعر متهدلة على الكتف، بالأسلوب الليبى. ومستويان سفليان يعلو أحدهما الآخر، وفيهما مركبان من مراكب البحار أجنبية الشكل، وأسفل ذلك ثلاث مراكب نهرية ونيلية يعلوها محاربون مطروحون على الشاطئ[٣].

وعلى الوجه الآخر من المقبض نُقشت زخارف بلاد ما بين النهرين، شخص مقدس معمم بقطعة من القماش ويرتدى "كوناكس: Kounakes[٤]" الفضفاضة، والتى تبرز من بين ثنياتها الكتف عارية والذراع تتدليان، وأسدان ضخمان رابضان على قوائمهما الخلفية، وفى الأسفل كلبان متقابلان من نوع غير مألوف بمصر، ثم زهور، يقوم أحدهما بعمل قفزة ثانيًا إحدى قوائمه الأمامية طبقًا لإيقاع معروف فى الفن

(*) ويسمى كذلك بالعصر العتيق ويشتمل على الأسرتين الأولى والثانية. المترجم.

العراقى، ثم أسد يعقر جاموسًا وحشيا من الخلف، فى حين يتلفت هذا الحيوان فى ذعر[٥].

طبقًا لموريه، المهزومون على المقبض هم من الليبيين، ولكن المنتصرين من هم؟ إنهم من نوعية شعوب البحر المتوسط، دون أن نستطيع أن نحدد أكثر من ذلك. كل الزخارف المصورة على الوجه الآخر من المقبض من نوعية الفنون السومرية والسامية، وكانت معروفة فى مصر حتى بداية العصور التاريخية، ثم اختفت من الفن المصرى مع نهاية الأسرة الأولى.

يشير موريه إلى أن فى مؤخرة السفن شكلاً بيضاويًا يفسره بأنه جنين أو مشيمة، هذه العلامة سوف نجدها فيما بعد فى الكتابة وتشير لطوطم مدينة ليتوبوليس، وسوف تصور على لوحات ملفات العصور التاريخية الأولى.

- وهناك فرضان

- يتعلق المنظر هنا بتصوير سفن عراقية وصلت القصير عن طريق الخليج الفارسى والبحر الأحمر، وربما وصلت وادى الحمامات. وهذا يدل على وجود صلات بحرية بين العراق ومصر منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل عصرنا.

- يتعلق المنظر فى الحقيقة بمراكب من النوعية السومرية، تحمل شارة ليتوبوليس آتية للدلتا لمقاتلة الليبيين.

يؤيد موريه الافتراض الثانى والذى يفيد أن المصريين شيدوا سفنًا من النوع السومرى واستخدموها فى البحر المتوسط، كما فعلوا نفس الشىء فى البحر الأحمر. لا توجد أية صلة نهرية بين النيل والجزء الصالح للملاحة فى وادى الحمامات[٦]. ومن المفترض العثور على مكان لعمل السفن على شطآن خليج السويس أو البحر الأحمر.

ويمكن أن نتوقع حدوث نقل برى من النيل إلى الوادى، وهو أمر لا نستبعده من بناة الأهرام.

الدولة القديمة ٢٦٦٠-٢١٣٤(*)

انطلقت أقدم الحملات بالدولة القديمة بغية الحصول على الأحجار الكريمة من سيناء والبخور من بلاد بونت فيما بعد باب المندب. وقلّت هذه الحملات مع نهاية الدولة القديمة؛ نظرًا لضعف السلطة الملكية وكثرة الهجرات الكنعانية والسورية التى هددت الوجود المصرى ذاته.

افتتح الملك زوسر(٧) من الأسرة الثالثة المصرية التى ابتدأت الدولة القديمة المحاجر فى سيناء والصحراء العربية، فى هذا الشريط الساحلى، الممتد من السلسلة العربية حتى البحر الأحمر على خليج السويس(٨).

كثيرة هى دلائل القيام باستخدام المناجم بهذا الإقليم؛ فقد استخدمت محاجر الفيروز ومناجم النحاس فى "وادى المغارة" منذ أكثر من ٥٠٠٠ عام ق.م. حيث نجد نقشًا يصور الملك سنفرو من الأسرة الثالثة كذلك، يؤسس هيئة لاستخراج النحاس بشكل منظم(٩). وفى الصحراء العربية يكثر البورفير والزمرد والعقيق المعروق والياقوت وحجر السربنتين والألباستر والعقيق وكل أنواع الزمرد، وكان استخراج الكوارتز من وادى العلاقى يتم فى ظل ظرف غاية فى الصعوبة: "المهزومون وأسرى الحرب مصفدة أقدامهم ويعملون تحت حراسة الجنود الأجانب، وفى ضوء شمعة يهشم رجال بضربات المطارق أحجار الكوارتز المذهب، وأطفال يتسلقون يلتقطون قطع الكوارتز، بينما يحمل

(*) وتشتمل على الأسرات من الثالثة حتى السادسة. المترجم.

هؤلاء الكبار الأحجار لمن يصحنها، ثم للطاحونة، ثلاثة بعد ثلاثة نصف عرايا، وينتشر النساء حول ذراع الطاحونة ولا يتركنها قبل أن يتممن عملهن، والموت أفضل للجميع هنا من الحياة(١٠).

اكتشف الفرنسي فردريك كايو عام ١٨١٦، جبل الزمرد الذي ذكره سترابون. وفي وادي الحمامات نجد الشست الأخضر والأسود رائع الجمال الذي يستخدم في صناعة التوابيت والتماثيل.

وفيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وفينيقيا ابتداء من هذا العصر، فقد جلبت منها مصر خشب الأرز اللازم لصناعة السفن، ففي جبلا Gubla (جبل Gebal أو "جبل" بالعبرية) (١١) ، على الساحل اللبناني المدينة التي يسميها اليونانيون بيبلوس جبيل-(١٢) هناك نص مصري من عصر سنفرو من الأسرة الثالثة(*) من الدولة القديمة يرجع تاريخه إلى نحو عام ٢٥٠٠ يشير لوصول شحنة من خشب الأرز. وبالفعل كان هذا الحدث شائعًا وكانت الصلات مع ساحل لبنان مستمرة. ويشير أرشيف تل العمارنة(**) لوجود مدن فينيقية منذ القرن ١١٥ ق.م: عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل(١٣).

طبقًا لهيرودوت، في عصر يتزامن مع القرن ١٨ قبل عصرنا هذا، أي على أيام زوسر، قدمت الموجات الأولى من الساميين من الجزيرة العربية، حيث استقروا على الساحل اللبناني(١٤).

وهناك مدينة أخرى، هي أوجاريت التي تقع بالقرب من مينة بيضة (الميناء الأبيض) إلى الشمال من "لاوديكا: Laodicaee" على الساحل اللبناني، وحديثًا تؤرخ

(*) سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة وليس من الأسرة الثالثة، كما أورد المؤلف خطأ هنا. المترجم.

(**) بقايا مدينة أخت آتون التي شيدها أخناتون، ويطلق عليها اسم تل العمارنة في العصر الحديث. المترجم.

بنحو ١٥٠٠ عام، وعثر على كثير من النصوص الملحمية والأسطورية، مكتوبة بالسمات الآكدية والمصرية والحيثية والحورية وباللغة الخاصة بهذه الحضارة أى بلغة أوجاريت، بلغة ألف بائية وليست لغة رمزية، ويدل تحليلها على وجود تأثيرات للحضارات البابلية والمصرية والإيجية. ويوجد بهذه النصوص كثير من أوجه الشبه مع نصوص الإنجيل. وقد كانت أوجاريت ذات صلة متينة مع هذه الحضارات[١٥]. وقد دمر حريق هائل تلك المدينة، قبل وصول "شعوب البحر" بقليل، فى منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

احتفظ البحر المتوسط ببحيرات شاطئية إلى الشمال من بوغاز السويس وبحيرة "القمور: Qemour" تتصل بالبحر الأحمر. ويوجد الممر الأرضى الوحيد فى المركز، حيث يمتد من إقليم الإسماعيلية إلى النيل عن طريق وادى إيلات. طريق الغزوات، ولكنه فى نفس الوقت طريق غزو المصريين أنفسهم فى أرض كنعان، مثل ذلك الذى قام به ببى الأول (٢٥٠٠) حيث قاد ونى عشرات الآلاف من الجنود فى خمس حملات ضد العامو[١٦]. وقد اشتهرت جبيل بأخشابها والراتنج والبيتون والصمغ ونحاس قبرص والفضة المجلوبة من طوروس، وعبور هذه المنتجات الطريق البحرى، أما سيناء فكان من الصعب المرور بها.

وتسمى سفن أعالى البحار "كبنتى: Kbenti" أو الجبيلية وهى من النوع الكنعانى وكانت تتميز بطولها إذ تبلغ نحو خمسين مترًا.

وكانت الرغبة فى تبادل المنتجات النادرة والمحببة لمنظرها أو لطعمها أو لرائحتها وراء إقامة الصلات مع بلاد بونت، وكانت الأحجار الكريمة والتوابل والبخور أمثلة نموذجية لذلك، وما كان هواية فى البداية أصبح ضرورة بالتعود والاستمرار.

كان البخور الذى يستخدمه المصريون مثل العراقيين على نطاق واسع ذا قيمة خاصة؛ نظرًا لما يشيعه من روائح مستحبة ذات صلة بالطقوس الدينية، فتستهلك منه كميات كبيرة أثناء شعائر العبادة، وفى الأعياد والزواج، وكذلك فى البيوت للتغلب على

الروائح الكريهة. وكذلك كان البخور يستخدم فى مراحل تحنيط الموتى، فهو منتج نادر وغالٍ ومستهلك بكميات كبيرة[١٧]، ومن ثم أصبح عاملاً مؤثرًا فى الاقتصاد المصرى. وقد اكتسب صبغة مقدسة لاستخدامه فى الشعائر الدينية، تلك الصبغة التى أعلت من قدر البلد الذى يصدره. والبخور هو المنتج الرئيسى ذو الرائحة الزكية لعائلة متنوعة يسميها المصريون "عنيتى: Aniti[١٨]" وينمو البخور على ضفتى خليج عدن وباليمن والصومال، فهو يستخرج من شجرة صغيرة يبلغ طولها عدة أمتار تسمى بلسان[١٩] . وصنع المصريون البخور من الجميز، فهو يقوم بحزِّ الجذع لاستقبال السائل الذى يتجمد فى هيئة كرات صغيرة مُصفرة اللون، وكان البحارة السبئيون يأتون به إلى مصر من حضرموت، وكان أولئك البحارة يصعدون البحر الأحمر من نوفمبر أو ديسمبر تدفعهم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. ولأنه ينتقل بين أيدى العديد من الوسطاء، فإن ثمنه يتضاعف ليصل عشرة أضعاف ثمن الذهب، وهو ما استدعى ضرورة الحصول عليه من بلاده مباشرة. (Mitaties mutandis) سنجد نفس الدوافع نفسها عند البرتغاليين فى القرن السادس عشر للحصول على التوابل والبهارات عمومًا.

والمُرُّ مطلوب جدا لدخوله فى صناعة العطور، وقد استخدمه المصريون فى تحنيط الأجساد وكان يستخرج من سائل إحدى الأشجار، وله خصوصيته فهو ينضج من تلقاء نفسه.

دار البحث كثيرًا عن بلاد بونت هنا حيث لم تكن موجودة، ولم يعد هناك شك أنها تقع على الساحل الأفريقى الذى كان فى تجارة نشطة قديمًا مع مصر؛ هذا على الرغم من إمكانية الحصول على البخور من الشاطئ الآسيوى من خليج عدن. بلاد بونت هى الساحل الصومالى من بندر قاسم حتى رأس جاردافوى، وفى الداخل بامتداد كاندالا، يوجد "وادى البخور"[٢٠]. وإذا كان الفرعون زوسر أول من أرسل

رحلات للتزود بالبخور عن طريق البحر، فليس ثمة ما يدعو لنفى القول بذهاب رحلة واحدة على الأقل وبشكل منتظم كل عام.

نجد لذلك قرائن من عهد الفرعون ببى الثانىّ، الفرعون المئوى الذى امتد عهده فى الأسرة السادسة فى القرن الثانى والعشرين قبل عصرنا، وعاش ٩٥ سنة.

قليل هو ما نعرفه عن حملات بحرية اتجهت إلى بونت مستخدمة البحر الأحمر، لكن بما أنها نجحت فربما كانت قد انطلقت من "تاوو: Taeu"[٢١]. وكانت الصلات شائعة ومعتادة لدرجة أن رجلاً من أسوان فى عصر الدولة القديمة يكتب: "رحلت مع أسيادى الأمراء وحملة أختام الإله تتى وخورى إلى بيبلوس (جبيل) وبونت إحدى عشرة مرة زرت فيها هذه البلاد"[٢٢].

وعلى أيام الأسرة الرابعة، أنشأ أمير يدعى وسركاف(*) أول أسطول بحرى بمصر، أنشأه لكى يحارب به الكنعانيين (الفينيقيين) فى بحر إيجة، وأحد خلفائه، ساحورع، أرسل الأساطيل عبر البحر الأحمر وخليج عدن لاكتشاف أرض بونت[٢٣]. ومذكور فى نصوص عهده وصول "٨٠٠٠٠ مكيال من البخور" من بونت[٢٤]. وفى عهد خوفو، ذكرت بونت بخصوص استقدام عبد لابن فرعون من هذه البلاد. من نقش ببى نخت، أمير إلفنتين نعلم أن رئيس القوافل عن عنخت منهمك فى تشييد سفينة للذهاب إلى بونت، وقتله بدو العامو فى سيناء فى ورشة تصنيع ربما تقع على خليج السويس والذى كان يقع آنذاك كثيرا إلى الداخل[٢٥].

كانت الصلات البحرية مع بونت كثيرة، فقد فرضت نفسها لأهميتها الاقتصادية وبسبب موقعها الجغرافى للبلد، فهو واجهة ساحلية لأقاليم جبلية، ومن الصعب الوصول إليها عن طريق البر. وفيما يختص بالصلات مع النوبة، لنتذكر أنه إذا ما

(*) وسركاف مؤسس الأسرة الخامسة وليس من الأسرة الرابعة، كما أورد المؤلف خطأ هنا. المترجم.

كانت مصر العليا والسفلى قد توحدتا على يد مينا نحو عام ٣٠٠٠ ق.م[٢٦]، ففى الجنوب، لم يكف سكان النوبة، عن إثارة القلاقل منذ قرون. والنوبيون، وهم فرع من السكان الكوشيين- الحاميين من العصر النيوليتى شعب هجين خليط من شعوب زنجية سكنوا بطول النيل فيما وراء الجندل الأول.

وقد أحرز أحد الفراعنة الأوائل، وهو حورس عحا أول انتصار فى النوبة نحو (٢٩٠٠-٢٨٠٠)، وأخضع زوسر فى الأسرة الثالثة نحو عام ٢٧٥٠ المتمردين النوبيين، وأرسل سنفرو من الأسرة الرابعة حملاته نحو عام (٢٧٠٠-٢٥٠٠) إلى النوبة.

وقد أرسل الفرعون مرنرع نحو عام ٢٤٠٠ إرى حاكم[٢٧] إلفنتين فى حملة استكشافية إلى النوبة وابنه حرخوف على رأس حملة وكان مكلفًا بتهدئة الأوضاع فى هذه البلاد. وهنا بلا شك أقدم رحلات أرضية تستخدم طريق أفريقيا الشرقية. لا ندرى إلى أى مدى ذهب المصريون فى رحلاتهم، لكن فى عهد ببى الثانى، أحضر "من بلاد يام" دنجا، "قزمًا"[٢٨] يعرف "رقص الإله"[٢٩]، و"ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور من نوع حكنو وحبوب الصار (Sor) وجلود الفهد من حصون إلفنتين"[٣٠]، وفى هذا الإقليم فى النوبة العليا كان حاكما إدفو وإلفنتين يمثلان سلطة فرعون، وأرسلا حملاتهما بعيدًا إلى بلاد نحو (Neheriou). وهو مصطلح نوعى يجمع تحته كل سكان بونت وسكان ضفتى النيل حتى النوبة العليا والسفلى[٣١].

والهدف واضح؛ حيث يتعلق بمحاولة إيجاد طريق إلى الساحل وتأمين المرور إلى البحر الأحمر، ومن هنا يمكن الوصول لبلاد العطور "ومدرجات البخور فى بونت على سواحل الأخضر العظيم"[٣٢]. وفى الحملة الثالثة على النوبة العليا فى "إمام: Imam" حتى الواحات الليبية فى تمحو، وحتى "القرن الشرقى للسماء"، أنشأ حرخوف صلات بين هؤلاء السكان ومصر، وأشاع الأمن بينهم لدرجة أنهم عبدوا آلهة فرعون[٣٣].

لم يذكر حرخوف البخور ولا شركاؤه فى استخدام الطريق الأرضى فى سبيل هذه التجارة. ورغم وعورته فإن البحر يعد وسيلة نقل آمنة نسبيا إذا ما قورن بالمسار الأرضى الطويل والمحاط بالأخطار المحدقة، ومن ثم فضلوا البحر دومًا. هل نعلم كم يلزم من الرجال لقيادة سفينة لمسافة كهذه، بينما عشرة بحارة من طاقم السفينة يقومون بهذا؟ هل نعلم كم من الرجال يلزم للحراسة، ونقاط التزود بالماء والطعام؟ وكم يلزم القافلة التى تحمل كل هذا؟ فالإنسان يتحكم فى ممر يبحث فيه عن مصلحته، فهو يتقاضى العشور عما يمر بأراضيه إن لم يكن يمتلكه. هل نعلم كم من الزعماء المحليين كان يجب التفاوض معهم من أجل موافقاتهم التى كانت يومًا موضع جدل؟ وهل كان تنوع الشعوب يسمح للناس فى هذه الأقاليم بالتعارف بشكل كاف والتفاهم أكثر من التصارع؟ فيما يتعلق بالجمل فإنه لم يعد مفيدًا لإنسان الجزيرة العربية إلا فى القرن الحادى عشر من عصرنا(٢٤). ووجود طريق أرضى لنقل البخور من الصومال إلى مصر قبل هذا التاريخ أمر ضعيف الاحتمال خاصة لهذه الكميات الكبيرة؛ هذا ولا يستبعد وجود صلات تجارية محلية تنقل المنتجات النادرة من بلد إلى آخر وهكذا يتم نقل هذه البضائع عبر كثير من الوسطاء، ولكن نذكر هنا أن هذا ما كان يرغب المصريون فى تجنبه بقيامهم بالرحلات لشراء هذه المنتجات من بلادها مباشرة.

استطاعت النوبة أن تنجو من الخضوع لمصر خلال قرن، فيما بين ٢٢٦٠ و٢١٦٠ فلم يعد يغزوها مصرى حتى عهد منتوحتب الأول نحو عام ٢٠٤٠ .

العلاقات بين سوريا وبلاد ما بين النهرين

استقر السومريون ابتداء من الألف الرابعة فى نينوى وسامرا، وقد تجمعوا فى مدن نهرية باحثين عن السيادة المحلية أكثر من بحثهم عن الصلات البعيدة. وفيما بعد بدأ الساميون نصف البدو الذين شردتهم الحملات فى التجمع، وقد أسس أحدهم وهو

سرجون[٣٥]، أسرة أكد (Akkad) نحو عام ٢٧١٥ وبدأ التوسع فى اتجاه بلاد ما بين النهرين الصغرى وعثروا على آثار تجارة أكدية فى قبرص، ولكن غزو القوطيين والبربر الجبليين وضع نهاية لهذه الأسرة.

وقد تم العثور على أدلة أثرية على هجرة سورية كبيرة مع نهاية الدولة القديمة فى سيناء[٣٦]، وكان هذا الوجود الأجنبى محسوساً بمصر.

"كل ما كان مفيداً تحطم وأضحى البلد مأساة، نهضة الأعداء فى الشرق؛ والآسيويون قدموا للبلاد (تقرر هو، كاهن هليوبوليس) وصل الأجانب كل مكان: لم يعد هناك مصريون، تصحر البلد، وخربت الأقاليم؛ لأن الرماة الأجانب هبطوا مصر وتسللوا لكل مكان سرى، وعمل بعض الأجانب فى ورش فنية بمصر السفلى. ونهب أعداء البلاد هذه الورش كيف نؤمن للمومياوات الصمغ والعطور اللازمة لكى يدفن الموتى طاهرين، والزيوت التى تستخدم فى تحنيط الكبار؟ لم تعد هذه المنتجات تأتى فلم نعد نجرى إلى جيل اليوم وندر الذهب، ونفدت كل المواد الأولية التى تستخدم فى الأعمال الجنائزية فهل نلقى كذلك الموتى فى النيل؟"[٣٧] .

الدولة الوسطى (٢١٣٤- ١٨٧٥)

تشتمل الدولة الوسطى على الأسرات من التاسعة حتى الثانية عشرة[*]، وخلال هذه الفترة الانتقالية كانت العاصمة (هنن نسوت) التى يجعل منها هاينز والإغريق هيراكليوبوليس، أما الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة فقد أحرزتا شهرة ورخاء طيبين، وكان عصر الفتح المصرى حيث سيطرت مصر على أعـــالى النيل وغرب آسيا[٣٨].

(*) تشتمل الدولة الوسطى على الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة . المترجم.

وخلال الأسرة العاشرة، نحو عام ٢١٠٠ وفى عهد الفرعون مريكارع عاشت مصر عصر اضطراب بسبب هجمات الآموريين[٣٩] الذين أجبروا المصريين على تأمين سيناء فكانت الأولوية لتجارة الطيب والبهارات مع بونت وللصلات البحرية مع الفينيقيين، للتزود منهم بالخشب لبناء السفن المصرية.

وابتداء من الأسرة الثانية عشرة، أصبحت جبيل التى يحكمها الفينيقيون أنفسهم على قدر مهم من الحيوية بالنسبة لمصر، ومن ثم كان التحالف معها أمراً ضرورياً[٤٠].

الصلات مع البحر الأحمر

أثناء عصر الدولة الوسطى، وفى عهد الأسرة الثانية عشرة، أنشأ الفرعون سنوسرت الأول أسطولاً كبيراً فى البحر الأحمر، وعهد بقيادته لبحارة كنعانيين (فينيقيين)؛ نظراً لعدم خبرة المصريين بأعالى البحار.

وقد تأكد هذا من نقش عثر عليه شمال القصير، على البحر الأحمر، عند مدخل وادى الجاسوس:

"ملك مصر العليا والسفلى خبر كارع، محبوب الإله خنتى ختى بن رع، سنوسرت محبوب حتحور، سيدة بونت. منجم بونت الذى يصله فى سلام ويعود فى أمان"[٤١].

يتعلق الأمر هنا بعهد الملك سنوسرت الأول الذى حكم من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٣٨ق.م[٤٢]. يثبت هذا النقش أن القصير التى سيسميها اليونان ميوس هورموس (Myos-Hormos) كانت هى الميناء التى استخدمها المصريون للوصول إلى البحر

الأحمر، وهى موجودة فى مكانها هنا بسبب وادى الحمامات الذى يصل من قبتوس (قفط) إلى البحر الأحمر[٤٣]. وربما كانت هذه الميناء توجد فى المكان الذى كان يوجد به النقش[٤٤].

اهتمت مصر بصلاتها بالبحر الأحمر وببلاد بونت بشكل خاص. وعلى الرغم من مخاطر هذه الحملات البعيدة فإن المصلحة المرجوة من ورائها كانت مؤكدة للمصريين على مر السنين. وينسب التقليد لعهد سنوسرت الأول حفر قناة بين النيل والبحيرات المرة[٤٥]، بقصد تيسير سبل الانتقال عن طريق الماء. هناك نقشان يتعلقان ببونت عثر عليهما فى القصير[٤٦]: النقش الأول للمستشار خنتى ختور والمؤرخ بالعام ٢٨ من عهد أمنمحات الثانى، يشكر فيه الإله مين على العودة السعيدة من بونت إلى صاو، والثانى للمشرف على الخزانة خنوم حتب يحمل نفس المعنى، ومؤرخ بالعام الأول من عهد سنوسرت الثانى.

الصلات مع بلاد ما بين النهرين

وفدت نحو عام ٢٠٠٠ موجة من الآموريين الساميين على بلاد ما بين النهرين، وأسسوا سلسلة من المدن، إحداها: بابل التى سوف تسود نحو عام ١٨٣٠، ودمر غزاة هندو أوربيون حلب، ودمروا بابل نحو عام ١٨٠٦، وهؤلاء هم الحيثيون الذين يسميهم المصريون الخيتيين[٤٧]. والعاقبة الوخيمة التى حلت بمصر هى هجرة هؤلاء الآسيويين إلى وادى النيل، ففى عهد سنوسرت الثانى نحو عام ١٩٠٠، وصلت مجموعة أولى مكونة من سبعة وثلاثين عامو (أى آسيوى) إلى سيناء حاملين الهدايا:

"إنهم مسالمون ولاجئون؛ لأن مصر قوية، وفيما بعد، هاجرت قبائل عديدة من كل جنس يدفعها البربر بالقوة إلى بوابات الدلتا الشرقية"[٤٨].

هجرة إبراهيم

من بين هذه الشعوب المهاجرة، كان للشعب العبرانى السبق فى الهجرة، بيد أننا لا نعرف من أمره إلا ما يذكره الإنجيل(٤٩)، ولمعرفة أهمية دور العبرانيين فى تاريخ شعوب البحر الأحمر لابد من الرجوع لهذا المصدر الوحيد.

ففى عام ٢٠٠٠ تقريبًا سار تاريه (أزر: Tharè) والد إبراهيم(٥٠) بقبيلته من مدينته أور فى كلدنيا حتى حاران، واستقر فى إقليم كنعان(٥١)، وسار مع الفرات وعبر الأورانتو ونهر الأردن واستقر فى البلد.

وامتثل إبراهيم وقبيلته للأمر، وعبروا مكانًا يدعى سشم (Sichem) ووصلوا حتى "الوادى البراق" الذى يسكنه الكنعانيون(٥٢)، ويُوحى الإله لإبراهيم أنه هنا توجد "أرض الميعاد" الخاصة بنسلك. وانبهر إبراهيم بهذا البلد الذى شيد به مذبحًا على شرف الإله. ويعترف الكتاب المقدس بأن المجاعة التى تسبب فيها بلا شك توافد المبشر دفعتهم للهجرة إلى مصر ومكثوا بها فترة من الزمن(٥٣).

بعد مشهد سارة زوجة إبراهيم الجميلة، وموقفها مع فرعون ثم عودتها لزوجها(٥٤)، وعاد الحبر ثريا جدا ومحملاً بالهدايا التى عادت بها زوجته. عاد الجميع إلى أرض الميعاد حيث شيدوا مذبحًا للإله، ولكن لم يكونوا بالثراء الواسع الذى يكفى لعمل كل شىء، وافترق إبراهيم وابن أخيه لوط، حيث أقام الحبر مع الكنعانيين والفريسيين (Phereseens) بينما وصل لوط إلى سدوم(٥٥).

ورزق إبراهيم من هاجر ولدًا وقد بلغ من الكبر عتيا، نحو ستة وتسعين عامًا(٥٦)، وكانت هاجر هذه جارية مصرية(٥٧) اتخذها زوجة له. وطبقًا لأسطورة الإنجيل، وتجنبًا لغضب سارة فإن إبراهيم هرب ولحق به مَلَكٌ ووُلدَ له(٥٨) إسماعيل عند عودته ثانية(٥٩).

وأبرم الإله مع إبراهيم اتفاقًا يضمن له فيه النجاء وبقاء ذريته من بعده، ولكن بعد أربعمائة عام من العبودية[٦٠] استدعى من الآن فصاعداً إبراهيم وزوجته سارة التى وعدها بمولود ذكر رغم كبر سنها، فولدت إسحاق الذى باركه الإله: "ولد له من صلبه اثنى عشر أميراً وسوف أجعله زعيم شعب كبير". وأمر كذلك بختان الذكور، فى إشارة يعرف بها الشعب المختار"[٦١].

انحدر اليهود من نسل إسحاق، أما العرب فجاءوا نسل إسماعيل، والاثنان ولدا إبراهيم لكنهما غير شقيقين.

الصلات مع النوبة

بعد إعادة إخضاعها على يد منتوحتب نحو عام ٢٠٥٠، افتتح الفرعون أمنمحات الأول (٢٠٠٠-١٩٧٠) بجيشه طريق مناجم الذهب، بالنوبة وحصل على بعض المنتجات مثل خشب الأبنوس والجلود والبهارات والبخور[٦٢].

ودخلت النوبة فى عهد سنوسرت الأول (١٩٧٠-١٩٣٦) فى مرحلة من الاحتلال امتدت حتى الشلال الثالث، لعمل رصيف رئيسى على مناجم الذهب بوادى العلاقى، وقد سمحت الأعمال التمهيدية وخاصة شقه قناة بالشلال الثالث برقابة عسكرية محدودة. وفى عهد سنوسرت الثانى، كانت القاعدة هى منع النوبيين الذين يسمون نحسى من الانتقال إلى الشمال منه.

عصر الانتقال الثانى: (١٧٨٥-١٥٨٠)

عانت بلاد النهرين وسوريا فى هذا العصر من موجات متلاحقة من الغزاة، الحيثيين والكاسيين ثم الكورثيين (الميتانيين)، قادمين من الأراضى العبرانية،

مطاردين السكان نوى السمت البدوى الذين لم يكن أمامهم من حيلة سوى الهجرة فى اتجاه الجنوب وإلى مصر.

فقد غزت مصر شعوب ذات سمت محارب ومن خلفهم الرعاة من الساميين، فهل استطاعت هذه الحشود شق طريق لها بالدلتا؟ لا شىء مؤكد بلا شك فى هذا الصدد وقد تسبب الضغط المستمر فى تسلل الغزاة عبر الدفاعات المصرية ومعهم عربات القتال والخيل، والأسلحة من البرونز والحديد واستخدموها فى المواجهات المباشرة.

وهؤلاء يسميهم المصريون الهكسوس[٦٣]. وهم شعوب هندو أوربية مختلطة بالسامية من السوريين- الكنعانيين، وتسلح الهكسوس بعربات حربية تجرها الخيول مما سهل لهم عملياتهم[٦٤]. ويعتقد أن هذا الغزو كان فى عهد الفرعون آمون تيماوس[٦٥].

يعقوب- إسرائيل فى مصر

يعتقد أن بنى إسرائيل وصلوا ضفاف ما يعرف باسم لبنان اليوم منذ نحو ثلاثة عشر قرنا ق.م، وحلوا محل الكنعانيين، وظل هؤلاء قاطنين لوديان الأنهار وسهول الشمال خلال قرنين، وسوف يعودون فيما بعد باسم الفينيقيين[٦٦].

وطبقًا للكتاب المقدس[٦٧]، فقد تزوج إسحاق بن إبراهيم وسارة من ربكا (Rebecca) وولد له توأمان هما: إسحاق ويعقوب[٦٨].

وبعد ليلة من الصراع مع ملك أصبح يعقوب يلقب بإسرائيل[٦٩] من قبل الإله[٧٠]، ومن بين أبنائه، يعقوب- إسرائيل الذى يفضل يوسف، أول أبناء راشل زوجته الشابة وآخر أبنائه بنيامين.

حاول يوسف أن يزرع محبة إخوته فى قلب أبيهم، وأصبح لا يُحتمل بسبب قصه المستمر لأحلامه عن القوة والتجانس، فقرروا قتله، ولكنهم باعوه أخيراً بعشرين قطعة من الفضة لرجل من نسل إسماعيل قاده إلى مصر[٧١]، حيث اشتراه بوتيفار الذى لا ينجب[٧٢]، وهو قائد الجيوش المصرية[٧٣]؛ وتعرض للسجن لأنه رفض غواية زوجة الجنرال[٧٤] له، وهناك أظهر قدرة فائقة على تأويل الأحلام[٧٥]، وذكر أمام الفرعون الذى تمنى الحصول عليه، وقام بتأويل حلمه بتتابع الفيض والغيض، واقترح أن الحل يكمن فى التخزين، وخرج من سجنه ليصبح رئيس وزراء فرعون[٧٦]. وحدثت المجاعة التى تنبأ بها يوسف[٧٧]، ففتح مخازن الغلال وباع منها للسكان الذين يواجهون المجاعة. واشترى منها العبرانيون أيضاً وجاء عشرة من إخوة يوسف ليشتروا الحبوب، ويؤكد الكتاب المقدس على العتاب الذى حدث بين يوسف وإخوته الذين لم يتعرفوا إليه، وأبدى أنه يرى فيهم جواسيس جاءوا يتعرفون على أماكن العبور غير المحصنة. وكان ضغط الهجرة قوياً مما أثار قلقاً مستمرا عند المصريين.

احتفظ يوسف بأخ له وأطلق الباقين، وأرجع الفضة وأعطاهم القمح، وطلب إليهم أن يرسلوا إليه بنيامين أخاه الأصغر الذى يخشى على حياته[٧٨]، وعاد الجميع بعد نفاد القمح. وضع يوسف مخططاً للاحتفاظ ببنيامين، ثم يبوح بالأمر بعد ذلك، فطلب من إخوته القدوم والبقاء بمصر، فى بلد جوشن، فالمجاعة ستستمر خمس سنوات وأكد الفرعون هذا الوعد[٧٩].

ترك يعقوب – إسرائيل، كنعان وأتى لمصر مع عائلته كلها وأسكنهم الفرعون بلدة "جسن: Gessen[٨٠]".

الخروج

يفيض الكتاب المقدس[٨١] طويلاً فى شرح عملية الخروج واضطهاد اليهود على يد ملك مصر، وأمره بقتل أولاد العبرانيين الذكور ومولد موسى ونجاته بمعجزة.

وقد نُفي موسى لقتله أحد المصريين ثم تلقى رسالة من الله الذى ظهر له بجوار الأشجار المضطرمة، وأمره بالعودة إلى مصر واستنقاذ شعبه(٨٢).

طلب موسى وهارون من فرعون أن يترك اليهود يرحلون لكنه احتجزهم أكثر ليستمروا في العمل فى مبانيه. وظهرت فجأة الأدواء العشرة بمصر التى أرسلها الله لهلاك فرعون، ولكن استبقت هذه مناسبة كل منازل العبرانيين المعلمة بدماء العجل الفصحى، ولكن كل المواليد الأوائل ببيوت المصريين قد ماتوا فى الليل. أخيرًا ترك الفرعون العبرانيين يرحلون حيث ساعدهم الله على عبور البحر الأحمر عن طريق معجزة تجميد الماء(٨٣).

الحملة المصرية علي بونت

أخذ المؤرخ "جيان: Guillain" فى القرن الماضى النص القديم لديودور الصقلى الذى يجعل الحملة المصرية الكبيرة بالبحر الأحمر عام ١٦٤٣، ويبدو هذا الافتراض ضعيفًا.

التاريخ المذكور يقع فى عصر الانتقال الثانى؛ حيث كانت مصر مقسمة شطرين على مدى قرن من الزمان من عام ١٦٨٠ إلى عام ١٥٨٠ . وقد استوطن الغزاة الهكسوس الدلتا ومنف. والمبادرة بتشييد هذا الأسطول لا يمكن أن تعزى لملوك طيبة، فكامس لم يهزم الهكسوس فى نفروسى، ولم يسترد هرموبوليس ومصر الوسطى إلا فيما بعد، ولم يطرد أخوه أحمس الهكسوس نهائيا ويستولى على أواريس إلا عام ١٥٨٠(٨٤). ويبدو أن هذه الفترة الانتقالية ما بين ١٧٨٥ و ١٥٨٠، تتسم بانقطاع الصلات التجارية بين مصر والقرن الأفريقى وعدم القيام بعمليات مرور بحرية بعيدة فى البحر الأحمر.

الدولة الحديثة: (١٥٨٠- ١٠٨٥)

هزم أحمس الهكسوس وتعقبهم حتى بلدة كنعان دون أن يحرز نجاحًا يذكر، لكن المصريين كانوا قد قرروا التخلص منهم، فقد دربوا جيشًا فى حملات النوبة ووصل عن طريق البحر إلى فينيقيا، حيث اصطحب مناوئيه المهزومين. وفى عام ١٥٥٩ كان الأسرى من "الآسيويين الفنجو"، ومن الفينيقيين الذين قادوا الحيوانات إلى محاجر طرة[٨٥].

نصب تحوتمس الثالث لوحة نصر نحو عام ١٤٧١ على الضفة الشرقية للفرات. ومنذ عام ١٤٨٣ حتى عام ١٤٦٤ قاد بنفسه سبع عشرة حملة فيما وراء سيناء فى سوريا؛ رحل من "زالوا: Zalou" عام ١٤٨٣ مارا بغزة وينتشر من الكرمل ويهزم أعداءه ويحاصر مجدو حتى تستسلم. واستولى على ما سيسمى بعد ذلك بإقليم الجليل وكل موانئ "أرض جاهى" (فينيقيا والبلاد الخلفية حتى الأورانتو) خضعت كذلك، وشيئًا فشيئًا استولى المصريون على مواضع من أقدام بابل فى سنجار وآشور. وفى عام ١٤٦٤ هزم المصريون الميتانيين[٨٦]، أولئك الأرستقراط الهندو أوربيين الذين حكموا الساميين، بشكل نهائى، وامتدت أملاك المصريين من نباتا حتى الفرات واستطاع تحوتمس الثالث أن ينقش بالكرنك: "هذا الذى هزم زعماء البلدان الذين هاجموه"[٨٧].

الصلات مع بلاد بونت

بعد نهاية عصر الانتقال الثانى، وصلت الصلات بين مصر وبلاد بونت إلى ذروتها خلال عصر الملكة حتشبسوت، زوجة تحوتمس الثانى[٨٨]. فقد وضعت الملكة نهاية للحملات العسكرية لصالح البعثات التجارية، التى اتجهت إلى بلاد بونت، بعد توقف

دام خلال عصر الانتقال فيما يبدو (١٧٨٥-١٥٨٠)، وهي بعثات مهمة ومسجلة بمقبرة الملكة في الدير البحرى(*)، حيث نقرأ:

"إن أحداً لم يكن يعلم الطريق إلى أرض الإله، إن أحداً لم يصل إلى شرفات البخور، لا أحد من المصريين، فلم نكن نسمع أحداً يتحدث عن هذا إلا بالعادة عبر حكايات الناس فيما مضى".

يذكر نقش بارز مغادرة الأسطول المصرى: "لقد أرسلت أفضل المنتجات المصرية بناء على أوامر جلالة الملكة في حاتو". وهناك نقش بارز يصور العودة، حيث يصور المبعوثين من بونت يقدمون هدايا ملكية ذهبًا أو فضة، عاجًا أو بخوراً. الشخصيات المصورة صوماليون أو جالا؛ أراد البعض أن يرى فيهم إثيوبيين (أحباشًا) من عصر سابق على تأسيس مملكة أكسوم بقرون، لكن هذا الافتراض ضعيف[٨٩].

نقرأ به كذلك: "لقد غادرت من قفط في صحبة ثلاثة آلاف رجل من خيرة رجال البلاد كلها، هأنذا قد وصلت تاوو (Taaou[٩٠]) حيث شيدت أسطولاً للنقل وحمّلته بالبضائع المتبادلة"[٩١].

ماذا نستخلص من المشهد غير المتسق لهذه العلاقة؟ ثلاثة آلاف من صفوة رجالات البلد يصحبون حملة حتى القصير فهم لا يحملون شيئًا بكل تأكيد، كان يجب من أجل هذا أن يشيد من السفن[٩٢]، ربما من أجل حراسة السفن الأخرى المجرَّة. لكن لماذا يلح على ذكر "صفوة رجالات البلد؟ "فلا يهم أى حشد من الرجال كاف لهذا: الإشارة لتشييد مركب خاص للهدايا ربما يمدنا بتفسير، فهؤلاء الآلاف الثلاثة ليسوا متخصصين بقدر ما هم جنود أكفاء "في الأرض كلها". مكلفون بمهمة تشييد أسطول، منه سفينة خاصة للهدايا، هذا التفسير يجعل للنصوص معنى نوعًا ما. طبقًا للنقش

(*)النقش موجود على جدران معبدها الشهير بالدير البحرى وليس بمقبرتها. المترجم.

الغائر، تكونت البعثة من خمس سفن، وهذه بلا شك سفن تجارية وليست حربية، وكانت نقطة النزول النهائية، بعد التوقف فى عواليت ومالا ومندوس وموسيلون بكل تأكيد فى علولا عند مدخل وادى هربيط حيث؛ لا تزال تنشط تجارة العطور والتوابل.

ويصور النقش البارز ملك بونت بارهو وزوجته، التى صورت على عكس ما تتمنى؛ فالقلائد ذات حبات كبيرة حول عنقها، وهو ما نراه عند الجالا وهى كذلك منتشرة عند النساء الصوماليات. فهذه حبات من الجلد مغشاة بأوراق رقيقة من الذهب المحزز، فإذا كانت الحلى صومالية فإن السيدة ليست كذلك، فهى ضخمة الحجم جدا[٩٣].

الصلات مع بلاد ما بين النهرين

تنتهى الأسرة البابلية الأولى نحو عام ١٥٣٠ تقريبًا عند غزو الحيثيين، شعب هندو أوربى مكون من القادمين من أسيا الصغرى، وتبعهم الكاسيون حتى عام ١١٥٠ .

ووصل ساميون آخرون فى نفس العصر، والآشوريون الذين دمروا بابل ووصلوا البحر الأسود والبحر المتوسط.

ومنذ عصر تحوتمس الرابع (١٤٥٠-١٤٠٥) تؤكد الإمبراطورية المصرية وجودها عن طريق الدبلوماسية والتحالفات لا عن طريق الحروب، وتشهد على ذلك اللوحات الدبلوماسية التى عثر عليها عام ١٨٨٨ فى العمارنة. وجرت مفاوضات مع الميتانيين، هؤلاء الآريين القادمين من الهند المنافسين الدائمين للمصريين. النواة الصلبة للهكسوس أوقفت بالفعل تحوتمس الثالث فى مجدو، ثم فى الفرات، واستقبل أمنحوتب الثانى وفدًا من الميتانيين:

"عظماء ميتان الذين وفدوا إليه حاملين جزءًا على ظهورهم متوسلين نفس الحياة من جلالته، وكان هذا حدثًا عظيمًا، لم نر مثله منذ زمن الآلهة، هذا البلد الذى لم يعرف مصر أبدًا يتوسل للإله الطيب، إنه والدى رع (يقول الملك) الذى أمر هكذا... جعلنى حاميًا لهذا البلد، لأن يعلم أننى أود أن أقدمها له"(٩٤).

تبعت ذلك مصاهرات بين الأسرتين الملكيتين، فضلاً عما جرى من مناقشات حول المهور والقرابين واحترام المواثيق. قبل موته بقليل (١٢٧٠) طلب تحوتمس الثالث(*) الزواج من أميرة ميتانية تدعى تادوخيبا(٩٥)، هذه الأميرة ذات ملامح آرية تمامًا، وسوف تعرف باسمها المصرى وهو نفرتيتى الشهيرة(٩٦). وأبرمت معاهدات تجارية ألزمت مصر بتصدير الذهب إلى الآسيويين وهو المادة الخام اللازمة لصناعة الحلى والأعمال الفنية ؛ ولدينا رسالة تصف جودة معدن الذهب الخاص المصرى الذى يصدر لهذه البلدان(٩٧).

إعادة غزو النوبة

أدى وصول الهكسوس إلى تمتع النوبة بقسط من الحرية طالما حرموا منه، وحدث تقارب ما مع الغزاة، وهو الأمر الذى تطلب إرسال العديد من الحملات لإعادة إحكام السيطرة عليها.

وصل الفرعون تحوتمس الثالث الذى حكم فيما بين ١٤٨٣ و ١٤٥٠، النوبة حتى نباتا والشلال الرابع، وأبرم اتفاقات تجارية مع النوبيين(٩٨).

(*) وهذا خلط كذلك، فالذى فعل ذلك هو أمنحوتب الثالث. المترجم.

ودفع أمنحوتب الثانى (١٤٥٠- ١٤٢٥) بجيوشه حتى نباتا واحتل العاصمة النوبية.

الأسرة التاسعة عشرة: (١٣٠١-١٢٣٥)

يتسم هذا العصر من تاريخ مصر بسيادتها على المناطق الواقعة حول البحر الأحمر، فسيطرت مصر على فلسطين، وأخضع ستى (الأول) العرب والسوريين والآشوريين وقمع التمرد الإثيوبى نفسه، وقام رمسيس الثانى بحملة ضد الحيثيين ثم وقَّع معاهدة معهم عام ١٢٦٩، وأطلق التجارة فى البحر الأحمر[٩٩].

وسوف يقوم بتشييد أسطول مكون من "أربعمائة سفينة طويلة، وهى السفن الأولى من نوعها التى يراها المصريون"، ولعلنا نتذكر هنا مرة أخرى سفن أعالى البحار الفينيقية المسماة كبنتى (Kbent) أو الجبيلية الطويلة التى قد يبلغ طولها اثنين وخمسين مترًا[١٠٠]. وربما أخضع هذا الأسطول سكان سواحل إريتريا- البحر الحمر، وسوف يستولى على جزر البحر الحمر حتى الهند. وهذه الحملة كانت عسكرية أكثر منها تجارية؛ لأنها تزامنت مع هجوم رمسيس الثانى فى آسيا، والذى من المفترض أنه خرج منه نصف منتصر.

وعند عودته شيد رمسيس الثانى سورًا بامتداد مائة وعشرين كيلو متر من بيلوز حتى هليوبوليس لصد إغارات البدو[١٠١]، وربما- طبقًا لرواية ديودور الصقلى- باشر حفر قناة تصل من مصر إلى خليج السويس؛ حتى تبحر بها التجارة القادمة من جهة الشرق إلى مصر[١٠٢].

وفى عهد سيتى الأول غير المسارات التى اتخذتها القوافل فى طريقها إلى البحر الأحمر عبر إيتباى (أو الصحراء العربية) فى اتجاه الميناء الواقعة على طرق جزيرة رأس بيناس[١٠٣]، ونقلوا إليه الماء فى أحواض لتحسين ظروف النقل.

هذا الإقليم غنى بالذهب فهناك مناجم وادى علاقى، إلى الشرق من إدفو". وإلى الجنوب وعلى بعد ستين كيلو متر صعوداً من الشلال الأول، يوجد منجم آخر للذهب اهتم به رمسيس الثانى. وباشر عام ١٢٩٥ الأعمال التى بدأها والده ومهد الطرق وحفر الآبار. إن ثراء مصر وقوة تجارتها الخارجية ليستا كلمات بلا معنى:

"وهكذا، لم تكف خزائن أسيا، فقد جلب من النوبة والسودان العبيد والأحجار الكريمة[١٠٤] والأخشاب والأحجار النادرة، وفى كل عام تحمل إليه خيرات الجنوب والشمال، أليس ما تراه فى خطابات العمارنة من أمثلة مبالغة لا أصل لها: الفرعون فى بلدك والذهب أكثر من التراب[١٠٥]!".

وبموت رمسيس الثانى، كانت شعوب البحر على أبواب مصر، وتلقى الصدمة ابنه مرنبتاح، الذى سيرى الدفاعات تخترق ومنف تدمر وهليوبوليس تحطم، وتغلّب عليهم الفرعون بعد معركة دامية.

احتلال النوبة

حكم النوبة على أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣١٤- ١٢٠٠) نائب الملك وهو من بين الأمراء، وأفاد من التقدم الاقتصادى المهم آنذاك.

بينما لم يعرف سكان كوش الخاضعون للمصريين سوى حالة التبعية للشعوب المحتلة[١٠٦].

الأسرة العشرون

عادت شعوب البحر، عندما اعتلى رمسيس الثالث العرش عام ١١٩٨، واخترقت "جدران الأمير" مما جعله يشيد سفن الحرب وعربات القتال ويستدعى قوات كبيرة من

النوبة، فهو يواجه موجة غير مسبوقة من الغزاة الذين قدموا عليه مكتسحين فى طريقهم اليونان وجزيرة قبرص. واستقروا فى فلسطين جاعلين منها قاعدة انطلاق ضد مصر. وحدث هجوم مكثف ضد الدلتا عن طريق سيناء والبحر عام ١١٩١، فهاجموا جنود المشاة والنساء والأطفال وقتلوا منهم عشرات الآلاف وكانت الخسائر المصرية رهيبة، وكان على البلد أن يبذل لفترة طويلة جهده فى فلسطين، فقد ضعفت قوته هناك بشكل خطير لدرجة أن وجوده فى البحر الأحمر شهد انحساراً.

الأسرة الثانية والعشرون: (٩٥٠-٧٣٠)

ذهب بريق المجد المصرى بعد عهد رمسيس الثامن، وقد انتقلت السلطة إلى يد حريحور، كبير الكهنة اغتصب مصر فى طيبة، فى حين كانت الأسرة الشرعية وتسكن فى تانيس. وهكذا فقدت مصر سيادتها فى آسيا وفى البحر الأحمر وتراجعت شيئًا فشيئًا داخل حدودها الطبيعية. يهودا فى عهد داود وسليمان[١٠٧]، ثم آشور حلت محل مصر فى غرب آسيا[١٠٨].

باشر الفرعون ششنق الأول، وهو أحد الملوك الليبيين الثلاثة بالأسرة الثانية والعشرين، الأسرة العسكرية فى تل بسطة الغزو وحقق التماسك الداخلى بمصر، وتدخل فى شئون يهودا حتى نهاية عهد سليمان:

"أراد سليمان القضاء على يربعام[١٠٩] لكنه هرب لمصر، إلى سيساق (ششنق) وبقى لديه حتى وفاة ملك إسرائيل"[١١٠].

أحدثت وفاة سليمان صدعًا فى جدران المملكة، فقد طمع يربعام اللاجئ فى مصر، فى عرش إسرائيل بمساعدة المصريين. وأراد ربعام بن سليمان أن يثقل كاهل شعب إسرائيل ويزيد من القيود التى فرضها أبوه عليهم من قبل، ولكن سيشم طارده فاضطر للهرب إلى القدس حيث لم يحكم إلا مملكة يهودا. وتفرقت القبائل العشر،

وحكم يربعام إسرائيل واستقر في "الترسا: Tirsah" بالقرب من سيشم، وأعلنت مصر نصرتها ليربعام وحربها على ربعام[111]:

"العام الخامس من حكم ربعام، اتجه سيساق (ششنق) ملك مصر إلى القدس. وكانت معه اثنتا عشرة عربة حربية وستون ألف رجل من الفرسان ومن المشاة كثير من القادمين من مصر مع الليبيين وسكان الصحراء والإثيوبيين، وأصبح حاكما لأقوى الأماكن في يهودا وتقدم حتى القدس. ونهب كنوز المعبد وكنوز الملك ونهب كل شيء، وأخذ المجوهرات التي صنعها سليمان"[112].

قضى ربعام سبع عشرة سنة في السلطة، ثم توفي وخلفه في القدس ابنه عبيا الذي هاجم إسرائيل واضطر يربعام للهروب ووحد إسرائيل ومملكة يهودا. ومرت تسع وعشرون سنة منذ استيلاء ششنق على القدس، ثم هاجم وسركون الأول عزا ملك يهودا وعبيا[113].

يسمى الإنجيل ششنق زاراك بلا شك بسبب المكان الذي جاء منه جيشه ويلقبه بالإثيوبي:

"قدم زاراك يهاجم عزا ومعه مليون من الرجال وثلاثمائة عربة حربية وتقدم حتى ماريزا (Maresa)، وتراجع عزا أمامه ونظم جيوشه في معركة في وادي زفات (Sephat) بالقرب من، لكن الإله ألقى الرعب في قلوب الإثيوبيين الذين كانوا أمام عزا ويهودا ولاذ الإثيوبيون بالهرب"[114].

تقهقر المصريون منهزمين حتى وصلوا جيرار حيث "هزموا تماماً ولم يتبق منهم أحد".

أخذ الدور المصري في التراجع ودبت الفوضى في مصر، حتى إن الملوك أعلنوا الثورة على فراعنة الأسرة الرابعة والعشرين (٧٣٠-٧١٥) واستولوا على السلطة في الأسرة الخامسة والعشرين.

واتسم عصر سفيك (Sevech)، ساباكو طبقًا لهيرودوت بالعنف وأحرق بكوريس حيا وهو أسيره:

"أصبح أمراء تانـيس بـلا عدد وفقد أمـراء منـف شجاعتهم، فقد اسـتولوا على مـصـر ودمـروا قـوة شـعـبـهـا. وقـعت مـصـر بين يدى ملوك سـفـهـاء يقودهـم ملك عنيف"(١١٥).

الأسرة الخامسة والعشرون، العصر الكوشي

ظلت النوبة خاضعة لمصر حتى عام ٧٩٠، وكذلك إثيوبيا القديمة، ثم قادت مصر وأسست بها أسرة حكمت قرنًا من الزمان. وكانت للنوبيين عاصمة قديمة جدا، هى نباتا، عادوا إليها بعد طردهم من مصر نحو عام ٦ على يد آشوربا نيبال.

الأسرة السادسة والعشرون: (٦٦٤-٥٢٥)

طرد بسماتيك الأول، مؤسس الأسرة السادسة والعشرين تالتامانى (أو تانوت آمون) آخر الفراعنة الكوشيين عام ٦٦٤ . ولم يكن بسماتيك سوى حاكم سايس فى مصر السفلى وتقاسم السلطة فى إطار نظام فيدرالى يتألف من اثنى عشر حاكمًا. وبمساعدة قوات يونانية وفينيقية استولى على السلطة، وقدم لليونانيين استثمارات تجارية كبيرة فى منطقة خاصة بالطبقة العسكرية بالقرب من مدينة تل بسطا واحتكر الفينيقيون الملاحة فى البحر الأحمر(١١٦).

ثار مائتا ألف رجل مسلح بسبب سياسة بسماتيك تجاههما وغادروا إلى إثيوبيا(١١٧)، مما دفعه لطلب مساعدات خارجية، ومن هنا جاء انفتاح السياحة المصرية على الخارج، وبخاصة تجاه اليونان، ولن يمر هذا بلا عواقب:

"استقبل بسماتيك الأجانب الذين جاءوا لزيارة مصر بكرم، وأحب اليونان جداً وتعلم من أبنائهم لغتهم، وأخيراً كان أول ملك لمصر يفتح أمام الأمم الأخرى مخازن المنتجات وأعطى البحارة الأمان، فأسلافه جعلوا مصر مغلقة في وجه الأجانب بتدمير البعض وأخذ الآخر عبيداً"(١١٨).

خاض نكاو الثاني(١١٩) الصراع من أجل السيطرة التجارية، وقد اتخذ الصراع القديم بين الإمبراطوريتين المصرية والبابلية، هدفًا واضحًا وهو الاحتفاظ بصلة بين الشرق والبحر المتوسط مصدر الكثير من المصالح التجارية، من ثم كان هناك طريقان:

- أحدهما قادم من الخليج الفارسي يمر عبر مراحل حتى يصل دمشق وصور، وكان خاضعًا لسلطات بلاد ما بين النهرين.

- والآخر، قادم من خليج عدن والبحر الأحمر ويصل مصر، وهذا الطريق كان يسيطر عليه المصريون و"حلفاؤهم"، التجار اليونان والفينيقيون، وبادر نكاو بالهجوم، ففي عام ٦٠٩ هزم السوريين واليهود في موداجو واستولى على سوريا ووصل حتى الفرات دون مقاومة تذكر. وعند عودته ولّى على يهودا يواقيم بن يوزياس (Jouias) الذي قتل في المعارك. وبعد سقوط نينوى، طالبت الملكية الكلدانية والبابلية بحقوقها في سوريا فكان الصراع، وهزمهم نبوخذ نصر عام ٦٠٤، ووصل الفرات عند معبر سرسيزيوم "Circeseum: قرقميش" متطلعًا إلى مصر. ولم يهاجم نبوخذ نصر هذا البلد لعلمه بنبأ وفاة أبيه، ووقع اتفاقا بموجبه انسحب نكاو من آسيا!

"ولم يعد ملك مصر يخرج من بلده؛ لأن ملك بابل استولى على الفرات وكل ما يخص ملك مصر في آسيا"(١٢٠).

ولم يفقد نكاو اهتمامه بمصير يهودا، فقد أرادها دولة حاجزة، وفي نفس الوقت لم يدع له نبوخذ نصر الوقت لفعل شيء، فقد أزاحه عام ٥٩٨ الملك يواقيم حليف

المصريين ووضع مكانه زدياك (Zedikeias) ومنذ ذلك الحين ركز نكاو الأول اهتمامه فقط على تطوير التجارة فى البحر الأحمر.

فى الصراع المنهك بين الإمبراطورية المصرية وإمبراطورية بلاد ما بين النهرين للاحتفاظ بطريق الشرق الذى يصل الشرق بالغرب، كادت مصر تخسر المباراة. ولأخذ المبادرة، قام نكاو بمشروع يصل نهر النيل بالبحر الأحمر، وهذا العمل الذى ربما تكون له أصول سابقة ينطلق من الفرع الشرقى لدلتا النيل، من بعد تل بسطا فى اتجاه الداخل، خليج السويس. وهى قناة واسعة تسمح بمرور سفينتين من النوع ثلاثى المجاديف من الأمام، وتسمح بالوصول للبحر الأحمر بعد ملاحة أربعة أيام. أفنى مائة وعشرون ألفًا من الرجال أعمارهم فى العمل الذى أوقفه الفرعون، عندما أخبروه بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى النيل، مما يهدد البلاد بفيضان من الماء المالح(١٢١). أخبرته نبوءة أنه باهتمامه بمدخل مصر يعمل من أجل البربر.

قام نكاو برحلة حول أفريقيا بهدف اكتشاف بلدان أخرى ومصادر تجارية أخرى وطرق بحرية أخرى، وهذه الحملة معروفة باسم "رحلة نكاو البحرية"، ويورد هيرودوت عام ٤٤٥ هذه القصة التى سمعها من المصريين:

"تشير ليبيا لنفسها بأنها محاطة بالبحر فيما عدا الجانب الذى توجد فيه أسيا، ونيكوس (نيكاو II)، ملك مصر، بعد ما توقف عن حفر القناة التى من المفروض أن تقود مياه النيل للخليج العربى(١٢٢) جعل الفينيقيين يرحلون على مراكب، مع الأمر بالدخول عند عودتهم، عن طريق أعمدة هرقل والعودة بهذا الأسلوب لمصر".

وصل الفينيقيون البحر الإريترى وأبحروا فى البحر الجنوبى. وعندما يأتى الخريف، يصل سكان ليبيا حيث يبذرون القمح وينتظرون وقت الحصاد، وبعد جنى المحصول يمتطون البحر ويرحلون خلال عامين والعام الثالث يضاعفون أعمدة هرقل ويعودون إلى مصر.

"يقصُّون عند عودتهم أنهم عندما يكونون عند ليبيا يرون الشمس على يمينهم، ولا يبدو هذا معقولاً، ولكن يبدو أنه مكان آخر. وهكذا تعرف ليبيا للمرة الأولى"(١٢٣)، وهكذا يقوم الدليل على أن الفينيقيين قد وصلوا فى القرن السادس ق.م لسان جاردافوى بطول السواحل الأفريقية الشرقية، وهذه المغامرة الوحيدة تستحق أن نتمهل قليلاً فى عرضها.

يمكن أن نحدد مكان الانطلاق وهو بكل تأكيد القُصير، وهو النقطة الأكثر قربًا من النيل، أما الفترة الزمنية خلال العام فتمددها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ونعرف أن ذلك يكون فى يونيه فى أفريقيا الشرقية واليمن، حيث يوجد الهواء فى البحر الأحمر مسببًا رياحا شمالية غربية مناسبة جدا للملاحة، وتكون هذه الرياح مقبولة حتى ١٩ درجة موازية لخط الاستواء فيما حول بورسودان، وتصل السويس حتى ٣٠ درجة ابتداء من يوليو، فهى تكون فى القصير فى نهاية يونيه، وفى هذه الفترة ينصبون أشرعتهم. ويسيرون بسرعة ١٢٥٠ ميلاً بحريا للخروج من البحر الأحمر، وأكثر من ٤٠٠ للوصول لجاردافوى، ويرتفع هذا السان قبل نهاية سبتمبر الفترة التى تهدأ فيها الرياح الجنوبية الغربية وتكون فى خليج عدن غير مواتية للملاحة، ولكن العبور المبكر يجعل احتمال وجود الرياح فى بداياتها كبيراً، ولا يمكن للفينيقيين أن يتجاهلوا هذا، فأسلافهم قاموا بالعديد من الرحلات حتى جاردافوى لحساب المصريين.

ومن ثم يكون الانطلاق من القُصير نحو ٢٠ يونيه، أسطول حديث يسير بالليل كما يبحر بالنهار وسط البحر الأحمر بدون عوائق، ولكنهم يجرون بالقرب من الساحل نهارًا فقط لتجنب المخاطر، وللعناية بعمليات التبادل للتزود بالماء والغذاء، ولا مفر من فقدان بعض الوقت، ويمكن أن نخمن وجود أسطول من بلاد ما بين النهرين للملاحة البحرية الطويلة، وتصل سرعته المتوسطة نحو خمس عقد فى الساعة ليقطع نحو ٤٠ إلى ٥٠ ميلاً فى اليوم، والملاحة يوم ويوم تبدو متفائلة نظرًا لحدوث تلف يحتاج إلى

إصلاح له يتم ووجود ريح غير مواتية تهب فجأة وارتفاع فى البحر، ومن ثم من الأفضل حساب يوم من ثلاثة للإبحار فى رحلة استكشافية.

والخروج من البحر الأحمر فى هذه الظروف يستغرق ٢٥ يومًا ملاحة أى ٧٥ يومًا إجمالاً، يمر الفينيقيون من باب المندب على الأكثر فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر إلى ٤٠٠ ميلا تتطلب ثمانية أيام من الملاحة الفعلية، ويمكن أن يقل بالإبحار لمدة يوم كل يومين فى خليج عدن، فالملاحة فيه أسهل، ومن ثم يمرون بجاردافوى بين ١٥ و ٣٠ سبتمبر فيما يفترض.

تقابل هذه الفترة فى الصومال نهاية فترة قوصى (Kusi)، موسم الجفاف الذى تتخلله بعض الأمطار ورياح جنوبية غربية، أما الدير (Der) فهو موسم الأمطار الخفيفة والبحر الهادئ وهبوب النسيم، ويوجد بين الاثنين شانجامبيلى (وقت الشراعَيْن بالسواحيلى)؛ والذى يستمر أسبوعين، وتخف الرياح لدرجة أنها قد تتلاشى وتتوقف معها مركب شراعية؛ فإذا ما وصل الفينيقيون جاردافوى قبل الدير يجدون الرياح فى بداياتها وتستمر بعض الوقت، أما الشانجاميلى فتوجد فى منتصف أكتوبر، مع هبوب هواء خفيف على يسار السفينة، ويكون هذا غالبًا عند هدوء البحر، فكم تبلغ سرعة مركب العصر فى ظل هذه الأحوال؟

الشراع الثلاثية الوحيدة التى توجد أعلى السارى المثبت كما نراه على تابوت بمتحف بيروت، هى الوحيدة التى تحملها الرياح بشكل صحيح فى عرض البحر، كما أفاد الفينيقيون كذلك من اندفاع تيار الماء فى الجنوب بسرعة عقدة ونصف العقدة، وإذا ما أضفنا هواء الشرق إلى اندفاع الماء يمكننا القول بأن السرعة قد تصل إلى عقدتين. والقوصى (Kusi) موسم جاف تقريبًا والوديان الموجودة على الساحل كذلك تعانى من الجفاف، موارد الماء موجودة لكنها نادرة، فأول نهر يصب فى البحر هو جوبا على بعد ٨٥٠ ميلاً بحريا إلى الجنوب، ويمكننا القبول بأنه بعد فترة من الهدوء تستمر نحو أسبوع فإن السرعة فى الساعة تصل إلى خمس عقد عندما تهب الرياح

الشمالية الشرقية، ومن المؤكد أن بحارة ذوى خبرة مثل الفينيقيين فى مواجهة ساحل مستوٍ ورَمْلى وفى بحر عميق بلا عوائق يغامرون بالإبحار ليلاً مستفيدين من الهواء الذى يهب من الشرق، ويعرفون كيف يتفادون سلسلة الجزر الخمسمائة الصغيرة فى بادجونى، وبحسبة بسيطة تقريبية نجد أنهم يصلون جوبا بعد خمسة عشر يومًا، ولا يمكنهم أن يخطئوا مصبه أو أن يقاوموا رؤية أول نهر أفريقى يجرى تحت أعينهم منذ بداية رحلتهم بالإضافة لانتشار الرقعة الخضراء؛ لأننا تحت مستوى خط الاستواء. فماذا يشتهون بذره فى موسم الزراعة الأول بالنسبة لهم؟

فالفينيقيون وصلوا هذا الإقليم تقريبًا فى نهاية شهر أكتوبر. وربما تم الحصاد فى فبراير، وأخذوا طريقهم جنوبًا مستفيدين من استقرار الرياح واعتدالها قادمة من الشمال الشرقى فى هذه الفترة.

يبقى أن نعلق على دهشة هيرودوت الذى يروى أن الفينيقيين ربما شاهدوا الشمس عن يمينهم، ألا يمكن أن يتعلق الأمر بالدهشة لرؤيتها تشرق فى هذا الاتجاه، لأن أى بحار فى البحر الأحمر يمكن أن يراها هكذا ويمكن أن يبحر فى الاتجاهين، فى الخليج العربى، وربما تأكد هيرودوت من نفس الشىء عندما رجع لليونان ذات صباح، فعن أى شىء يتحدث إذن؟ أليس عن وضع الشمس فى وسط السماء عمودية على الرحالة عند خط الاستواء الذى يمر رويدًا رويدًا نحو يمينه فى نصف الكرة الجنوبى؟

العصر المتأخر

إنه لأمر غريب، أننا بينما ندرس الصلات بين مصر وبلاد ما بين النهرين، نجد شعوب بلاد النهرين المستقرة حول النهرين تصل المحيط الهندى عن طريق الخليج الفارسى، وهو أمر مهم لذلك الذى يعبر جبال فارس وأرمينيا أكثر منه لأولئك القاطنين

ضفاف المتوسط. ونجد عبر العصور اهتمامًا متزايدًا بفتح طريق أرضى شمالاً نحو أوربا؛ للحفاظ على التدفق التجارى القادم من الشرق.

تبدل هذا الموقف مع قدوم آشور بانيبال الثانى (٨٨٣-٨٥٩) الذى استأنف التوسع الآشورى وخليفته تجلات بلاسر الثانى (٧٤٥-٧٢٧) الذى توسع فى اتجاهات ثلاثة، لكى يدفع الشعوب الميدية للهجرة لغزو بلاد النهرين، وأخضع سوريا وفلسطين للجزية وأخذ طريقه تجاه مصر والبحر، وعقد اتفاقًا مع بابل وبحث سبل توحيد المملكتين، ونجح أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) ، فى غزو مصر ونهب طيبة، ثم كانت نهاية آشور على يد فارس، فالميديون شعب من السهول العليا الإيرانية، قدموا ودمروا نينوى عام ٦١٢[١٢٤].

انفرط عقد الاتفاق المبرم بين "طبقة الكهنة وطبقة العسكريين"[١٢٥] فى مصر منذ عهد بسماتيك ونكاو، وهؤلاء العسكريون مهاجرون من إثيوبيا بلا سلاح نجدهم بين أيدى الأجانب لكن انتعشت تجارتهم. وقد انقض أحمس المغامر على السلطة عام ٥٦٩، ويرهن على تمتعه بحس تجارى حيث انتعشت البلاد فى عهده حتى إنها ستصبح ثمرة ناضجة سهلة القطاف للغزاة من الفرس.

دور الساميين

وصل الساميون الأوائل إلى أرض فلسطين فى الألف الثالثة، واستقروا فى الإقليم الذى يسميه الإنجيل كنعان وعرفوا باسم الكنعانيين[١٢٦]، وأسس ساميون آخرون وأموريون نحو عام ٢٠٠٠ أسرة بابل ثم غزوا فلسطين، وفى نهاية الألف الثانية وبسبب من الفوضى السياسية فى بلاد ما بين النهرين، تحرك ساميون آخرون، والعبرانيون[١٢٧] والأرمن، وهؤلاء كانوا قد استقروا منذ زمن طويل فى الإقليم، يدخل الأوائل أرض كنعان التى أصبحت يهودا ثم فلسطين والآخرون وصلوا سوريا[١٢٨]. من

الواضح أن كلمة "يهودى" لا تنسحب على جنس محدد، ولكن تدل على خليط من شعوب متنوعة فى مقدمتهم الأرمن والكنعانيون.

يرصد الكتاب المقدس[١٢٩] ترحال الشعب العبرى، وقد استشهدنا بثلاث مراحل رئيسية من ذلك الترحال عند الحديث عن دور مصر:

١- تكوين نواة أولى عبرانية فى شمال بلاد ما بين النهرين، هجرة الحبر إبراهيم بطول الفرات حتى حاران، ثم الهبوط إلى فلسطين الأرض التى وعد بها الله، وربما حدثت هذه الهجرة فى النصف الأول من الألف الثانية[١٣٠].

٢- الهجرة والإقامة فى مصر حيث أصبحت جاليتهم مهمة جدا، وجعل فرعون بعد قرون وجودهم صعباً مما دفعهم للفرار تحت قيادة موسى[١٣١].

٣- رحلة العودة الفلسطينية، والمرور بالبحر الأحمر وحادثة وحى الله لموسى التى حدثت خلال هذه العودة.

يحكى العهد القديم تاريخ العبرانيين، وهو أصل الديانات اليهودية المسيحية، ونصه يدعو لإيمان المؤمنين؛ مما يعطيه قيمة أخلاقية مثل الأناجيل والقرآن.

فما موقف المؤرخ أمام نصوص مقدسة؟ ربما تعود المقارنة الموضوعية بمصادر أخرى للحقيقة التاريخية ولكنها نادرة، ويمكن أن نجد عدم اتفاق بين هذه وتلك.

ولقد قبل مؤرخ كبير مثل جيمان منذ أكثر من قرن، وفى عام ١٨٦٩ وهو متخصص فى التاريخ القديم- الكتاب المقدس كحقيقة تاريخية[١٣٢]. ومع نهاية القرن التاسع عشر وضع بعض العلماء الألمان من البروتستانت أعمالاً جادة لتفسير النصوص المقدسة التى توردها الكنيسة الكاثوليكية، وجعلوا هذه النصوص موضع النقاش والتساؤل.

أنشأ الأب لاجرانج عام ١٨٩٠ المدرسة الإنجيلية فى القدس، والمبادئ الدينية التأويلية التى حددها تقسم فى المؤتمر الكاثوليكى العلمى فى فرايبورج عام ١٨٩٧، ووضع قاعدة البحث والنقد التى استمرت فيما بعد، وهى "أن الحدث التاريخى يمكن أن يتعارض مع الإنجيل، والعالم الكاثوليكى لا يكون بذلك جاحداً ولا يوضع إيمانه موضع الشك".

أما الكنيسة الكاثوليكية فهى ترفض ما لا تثبته النصوص المقدسة أى عمل علمى يمكن أن يتم فى ظل هذه الظروف؟ هل يدرس المؤرخ ما هو معروف مسبقًا؟ بى (Pie) العاشر قطع فى هذه المسألة عام ١٩٠٨، بحرمان ألفريد لوازى، وهو كاهن كاثوليكى قام بتدريس العبرية والكتابات المقدسة بالمعهد الكاثوليكى فى باريس. ألم تكن لديه الشجاعة عندما استند على المعطيات العلمية لعصره فى الإشارة للاختلافات المحتملة لتأويل النصوص المقدسة؟ لم يعان لاجرانج نفسه عام ١٩٠٢ من منع أعماله حول سفر التكوين، وهو الأمر الذى أنهى بشكل أكيد دراسة العهد القديم لكى تكرس هذه فقط لدراسة الأناجيل[١٣٣].

تقتضى العلة ألا يفقد المؤرخ ولا القارئ رؤية أننا فى الشرق فى بلاد العجائب والخيال والذاتية، قامت الشعوب السامية بتجاربهم الأولى فى التفكير الروحى والتنظيم السياسى فى حين كانت أوربا فى سبات عميق. ويمكن من ثم قبول قصة فى شكل حكاية خيالية جداً تخلط الحقيقة بالخيال، تقديم سابق وتعليق لاحق على الأحداث المدهشة مشتركة مع الرهبة من الإله، هى موضع الإجابة عن كل ما هو مجهول وغامض، وكانت هذه هى العناصر التى فتحت الطريق أمام سلوك اجتماعى وفكرى للإنسان، ومن ثم أمام أمة وإيمان وبكلمة واحدة حضارة، ابتداء من الأفراد البسطاء ناهيك عن المحرومين.

ماذا يمكن أن تحمله حقيقة تاريخية مكونة من عناصر نادرة تاريخيا ضمن حكاية إنجيلية؟ فى الحقيقة ما تحمله قليل.

من الواضح أن إبراهيم الهارب من الغزاة (الحيثيين) إلى برج بابل وجد الكنعانيين مستقرين على الساحل، ولم يصل بعد ليستقر بوادى الأردن، وحاول فى مغامرته الوصول إلى مصر، حتى هنا تتفق الحكاية الإنجيلية مع منطق حركات الهجرة فى العصر نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

كيف كان استقباله فى مصر؟ إن مشهد فرعون المغرم بسارة غير مقنع. هل رحل إبراهيم مع القبائل الأولى التى فرت إلى الدلتا، وهل بقى بها بضعة أعوام ثم عاد الجميع؟ وهل هدايا فرعون إلى سارة هى سبب ثرائها المفاجئ؟ هل سرقت القبيلة بعض الكنوز؟ لا يبدو أن إبراهيم قد أقام بمصر وأنه وفع بلا شك ليغادر سريعاً.

وبالنسبة لهجرة يعقوب- إسرائيل- لمصر، بعد أن علمنا بما فى الإنجيل، هل يمكن أن نحمله بعض العناصر المستقاة من شجرة النسب التاريخية؟ من المرجح أنهم تراجعوا جنوبياً أمام الهكسوس المطاردين بدورهم من غزاة آخرين، وغادر أولاد إبراهيم حاران، أمام ضغط حركة الهجرة، ولكنهم رغم كل ذلك كانوا يبحثون عن الفرار من أرض لا غذاء بها. ووصل ساميون آخرون وهم الآدوميون الذين سيصبحون العبرانيين إلى أرض كنعان فى نفس الفترة، ولم يواصلوا الهجرة نحو الجنوب فاستقروا فى كنعان، ووجدهم المصريون بها فى القرن السادس عشر ق.م.

يرى بعض المؤرخين فى قبيلة يعقوب- إسرائيل، إسرائيليى مصر فى مقابل الآدوميين، وعبرانيى فلسطين- "الحلفاء البدو لإمبراطورية قادش وإمبرطورية الهكسوس"[١٣٤]، والتحق يعقوب- إسرائيل ومعه سبعون من قبيلته بالكنعانيين[١٣٥] وربما تبعوا الهكسوس[١٣٦] عندما كانوا فى بلاد جوشن، بين تانيس وتل بسطا، وهو إقليم خصب فى وادى طميلات، وطبقًا لأسطورة قديمة وكان وصولهم إلى مصر فى عهد الملك أبوفيس[١٣٧].

نصب الهكسوس ملكًا عليهم يدعى سالاتيس (أبوفيس)، وقد حكم من منف؛ وحصن مدينة أواريس على الحدود الشرقية، لكنه خشى بدوره من غزو الآخرين[١٣٨].

يجعل يوسف[١٣٩]– المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول– من الهكسوس العبرانيين، ولكن لا يزال ينقصه الدليل، ولكن هانوتو تحقق من أن الساميين كانوا الأكثر عددًا بين هذه القبائل، جاعلاً وصول الإسرائيليين لدلتا النيل نحو عام ١٦٨٠ فى وقت وصول الهكسوس[*]، ويذكر، بهذا الصدد، أننا نقرأ على جعارين العصر اسم ملك مغتصب يدعى يعقوب – إيل، ويقدم افتراض بريستد القائل بأن هذا الملك اغتصب السلطة المحلية وهو معاصر ليعقوب– إسرائيل– فى هذه الفترة[١٤٠] ، فهل كان يعقوب– إيل خليفة سالاتيس؟

زوجة العقيم بوتيفار وأسطورة موسى الذى نجا من الماء التى ربما جاءت من قصة مصرية[١٤١]، ربما كانت أقل مصداقية، وبالمقابل فإن اعتلاء أجنبى لأعلى المناصب لدى فرعون ليس حالة فريدة، فتوجد حالات مشابهة أخرى[١٤٢]، واستدعاء الأجانب لهذه المناصب كان شائعًا فى عهد الملوك الهكسوس[١٤٣]. والنقطة الوحيدة التى تستحق التأصيل لأهميتها هى فترة بقاء الإسرائيليين فى مصر، فكل المؤرخين القدماء يرجعون الكتاب المقدس كمصدر لهم، ألم يقل الإله لإبراهيم:

"سيبقى نسلك فى أرض أجنبية يخدمون فى مشقة لمدة أربعة قرون"[١٤٤].

لم يتردد جيمان[١٤٥] عام ١٨٦٩ فى تحديد المدة التى أمضاها اليهود فى أرض جسن (Gessen) بـ ٤٣٠ عامًا بالضبط، وكانوا ٦٠٠٠٠٠ رجل فى حالة حرب، وهذا

(*) هذا رأى الكاتب وهو مخالف لأغلب الآراء التى تجعل وجودهم فى عصر لاحق لعصر الهكسوس بكثير. المترجم.

الرقم يتطلب أن يكون عدد السكان نحو ٢,٥ مليون فرد، فهل من المعقول القيام بهجرة ضخمة كهذه عبر سيناء القاحلة حيث تندر الآبار ويتعايش الناس ببقايا مستقاة من الرعى؟ يقدر الأب لاجرانج[١٤٦] مؤسس المدرسة الإنجيلية فى القدس عدد الجالية اليهودية فى مصر بمليونين، وفى عام ١٨٩٢ وبعد عبوره الصحراء على ظهر جمل عاد فغير هذا العدد.

ومع ذلك فافتراض وجود عدد كبير لليهود فى "بلدة جسن" لا يبدو مقبولاً أو مقنعًا، وقد وضع كاتب من عصر رمسيس الثانى يدعى بابسا قائمة مدهشة:

"وصلت بر رعمسيس محبوب آمون ووجدتها مزدهرة تمامًا، مدينة جميلة! تشبه طيبة. ريفها ملىء بالطيبات، مياهها وأسماكها وأحراش طيورها وبراريها مليئة بالخضرة والعشب وثمارها بطعم العسل، بصل وكرّاث، أعناب وزهور على أغصانها رمان وتفاح وزيتون وتين فى البساتين والخمر من كنكمه (Kenkemè) أشهر من العسل. مياه حورس تحمل معها النطرون، وتقدم المراكب من بعيد وتعود للميناء وسيختلفون من أجلها بأعياد السماء وبدايات الفصول، وتمتلئ المستنقعات بالبردى ومياه حورس بالأزهار، وتحمل إليه طيور إقليم الشلالات والناس فى بر رعمسيس، عظيم الانتصارات يرتدون ملابس العيد كل يوم واضعين أقماع العطور على رءوسهم وشعرهم مصفف"[١٤٧].

أرسل الملك داود، والد سليمان، الذى حكم نحو عام ١٩٥٠، يستدعى رعاياه حتى سيحور بمصر وبيبست (تل بسطا) وحتى تانيس أو صوان[١٤٨] ، وكان اليهود بالفعل كثيرين بمصر فى هذا العصر، فالخروج يوضع فى عهد مرنبتاح بن رمسيس الثانى نحو عام ١٢٣٠، ومن الواضح أن هذه الهجرة لا تشتمل إلا على جزء من الجالية اليهودية الإسرائيلية فى جوشن (Goshen)، ويضع ماسبيرو الخروج فى نفس العصر، لكنه يرى أنه يتعلق بنسب صغيرة: "يتضح بسهولة أنه فى منتصف فترة الفوضى الدولية، هاجرت قبيلة من الأجانب التى عانت كثيراً من أماكنها إلى آسيا دون أن

يهزمها تمامًا الفرعون القلق جدا من الهم الضاغط؛ نظرًا لاختفاء جزء من العبيد"(١٤٩).

يضع هانوتو الإسرائيليين مع الهكسوس، بعد الاستيلاء على أواريس عام ١٥٩ في بداية الأسرة الثانية عشرة، ويرى أن إقامة الإسرائيليين بمصر لم تدم أربعة قرون ولكن قرن واحد فقط، وعند عودتهم لسوريا وبلاد كنعان، سيكونون الخابيرى، شعبًا ساميًا بدويًا سبب كثيرًا من المصاعب لهذه الأقاليم وللسكان المستقرين بها، مثل الكنعانيين القدامى جدًا والحيثيين أو الميتانيين، وطبقًا لهذا الافتراض يكون خروج الإسرائيليين من مصر فى القرن الثالث عشر ق.م، أى قبل عصر رمسيس الثانى وعصر ابنه بوقت طويل.

وهذا الافتراض ضعيف: فكيف لسبعين من المهاجرين يصبحون مليونين بعد أربعة أجيال فقط؟ يعود هانوتو إلى إزعاج الإسرائيليين بمصر، وأيضًا إلى حركة التمرد الذى طبقًا للكتاب المقدس استدعت المعاملات السيئة، ويذكر أن مصر فى هذا العصر كانت ضحية لسياسة استجلاب الأيدى العاملة، فكثير من السكان الأجانب امتهنوا أعمالاً شاقة، فى المحاجر والمناجم وبناء القصور والأماكن المحصنة والمعابد، ومع مرور الزمن، تضعف الرقابة وتندلع الثورات، ولم تكن ثورة العبرانيين سوى مجرد مثال(١٥٠).

وما يثير الغيظ؛ استخدام هؤلاء الأسرى الأجانب بعد حملات تحوتمس. فتحوتمس الأول من التحامسة الأربعة حكم من ١٥٣٠ حتى ١٥٢٠، أى بعد الاستيلاء على أواريس بنصف قرن، وماذا يعنى هذا؟ يعنى احتمال وجود ثورات من هذا النوع فى هذا العصر، ولماذا لم يختلط الإسرائيليون بهؤلاء؟ وإذا كانوا كثيرين كما يفترض جيمان، فلماذا يرتحل الجميع؟ ولا ننس أنهم بعد عبورهم البحر الأحمر ظلوا أربعين عامًا فى سيناء، فهل لنا أن نتخيل حصارهم إبان هجمات المصريين التى تلت هزيمة الهكسوس؟

وكذلك فقد استجلب رمسيس الثاني- بعد عصر تحوتمس بنحو ثلاثة قرون- أيضًا أسرى كثيرين ليقوموا بالأعمال الثقيلة، فأنتجت نفس المقدمات ذات النتائج، فكانت الثورات، ويقص الكتاب المقدس أن الفرعون شيد مدينة رمسيس لليهود، وأن هذا الملك مات بعد عمر طويل، وهو ما ينطبق على رمسيس الثاني الذى حكم ثماني وستين سنة.

وطبقًا لمانيتون المؤرخ المصرى- من القرن الثالث ق.م[١٥١]- حدث تمرد من بعض القبائل من " بقايا الغزو القديم" ضد السلطة المصرية فى عصر مرنبتاح (1224-1235)، وكانوا ينعتون بـ "الأنجاس"، وأسرهم الفرعون فى محاجر سيناء، وأعطاهم أواريس "عوضًا رئيسيًا"، ويحدد مانيتون أنها كانت "القلعة القديمة للملوك الرعاة"، ويبدو هذا صوابًا، لأن أحمس الأول طردهم عام ١٥٨٠، وهذا لا ينفى أن يكون من بينهم إسرائيليون، ونظمت هذه القبائل نفسها وغزت مصر بعدد قوامه ٢٠٠٠٠٠ رجل، وطبقًا لنبوءة قديمة فإن فرعون هرب لإثيوبيا تاركًا مصر فريسة للمجزرة والتدنيس، ثم عاد بعد ثلاث عشرة سنة وفى صحبته ولده سيتى ومعًا طاردوا الأنجاس حتى حدود سوريا.

يقول مانيتون: إن زعيم "الأشرار أو الأنجاس" "كاهن هليوبوليس" ويدعى وسرسيف، وغيّر اسمه إلى موسى، فإذا اكتسبت هذه الإشارة قيمة رمزية، وجب أن نستخلص منها أن إسرائيليين كانوا لا يزالون بمصر، وأن وسرسيف بحث عن دور المنقذ الثاني، على الأقل إن لم يكن هو موسى نفسه.

ولا يمكن القطع بتاريخ الخروج، فهناك ثلاث روايات:

- رواية الإنجيل

قدم إبراهيم مصر نحو عام ٢٠٠٠، ونما دورها، ولم يتبق أى عبرانى بمصر، يعقوب- إسرائيل الذى دعاه ابنه يوسف ليستقر مع قبيلته بها نحو عام ١٦٨٠[١٥٢]

لأربعة قرون، ونظراً لتعذيبهم فى عهد رمسيس الثانى، فإنهم غادروا مصر طواعية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر.

- رواية هانوتو

غادر إبراهيم لكنه ترك بعض العبرانيين، والتحق إسرائيليون بالهكسوس مستفيدين من الهجرات التى تتوالى، وكان أولئك الهكسوس قد [١٥٣]غزوا مصر نحو عام ١٦٨٠، واستولوا على نفس السلطة لفترة فى عهد يعقوب- إيل، وطردهم أحمس نحو ١٥٨٠ فى نفس الوقت مثل الهكسوس، وطبقًا لهذا الافتراض فإن أحفاد الإسرائيليين ظلوا فى جوشن أو هؤلاء الذين أخذهم تحوتمس فى حملاته (١٥٥٧-١٥٠٥) وأخذهم رمسيس الثانى للأعمال الشاقة (١٣٠١-١٢٣٥) مع أسرى آخرين، وتمردوا وأثاروا القلاقل وتجمعوا فى أواريس فى عهد ولده مرنبتاح (١٢٣٥-١٢٢٤)، واستولوا على السلطة، ولكنهم أبعدوا عنها بعد ثلاث عشرة سنة.

- رواية أخرى

تختلف عن الرواية السابقة فى تاريخ الانطلاق؛ ووفقًا لهذه الرواية فإن الخروج عام ١٥٨٠. غير محتمل بسبب تزايد السكان المؤكد، ويقع فيما يبدو فى عهد مرنبتاح نحو عام ١٢٣٠، ومن المحتمل أنهم لم يزيدوا على عدة آلاف من الإسرائيليين من مليونين غادروا مصر.

ماذا تحمل الحقيقة التاريخية من حلقة العبور المعجز للبحر الأحمر؟ سار الإسرائيليون متتبعين الوادى الأخضر بوادى طميلات، وخرجوا من البحيرات الساحلية مكان بحيرة التمساح الحالية، ويذكر هانوتو بحق بأن البحر الأحمر كان

يمتد فى العمق حتى بوغاز السويس، ووصلت أمواجه فيما سبق إلى المكان الذى ترتفع عنده المدينة الجميلة مدينة الإسماعيلية[١٥٤].

وفى انحساره ترك بحيرة التمساح التى يغلقها مدخل السرابيوم، ثم البحيرات المرة التى لا يفصلها عنه سوى مدخل الشالوف المرتفع نحو خمسة أمتار، وفى هذا المكان يحدث البحر الأحمر "تقلبات أمامية مصطحبًا معه فى كل مرة طبقة من الملح"[١٥٥] .

ويمكن أن نتخيل أن الإسرائيليين عبروا من هنا على أقدامهم، وانبهر المصريون بأحد هذه التغيرات البحرية. وقد أثبتت الاكتشافات أنه فى الجنوب كان يوجد "طريق الحجيج" أو درب الحج[١٥٦]، والذى كان مهجورًا لفترة طويلة لصالح الطريق الأقدم الذى يرجع لعصر رمسيس الثالث، الذى يصل للنيل عن طريق الأقصر والقصير، وتأتى البضائع من اليمن والهند، ويسمح بعبور البحر الأحمر حتى جدة، وفى عام ١٢٤٧م، استخدم طريق سيناء فى عهد السلطان المملوكى بالقاهرة، وسمح من ثم بالانتقال من القاهرة حتى جدة عن طريق العقبة بعد رحلة تبلغ نحو ألف وأربعمائة كيلو متر فى أربعين يومًا[١٥٧]:

"يحد هذا الطريق خطان من الحجارة البيضاء، ويبدو أقل استخدامًا بسبب كثير من الصعوبات التى يقابلها المسافر عند عبوره وانعدام الأمان بالتالى"[١٥٨].

لا يمكن أن نستبعد أن موسى وأصحابه قد عبروا منطقة بحيرات فى سبيلها للردم والامتلاء بالرمال؛ لأن المياه هنا ليست عميقة، ومن ثم تصبح خطرة للعربات المصرية بسبب طميها الكثيف. وتجدر الإشارة إلى الافتراض القائل بانفجار بركان بجزيرة "سانتوران: Santorin" ويؤرخ بنحو عام ١٢٠٠، وهو تاريخ مناسب، وربما كان هذا الانفجار وراء تسونامى عملاق[١٥٩].

يود التقليد - وليس الكتاب المقدس - أن يرى أن موسى قد توقف فى الواحة التى توجد بها ينابيع تحمل اسمه: عيون موسى على بعد ستة عشر كيلو متر من خليج السويس وكانت سيناء دومًا أرضًا للجوء والإيواء، وعرفها موسى وأقام بها فى المنفى، ولاشك فى أنه عبر رايتو أو الطور (الجبل) ميناء صغيرة على خليج السويس. ومن هنا توجد طرق ثلاث تؤدى إلى جبل سيناء، حيث تلقَّى موسى أوامر الإله، وجبل هارون حيث نصب العجل من الذهب[١٦٠].

نعلم أن فترة التيه قد دامت أربعين عامًا، وبموت موسى قاد يوشع العبرانيين للأرض المقدسة، حيث اندمجوا مع الجاليات العبرانية الأخرى، ومع الكنعانيين بعد قرون عديدة من التعايش وبشكل تدريجى؛ فكانت هناك معارك وكذلك معاهدات، ولكن الفلسطينيين[١٦١] وهم شعب غير سامى، دمروا "سيلو: Silo" عام ١٠٥٠ .

وقد عانى الشعب العبرى من هجمات متكررة من جيرانه، الآراميين والعامو والمؤابيين، ولكنه عرف كيف يتحد فى مملكة مستغلا الضعف النسبى الذى اعترى إمبراطوريات ما بين النهرين والإمبراطورية المصرية فى القرن العاشر.

رحل شاؤول أول ملوك العبرانيين عام ١٠٢٠ بطريقة تراجيدية فى معركة ضد الفلسطينيين، وخلفه داود واستولى على القدس ودشن سياسة التوسع التى غطت كل فلسطين وجزءًا من سوريا، وحكم ابنه سليمان (٩٦١-٩٢٢) حكمًا مطلقًا فى المملكة الشرقية، وشهدت التجارة فى عهده انتعاشًا كبيرًا، وسيطر على كل طرق المواصلات فى سوريا وفلسطين، وتحكم فى الوصول للبحر الأحمر عبر مملكته، وطور واحة تدمر ولاحقًا بالمير (Palmyre) واستورد الخيول والعجلات الحربية من مصر، واتخذ من نسائها زوجة ضمها إلى زوجاته العديدات، وتمر كل قوافل الصحراء تحت رقابته؛ مثل المرور بالطرق التجارية بين مصر وبلاد ما بين النهرين، واستدعى خبراء السفن الفينيقيين لأسطوله بالبحر الأحمر الذى يمده بمنتجات الشرق.

وإذا ما صدقنا ما جاء فى الإنجيل، فإن سليمان أبرم اتفاقًا حقيقيا للتحالف والمساعدة المتبادلة مع الفينيقى "حيرام: Hiram" ملك صور. وفى سبيل رغبته فى تشييد معبد القدس بحث عن مواد البناء: الخشب والأحجار؛ "أعطيت الأوامر لكى يقطعوا لى أخشاب الأرز من لبنان"، هكذا يقول لـ "حيرام"(١٦٢). لكنه أمدنى باليد العاملة: "عشرة آلاف رجل بالمناوبة(١٦٣)" بالإضافة لأكثر من "سبعين ألف رجل لحمل الأثقال وثمانين ألفًا لاستخراج الأحجار من الجبل"(١٦٤).

وبالمقابل أمد سليمان حيرام للعناية بمنزله بعشرين خوراً من الحنطة وعشرين خوراً من زيت الزيتون يجرش كل عام".

أفادت هذه الأعمال المكثفة الفينيقيين: "عمالى - يقول سليمان - سوف يساعدون عمالك، وسوف أدفع لك أجورهم حسب ما تقول لى"(١٦٥). ووافق حيرام واقترح تأمين النقل: سوف ينقل خدمى خشب الأرز والصنوبر من لبنان إلى البحر. وسوف أجمعهم ليذهبوا بالبحر إلى المكان الذى تحدده لى ثم يرجعون بعد ما تأخذ منهم حمولتهم"(١٦٦).

يتعلق الأمر هنا بعملية تجارية نمطية، حيث يطلب المورد مقابل ما يورده، وبموت سليمان حدث شقاق بين قبائل الأغنياء فى الشمال، الأقوياء عسكريا وقبائل يهودا فى الجنوب الذين يسيطرون على القدس، العاصمة السياسية والدينية للعبرانيين، وتراجعت العلاقات التجارية فى البحر الأحمر.

شهد القرنان التاليان اتساع النبوة والتبشير بالعودة للإيمان، وتنافست الممالك المتصارعة فى إسرائيل فى السامرة وفى يهودا حتى القدس، ولكنهما الاثنين خضعا فى مراحل عدة للقوة الصاعدة للأشوريين. وعندما دمر نبوخذ نصر يهودا تمردت على الظالم مرتين، ولكن فى عام ١٥٨٦، دمرت مدينة القدس وأخذ كل النبلاء أسرى إلى بابل، وهرب كثير من اليهود إلى مصر وبحثوا عن الأماكن التى عاش فيها آباؤهم:

تانيس وهليـوبوليس وبلوز ودافنى وبوباسطة ومنف[١٦٧]. وكل مـا فـقـده النبـلاء العـبرانيـون، سيجدونه سـريعًا بنشـاطهم الدينى المكثف والروحى، وهو مـا يمـيـز هذا الشعب على مدار عمره، سيستمر الأسر البابلى نحو نصف قرن، وكان نوعًا ما أقل قسوة، وأنشئت المدارس والمعابد اليهودية فى هذه الفترة، وأطلق قورش الذى احتل بابل عام ٥٣٨، سـراح الجالية اليـهودية وعادوا للقدس ليخضـعوا للفرس قـرنين من الزمان قبل وصول الإسكندر الأكبر.

دور العرب

عندما نذكر العرب، نجدهم مجرد أشكال شـاحبة مقارنة بحضـارات مصـر وبلاد ما بين النهرين، يورد هانوتو هذه الفقرة:

"لا هذه ولا تلك تملك وحدها الكلمة؛ لأن العناية الإلهـية كانت تخبئ شريكًا ثالثًا كان مقدرًا له أن يفصل بين الاثنين، وكان الأكثر فقرًا، والأكثر عريًا والأكثر ترحالاً، ونجاحـه وكان نابعًـا بدقة من عـوزه وعريه وترحـاله، وهم سكان الأخـدود الكبيـر الذى يفصل قطرى الأنهار المعروفين عن شـاطئ البحر الذى يفصلهم، وهو فى نفس الوقت يصل بينهم ويوحدهم. إن بدو الصحراء البعيدين عن البشر، بشـر بلا أرض، بلا معبد بلا مأوى، والمشردون، العرب- الساميون فى ممر البـحر الأحمر العقبة- البـحر الميت والأردن"[١٦٨].

حتى يأتى التبشير الدينى ويلقى بهم خارج شبه الجزيرة العربية، لعب العرب عبر آلاف السنين دورًا سـاكنًا تمامًا؛ فكانوا فى مـأمن من الغزوات المسلحة وغيـر مـهـمين كثيرًا بالتجارة الأرضية، احتفظوا خلف مرتفع طبيعى بالصحراء بنمط حياة قديم ربما كان قريبًا من نمط حياة الساميين الأوائل الذين انحدروا منهم، وهم بدو رعاة للأغنام

وعبيد لأماكن الماء ومناطق الرعى، فلا يمكنهم الحياة إلا بالترحال بين هذه وتلك فى صحراء آمنة خاضعين لما تجود به الطبيعة.

وقد شهد الجزء الخصيب فقط من شبه الجزيرة العربية والمتمثل فى الساحل الجنوبى الغربى القريب من البحر الأحمر، تطوراً اقتصادياً حضرياً نحو الألف الأولى ق.م. كما شهد بدايات تنظيمات سياسية، وكان سكان اليمن الحالى، إقليم العرب السعيد عند القدماء، ساميين من حضرموت، وكانوا أول من عرف الملاحة بالبحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق معرفتهم بنظام الرياح.

اليمن العربى السعيد، السبئيون

رأينا فى الألف الأولى؛ فى اليمن العربى السعيد عدداً من "الممالك" من بينها؛ السبئيون، المينويون وقطبان وحضرموت[١٦٩].

ويثور الشك فيما يتعلق بأسبقية إحداها على الأخرى بالنسبة للمملكتين الأوليين، فيرى البعض أن المملكة المينوية التى اشتقت اسمها من الميناء القديمة فى ماين على وادى خريد تؤرخ بالقرن الثانى عشر، وربما استمرت حتى القرن السابع، وآخرون لا يرونها إلا فى القرن السادس، ومهما يكن من أمر فقد لعبت دوراً مهماً لأنها تقع فى طريق القوافل التى تسير بطول البحر الأحمر عن طريق الحجاز باتجاه فلسطين، وسيرت المملكة المنيوية التجارة القادمة من الهند فى اتجاه البحر المتوسط عن طريق سواحل حضر موت وعن طريق عمان والخليج الفارسى، وطغى عليها فى القرن الأول ق.م الاندفاع الجنوبى لمملكة سبأ.

وسوف تنتهى مملكة قطبان التى تمتد تاريخيا ما بين القرن الخامس حتى عام ٥٠ تحت غزو سبأ، وعاصمتها "تمنا: Timna[١٧٠]" جنوب شرق مأرب، وشهدت

ازدهارها نحو عام خمسة وسبعين ق.م، ربما فى عهد الملك شار ياجيل يوها راجيب الذى أُحرق قصره المزخرف فى هذا التاريخ على يد المحتلين.

أما مملكة حضرموت التى يسميها الإنجيل حزاماريت(١٧١) التى تأسست عام ٤٥٠ عاصمتها شَبْوا وتقع إلى الشرق من تمنا(١٧٢). وشغلت موقعًا إستراتيجيا لوجود ميناء كانيه (Kanè(١٧٣))، ففى هذا المكان تفرغ السفن الهندية حمولاتها خشية من صعود البحر الأحمر ومن احتكار النقل الذى تمارسه عدن، ومن هنا ترحل القوافل إلى اليمن والمسار الساحلى للبحر الأحمر مرورًا بالموقع المهم فى شَبْوا الواقع على طريق البخور بين اليمن وكانا. والطيب الثمين الذى يجمع فى الإقليم ينقل لشَبْوا تحت التهديد بالموت، بعد ستة أسابيع فى الطريق عبر نجران. وإلى مكة وتبوك، تسلك القوافل البتراء أو غزة (Gaza). وقد استغلت مملكة حضر موت مناجم الملح وأمدت القوافل بهذا المنتج المهم، وربما ظلت حتى غزاها السبئيون فى القرن الثانى بعد الميلاد.

وبلغت مملكة سبأ فى القرن الثالث الميلادى درجة كافية من التطور السياسى لتكون دولة توجد غرب الجنوب، وقِدم مملكة سبأ غير معروف؛ نعرف من نصوص مسمارية أنه فى القرن السابع ق.م كان السبيئيون يدفعون الجزية للآشوريين، ولأن آشور لم تعبر الصحراء فى هذا الاتجاه، يعتقد البعض أن الأمر يتعلق بمستعمرات سبئية فى الجزيرة العربية الجنوبية، وهو الأمر الذى يشير طبقًا لموسكاتى لحضارة متقدمة وتسمح بقبول أسبقية معتبرة فى نشأتها(١٧٤).

ومن جهة أخرى من المشكوك فيه أن تكون سبأ موجودة على أيام سليمان، أى فى القرن العاشر ق.م(١٧٥). سمحت حفائر أوجاريت عام ١٩٥٢، بتاريخ معبد مكرس للقمر بين عام ٦٥٠ و ٤٥٠ ق.م(١٧٦). هذا التاريخ الآن يعد قديمًا جدًا ويفضلون عليه القرن الرابع ق.م(١٧٧).

وهى دولة ثيوقراطية تؤمن بدين مؤسس على عبادة فينوس والقمر والشمس، ومن ثم أصبحت مملكة سبأ دولة علمانية تحت قيادة "أمير كهنوتى" أو موكاريب الذى نقل عاصمته إلى ميراب (مأرب) [١٧٨]. وأسس السبئيون، فى نهاية القرن الخامس مستعمراتهم فيما وراء البحر الأحمر، فى إثيوبيا[١٧٩]. وربما يوافق هذا التاريخ هجرات مأرب، وبعد تصدع السد بنهاية القرن الثالث لم يعد الماء المتبقى كافيًا[١٨٠]؛ ونجد موقعين آخرين جاء اسمهما من سبأ فى إثيوبيا الحالية: جولو -ماكيدا -Goulo Makeda -(سور ماكيدا) من اسم يعطيه الإثيوبيون لهذه الملكة الأسطورية وسابيا -Sa bia - والمكانان يقعان فى آجام (Agame[١٨١])، وحتى القرن الثانى أسسوا عاصمة جديدة فى الجنوب، فى ظفار (Zafar) حيث كان الحكم لقبيلة من الحميريين[١٨٢]، استولت على الحكم فى أراضى ممالك سبأ وقطبان وحضرموت، وسيطروا فى الواقع على كل الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ابتداء من القرن الرابع[١٨٣].

اهتم جنوب الجزيرة العربية بالتجارة الدولية قبل أن يطوروا الزراعة ويعتنوا بها، فالأعشاب كثيرة كما فى الصومال، وصدَّروها لبلاد ما بين النهرين بفلسطين عن طريق دروب القوافل السيارة بطول البحر الأحمر أو عن طريق البحر، وهذا هو الدور المحورى لحضرموت فى المرور التجارى نحو الهند وهو ما ضمن رخاء هذه الممالك.

ولمزيد من المعلومات نرجع للإنجيل[١٨٤]، وفيه نقرأ أن سليمان استقبل فى القدس ملكة سبأ، وهذا الملك حكم من ٩٦١ حتى ٩٢٢، ويقول الإنجيل: إنه أمضى عشرين سنة من عهده يشيد معبد الإله وقصره[١٨٥]، مصدر شهرته الرئيسى وثرائه، ومن ثم يمكننا أن نفترض أن هذه الزيارة كانت فى عام ٩٤٠، أى فى النصف الثانى من عهده، ولكن من كانت ملكة سبأ؛ بلقيس العرب أو ماكيدا الإثيوبيين؟ ولا نملك أدلة سوى ما وصلنا من الحكايات؟ طبقًا لافتراض تقول به مدرسة القدس، مملكة سبأ ربما

كانت لها مستعمرات فى شمال الجزيرة العربية، وملكة سبأ لا يمكن أن تخرج عن أن تكون حاكمة إحدى هذه المستعمرات السبئية[١٨٦]، ويعارض (W. Phillipes) هذا الرأى قائلاً بأنها إحدى ملكات مأرب الكثيرات والمذكورات فى النقوش المسمارية المؤرخة بنحو عام ٦٠٠ ق.م، كان يوجد ما يعرف بنظام الأمومة نظراً لعدم التأكد من أبوة المواليد: (Moter certa paterincer tues) ونجد صعوبة فى تصديق أن هذه الرحلة، كما قيل فى الكتاب المقدس، كان هدفها الوحيد اختبار حكمة هذا الملك الكبير، وهو فضول أنثوى لا يمكن أن ينهض مبرراً لهذه القرابين والهدايا الكثيرة: أعشاب وذهب وأحجار كريمة ... إلخ.

وقد افترض جيمان فى القرن الماضى، أن الرحلة كانت ذات هدف تجارى، فالسبئيون كانت لهم علاقاتهم مع بحارة حضرموت، وربما علموا بمكان "أوفير: Ophire"، مدينة الذهب، وربما جاءت ملكة سبأ فى طلب العون من سليمان لإعداد بعثة مشتركة. يمكن أن نتخيل سبباً ثانيا لهذه الرحلة، فمنذ نهاية عصر رمسيس الثانى، استكشف الفينيقيون والعبرانيون الملاحة بالبحر الأحمر، واجتذبوا التجارة فيه باتجاه أسيون جابر على حساب السبئيين، ومن ثم كان الهدف بالتأكيد عقد اتفاق تجارى مرضٍ يشتمل على أوفير وثرواتها، وربما كان جمال الملكة عاملاً مساعداً فى هذا الاتجاه.

كان سليمان طبقًا لتاريخ الكتاب المقدس، يعرف مكان أوفير، وشيد أسطولاً فى أسيون جابر بالقرب من إيلات، داخل خليج العقبة، وعهد به إلى بحارة فينيقيين وأرسله لاستجلاب الذهب من أوفير، فجلبوا منه أربعمائة تالنت، أى نحو أربعة وعشرين طنا[١٨٧]! ولم تكن حملة وحيدة، بل إن أسطول سليمان كان يذهب كل ثلاث سنوات إلى "تارسيس: Tharsis[١٨٨]"، وفى الفصل الثانى من الكتاب المقدس نذكر رحلة ملكة سبأ، وبين فقرتين تتحدثان عن الملكة نجد فقرتين أخريين[١٨٩] تتحدثان عن

عودة الأسطول من حيرام بمقاطعة أوفير، بلا شك أثناء إقامة الملكة(١٩٠)، ولما تأكدت من إخفاقها "عادت الملكة لملكتها مع خدمها"(١٩١).

وليس الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمعلومات عن أوفيـــر وســـليمـان، فـالآثار تمدنا بمعلومـات أخرى؛ فـفى عـام ١٩٤٨ عـثر على فـخـــار فى تل أصـــيلة بالقرب من تل أبيب مــؤرخ بالقـــرن الثامـــن، عليه نقش يذكر كمية مـــن "ثلاثين شيكلا من ذهب أوفير"(١٩٢). ولا يبدو أن ملكة سبأ كانت معـاصرة لسليمـان، ولكننا قبلنا هذا الافـتـراض الذى يسـتوعب مـا ذهب إليـه جيـان، فـإذا كـان الأمـر يتـعلق بمفاوضـــات تجارية فإن الســـبئيين سيرغبـــون فى اتفاق شراكة فى تجارة البحر الأحـمـر ويحـملون نقـوداً للتـبادل بموقـع أوفيـر الجـغـرافى(١٩٣)، ويقـوم البـحـارة بهـذا، ويرغبـــون فى التـعـاون مع سـليمـان، لكنهم كـانت تعـــوزهـم الوســـائل لتقـــديم أســـطول، وتأكدت ملكـــة ســـبأ أنهـــا وصـــلت متأخـــرة جدا، وأن ســـليمان أحـــاط بالسر، فشيد سفنه الخاصـــة وبمســـاعدة البحارة الفينيقيين جلب الذهـــب من أوفير.

السكان

الواقع أننا لا نعرف على وجـه التـحـديد الأصل الذى ينحـدر إليـه سكان اليـمن العربى السعيد، بخلاف العرب، فمما لا شك فيه أنهم نتاج لاختلاط أجناس شتى نتيجة لعـلاقاتهم بالهند، وبعض البـدو بحـضـرمـوت لديهم نفس بشـرة الدرافيـدين(*) الداكنة، ويوجد تشابه مثير "بين موسيقى سكان الجبل باليمن وموسيقى قبيلى، ومن جهة أخرى

(*) هم شعوب تسكن شمال الهند. المترجم

تشبه الموسيقى العسكرية اليمنية موسيقى المغُول[١٩٤]، مما يؤكد الأصل الآسيوى لبعض العرب الأوائل.

البحارة العرب

على الرغم من أن الجزيرة العربية فقيرة وممزقة، فإنها تحتضن فى قلبها بين الخليجين أقدم الحضارات: مصر فى الخليج العربى (بحرنا الأحمر) وبلاد ما بين النهرين فى الخليج الفارسى.

يلقى صياد حضرموت السامى الذى نسميه لفترة طويلة "الصياد السبئى" بشباكه بعرض الساحل ويكتشف سريعًا - دون حساب أهمية - وسر تقلب الرياح الموسمية، الرياح العادية والعكسية التى تسمح بالقدوم من الهند والعودة إليها. وعندما يبحر هذا الصياد فإنه يبحر بالقرب من السواحل لأنه يعتمد على الرياح الموسمية، فهو تارة يتجه غربًا وأخرى يتجه شرقًا، لكن من المؤكد أنه من وقت لآخر وعندما تسوء الحالة الجوية تحمله مركب إلى بعيد وتختفى، وهكذا يفقد كثير منهم حياتهم. وحُمل البعض إلى خليج عدن أو الصومال، وبعضهم عاد، وأصبح بعض الصيادين تجارًا وامتهنوا الملاحة، ويمكننا أن نقول بكثير من التأكيد: إن الزوار الأوائل للقرن الأفريقى الشرقى كانوا من سكان حضرموت.

وكانت المصالح التجارية المعرضة للخطر ضخمة، والسر لا يعلمه أحده وهو مخبأ لآلاف من السنين ومن يفشيه يعاقب بالموت، وإذا ما قدم المصريون إلى بلاد بونت يبحثون عن البخور فإنهم لا يذهبون بعيدًا، فلم تحتمل مراكبهم ارتفاع أمواج البحر، فلم يعرفوا سوى نظام الرياح فى البحر الأحمر، وربما لم يحاولوا الذهاب أبعد من ذلك[١٩٥].

نظر البحارة العرب السبئيون بكل تأكيد بقلق وتوجس للأجانب وهم يأتون لمنبع تجارتهم الوفيرة، ولكن بخور الصومال يخص القبائل المحلية وبدون الحاجة للملاحة، ويبيعه بعضهم لبعض، ولكن يُحمل للمصريين أولئك الذين يبحرون شمالاً، وبأسعار مرتفعة، والخسارة تكون من نصيب هؤلاء الآخرين؛ ولهذا السبب وعلى الرغم من أن اليمن ينتج البخور فإن اليمنيين كانوا لا يرون مصلحة لهم فى تصدير البخور لمصر بسعر بخس، فى حين أنهم عن طريق أقل وسيلة مواصلات يستطيعون بيعه لهم بسعر مرتفع.

لا ندرى متى بدأت الاتصالات بين الهند والقرن الأفريقى، فهل كانت موجودة بالفعل أثناء عصر الدولة القديمة الوسطى؟ من المؤكد أن البضاعة المبيعة لمصر فى بونت، لم تكن كلها من الصومال: العاج والجلود والبخور من الصومال، ولكن الذهب والفضة من بلاد الظهير الأفريقى، ومن ثم يجب الانتظار لفترة طويلة، ولا يظهر أى منتج نمطى للتصدير مثل القرفة المسماة "Mosilitique: موزيليتيك"، وكانت لا تأتى كما يقول لنا جيان إلا من سيلان.

استفاد جنوب الجزيرة العربية من خصوصية الموقع الإستراتيجى على الطريق البحرى الذى يصل الهند بالبحر المتوسط، فكان السبئيون الأوائل يقيمون مكاتب تجارية على سواحل الهند التى جلبوا منها فيما يبدو الأخشاب الغالية، ولسنا على دراية مؤكدة إذا ما كانوا قد تحكموا فى تجارة الساحل الصومالى بإقامتهم المكاتب التجارية، ولكنهم تزودوا بالذهب والبخور والمر. وعضد من موقعهم كوسيط منع السفن الهندية من الإبحار فيما وراء باب المندب حتى تحتفظ باحتكار التبادل التجارى مع الشمال والبحر المتوسط، وسوف ينتهى هذا الوضع نحو عام ٤٧ بعد الميلاد، عندما توصل اليونانى هيبالوا لسر الرياح الموسمية، فأخبر بها الرومان أمام أميرال الأسطول[١٩٦]، ومنذ ذلك الحين يمر الطريق البحرى من الشرق للغرب بروما، حيث تعبر القوافل الساحلية من اليمن للحجاز مما سبب أفول نجم البتراء.

تأسيس أكسوم

عبر بحارةٌ سبئيون فيما يبدو، فى القرن الخامس[١٩٧] البحر الأحمر، منطلقين من الساحل اليمنى من عند مدينة الحُديدة الحالية، ووصلوا أرخبيل زبير، وهكذا متبعين خط العرض ١٥ وصلوا إلى قناة دحاليك، وقبل المكان الذى توجد فيه ميناء مُصوَع الحالية وجدوا عن يسارهم خليجًا بعمق ٦٠ كيلو متر على ١٢، وهو محمى بشكل جيد ومعروف فى أيامنا هذه باسم خليج "زولا: Zula"، وكانوا يدركون جيداً إلى أين هم ذاهبون؛ ولذلك اصطحبوا معهم مهاجرين عديدين من قبيلة حبسات (Habasat) العربية[١٩٨]، والتى يجعل منها كونتى روسيتى (Conti Rousini) أصل الإقليم الساحلى فى موكا[١٩٩] (Moka) وأسسوا أولاً ميناء، هى ميناء عدوليس بطليموس، وتوغلوا إلى الداخل فى اتجاه الجنوب الغربى، وعبروا جبالاً ترتفع نحو ٣٠٠٠ متر ووصلوا المقاطعة الإثيوبية الحالية فى تيجرى، وهنا، وعند السهل البازلتى وسط سكان كوشيين أجاويين[٢٠٠]. وأسسوا عدة مدن: "يحا Yeha، وسنافى Senafe، وأكسوم Ax-oum"[٢٠١] وهذا التنظيم المفيد فتح لهم الطريق إلى الجزء الخلفى الأفريقى ومنتجاته: الذهب والجلود والحيوانات غير المعروفة حتى الآن؛ مثل: الفيل والعاج وريش النعام ومنتجات الأعشاب العطرية مثل المُرّ. الميناء الذى سوف يسمى عدوليس، جعل مملكة أكسوم فى وضع مناسب جدا؛ لأنه كان مكانا مفضلا للسفن الساحلية على طريق البخور، وسيحرزون تطوراً سيجعلهم بعد قرون تالية على قدم المساواة فى الحقوق مع فارس وروما ومصر.

والأصول السبئية لهذه الحضارة التى ستتطور فى منطقة تمتد مع الطرق المؤدية إلى عدوليس، ليست محل شك بعد اكتشاف معبودات جنوب عربية نمطية فى يحا شمال أكسوم. وليس من نافلة القول أن نؤكد هنا أن التقليد الإثيوبى القصصى جداً، يرى فى القول بأن سليمان الذى ولدته، ملكة سبأ مؤسس أكسوم، ليس مجرد أسطورة، لأن خمسة قرون تقريباً تفصل بين الحدثين.

فالعصر الأول المسمى "السبأ- إثيوبى" يبدأ من عام ٤٥٠ حتى عام ٣٠٠ تقريباً قبل عصرنا، ويميزه تطور خاص مؤسس على التجارة المكثفة التى كانت بمنأى عن أى تأثير أجنبى، وسوف يحمل مقدم اليونان والرومان لمصر العديد من التغييرات الواضحة على أكسوم.

الجزيرة العربية الجنوبية

استمر توافد هجرات قوامها من الساميين، نحو القرن الخامس قبل الميلاد، قادمة من شبه الجزيرة العربية، إلى أقاليم أكثر إعماراً؛ مما أدى إلى تأسيس البتراء بواسطة النباتيين (نسبة إلى نباتا).

البتراء Pètra(٢٠٢)- بالعربية بطراء- شمال الحجاز بالقرب من أقصى نقطة من خليج العقبة(*)، لا تملك سوى موقعها الجغرافى المتميز، فهى تتحكم فى طريق القوافل القادمة من اليمن عن طريق المدينة ومكة متجهة إلى فلسطين، وتصل بذلك البحر الأحمر بالبحر الميت، وتطور تجارة الهند عن طريق ممالك حضرموت وسبأ يمد القوافل الساحلية، التى ليست كبيرة الحجم حتى الآن، حتى تصل البتراء عاصمة ناباتين، نقطة مرور التجارة القادمة من الصين والهند وسومطرة وسيلان.

والناباتيون بدو يستخدمون الجمال، ويذكر سترابون أنهم لا يلقون لها بالحبوب ولا يزرعون أشجاراً مثمرة ولا يشيدون المنازل. ولكن من أنشأ البتراء؟ فلا توجد بها آثار سكان ولكنها ليست سوى جبانة:

(*) تقع ضمن حدود الأردن حاليا. المترجم.

"هنا وادٍ مليء بالمقابر العائلية، ولكن أين المنازل؟ داخل دهليز قاحل مما ظهر لدانتي؛ إحدى بوابات الجحيم، والرحالة الأوائل المعاصرون سيجدون أنفسهم في البتراء أمام صف غير عادي من السقائف البيضاء مثل الأكفان، وهي مخصصة لتوضع على السور البارز، وخلف هذه السقائف مدافن عميقة ذات صالات متعددة؛ في هذه الصالات هياكل كثيرة بعضها فوق بعض. وهذه حجرات دفن بها فجوات لوضع جثث الموتى بها، وعبثًا جرى البحث عن أطلال أخرى أو شوارع أو مبان عامة، فلم يعثر إلا على بعض آثار مبانٍ كبيرة، ولكنها متأخرة وبكل تأكيد لاحقة للاحتلال الروماني"[٢٠٣].

ولم تشهد البتراء ازدهاراً سوى في عام ٦٥ عند احتلال الرومان لها، ووصل تأثيرها لجنوب فلسطين، ويعلق سترابون - المعاصر لأغسطس- على بعثة -لا تزال مجهولة- أليوس جالوس في الجزيرة العربية، حيث يقول: "تنتقل البضائع، كما أقول من لوكس- كومي (Loukes kome) (حوارا في مقابل المدينة) في البطراء، ثم من البطراء إلى "ثينوكولورا: Thinocolura" (العريش: Harish) عند الجنرال اللنبي، مدينة في فينيقيا، ومن هنا إلى بلاد أخرى "طريق سوريا"، وفي الوقت الحاضر، يضيف سترابون، يهبط الجزء الأكبر للإسكندرية عن طريق النيل، يصلون الجزيرة العربية والهند، في "ميوس- هورموس: Myos Hormos"، (شمال القصير) وعلى ظهور الجمال ينقلون إلى قفط، مدينة طيبة، ومن هنا، يذهبون للإسكندرية (طريق مصر) [٢٠٤].

وقد زار هادريان كذلك البتراء عام ١٣١ ميلادية[٢٠٥]، ويؤكد كامرير على مرور القوافل القادمة من عدن بالبتراء متوجهة إلى دمشق وسوريا:

"ثم تصل قوافل الجزيرة العربية الجنوبية عدن بعد رحلة شاقة؛ لأن المراكب الهندية الكبيرة لا تجرؤ على عبور البحر الأحمر؛ لأن نظام الرياح يجعل صعود السفن الشراعية صعباً[٢٠٦]".

تأخذ البضائع التى وصلت كانا (كانيه) طريقها عبر اليمن العربى السعيد الذى "تتمتع عاصمته الواقعة على ارتفاع ٢٠٠٠م بأمطار كافية تجعل منها نقطة انطلاق مناسبة"، وهكذا أثرى الحميريون[٢٠٧] والسبئيون من تجارة التوابل من الهند"[٢٠٨].

تمتعت البتراء بالثراء، والجمالون الأثرياء الذين يمرون بها لا يعدمون وسائل الثراء، فهم يمتلكون الذهب بوفرة، وتحمل عدة قطع منقوش عليها باليونانية فى الأمام بومة أثينا التى عثر عليها فى مسارات التجار[٢٠٩]، ولنتذكر أن محمداً، كان واحداً منهم! لم يكن الأكثر ثقافة، ولكنه كان موهوباً إذ كان يستطيع أن يقرأ على عكس كل أسلافه الجمالين الذين تركوا جرافيتى بالآلاف بين البحر الأحمر والبحر الميت، ويطلق العرب كلمة "بتراء الخرنة: Petra El-Kharneh"، "الخزانة" فى إشارة إلى الجرة الكبيرة التى تعلوا المعبد المنحوت فى الصخر بارتفاع أكثر من ثلاثين متراً[٢١٠]، وحاول الإسكندر الاستيلاء على البتراء فأرسل ديمتريوس ليستولى عليها، ولم يكن اقتحامها ممكناً إلا عن طريق الممر الضيق فى وادى موسى[٢١١]، ولكن السكان كان عندهم الوقت الكافى ليتحصنوا داخل الحصن المقطوع فى الحجر والذى كان من الصعب طردهم منه[٢١٢].

آذن انهيار التجارة فى نهاية القرن الأول الميلادى بنزوح القوافل من المسارات التى تحد البحر الأحمر لصالح الفرات؛ وتأثرت الطرق البحرية والبرية للبحر الأحمر بذلك لصالح تلك الطرق بالخليج الفارسى، وعانت البتراء من ذلك وزاد الرومان من هذه المعاناة عام ١٠٧ م [٢١٣]، عندما أباد الحاكم الرومانى "كورنليوس بالما: Cornelius palma" النباتيين واستولى على المدينة[٢١٤].

استدعى بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين اليونانيين ليساعدوه للاستيلاء على الحكم، وكذلك يذكرنا آخر الملوك الكوشيين ببعض الأمور الخاصة بتأثيرهم على مصر، حيث سليعبون دوراً كبيراً جداً، وكانت لمصر صلات تجارية مع شواطئ بحر إيجة ابتداء من الألفية الثالثة، وفى كريت محطات لتيسير تدفق المنتجات

نحو القارة الأوربية: أوانٍ مختلفة وتماثيل صغيرة ولؤلؤ، وفى القرن الثامن أصبحت الصلات وثيقة بين مصر وأوربا عندما منحت لهم جزيرة على أطراف الدلتا، وأنشأوا بها توكيلاً تجاريا على مظاهر التحصين التى يسمونه "ميليز يونتيشوس: Milèsiontichos" ولم يكن المصريون عمومًا يثقون فى التجارة، فضلاً عن احتقارهم لليونان، والقلعة بها نقطة أمامية للمراقبة فى راكوتيس، ورغم ذلك كيف "لأمة من القراصنة تطمع فى أموال الناس لنقص الأرض التى تطعمهم[٢١٥]، تصل يومًا لمكان السيادة؟ بقوة أسلحتهم وقوة سفنهم. وطنهم بسماتيك فى "دافنى: Daphnie"، على طريق الغزوات، وشادوا بها "ستراتوبولا: Stratopola"، قلعة مربعة بارتفاع ثمانية أمتار تحمى مدينتهم، وأصبح دورهم مهما:

"لكونهم جنوداً فقد أصبح اليونان حماة العرش؛ ولكونهم مفاوضين فقد أصبحوا مصدر ثراء مصر التى سيمتد تأثيرها الفنى ومنتجاتها الصناعية فى أنحاء حوض البحر المتوسط"[٢١٦].

وبعد دافنى القلعة، كانت "نقراطيس: emporium"، المدينة الوحيدة لتجارة مصر التى تهيأ لها الملابسات لاحتكار كلى لتجارة البحر المتوسط، وجاء الثراء، وأسس اليونان بطلمية فى طيبة، واستقرت جاليات أخرى فى أبيدوس وشيلديا (Sehildia)، ولم تمض عدة قرون حتى ظهرت للوجود وتُوِّج اليونانيون. ولكن قبل ذلك سوف تعانى مصر من صدمة الثور الفارسى الذى سيحدث خلخلة كبيرة بالإقليم.

الهوامش

(١) انظر أعلاه "ساحل المتوسط".

(٢) يمكن أن نشاهد هذه السكين فى متحف اللوفر.

(٣) A.Moret,Préhistoire IVe et IIIe millénaires,op. cit.,p.88-89.

(٤) كتابة يونانية للكلمة السومرية (Gu- En Na): قطعة من القماش ذات فتائل كبيرة متدلية، جاءت من الصوف المجزوز: تشكل شرائط رفيعة متدرجة محيطة الواحدة مع الأخرى من ٣ إلى ١٠ صفوف. وتلف من حول الجسد فى شكل ثوب طويل يُترك الكتف والذرا ع اليمن عاريين، أو يلف من حول الجذ ع فى هيئة نقبة طويلة تصل حتى الكعبين وغطاء الرأس إذا ما ارتدوه يكون عبارة عن طاقية وشريط قماش أو خوذة مزدانة بالريش، وقرون متنوعة، على رؤوس الزعماء والآلهة لاقتباس من -A.Monauel ,Histoire -de l'Orient,op.cit.,p.121,extradite du Manuel de contenau.)

(٥) A.Moriet, préhistore IV[e] et III[e] millénaires,op.cit.,p.88-89.

(٦) على عكس الاعتقاد القديم، فإن الفارق فى الارتفاع كبير وشديد الانحدار.

(٦) هذا الفرعون الذى يوجد هرمه فى سقارة ربما بدأ عهده فى ٢٧٧٨ ق.م.

(٨) G.Hanotaux,op.cit.,t.1,p.XX.

(٩) Hérodote,livre II,chap.XCIX ,cite par J.J Guillemin,Histoire ancienne de l'Ori-ent,p.95.

(١٠) اقتباس من ديودور الصقلى، ص٢٣٠ ,.G.Hanotaux,op.cit

(١١) يعتقد بعض المؤرخين أن العبرية كانت - فى الأصل- لهجة كنعانية، والتى يسميها الكاهن "إساى: Isai" "لغة كنعان" وتحدثوا بها منذ زمن طويل فى هذا الإقليم" لم تكن العبرية لغة الأحبار الذين كانوا يتحدثون بالآرامية، لكن ربما استقدمتها القبائل السامية عند قدومهم. تطورت الآرامية للسورية، اللغة الوطنية للمسيح فى ذلك العصر، والتى استبدلها بالعربية.

(*) مرة أخرى نصحح هذا الخطأ، فسنفرو من مؤسسى الأسرة الرابعة وليس من ملوك الأسرة الثالثة. المترجم.

(١٢) كانت جبيل بالنسبة للمصريين "كبن: Kben" ومنها جاء اسم "كبنت" أو "مركب جبيل" والتى تطلق على السفن من النوع الكنعانى، انظر Horowitz L'Histoire humaine par la plu ancienne race- -du monde,p.75.

(١٣) S.Moscat.,l'?popée des phéniciens,op.cit.,p.109.

(١٤) رأينا فى الفصل السابع الجزء فيما يختص بموضوع أصولهم، فاضيف هنا بخصوص التاريخ يجب أن يحفظ لأن الكنعانيين دمروا المدينة وكانت مكان جبيل، وهذا التدمير مؤرخ بعام ٢٣٠٠، هذا يعنى أن المصريين استوردوا خشب أرز لبنان من قبل وصول الكنعانيين بزمن طويل.

(١٥) S.Moscati.l'Épopée des phéniciens,op.cit.pp.100-103.

(١٦) مصطلح مصرى يدل على جنس والبدو الذين يدعون كذلك شعامو أو هيروشا، وهزموا أخيرا عن طريق البحر، انظر G.Hanotaux,op.cit.,t.II,L'Egypte pharaonique,par-A.Moret,p.172.

(١٧) وفقًا لـ (. فيليبس فإن جبيل تستهلك ٣٠ طنًا من البخور سنويًا، وفى فارس فى عصر داريوس استقبلوا كارس سنة كمية مشابهة فعلت قبيلة عاران: Aranes، انظر Qataban et Saba,op.cit.,p.15.

(١٨) G.Maspero,op.cit.,t.II,p.245.

(١٩) الاسم العلمى "يوسوليا تيريفيرا: Boruellia therifera" طبقًا المستشهد بلوريه ١ et,op.t.II,246.not.

(٢٠) انظر وصف الوكالات التجارية فى البحر الأحمر، الفصل ٧، المنافسة التجارية.

(٢١) "الميناء الأبيض" لليونان وتعنى" قصر: Qoser"، ليكوس ليمن (Leukos limen) (*) كان وسركاو ملكًا وهو مؤسس الأسرة الخامسة فى الدولة القديمة وليس أميرًا من الأسرة الرابعة. المترجم.

(٢٢) J.H.Breast.Ancient records of Egypt.Historical documents from the earliest times of The persan conquest Chicago,I,para.361,dèjà cite par Abd el Hamid Zayed in :Relations de l'Egyte avac le reste de l'Afrique,H.G.,Unesco,t.II.

(٢٣) G.Hantoaux,Histoire de la nation ègyptienne,op.cit.,t.1,p.XX1.

(٢٤) نقش موجود على حجر بالرمو، انظر G.Hanoutaux,op.cit.t.II,.

(٢٥) Ibid.

(٢٦) G.MoKhtar,op.cit.,H.G.AUnesco,vol.IIp.33.

(٢٧) حاكم إقليم أو مقاطعة.

(٢٨) والذى تعرف عليه بلا شك الناس سريعاً من قزامته، وكان هذا هو القزم الثانى، أما الأول فيسبق ذلك بنحو ٨٠ عاماً قدوماً على يد بيورديدى فى عهد إسس، انظر .G.Maopero,op.vit.,t.i,p.433

(٢٩) G.Maspero,ibid.,p.433.

(٣٠) J.Doresse,Histoire sommaire de la corne orientale,citation

(٣١) G.Doresso,op.cit.,t.I,p.433.

(٣٢) نلاحظ أن موريه مستنداً لنصوص الدير البحرى يرى أن البحر الأحمر هو "الأخضر الكبير"، بينما ماسبيرو من جهته يرى أنه البحر المتوسط، .Op.Cit.,I, p.17

(٣٣) A.Morte,op.cit.,p.251.

(٣٤) الإشارة إلى الجمل كانت عن طريق اليمنيين، فكان الجمل موجوداً فى عمان قبل عشرة قرون من عصرنا، وهو ما يشير إلى وجود صلات بين اليمن وأسيا الوسطى ابتداء من هذا العصر، ولذلك من غير المحتمل تماماً أن يكون مصريو هذا العصر قد عرفوا استخدامه.

(٣٥) ليس هدفنا تاريخ بلاد ما بين النهرين، وسنقتصر هنا على رصد التواريخ المتقابلة عند مؤرخى نهاية القرن التاسع عشر فيما يتعلق بعهد سرجون طبقاً لماسبيرو (op.cit.,p.997-99)، باسم سرجون القديم باسم الحقيقى شارجانى- شار- آلى بن إيتيل (Ittibel) وهو غير معروف، أسس أسرة فى أكد نحو عام ٣٨٠٠، وأصبح سيد بابل، وحسب لوريه (op.cit.,p.353)، سرجون أجاد- أكد، كون فيما يبدو الامبراطورية السامية الأولى نحو عام ٢٧١٥، وسوف نترك أمر ذلك للتخصصية ليتفقوا على رأى، ولكننا مع ذلك نشير إلى أنه ليس سرجون الثانى الذى دمر إسرائيل فى القرن الثامن ق.م.

(٣٦) G.Hanotaux,op.cit.,t.II,l'?gypte pharaonique,par A.Morte,p.196.

(٣٧) بردية من الدولة الحديثة نشرها: .A.HGardiner en 1909.Cf.A.Moret,op,p.197,note 1

(٣٨) G.Hanotaux ,op.cit.,p.92.

(٣٩) الأموريون ساميون يتحدثون لهجة عبرية يسكنون الأرض الواقعة بين هرمون إلى الشمال فى اتجاه جنوب لبنان، ومن بعد الأردن حتى البحر، وكانوا قطاع طرق وأصبحوا تجاراً يرحلون فى قوافل من قراهم المنتظمة فى تشكيلات تجارية. ويعتبر الآموريون والكنعانيون من أبرز ممثلى الشعوب العتيقة من عصر ما قبل العبرانى. انظر .W.L.Hanotaux,op.cit.,67 ليزية. المترجم.

(٤٠) G.Hanotaux,op.cit.,t.II.l'Égypte pharaonique,par A.Moret,p.263.

(٤١) رسالة دكتوراه لعبد الحليم سيد منعم، الإسكندرية، ١٩٧٦، وانظر .Zayed,op.cit.,p.145.

(٤٢) هذا التأكيد من زايد له أصل، ونذكر بأن هانوتو يرى بأن العهد هو عهد سنوسرت الثالث الذى يبدأ عهده عام ١٨٥٠، انظر G.Hanotaux,op.cit.,t.II,l'Egypte pharaoique,par- A.Morat,pp.244 ? 258.

(٤٣) دون إمكانية الملاحة المباشرة بين الطريقين المائيين.

(٤٤) الميناء الحالية بالقصير تعتبر خطراً فى موسم رياح الجنوب، ومن المفيد أن نعلم أن النقش الذى عثر عليه كان بميناء عتيق أكثر أمناً، ووادى الحمامات كان مطروقاً لفترة فى العام ويسمح لبعض السفن أن تبحر على متنه قليلاً، على الأقل إذا ما وجدت لها مأوى.

(٤٥) رأى الكسندر موريه، وانظر .G.Hanotaux,op.cit.,t.II,l'Egypte pharonique,par A.Moert,p568 مين مكتوب Mint، والصواب Min بدون تاء، وهو غله الخصوبة.المترجم.

(٤٦) G.Hanotaux.ibid.,p.258.

(٤٧) Ibid.,p.281.

(٤٨) Ibid.,p.274.

(٤٩) نستشهد هنا بالنص الإنجيلى فى مكانه التاريخى والنقد التاريخى يرجأ للفصل ٤: "الساميين".

(٥٠) إبرهام يعنى "الأب اللامع" وهو اسم الحبر سيغيره الإله إلى إبراهيم أو "والد الجموع البارز" بعد التحالف الذى عقده معه انظر .Genèse,chap.XVII.

(٥١) Genése, chap.XI-31.

(٥٢) Genése,chap.XII.

(٥٣) Genése,chap.XII-10.

(٥٤) وفقاً للإنجيل كان عمر سارة: أقل من عمر إبراهيم بعشرة أعوام، وعندما غادر إبراهيم جاران إلى مصر كان عمره ٧٥ عاماً، انظر (se.chap.XII-4.èG.en)، ومن ثم كان عمر زوجته نحو ٦٥ عاماً وهو ما يلقى بظلال من الشك حول رواية الإنجيل.

(٥٥) كانت سدوم "تروى بالماء مثل حديقة للملذات ومثل مصر" (se.chap.XIII.èG.en)، ويعزو الإنجيل تدمير سدود إلى غضب الغلة وكذلك جمروه (Gomrohe) وربما حدث التدمير نتيجة لتصدع الأرض والذى تمخض عنه البحر الميت، وعاشت الأسطورة بسبب وجود نباتات غريبة إحداها يسمى كليومى العربية بريح الكاوتشوك وتشيع جو الحريق والأخرى تسمى تفاحة سدوم والتى تسقط محترقة عند لمسها.

(٥٦) كان عنده ٧٥ عاماً عندما غادر إلى مصر، أى مر نحو أحد عشر عاماً مذاك.

(٥٧) وليس عبداً.

(٥٨) طبقاً للمسلمين، هاجر ستبقى بمكة مع ولدها، ومن نسله المبارك سيولد العرب المسمُّون "الإسماعيليون" وفى مقابل العرب الساميين، لأن أبناء سام سكنوا اليمن، ومحمد جاء من نسل الإسماعيليين واسمه مشتق من الاسم العربى محمد.

(٥٩) Genése,chap.XVI.

(٦٠) Ibid.,chap.XV

(٦١) Ibid.,chap.XVII.

(٦٢) J.Doresse,op.cit.,p.52. اقتباس دريوتون فانديبه.

(٦٣) تعنى كلمة هكسوس "الملوك الرعاة" طبقًا لليهود ولكن استخدم المصريون مصطلح حقا خاسوت "شيخ البلاد الأجنبية" والتى أصبحت فى اللغة الشعبية هكسوس.

(٦٤) G.Hanotaux,ibid.,p.279.

(٦٥) G.Hanotaux,op.cit.,p.100.

(٦٦) W.F.Albright,op.cit.,p.119.

(٦٧) نستشهد هنا بالنص الإنجيلى فى مكانه من الترتيب التاريخى، وسيأتى النقد التاريخى بالفصل الرابع: "دور الساميين".

(٦٨) Gené,chap.XXXV-25.

(٦٩) هذا ما يعنيه "قوى ضد الإله" بالعبرية.

(٧٠) Genése,chap.XXXI-28.

(٧١) Ibid.,chap.XXXVII.

(٧٢) الخصاية أو المخنثون موجودون فى كل العصور حتى الأقدم منها، ونعرف منهم مغنين مشهورين من أوائل القرن العشرين. وعالج الموضوع بشكل رائع الكاتب الجزائرى تسليمان زغبور انظر Slimane Zegghibor,op.cit.,pp.224-239.

(٧٣) Gené,chap.XXXIX-1.

(٧٤) يوجد نوعان من المخنثين، بعضهم مخصىٌ تمامًا فهو محروم من أى قدرة جنسية وآخرون غير قادرين على الإنجاب مع قدرتهم على إقامة علاقات جنسية

(٧٥) Genè,chap.XXXIX et XL.

(٧٦) Ibid.,chap.XLI.

(٧٧) ربما كانت هذه المجاعة بسبب انتشار السانتورين، موجة من الماء المالح بارتفاع ٦٠م غطت الضفة المصرية تمامًا. وهذا الاقتراض استمر ليقول إن هذه الموجة تسببت فى تدمير الزراعة، وهذا التدمير لم يصلنا منه أى دليل أو قرينة، ولكن فيما بعد بلا شك نحو عام ١٢٠٠ ق.م

(٧٨) Gené,chap.XLII.

(٧٩) Ibid.,chap.XLV.

(٨٠) Ibid.,para.XLVII.

(٨١) نستشهد هنا بالنص الإنجيلي في مكانه من الترتيب التاريخي وسيأتي النقد التاريخي في الفصل الرابع: "نور الساميين".

(٨٢) Exode,chap.I á IV.

(٨٣) محاولة لتفسير هذا العبور المعجز بالبحر الأحمر ستجدها تحت عنوان "نسخة هانوتو" بهذا الفصل.

(٨٤) G.Hanotaux,op.cit.,l'Égypte Pharaonique,par A.Moret,p478.

(٨٥) Ibid.,p.293.

(٨٦) تسميهم النصوص الحيثية الخوريين، وسيكونون جزءًا من الفرع الهندي، الجنسي الهندو-أوربي، نحو عام ١٦٥٠ ق.م ووصل تأثيره بلاد كنعان.

(٨٧) Ibid.,pp.298-300.

(٨٨) تحوتمس الثالث، ابن أخ المتوفى وضع تحت الوصاية نظرًا لحداثة سنه. أفادت حتشبسوت من موت أخيها غير الشقيق، واشتركت في الحكم وبفضل تواطؤ كهنة آمون، احتفظت بالحكم لمدة اثنين وعشرين عامًا من عام ١٥٠٦ حتى عام ١٤٨٤ .

(٨٩) المؤلف موضع الحديث، متخصص معروف في الشأن الإثيوبي، ولكن لا يوجد حياد تجاه الصوماليين الإشارة الواردة تمت عن طريق ليّ عنق النص الذي يجعله متناقضًا مع كل المترجمين للهيروغليفي، ولكن فقط متخصص يمكن أن يقدر هذه الترجمة، وأضف إلى ذلك أن إثيوبيا لا تنتج البخور بكميات كبيرة وأخيرًا افترض وجود طريق بري- للبخور يتجه من إثيوبيا إلى مصر، وهذا ما يحتاج للدليل الواضح(*).

(٩٠) ميناء قصيرة على الساحل الغربي للبحر الأحمر.

(٩١) G.Hanotaux,op.cit .,t.I,p.151.

(٩٢) بين ستين ومائة، وعدد كبير من الأحياء يمكن أن يكونوا موضع اقتراح.

(٩٣) أحيانًا ما توجد حالة تكاثر الدهون على أجساد البعض في أيامنا هذه في الصومال.

(٩٤) نقش الكرنك استشهد به: G.Hanotaux,op.cit.p.305.

(٩٥) تزوجت في الحقيقة خليفته أمنحوتب الرابع (١٣٧٠-١٣٥٢).

(٩٦) G.Hanotaux,citant A,Moret,l'Égypte pharaonique,p.308.

(٩٧) Doresse,op.cit.,p.312.

(٩٨) Doresse,op.cit.,p.52,citation de Drioton-Vandier.

(٩٩) يثبت جيوم هذه الحملة فى عهد رمسيس الثانى (١٣٠١-١٢٣٥)، انظر J.J.Guillemin,op.cit.p.106-107.

(١٠٠) انظر أعلاه الدولة القديمة بنفس الفصل.

(١٠١) فى الحقيقة، يوجد هذا الجدار منذ نحو ٢٠٠٠ ق.م فكان "حائط أو سور الأمير" الذى عبره سنوهى الهارب ليلاً ليلجأ عند الفينيقيين انظر G.hanotaux,op.cit.,t.I,p.139.

(١٠٢) يعتبر رمسيس الثانى صاحب مبادرة القناة التى تبناها أربعة ملوك، وبدأ فيها نكاو وداريوس وأنجزها بطليموس وربما بدأها سنوسرت الأول، انظر أدناه نفس الفصل والفصله" غزو الفرس المصرية".

(١٠٣) أصبح هذه الميناء برينيق فى عهد البطالمة.

(١٠٤) استلزم استغلال المصريين للمناجم جلب عبيد أوروبيين ويجعل العرف الشعبى الإثيوبى من "الجوارجيس" منبوذين من طبقة أدنى، ونسل العبيد الأوربيين استقدموا للعمل فى المناجم مناجم النحاس الواقعة جنوب شرق أديس أبابا، وطبقًا لهرمان نورد الذين راقبهم عام ١٩٣٥ فإن سماتهم تناسب هذا العمل. h.Noored,En Abyssinie,paris,Payot,1935,pp.49-50.

(١٠٥) الأرشيف الدبلوماسى المصرى بالعمارنة: G.Hanotaux,op.cit.,p.374.

(١٠٦) سيأخذ النوبيون فيما بعد دورهم عندما يجيئون غازين لمصر.

(١٠٧) حكم سليمان من ٩٧٠ حتى ٩٣١ .

(١٠٨) J.JGuillemin,op.cit.,p.115

(١٠٩) يربعام بن نبات، كان المشرف على بيت يوسف، والذى جعله يخلف سليمان الكاهن عبياس.

(١١٠) Rois III,chap.XI-40.

(١١١) ليس من السهل وضع تتابع تاريخى لهذه الأحداث، فهل مات سليمان عام ٩٢٢ أو عام ٩٣١، وكلا التاريخين محتملان وهل سقطت القدس عام ٩٢٠ أو عام ٩٢٨؟ ربما على كل حال، تأكيد الأحداث الواردة بالكتاب المقدس سنراها منقوشة على جدران الكرنك حيث نرى ششنق يجر الأسرى عند أقدام الآلهة، أحدهم يمثل ربعام وعلى صورة نقش: Joud Malk أى: ملك يهودا.

(١١٢) Rois III,chap.xiv-25-26 et paralipomènes II,chap.XII-3 ? 9.

(١١٣) ParalipoménesII,chap.XIIIet XIV.

(١١٤) Ibid.,chap.XIV-9 ? 15.

(١١٥) iSai,chap.xix-13-3.

(١١٦) بما أن المصريين لم يكونوا مهرة فإنهم قد استعانوا بالبحارة الفينيقيين، وهذا القرار نوع من التسليم بالأمر الواقع.

(١١٧) J.J.Guillemin,op.cit.,p.120.

(١١٨) Diodore de Sicile,cité par J.JGuillemin,op.cit.,p.120.

(١١٩) Fils de Psammètique,roi d'?gypte de 616 ? 594.

(١٢٠) Rois IV,chap.XXIV-7.

(١٢١) سيأخذ مشروع القناة داريوس ثم سيتوقف لنفس الأسباب، وسوف يتمها بطليموس الثانى لتكون قناة الملوك الأربعة، يعتقد موريه أن القناة كانت تعمل منذ زمن طويل ولم يقم نكاو إلا بتنظيفها.

(١٢٢) البحر الأحمر يسمى الخليج العربى فى مقابل الخليج الفارسى الذى يقع فى الجانب الآخر من الجزيرة العربية، نلاحظ أن الإيرانيين المعاصرين يرفضون صراحة تسمية هذا الخليج بالخليج العربى، بحجة أن البحر الأحمر غيّر اسمه واستعمال هذا الاسم فى طهران ينظر إليه على أنه تعبير عن سوء نية.

(١٢٣) ترجمة إم. لارشير لهيرودوت.

(١٢٤) S.Moscati,op.cit.,pp.49 et suivantes.

(١٢٥) التعبير لـ: J.J.Guillemin,op.cit.,p.124

(١٢٦) فيما بعد نحو عام ١٠٠٠ ق.م، وبعد أن اكتسحه العبرانيون عادوا للظهور باسم الفينيقيين فى أماكنهم الساحلية فى صور جبيل، وبهجرتهم للسواحل التونسية أسسوا قرطاج وعرفوا باسم القرطاجيين.

(١٢٧) العبرانيون تعنى "أولئك الذين جاءوا من الضفة الأخرى للنهر". واسم إسرائيل الذى يعنى "القوى بالإله" ظهر فى الكتاب المقدس الخطة صراع يعقوب ضد الملك، ومصطلح يهودى جاء من يهودين المحفوظة فى يهود (Jude) فى الألمانية، ولا تطلق فى الأصل إلا على سكان مملكة يهودا، وطبقًا لإنجيل، يهودا كان آراميًا وابن يعقوب وليًا، وتزوج من كنعانية ابن رجل يدعى سوى Suè، انظر Genèse XXXVIII-2. وسيطر على الملة كلها فى العصر اليونانى الرومانى .E.petit,op.cit.,p335,not 1

(١٢٨) S.Moscati,op.cit.,p.105 et suivantes.

(١٢٩) التواريخ القاطعة مستحيلة مع تفسير الكتاب المقدس فقط، ولنذكر أن الآثار تجعل وصول العبرانيين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد انظر: W.F.Albright,op.cit.p.119.

(١٣٠) يستشهد (S.Morcati) بالأثرية أولبرايت التى تعتبر هذه الهجرة حدثًا تاريخيا مؤكدًا، انظر Cf.p.126.

(١٣١) يقول المؤرخ موسكانى بعصر رمسيس الثانى (١٢٣٤-١٣٠١).

(١٣٢) J.J.Guli;emin,op.cit.

(١٣٣) فتح مجمع الفاتيكان الدينى الثانى فى عام ١٩٦٢، بواسطة Dei Verbum آفاقًا واسعة أمام دراسات المؤرخين.

(١٣٤) G.Hanotaux,op.cit.,t.II l'Egyte pharaonique,par A.Moret,p.358.

(١٣٥) Ibid.,t.I,p.140.

(١٣٦) يقول نفس المؤلف إن العبرانيين كانوا القبيلة الأهم فى الهكسوس، ونأخذ هذا الكلام بحذر.

(١٣٧) G.Hanotaux,op.cit.,t.II L'Egypte pharaonique,par A.Moret,p.282.ce qui ne renforce pas la these d'Hanotaux.

(١٣٨) J.J.Guillemin,op.cit.,p.101.

(١٣٩) فلا فيوس جوزيف ولد فى ٣٧، وهو مؤلف (La guerres Jis Juifo, Antiquites Judoiques) ومات فى ٩١، والنسخة المستخدمة من ترجمة أرنولد واندللى (Ainauld d'Andully) وقام بنشرها (Editions lidis) عام ١٩٨٢ ونظرًا لأن أمبلا من (Ambelain) قد استخدم ترجمة سابقة، فإن اختلافًا سوف يبرز بين الترجمتين، وفى هذه الحالة سوف نستشهد بهذا المؤلف، مع الإحالة أحيانًا للمراجع المقابلة فى طبعتنا.

(١٤٠) G.Hanotaux,op.cit.,II,L'egypte pharaonique,par A.Moret,pp.358-359.

(١٤١) قصة مصرية عن "الأخوين"، بردية أوربينى وبردية وستكار اللتين استشهد بها هانوتو.

(١٤٢) تشير لوحة منقوشة من أبيدوس لحالة مشابهة وتذكر ساميًا يدعى بن عازانا.

(١٤٣) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.140.

(١٤٤) Genése,chap.XV-13.

(١٤٥) J.J.Guillemin,op.cit.,p.174.

(١٤٦) ألبرت لاجرانج مولود فى بور- إن- برس يوم ٧ مارس ١٨٥٥، وارتدى زى الدومينيكان عام ١٨٧٩ ورسم فى ٢٢ ديسمبر عام ١٨٨٣، فى زامورا، وفى يوم ٥ فبراير ١٨٨٩، عين فى دير سانت- إثيين فى القدس فى بعثة أسست مدرسة الكتابة المقدسة، وقد كان، وتم هذا الأمر فى ١٥ نوفمبر عام ١١١٠٢ مع إنشاء مدرسة الدراسات الإنجيلية فى القدس.

(١٤٧) G.Hanotaux,op. cit.,t.I,p.141.

(١٤٨) Ibid.

(١٤٩) G.Maspero,op.cit.,t.I,p.141.

(١٥٠) G.Hanotaux,op.cit.,t.II,l'Egypte pharaonique,par A.Mort,p.355.

(١٥١) نص أخذه المؤرخ اليهودى فلافيوس جوزيف: J.J.Guillemin,op.cit.,pp.110-111.

(١٥٢) مع الهكسوس طبقًا لهانوتو.

(١٥٣) اليهود المستقرون بمصر منذ إبراهيم J.J.Guillemin,op.cit.,p109.

(١٥٤) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.1142.

(١٥٥) Ibid.

(١٥٦) هذا الطريق الذى يمكن أن نراه فى الرسم الكروكى الذى يصور بوغاز السويس قبل وبعد حفر القناة، (انظر ملحق الصور).

(١٥٧) Zeghidour,op.cit.,p.563.

(١٥٨) Ibid. اقتباس من جون كليدات.

(١٥٩) لا يعتبر هذا الافتراض الأخير الأكثر اقناعًا ففى دراسة ظهرت عام ١٩٩٢، أعدها اثنان من المتخصصين فى دراسات المحيط، دورون نوف من جامعة فلوريدا وناتان بالدور من الجامعة العبرية فى القدس، وفى مقالة منشورة فى مارس عام ١٩٩٢ فى أوربا العلمية: American Metsological-Society- أثبت العالمان، على العكس، أن رياحًا عاتية فى خليج السويس من النوع الذى نراه فى الربيع بسرعة ١٢٥كم/ ساعة، تسببت فى انخفاض مستوى البحر ٨,٥م وموجة لـ ٢٠كم. وهذا الاختلاف كاف لاكتشاف مدخل الشالوف أو أى طبقة صخرية أخرى معمورة فى غضون أربع دقائق.

(١٦٠) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.350.

(١٦١) نحو عام ١٢٠٠، وصل غزاة جدد مصر، شعوب البحر، وهم هندوز أوربيون، احتشدوا على شواطئ البحر المتوسط محيطين بمصر، بل وصلوا حدودها ولكنهم وجدوا دفاعًا فتراجعوا، وفى طريق عودتهم تركوا إحدى قبائلهم، وهم الفلسطينيون. اسم فلسطين مشتق من "بلشت" وهى كلمة عبرية تعد "غزو"، ومن هنا جـــاء الاسم الذين يعطيـــه المواطنون للغـــزاة القـــادمـــين من كـــريت W.F.Allright,op.cit.,pp.197-198، وطبقًا لأعمال جيورجيف وبيراد عام ١٩٥٠، فإن كلمات "فلسطينيين" "وبيلاسجين" ربما جاءت من نفس الأصل "بيلاست" لتؤكد الهوية مع لغات ما قبل الهلينستية بحوض بحر إيجة. وربما يؤكد هذا التقليد الإنجيلى الذى يجعل الفلسطينيين يقدمون من "كافتور -Caphtor، كاتبارا Kaptara"، فى المسمارية، ومن ثم من كريت، وأخيرًا وبحسب أحدث الدراسات التى قادها على أنقاض أشكلون فى إسرائيل جامعة هارفارد والجامعة العبرية القدس، يتأكد أن الأمر يتعلق باليونانيين ربما الميسيين الذين استقروا هنا بعد سقوط طروادة عام ١١٨٣ ق.م

(١٦٢) Rois,chap.V-6.

(١٦٣) Ibid.,chap.V-12.

(١٦٤) Ibid.

(١٦٥) Ibid.,chap.V-9.

(١٦٦) Ibid.

(١٦٧) G.Hanotaux,op.,cit.,t.I,p.143.

(١٦٨) G.Hanotaux,op.,cit.,t.I,p.143.

(١٦٩) يمكن أن نضيف حمير ودهوزات اللتين أسسهماساميون حضرموت منحدرون من جكتان من نسل سام.

(١٧٠) أطلال تمنا -أوتيما- تقع على حجر كولان (Hagar Kohlan)، فى مقاطعة بيهان، استشهد فيليبس برودو كانا كيس وانظر حفائر أولبرايت لعام ١٩٥٠ .

(١٧١) يعنى هذا الاسم "دائرة الموت". ويتحدث سفر التكوين عن أبناء يوكات Jokan، يقال إن بعض قبائل حضرموت منحدرة من نسل يوكان أو محطان: Qalitan، حفيد بعيد من الدرجة الثالثة لسام بن نوح، ربما كان جد كل عرب الجنوب انظر La route" Historama,Septembre 1984,pp.24-28. de l'encens- هذا المؤلف مدير حفائر جنوب اليمن.

(١٧٢) لم يكن فى شبوا قصر ملكى إلا فيما بعد، فى القرن الأول من التقويم المسيحى بلا شك بسبب ثرائها، انظر

(١٧٣) ربما تقع كانى فى مكان قلعة حصن غراب (Hisn Ghorab) المكتشفة عام ١٨٣٤، بواسطة الضابط ولسند (Wellsted)، وهى مهمة أيضًا تقريبًا كعدن فى العصور القديمة، أول عرب الجنوب جاءها من الهند، انظر: A.Kammerer,op.cit.,t.I,p.91.

(١٧٤) S.Moscati,op.cit.,p. 179-180.

(١٧٥) من الناحية التاريخية البحتة لا يمكن أن نقبل بلا شكوك بوجود ملكة فى مملكة سبأ، وعندنا أسباب للشك فى الواجود فى القرن العاشر قبل عصرنا فلا يوجد أى دليل يزيد من عمر هذه المملكة عن القرن الثامن -نصوص أشورية- أو من القرن السادس، فيما يتعلق بالنقوش اليمنية. من المحتمل أن محررى الكتاب المقدس المتأخرين جدًا، قد نسبوا خطأ لسليمان ملكة زارت ربما القدس بعد ذلك بكثير.

(١٧٦) W.F.Albright,op.cit.

(١٧٧) تاريخ جاكلين بيرت، اقتباس أورده W.F.Albright,op.cit.

(١٧٨) ربما أحاط بمأرب سور ممتد لأربعمائة كيلومتر طولاً به ١٨٠ برجًا، انظر J-F.Breton, art.cité.

(١٧٩) انظر أدناه، أكسوم تأسيس أكسوم، أدناه بنفس الفصل.

(١٨٠) هذا السد أعيد بناؤه حديثًا، انظر: Kamerer, op.cit.,p.185.

(١٨١) G.Annequin,art.cité,pp.113-117.

(١٨٢) أحيانًا ما يسمون عميريت أو حوميريت، جاءت هذه القبائل من أعالى جبال اليمن، الاسم الذى أصبح مرادف السبئيين سيقرأ الحميريون على جنوب الجزيرة العربية فى القرون الأولى من عصرنا، انظر G.Annequin,art.cité,pp.113-117.

(١٨٣) Cf.J.F Breton,op.cit.

(١٨٤) Rois,IIIchap.X et paralipomènes,II,CHAP.IX..

(١٨٥) وهو ما يعضد رأى موسكاتى (op.cit)، فيما يتعلق بوجود مستعمرات سبئية فى جنوب الجزيرة العربية.

(١٨٦) paralipomènes,II,chap.VIII-1.

(١٨٧) Rois III,chap.IX-26 ? 28 et chap.X-22.

(١٨٨) تارسيس ليست قطراً محدداً، كانت حدود الأرض والأقاليم المجهولة والبعيدة، ربما أوفير، وبالنسبة لثلاث سنوات طبقًا للاستخدام العبرى فهو يعين عامًا كاملاً مسبوقًا وملحوقًا بجزء من العام أى نحو عامين.

(١٨٩) Rois III,chap.X-11-12.

(١٩٠) طبقًا لتقليد شفا الكتاب المدس الإثيوبى، الكبر نفست – Le- Kebr Neghrt. مجد الملوك والذى كتب متأخراً جداً فى القرن الرابع بعد الميلاد مؤسس مملكة أكسون سيكون الابن المولود من سليمان ولملكة سبأ، وهذا التاكيد هناك يقوم عليه دليل.

(١٩١) Rois III,chap.X-13.

(١٩٢) W.Philipps,op.cit.,p.131.

(١٩٣) أوفير هى "سوفالا: Sofala"، عبر الساحل الموزمبيقى. جنوب "بيرا: Beira"، على "يودندا: Rio Danda" أو "ريوصوفالا: Rio Sofala"، التى تطلق على خليج بنفس الاسم، يقع جزيرة "كومو: Como". هذه الميناء يصدر الذهب الروديسى القادم من الأراضى الواقعة بين أنهار "زامبيز: Zambize"، وليمبوبو، وهنا حيث ستيقع فيما بعد ممالك زيمبابوى ومونوموياتا وكارانجا.

(١٩٤) استشهد المؤلف بأعمال البروفيسور هومبستل ودكتور روبرت لاشمان، وكذلك فإن أوولات عن الموسيقى العسكرية.

(١٩٥) يبدو مؤكداً أن الفينيقيين الذى أنجزوا رحلة ثفان لم يفهموا الظاهرة لأنهم لم يقيموا طويلا على الساحل الشرقي.

(١٩٦) من غير المستبعد أن كل عام به هيبال هو السر الذى عرفه من كبار التجار العرب والهنود، ومنذئذ والرحلة تنطلق من جاروداقوى مباشرةً إلى ساحل مالابار دون المرور طويلا بحضرموت ومتادين كانر، ونلاحظ أن مؤلفين قدماء ذكروا بالقرب من جارودافور رأساً تدعى "هيبالوس: Hyppalos".

(١٩٧) كامرير لم يكن على دراية كافية بالقدم الحقيقى لأكسوم، وتخيل تاسيس عدواً ليس قبلها حيث يؤرخها بالقرن الثالث ق.م الفصل الرابع:دون أكسوم ق.م.

(١٩٨) A.Kammerer,op cit, .t,.P.101.

(١٩٩) Journal Asiatiaue, juillet 1921, p. 6 يرفض كونتى روسينى ومعه حق، تشبيه حباشات بحضرموت.

(٢٠٠) لا يقبل هؤلاء السكان كل القادمين من الساميين الأجانب، بعضهم يرفض ويسمونهم بييتا إسرائيل Bieta Esraèl، لكن الإثيوبيين يشيرون إليهم باسم فلاشيان: Bieta Essaèl، التى تعنى المنفى وحرف هذا الاسم إلى "الفلاشا: falacha".

(٢٠١) توجد كمية كبيرة عجيبة من الأحجار الضخمة بهذا الإقليم سابقة على وصول الحبشات، وورثها ابتداء من عام ١٩٢٤ الأب أزياس وطرح الأب فنسان عام ١٩٠٧ افتراض هجرة شعوب كنعانية نحو الألف الثالثة.

(٢٠٢) اكتشف "بوركارت: Burcleaert"، بترا مهتدياً بوصف سترابون فى نهاية القرن الأول ق.م.

(٢٠٣) A.Kammerer,op.cit.,t.l.p.XIII,citation de philippe Berager.

(٢٠٤) Ibid.,p.VIII.

(٢٠٥) أربع سنوات قبل موته.

(٢٠٦) A.Kammerer,op.cit

(٢٠٧) شعب ذو ديانة يهودية.

(٢٠٨) A.Kammerer,op.cit.

(٢٠٩) إنهم اليونان الذين أعطوا بترا هذه القلعة الحصينة المشيدة فى الصخر. يذكر العهد القديم بترا باسم "سيل: sela" التى تعنى"حجرة بالعبرية".

(٢١٠) Thomas,op.cit.,p.154.

(٢١١) وادى موسى.

(٢١٢) thomas, La Campagne du colonel Lawrencep. 153-159.

(٢١٣) عام ١٠٥ طبقا لمصادر أخرى، وكان الغزو على يد أحرفواد ثراجان.

(٢١٤) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.346

(٢١٥) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.108.

(٢١٦) Ibid.

الفصل الخامس

الغزاة الأجانب

على مدار خمسمائة عام، ستصبح البلاد الساحلية، أو القريبة من البحر الأحمر مثل مصر وفينيقيا وفلسطين عرضة لأخطار محدقة تأتيها من الغزاة الأجانب، في حين كانت أقطار أخرى مثل الحبشة والنوبة واليمن العربي السعيد وعدن والساحل الصومالي، بمنأى عن الصراعات أو لم تخضع لعمليات موجعة. وعانت التجارة من ذلك كثيراً بدرجات متفاوتة من عصر لآخر.

فيما بين القرن السادس والقرن الرابع ق.م عانت مصر من الاحتلال الفارسي؛ فقد أراد الغزاة الإفادة من ثراء البلاد وكذلك من تجارة البحر الأحمر؛ حتى يوقفوا المنافسة الضارة لتجارتهم الخاصة في الخليج الفارسي.

ثم وقعت مصر في يد الإسكندر في أقل من عام، ومن المؤكد أن عهده كان قصيراً، لكن خلفته أسرة ملكية من البطالمة ظلت تحكم من القرن الرابع الميلادي، والبطالمة يعرفون مصر جيداً فلم يبحثوا مثل ضباط الإسكندر الآخرين ومن جاء بعدهم عن استمرارهم عن طريق تأسيس إمبراطورية، وظلوا على العكس وبلا توقف يكافح بعضهم بعضاً لتجنب الاحتلال محتفظين بفينيقيا لتجارتها البحرية وفلسطين، ونجحوا في تكثيف التجارة في البحر الأحمر وبلغت الإسكندرية درجة لا تبارى من التطور والثراء والشهرة.

وجد الاحتلال الرومانى بعد اختفاء آخر البطالمة، وكانت مصر إبان هذه السيطرة الأجنبية مجرد مقاطعة رومانية تستغل لمصلحة روما فحسب، كما فقدت كثيراً من ملامح شخصيتها عندما بث الرومان عوامل الانشقاق بين الإسكندرية وسائر أنحاء البلاد. وإذا كان المصريون هم أصحاب الدور الأول خلال هذا العصر من خلال الموقع الجغرافى لبلادهم إلى الشمال من البحر الأحمر ولتطور حضارتهم، فإن اليهود كانوا مشاركين فى ذلك، سواء أكانوا مستقرين فى القدس أم لاجئين فى مصر، فليست التجارة أو الاحتلال الأجنبى أمرًا غريبًا عليهم، فتاريخهم لصيق بتاريخ البحر الأحمر.

الفرس

اجتاح خطر عام بلاد ما بين النهرين ومصر قادم من الجبال التى الواقعة شمال وشرق حوض دجلة والفرات، وهذا الإقليم تسكنه شعوب تسمى الآريين[1]: الميديين والفرس أو الأرطايين، يسكنون آريانا Airyana - "مقر الآريين"- وأريانا اليونان وأريانا التى مد الإسكندر حدودها من الهند والمحيط الهندى، وبكلمة واحدة هى إيران المعاصرة.

يسكن الفرس جبال فارستن "مقر فارس"، وهناك تسمية أخرى لهذا الشعب تتحدث عن فارس، وهذا الإقليم يسمى عيلام فى الإنجيل وهو معروف عند اليونان باسم عيلا ميوس.

تنضوى تحت تسمية الميديين عشر قبائل أكبرها "الماج: Mages"، وأول محاولة لتوحيد تلك القبائل تمت عام ٧٨٨ ق.م ولكن كان عليهم انتظار العام الثالث والخمسين من حكم "ديجوسس: Degoces" عندما أصبحت المملكة تحت سيطرة ابنه "فايرت: Phayrte" أداة احتلال، وكان الفرس أول من خضعوا وأصبحوا قوات للاحتلال الخارجى تحت قيادة الميديين، ودخلوا فى معارك مع الآشوريين والسكريتيين الذين

مالت طبائعهم إلى المغول وأسلاف المهان (Huns)، وقد وصفهم بالتفصيل هيرودوت بعدما هزموا الميديين، وتوغلوا فى اتجاه لبنان وفلسطين ومصر مدمرين كل من وما قابلهم، وأنقذ بسماتيك بلاده بتقديمه الهدايا لهم.

وبعد أن تخلصوا من السكيتين بالحيلة، استولى الميديون على نينوى عام ٦٠٦، وفى سبيل رغبته لتأكيد الوحدة بين الميديين والفرس، زوج الملك أستياج ابنته ماندان للفارسى قمبيز، واختار ابن هذه الزيجة، أجراداتوس معسكر والده ووحَّد القبائل العشر الفارسية، وفى عام ٥٥٩ وبعد مقتل جده فى إحدى المعارك آلت إمبراطورية أسيا الميدية بعد مائة وثمانية وعشرين عامًا إلى أيدى الفرس[٢]، وأخذ أجرا داتوس من ثم اسم "قورش: Cyrus" الذى يعنى الشمس[٣]، ولم يلبث أن هاجم الميديين ثم الكالدو –بابليين وهزمهم دون الاستيلاء على بابل.

والليديون وملكهم "كريوس: Creous" الذى حكم جزءًا كبيرًا من آسيا الصغرى عانوا من الخطر الفارسى، وقاموا بالتحالف مع المصريين والبابليين واللاسدمونيين[٤]، ولكن هذا التحالف لم يجدهم نفعًا. فقد سقطت سردينيا بعد أربعة عشر يومًا من الحصار، واستدار قورش نحو بابل التى استولى عليها عام ٥٣٨، وسمح لليهود الذين كانوا فى الأسر منذ ثمانين عامًا فى المدينة بالعودة إلى ديارهم عام ٥٣٦.

غزو الفرس لمصر (٥٢٥)

مات قورش عام ٥٣٠ بلا شك فى المعركة ضد البدو[٥]، وتولى العرش بعده ابنه الأكبر قمبيز الذى أراد مثل والده إحراز الانتصارات والاستفادة من ثراء مصر فيما بعد سيناء[٦]، فوصلها ووصل البحر الأحمر.

وتقهقر بسماتيك أمام الفرس عند بلوز، وبين القوتين المتصارعتين كان اليونان مع المصريين وقاموا بقتل أبناء فانس الخائن الذى أرشد الفرس وخلطوا دمهم بالماء،

وهذا الخليط يهب القوة عند الهجوم. وكانت معركة شرسة تلك التى دارت رحاها عام ٥٢٥، ورأى هيرودوت عام ٤٥٠ العظام مكدسة فى كوْمين منفصلين، وعلق على ضعف جماجم الفرس قائلاً: "إنها ضعيفة جداً لدرجة أننا يمكن أن نثقبها بحصاة" وعلى صلابة جماجم المصريين "إنها صلبة بسبب الشمس".

وهرب المصريون حتى منف حيث ذبحوا مسئولاً فارسيًا صعد النيل، وحاصر قمبيز منف التى سقطت بعد عشرة أيام، وكان انتقام الفارسيين شنيعًا(٧).

عهد قمبيز فى مصر (٥٢٥-٥٢١)

حسب رأى الكهنة والتقليد الشعبى الذى سمعه هيرودوت، فقد ارتكب قمبيز بمصر تصرفات كريهة، فقد ذهب إلى سايس لينتقم من والد بسماتيك، فأخرج جثته من القبر ومزقها ثم أحرقها، فدنس بذلك ديانة المصريين وكذلك ديانة الفرس الذين يعبدون النار ولا يلقون فيها أبدًا جثث الموتى(٨).

حملات النوبة وليبيا

أقلق مجىء الفرس إلى مصر الشعوب المجاورة لها فخضع الجميع لقمبيز الذى كان يريد الحرب، وأثناء السنوات الست التى أمضاها بمصر حاول تنفيذ ثلاثة مشاريع:

- أراد أن يجبر الفينيقيين الذى يشكلون قوام بحارته على مهاجمة قرطاج ولكنهم رفضوا.

- أتى من إلفنتين أصحاب الخبرات البحرية وبدو الساحل الإريترى الذين يتحدثون "لغة الإثيوبيين"(٩) وأرسلهم إلى ملك نباتا، الذى رد بسخرية فى ثوب

أرجوانى وقلائد من الذهب، فهذا بشير للخديعة وذاك يلمح للسلاسل، وقدم قوسه للمبعوثين طالبًا منهم أن يقولوا للفرس: إنهم يستطيعون ملاقاته فى الحرب عندما يستطيعون أن يشدوا هذا القوس.

- أرسل خمسين ألفًا من رجاله إلى الواحة الكبيرة فى الخارجة، وواجه آمون فخربوا كل شىء هناك.

وقاد بنفسه جيشه بلا إعداد وانطلق إلى النوبة فى حملة لم يتحملها الجنود الذين أجبرتهم المجاعة على التضحية بالماشية وأكلوا ورق الشجر، وعاد قمبيز إلى طيبة بعد أن فقد عددًا كبيرًا من رجاله، ووجد المصريين يحتفلون بعيد الإله أبسن فأمر بقتل كل من يحتفل بالعيد، أما هو نفسه فقد جرح الثور المقدس الذى مات فى العام السادس من عهده أى عام ٥٢٣.

كان قمبيز كثير الشراب وأصيب بالجنون واعتدى على أسرته الخاصة، وكبار رجال بلاطه، وعانى المصريون كذلك نتيجة سياسته فى أنفسهم ومعتقداتهم واندلعت ثورة فى فارس وعادت السلطة مؤقتًا للميديين. وأراد قمبيز العودة لفارس فانطلق على فرسه، ولكنه جرح عن طريق الخطأ بسيفه ومات فى طريق عودته فى "أكبتان: Ecbatane" فى سوريا(١٠).

غزوات داريوس

مات قمبيز عام ٥٢١، واندلعت مجزرة بين الميديين، وداريوس بن هيستاسب وحاكم سوس أحد أفراد العائلة الحاكمة فى الوصول إلى العرش، وبدأ استكمال الغزوات التى لم تتوقف: فاستولى على بابل عام ٥١٨ بعد حصار دام عشرين شهراً، وهزم الميديين فى نفس العام، وأرسل حملة ضد الأرمن وأول هزيمة للبارتيسيين عام

٥١٢، وحفر داريوس على صخور "بيزوتون: Bisouton، فى "كيرمانشاه: Kirmano-chah"، فى الطريق من بغداد إلى همران قصة غزواته:

"هذا هو ما قمت به بناء على أوامر الإله "هرموزد: Ormoupol" تسع عشرة حملة على المقاطعات المتمردة وهزمتهم وأسرت تسعة ملوك"(١١).

- داريوس والتجارة فى البحر الأحمر

يموت قمبيز لكن تظل مصر خاضعة للاحتلال الفارسى، فداريوس يسيطر حاليًا على طريقى التجارة البحرية: الخليج الفارسى والبحر العربى (البحر الأحمر)، وأعد مصر إعدادًا خاصًا لتقوم بدور مؤثر فى تجارة البحر الأحمر، وخلال حفر قناة السويس من عام ١٨٥٩ حتى عام ١٨٦٩، عثر على آثار قنوات قديمة، وخاصة فى عام ١٨٦٦، عندما عثر على لوحات تحدد القناة القديمة التى كانت "تمتد من السويس لتتصل بالبحيرات المرة ثم بحيرة التمساح، وتمر متخذة زاوية يمنى، باتجاه الغرب لتتصل بالنيل قرب تل بسطة"(١٢)، وعلى إحدى هذه اللوحات التى عثر عليها فى حالة سيئة فى شادوف إلى الجنوب من البحيرات المرة بعض الكتابات تسمح بالتأكد من أن داريوس عثر على جزء من القناة "بلا ماء ولا يعمل ولا يصلح لحمل السفن":

"أنا، داريوس، فارسى مع قوات فارسية، غزوت مصر وأمرت بحفر قناة تمتد من النيل وتجرى بمصر حتى البحر، وتخرج من فارس، وحفرت القناة كما أمرت وأبحرت السفن من مصر إلى فارس طبقًا لما أريد"(١٣).

وثمة لوحة أخرى أفضل حالاً من سابقتها عثر عليها فى تل المسخوطة تؤكد هذا النص وتضيف تدقيقًا آخر بخصوص رحلات الفرس، فتذكر "من أسطول سفن أعالى البحار للتعرف على البحر" وسبأ مذكورة بهذه اللوحة(١٤).

من الواضح أن فارس بامتلاكها الطريقين البحريين باتجاه الشرق، قد طورت الصلات مع الخليج الفارسى وخليج عمان والمحيط الهندى وخليج عدن، ولم يكن المرور التجارى بهما محل شك؛ فقد كثر بين مركزى السيطرة الفارسية اللذين يحصران بينهما الجزيرة العربية[١٥].

تحرير مصر

ما إن خف الضغط الفارسى على مصر حتى اندلعت العديد من الثورات، الأولى كانت عام ٤٨٦[١٦]، فأراد داريوس إخضاع هذا البلد من جديد، ولكنه فى ذات الوقت أعد لحرب ميدية ثانية ضد الأثينيين، وسوف تساعد مصر بمائتى سفينة سوف تتحطم مع الأسطول الفارسى فى "سلامين: Salamine" عام ٤٨٠[١٧]، واندلعت ثورة أخرى تحت قيادة إنحور بن سماتيك الذى أفاد من دعم اليونانيين.

خرجت الإمبراطورية الفارسية ضعيفة من الحروب الميدية وكانت اليونان مقبرة لها؛ ففى عام ٤٧٦ دمر اليونان فى "تراس: Thrace" القوة الأخيرة للفرس واندلعت ثورة داخلية ضد عرش أرتاكسركسيس عام ٤٦٥ بعد مقتل كسليس، واستقرت السلطة فى كل الستراب (المقاطعات الفارسية)، فيما عدا مصر، حيث بعث نبأ وفاة كسركسيس على الأمل والثورة؛ ففى عام ٤٦٠ طرد المصريون الحاكم الفارسى واختاروا إيناروس ونصبوه ملكًا، وطلبوا الغوث من اليونانيين الذين استجابوا مسرعين فأمدوهم بأسطول مكون من ثلاثمائة مركب ثلاثية المقاذيف[١٨]، وحملة أخرى قادمة من الملك الفارسى هزم فيها، وجرت محاولة لاستمالة اليونانيين باءت بالفشل، ثم أعدت حملة أخرى فى عام ٤٥٥ وعهد بها إلى اثنين من الجنرالات الأقوياء أرتاباز وميجابيز اللذين آثرا الخديعة، فحفرا قنوات تجذب المياه من فرع للنيل وتجعله جافًا فلا يبحر الأسطول الأثينى: "وعقد المصريون سلامًا مع الفرس"[١٩]، وسمح للأثينيين بمغادرة مصر.

مات أرتاكسركسيس عام ٤٢٥ وانتقلت السلطة إلى ابنه كسركسيس الثانى الذى قتله أخوه غير الشقيق سوجدين الذى قضى عليه أخوه أوخوس الذى تسمى باسم داريوس الثانى، واندلعت من جديد ثورة أخرى فى مصر وكان على رأسها أميرتايوس، وعرفت مصر الاستقلال.

ساند أكوريس ملك مصر عام ٣٨٦ إيفاجوراس ملك قبرص ضد الفرس، وأمده بالقمح والفضة والسلاح[٢٠]، وحاول الفرس عام ٣٧٧ إخضاع المصريين ولكن بلا جدوى، وبعد هزيمة إيفاجوراس، جهزوا عشرين جنديا يونانيا مرتزقة تحت قيادة "إفيقراط: Iphicrate" وساروا عام ٣٧٤ فعبروا سيناء للهجوم كما شنوا هجوماً آخر عن طريق البحر، واكتسحوا المصريين تحت قيادة نكتانبو، ولكن أنقذهم صراع بين الجنرالات الفارسيين وإفيقراط.

وجدد الفارسيون محاولتهم بعد عدة أعوام، وملك مصر تاخوس الذى تحالف مع اللاسيد ومبين وجهز أسطولاً قوامه مائتا سفينة ثلاثية المقاذيف وعشرة آلاف جندى من مرتزقة اليونان، وقوة مصرية قوامها ثمانون ألف رجل، وكان هؤلاء فى فينيقيا بينما كان ابن تاخوس نكتانبو الثانى يحاول الاستيلاء على العرش، وطلب الملك عفو الفرس الذين عهدوا إليه بقيادة القوات المعدة للحرب ضد المصريين! واستمر الصراع فى مصر بين الأب والابن فى عهد أرتاكسركسيس الثانى.

إعادة احتلال الفرس لمصر (٣٤٤-٣٣٢)

قام الفرس الغائبون عملياً عن مصر منذ ما يزيد على ستين عاماً لأول مرة بـ "عملية مركبة"، عندما تقدم أرتاكسركسيس إلى بلوز عام ٣٤٤ حيث وصل أسطول مكون من ثلاثمائة مركب إلى حدود مصر عن طريق البحر الأحمر، ونقدر أن هذه العملية تطلبت ثلاثمائة ألف رجل، قادهم منتور الروديسى وباجواس، واستولت القوات

سريعًا على البلد وهرب نكتانبو الثانى لإثيوبيا، ونجس الفرس مصر وأحلوا حماراً محل أبيس، ونهبوا كل الكتب المقدسة المصرية وقدموها هدية لليونانيين، وقد نهب الفرس مصر بشكل منظم خلال هذه الأعوام التسعة من الاحتلال، وشهد البحر الأحمر نشاطًا ملاحيًّا عظيمًا، فعبرت به الأموال والبضائع والعبيد(٢١) فى طريقها للخليج الفارسى، يغتال الجنرال الأقوى باجواس مهندس الانتصار الفارسى، أرتاكسركسيس جعل يغتال ابنه أرسيس وكل إخوته، ليضع بذلك نهاية لوجود العائلة الملكية، ووضع على العرش شخصًا يدعى داريوس حفيد أوستانيس شقيق أرتاكسركسيس، وقام هذا الملك الشاب باغتيال الجنرال عن طريق السم، لكنه لم يمهله الوقت ليبرهن على قدرته على قيادة فارس؛ لأن عصر الإسكندر الأكبر سيبدأ واضعًا نهاية لإمبراطورية الفرس.

الإسكندر الأكبر والبطالمة

(٣٣٢-٣٠)

بدأ غزو الإسكندر الأكبر بانتصار على النهر الجرانيكى عام ٣٣٤، وفقد الفرس ألفين من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة كما فقدوا معظم قادة الحرب عندهم، فنقل ممنون أمهر قادة داريوس العسكريين الحرب إلى أوربا، وهو الأمر الذى شكل مأزقًا لليونانيين ولكن قضى عليه المرض، وقاد داريوس القوات ولكنه هزم فى إسوس عام ٣٣٣ وهرب إلى بابل ليشكل جيشًا آخر.

وتابع الإسكندر غزوه فى فينيقيا واستولى على صور وغزة فى عام ٣٣٢، ووصل إلى القدس حيث استقبله كبير الكهنة يادوس، وتواضع أمام وزير الإله وقرب اليهود إليه(٢٢). ودخل الإسكندر مصر عام ٣٣١، وتوقف مازاسس الحاكم الفارسى عن

المقاومة غير المجدية واستقبل الإسكندر استقبال المحرر، ووضع مشروع تأسيس مدينة في جزيرة فاروس ولكنه رآها ضيقة فاختار "اللسان الضيق"[٢٣]، الواقع بين بحيرة مريوط والبحر لكي يشيد المدينة التى سوف تحمل يومًا اسمه:

"إنه هنا سترتفع المدينة الشهيرة التى سوف تكتسح صور وقرطاج وتصبح مستودع التجارة الدولية، وملتقى الشرق والغرب، والمقر الرئيسى لهذه الحضارة اليونانية- الآسيوية التى تمخضت عن حملة الإسكندر"[٢٤].

أرسل الإسكندر قواته إلى الفينيقيين لإظهار قوته وإخضاع النوبة، وقام بزيارة معبد آمون فى واحة سيوة[٢٥] لكى ينصب ملكًا مصريًا بوصفه الأمير الشجاع وحامى مصر"[٢٦].

هزيمة داريوس الثالث (٣٣١) وموت الإسكندر (٣٢٣)

على الرغم من تمركز قوات داريوس وجيشه الضخم فى سهل نينوى غرب أربيلوس، فإنه لم يستطع أن يحول دون عبور القوات اليونانية للفرات، ولحقت به الهزيمة يوم ٣١ أكتوبر عام ٣٣١، وترك الإسكندر معسكره ينهب ونجح فى العثور على الملك الذى هرب وحيداً وقد نأى عنه حراسه، واستولى الإسكندر على بابل وسوس وبرسيوليس وتعقب داريوس فى باكتريان، وبعد اغتيال هذا الأخير على يد بيوس استمر الصراع وهزم بالتالى السكيتين، وعبر بلاد الهندوس ودخل البنجاب ولم يتوقف إلا عند مصب النهر.

وفى طريق عودته لبابل احتفى به كل الشعوب المهزومة، ولكنه مات خلال رحلة العودة فى يونيه عام ٣٢٣ عن عمر يقارب ثلاثة وثلاثين عامًا- وربما كان الإسكندر ضحية التهاب كبدى حاد[٢٧]- تاركًا خلفه مشروع إمبراطورية كبرى، وقد تضمنت مشاريعه، كما يروى ديودور الصقلى "تدشين طريق بين مصر وأعمدة هرقل"[٢٨]. وفى

عام ٣٢٤، استكشف الخليج الفارسى والخليج العربى (البحر الأحمر)، وأراد أن يهزم كل مستعمرات هذه الشواطئ ويؤسس مكانها أخرى واحتل جزيرة سوقطرة[٢٩] (جزيرة ديوس- كوديد) بعرض رأس جاردافوى، وكان هذا الاحتلال أحد توابع الاكتشاف بعد أول حملة استكشافية، وكان يشير إلى أن الجزيرة بها العديد من نبات الصبر الذى يستخدم زيته فى الطب اليونانى قاعدة لكل الأدوية[٣٠].

خلافة الإسكندر، بطليموس يستقل مصر

اعتلى العرش بموجب تسوية، بعد موت الإسكندر، ابن آخر لفيليب الثانى المقدونى وهو "أرهيدى: Arrhides"، "مختل أهوج"[٣١] وتقاسم جنرالات الإسكندر إمبراطوريته، وآلت مصر إلى بطليموس ابن لاجيوس. ومشاركة الملك- وليس الإمبراطورية كانت من نصيب كراتر وبروكاس، وظل برويكاس شيليارك قائد جيش آسيا، وكان موقع الولاة من السلطة المركزية غير محدد بوضوح، بطليموس وأسرته كانوا حكامًا لأغنى ولاية ومن ثم عانوا من محاولات لا تنتهى لإعادة تقسيم إمبراطورية الإسكندر على حسابهم.

حصل بطليموس بالرشوة على وظيفة الضابط المسئول عن الموكب الجنائزى.

الإسكندر وجثته ستنقل إلى الاسكندرية، ورأى برديكاس، شريك حكم الإمبراطورية، أن نية بطليموس تتجه لنقل مقر الحكم لمصر وإعلان نفسه خليفة الإسكندر، وسيكون الأول فى سلسلة طويلة من اليونانيين الذين يحشدون الجيش على النيل ويعسكرون بالقرب من بلوز. ولكن ضباطه كرهوا محاربة بطليموس بل حدثت بعض الخيانات، فكان بطليموس لطيفًا فى معاملة الأسرى واغتيل برديكاس على يد جنوده عام ٣٢١ وانتقلت مصر الآن كلية إلى يد سيدها الجديد.

استولى بطليموس عام ٣٢٠ على فينيقيا ليفرض سيطرته على البحر، ثم اشترك فى تحالف لغزو سوريا، واستولى أنتيجون[٣٢] على صور التى سقطت عام ٣١٣ بعد خمسة عشر شهراً من الحصار، ودانت غزة وجوبا لسيطرته وأصبح كل الساحل اللبنانى فى قبضته، وهاجم بطليموس وعبر سيناء عام ٣١٢ وهزم ديمتريوس بن أنتيجون فى غزة، وخضعت له صيدا وصور، وأعاد بطليموس غزو فينيقيا وأفلتت منه سوريا ودمر عدة مدن وعاد إلى مصر تاركًا حتى فينيقيا. وهاجم ديمتريوس ووضع الحواجز أمام سلامين عام ٣٠٦ وهزم قوات بطليموس التى خسرت قبرص، واعتقد أنتيجون أن الوقت قد حان للاستيلاء على مصر وأعد العدة لعملية مركبة، حيث هاجم ثمانية آلاف فارس وثمانون ألفًا من المشاة وثمانون فيلاً مصر عن طريق سيناء، وقاد ديمتريوس مائتين وخمسين مركبًا ثلاثية فى عرض البحر، وأعاقت عاصفة هذا الأسطول، وفى حركة سريعة غطى بطليموس الساحل وأفشل العملية، أما جيش أنتيجون الذى كان ينتظر النزول على الساحل فأصبح مهدداً بالهلاك وانتابه الهلع، وترك أنتيجون مكانه ومات فى هذا العام ٣٠٦، وأصبح بطليموس ملكًا ووضع على جبينه التاج[٣٣].

وقد عنيت جزيرة رودس القريبة من الإسكندرية بالصلات المتميزة مع بطليموس وأمدتها مصر بالقمح، ونشط التبادل التجارى وقرر أنتيجون الاستيلاء عليها وأعلن الحرب فى رودس؛ مائتا سفينة طويلة ومائة وسبعون أخرى نقلت أربعين ألفًا من الرجال مع عتاد حربى مهم، و جذبت الرغبة فى النهب أثناء الحرب ألف مركب خاصة أخرى، أما رودس فلم يكن بها سوى ستة آلاف مواطن وألف أجنبى، وعبر العبيد الحدود، واعترى الروديسيين شعور كبير بالحماسة والزهو أمام جيش ديمتريوس الذى باءت كل جهوده بالفشل، بل إن "الهليبول: Helipole" وهو وسيلة الحرب الأحدث آنذاك لم تستطع أن تدمر متاريس المدينة، وكثرت التدخلات للوصول للسلام

فغادرها، وأمدتها مصر بالمساعدة، وتدخلت أثينا، وتنازل أنتيجون وحل السلام عام ٣٠٤، واحتفظت رودس باستقلالها وأمدت أنتيجون بقوات مساعدة فيما عدا الهجوم على مصر.

ونظراً لانعدام ثقة بطليموس فى أنتيجون، فقد قبل اقتراح كاساندر واقتراح ملك تراس من أجل مباشرة الحرب ودخل بطليموس سوريا، ولكن كان عليه أن يسرع عائداً إلى مصر عام ٣٠١[٣٤]، بعد نبأ كاذب باندلاع ثورة. وحدث استقرار ما، وتوزعت إمبراطورية الإسكندر بين مصر وسوريا وتراس ومقدونيا، وزوج بطليموس ابنته لديمتريوس الذى أعطاه بيرهوس رهينة وهو وريث العرش، وهكذا سوف يتمكن البطالمة من حكم مصر خلال ثلاثة قرون.

البطالمة الكبار: السلام والتطور (٣٣١-٢٤٧)

تبنى بطليموس مشروع الإسكندر، القائم على اتخاذ مصر نقطة التقاء التجارة الدولية، وشيد منارة فى جزيرة فاروس، وامتلكت مصر ألفين من السفن الحربية وألفًا وخمسمائة من السفن الشراعية وضاعفت من موانئها على ساحل البحر الأحمر وأعادت "قناة الملوك الأربعة" التى تصل النيل بالبحر الأحمر.

كانت القوات المقدونية منذ احتلال مصر على اتصال بأكسوم على الساحل الإثيوبى من البحر الأحمر، ورأينا فى بلاط بطليموس ممثلين إثيوبيين وهنوداً، ويونانيين ممن لم تكن لهم أية اتصالات مباشرة قبل عهد الإسكندر مع البحر الأحمر والقرن الأفريقى فأصبح لهم الآن مدخلا، أما اليهود فى عهد البطالمة فسوف يزداد تأثيرهم وسوف تفيد التجارة من نشاطهم[٣٥].

تنازل بطليموس سوتير (المنقذ) عن العرش عام ٢٨٥، بعد ثمانية وثلاثين عامًا من الحكم قضى منها ٢١ عامًا ملكًا، وخلفه ابنه بطليموس المسمى

كيراونوس (الصاعق) باسم فيلادلف (الذى يحب إخوته)، وتوفى والده عــام ٢٨٣ فى الثمــانين من عمره.

حـافظ بطليـموس على مملكة والده، وأولى اهتـمامـه للتـجارة أكثـر من اهتـمامـه بالحـرب، وتابـع اكتـشـاف أفـريقـيـا وسـواحل البـحـر الأحـمـر وأسـس مـينـاء مـيـوس- هورموس- مكان القصير ثم ميناء بيرنيفوس شمـال ميوس بمائتين وخمسين كيلو متراً، وبدأت الاتصـالات مع النوبة، وأُسس فرع من العـائلة الملكية فى نباتًا منذ القرن الخـامس فى مـروى على بعـد مـائتى كيلومـتـر جنوبًا، وفى هذه الفـتـرة احـتـفظ الملك نستاسـان (٢٩٨-٢٧٨) ببعض العلاقات بين المملكتين اللتين تعيشـان جنبًا إلى جنب وصعد الأميرال تيموستان النيل ووصل مروى فى ستين يومًا[٣٦]، وفقدت الصلات بينـهمـا لأننا نعلم أن الملك إرجـامـان الذى أسس وحدة المملكتين كـانت له صـلات مع بطليموس الرابع خلال حكمه من ٢٢٥ حتى ٢٠٥[٣٧].

وتم استكشـاف ساحل الجزيرة العربية وكذلك السـاحل الأفريقى للبحر الأحمر حيث يأتى الجنود لاصطياد الفيلة من أجل احتياجات الجيش، وبقى اسم أحدهم وهو شـاريمورتوس، وهو جندى مرتزق مدمن للخمر[٣٨]، وقطعوا السـاحل الصومـالى بحثًا عن الأعشـاب الطبيعية، وأصبح بيرنيقوس الميناء المتقدم لكل الملاحين بالبحر الأحمر، وسوف يذهبون كذلك إلى إثيوبيا للبحث عن "الثعابين العملاقة" للمجموعات الملكية[٣٩].

شقوا قناة على الفرع البلوزى للنيل لتمر من بوباسطة إلى أرسنيوى[٤٠]، وافتُتح طريقان:

- أحـدهمـا من قـفط على خليج إيمـوند ويصل مـينـاء برنيـقـوس ويجنب الأسطول المرور بالجزء الوعر من البحر الأحمر.

- أما الطريق الثانى فينطلق من قفط حتى ميوس-هورموس على البحر الأحمر، فأصبحت كل تجارة الشرق تعبر عن طريق مصر لتصل للإسكندرية الأكثر ثراء:

"دارت المصانع وسمع بها ضجيج الحرف المختلفة، ولسنا فى حاجة إلى الحديث عن الاختراعات الميكانيكية والساعات المائية ومضخات الدفع والقذائف المائية والأقمشة الإسكندرانية ابتداء من أغطية الخيل الخشنة حتى السجاد الناعم الفنى الملون، ومن أقمشة الصوف البيضاء حتى قطع الحرير، وهذه كلها أصبحت مشهورة فى العالم كله، وأصبح فن تشييد الأساطيل متقنًا، والسيارات الفاخرة التى يقتنيها المواطنون الأغنياء للتنزه بها فى الشارع لم تكن هذه أقل شهرة من منتجات الخراطة، والموائد المصنوعة من خشب الصنوبر والأرجل من العاج التى تصنع هنا بسعر يبلغ ٢٣٧٥٠٠ فرانك[٤١]، والنقش على الحجر الناعم وأعمال الذهب والحلى تنتج أعمالاً فنية رائعة وصناعة الأسلحة بالإسكندرية بلا منافس، وأتقنوا صناعة الزجاج الذى انتقل من السكندريين إلى الإيطاليين"[٤٢].

اشترت الإسكندرية من أفريقيا وباعت العاج والأبنوس وريش النعام و"جلود الحيوانات المتوحشة"[٤٣]، ونشطت عمليات نقل العبيد السود، فكانوا ينقلون إلى ميناء تقع بالقرب من بحيرة مريوط، وكانت مصر الوسيط الإجبارى لمجمل التجارة القادمة من الجزيرة العربية والهند وبلاد الصومال، ولم توجد الإسكندرية إلا بموانئها التى أعدتها إعدادًا جيداً:

" جزيرة فاروس تشكل مأوى طبيعيًا ولكنها تحتاج للإعداد لتكون أكثر فاعلية ووصولها بالساحل عن طريق حفرة مثل سبعة استادات (نحو ١٢٥٠ مترًا) والهيبتاستاد الذى فتح به ممران محصنان، وبهذا الرصيف ميناءان، الميناء الشرقى أو الميناء الكبير ويفتح بين بروز جبل "لوشياس: Lochias" والطرف الشرقى من فاروس حيث ينهض برج مضىء شيده "سقراط دونيت: Soqrate dicite" نحو عام ٢٨٠ ق.م والذى أعطى اسمه لكل المنارات جزيرة، إنتيرهودود فى الجزء الجنوبى الغربى من اللسان يضم ميناء خاصة بالملوك والميناء الآخر إينوستوس (عود طيب) له مدخله إلى الغرب من فاروس. وفى داخل اللسان حوض مغلق، كيبوتوس[٤٤]".

تطلبت التجارة زوارق نيلية أو معديات تابعة لشركات السفن، وكانت أساطيل البحر المتوسط فى أيدى الإسكندرانيين، أما أساطيل البحر الأحمر فكانت فى أيدى صناع السفن فى قفط وكينوبوليس على النيل أو موان البحر الأحمر، واقتضت سياسة البطالمة جذب تجارة القوافل القادمة من الجزيرة العربية إلى موانئ البحر الأحمر والتى تمر بشكل طبيعى بمكة والبتراء، وفى عهد البطالمة كثر الذهاب إلى سومطرة لتبادل البضائع القادمة من الهند مقابل المنتجات المصرية، وكذلك الأمر فى عدن المسماة "إيودايمون: Eudaemon". حيث أرسل فيلاد لفوس شخصًا يدعى ديونيوس إلى الهند وقابل الملكة "أشوخا: Achokha"[٤٥].

وكان المرضى يفدون إلى مصر من كل مكان لاستشارة "الأطباء" السحرة أو المعالجين، حيث يتدافعون على ضفاف النيل[٤٦] واليونان بعد أبو قراط علموا طبًا آخر بالإسكندرية قائمًا على "الخلط"، ولكنهم كانوا يعرفون معنى النبض ودور الأعصاب، وكان إرازيسترات قريبًا من اكتشاف الدورة الدموية[٤٧].

وهناك أهل الرياضيات الذين تعلم اليونانيون على أيديهم فى الإسكندرية مثل أرشميدس[٤٨] الذى درس بها ومثل إراتوستين وكونون، ووجدت الهللينستية بقوة فى مصر، فالامتيازات من كل نوع والأموال الممنوحة للأجانب والممنوعة على المصريين باعدت بين الجماعتين وجرحت مشاعر المصريين الذين استعدوا للثورة.

ومن بين مبادرات فيلادلفوس، مبادرة كانت لها عواقب وخيمة، حيث أجرى اتصالات مع روما وهى الاتصالات التى كلفته العرش، وقد مات بعد ما أهدى ابنته برنيقوس لبلاط أنطيوخوس الثانى[٤٩] الذى تزوجها.

البطالمة الصغار: قرنان من الانهيار (٢٤٧-٣٠)

حكم اثنان من البطالمة الأوائل لمدة أربع وثمانين سنة، ودفعا خلالها مصر للأمام لدرجة جعلت من جاء بعدهم يعتقد أنه يكفيه أن يحكم دون أن يجدد، ويستمتع مع ذلك بنتاج جهد السابقين، فكانت النتيجة الضعف والتدهور البطيئين لكنهما أكيدان، واللذين قادا كل مشروع بشرى للفشل.

ودب الانهيار غير الظاهر فى الحياة اليومية وأصبح حقيقة من عهد إلى عهد، تعاقب عشرة ملوك على عرش مصر على مدار نحو قرنين من الزمان دون أن يحكموا حقيقة البلد، فقد عانوا من تأثير الرومان المتنامى، وخضعوا للغزوات المستمرة من أسرة أنطيوخوس ملوك سوريا.

الوجود فى البحر الأحمر

خلال سنوات الفوضى فى التاريخ المصرى، كان الهمُّ المستمر هو استمرار السيطرة على البحر الأحمر، وهو ما يبدو عبر بعض نقاط الاستدلال المهمة.

فقد وجد بطليموس الثالث إيفرجيتوس[٥٠] صعوبة كبيرة فى إقناع أهل أكسوم بالسماح له باستخدام ميناء عدوليس، الذى يفضله والذى كان حتى وصول الرومان عام ٣٠ بعد الميلاد مركزًا تجاريًا مهمًا، ودفع بطليموس الرابع فيليباتور المعارف الجغرافية إلى ما وراء باب المندب، ووصلت الاستكشافات على الساحل الأفريقى أقصى نقطة فى أفريقيا، رأس جاردافوى أو رأس نوتوس، وما بعد الساحل الأفريقى غير مستكشف. وأنشئ ميناء فى عهده حول باب المندب[٥١].

نظم بطليموس الخامس إبيفانس حملة فى البحر الأحمر وصلت إلى الهند، فهل كانت محاولة لتحقيق مشروع الغزو الكبير الذى كان يطمع الإسكندر فى استكماله، أم

للبحث عن التزود بالمنتجات النادرة؟ وعلينا أن ننتظر عهد بطليموس الثامن[٥٢] الذى حاول استكشاف السواحل الأفريقية، حيث أمر إيفرجيتوس الثانى بأول رحلة فى المحيط الهندى بقيادة إيودوكس دوكيزيك، الذى حاول من جديد لكن بلا جدوى فيما يبدو أن يكرر الرحلة الطويلة، وكذلك فقد اهتم خليفته بطليموس التاسع سوتير الثانى بالملاحة حتى تجد مصر لنفسها مكانة فى الشرق.

تفوق اليونانيين

عندما اعتلى سوتير عرش مصر عام ٨٩ خلفًا لأخيه بعد موته فى معركة بحرية، واجه ثورة الطبقات المؤثرة المصرية، وتتابعت الثورات المتفرقة منذ عهود فيليباتور وإبيفانس، ولم يستطع المصريون قبول الاستلاب الدائم لحقوقهم لصالح اليونانيين، وفى عام ٨٨ أخضع سوتير طيبة ودمرها وتركها وسط بحر من الدم.

تزايد التأثير الرومانى

رفض سوتير، الذى يعلم مدى خطورة القوة الرومانية، مساعدة "سيلا: Sylla" ضد "متريدات: Mithridate" عام ٨٥[٥٣] ولجأ ابن أخيه الإسكندر إلى بلاط هذا الأخير، ورجع إلى سيلا عندما أتى هذا الديكتاتور الرومانى إلى آسيا، وذهب إلى روما ثم عاد إلى مصر بعد موت عمه سوتير عام ٨١ واعتلى العرش وتزوج برنيقوس ابنة سوتير التى اغتالها بعد عدة أيام وذبحه الجيش بعد تسعة عشر يومًا من الحكم فقط، وبانتهاء عهد بطليموس العاشر فى الإسكندرية يختفى آخر نسل للبطالمة الذكور[٥٤]، وقد عين له شعب الإسكندرية خليفة وهو ابن طبيعى لسوتير الذى اتخذ لنفسه اسم بطليموس الحادى عشر أوليليس "عازف الناى".

أتاحت وفاة ميتريدات السادس العدو اللدود لروما عام ٦٣، لبومبى الفرصة للوصول لحدود مصر بعد إخضاع يهودا لروما ونال أوليليس الهدايا، وقد أثار بومبى صديق قيصر قضية بطليمـــوس الحادى عشر، الذى اعترف به أخيراً مجلس السنات فى روما عام ٥٩، وهكذا بدأ عهد ملوك تختارهم وتنصبهم روما، وبداية تبعية مصر.

نهاية البطالمة

ومن هذه التبعية سوف تدخل مصر مباشرة فى الخصومة بين قيصر وبومبى، فهذا الأخير دفع قوات فى اليونان وأعطته كليوباترا خمسين مركبًا حربيًا ومائة وخمسين من المرتزقة الجابنيين(٥٥)، واعترى الأوصياء الرومان القلق من هذا القرار، وهربت كليوباترا إلى سوريا.

وبعد هزيمته فى فارسال فى يوم ٩ أغسطس عام ٤٨، أتى بومبى لاجئًا إلى مصر، وكان بطليموس الذى يطلبه الرومان على حافة اللحاق بأخته وكان جيشه يعسكر غرب بلوز تحت قيادة أخيلاس عندما قدم أسطول بومبى من قبرص مهاجمًا، وطلب رسل بومبى اللجوء ولكنهم وبلا حذر جعلوا أموالهم تبرق أمام أنظار الجنود، واجتمع مجلس بقيادة تيودوتوس الوزير الوصى الذى قرر موت بومبى حتى لا يجعلوا من قيصر عدوا ومن بومبى سيداً. دعوا بومبى ليغير الأسطول ثم قتلوه على حافة المركب، وأُحرق جسده على الشاطئ بخشب تبقى من حطام السفن.

وعلم بطليموس بقدوم قيصر إلى الإسكندرية فى ٢ أكتوبر فتقهقر، وما إن وصل قيصر حتى قدم له ثيودوتوس رأس بومبى، وأثار هذا المنظر اضطراب قيصر الذى بكى واقتيدت كليوباترا للقصر، وجيء بها أمام الملك الشاب الذى انتابه غضب حاد ورفض أن يخضع لقيصر أو أن يزوجه أخته استجابة للوصية الملكية، وتدخل قيصر

وتحدث إلى الحشود الصامتة، وفى اليوم التالى حمله أمام تجمع الشعب المنعقد فى الجيمناز الذى أيد قراره، وأراد قيصر الرحيل، ولكن الرياح غير المواتية حالت دون ذلك. ويقال كذلك: إن سحر كليوباترا هو الذى أدى إلى ذلك.

عانى شعب الإسكندرية من تدخلات الرومان؛ وأخيلاس جنرال مصرى استدعاه بتينوس، وتقدم نحو المدينة بينما حاول بطليموس الهروب، واحتال قيصر الذى لم تكن معه سوى قوة مكونة من ثلاثة آلاف رجل، ونجح فى أن يعطى أبناء أوليليس قبرص، ولكن الثورة اندلعت ووصل أخيلاس الإسكندرية ومعه اثنان وعشرون ألف رجل، وأراد قيصر أن يحتفظ بالمنفذ المؤدى إلى البحر فأشعل النيران فى اثنتين وسبعين مركبًا مصرية فى المرسى، وفى هذا العام ٤٧ احترقت الترسانة وكذلك القصر ومكتبة البطالمة الفريدة وأنقذ وصول قوة أرسلها دوميتيوس كالفينيوس الجيش الرومانى.

وقد أدت المفاوضات مع سكان الإسكندرية إلى أن يترك قيصر بطليموس الذى سرعان ما نظم الكفاح ضد الرومان، وجاءت قوات الحاكم الفارسى فى برجام Per-game[٥٦] لإنقاذ الرومان بمساعدة إيدمين أنتيباتور[٥٧] واليهود الذين معهم، وهزم الجيش المصرى فى سيناء وتقابل قيصر وبطليموس على صفحة النيل وغرق بطليموس مع درعه الذهبى فى النيل وألقى النيل جسده على الشاطئ[٥٨]، ووضع قيصر أخاه مكانه على العرش باسم بطلميوس الثالث عشر طبقًا لوصية أوليليس وحكم بمشاركة أخته كليوباترا زوجته وأخته، وفى يوم ١٧ يونيه ٤٧ وضعت كليوباترا طفلاً أسمته قيصرون معترفة بذلك بصلتها مع الرومانى، وفى عام ٤٦ ذهب بطلميوس وكليوباترا إلى روما معترفين بأنهما "حلفاء الجمهورية"، وفى عام ٤٤ مات بطليموس ربما مسمومًا على يد أخته إذا ما اتبعنا ما قاله المؤرخ يوسف، واعترفت كليوباترا عند موت قيصر بابنها قيصرون ملكًا، واشتركت فى "الترمفيرات: Trumfirate" وسحرت أنطونيو عندما كان فى طرسوس وفى سوريا ثم اصطحبته إلى الإسكندرية.

كانت كليوباترا تحلم بتشييد إمبراطورية نواتها مصر، وأنطونيو مستعد أن يساعد فى تحقيق هذه الرغبة فأعطاها فينيقيا ومقاطعات سوريا وقبرص ومقاطعة "سيليس: Cilicie" فى يهودا وبخاصة البتراء، هذا الجزء من الجزيرة العربية النباتية حيث تمر القوافل القادمة من حضرموت على طريق الهند، ولأنه أنجب طفلين من كليوباترا فقد أعطاهما مقاطعات لم يغزها بعد بل استمر حتى لبس تاج البطالمة.

أصبح اهتمام أنطونيو بروما قليلاً، وقد أخطأ حين طلق زوجته أخت أوكتافيوس وجرد "السنات" من سلطاته، وأعلن الحرب على مصر، وستدور معركة بحرية ستهرب كليوباترا على إثرها يتبعها أنطونيو تاركين النصر لقوات أوكتافيوس، ومن مخبئها المصرى سلمت كليوباترا بيلوز للرومان، وقاتل أنطونيو أوكتافيوس أمام الإسكندرية، ولكن كليوباترا خانته عندما وجدت قواتها البحرية مع قوات الرومان، وانتحر أنطونيو ومنع الجنود الرومان كليوباترا من اقتراف نفس الفعل، ولخوفها من أن يصحبوها مقيدة فى أغلالها إلى روما، جعلت كليوباترا حسب التقليد أفعى سامة تلدغها لتموت عام ٣٠.

وهكذا كانت نهاية أسرة البطالمة الذين تعاقب منهم على عرش مصر واحد وعشرون ملكًا على مدار مائتين وأربع وتسعين سنة، وبموت كليوباترا يصبح هذا البلد الرائع مقاطعة رومانية عهد بها إلى الحاكم قورنيليوس جالوس[٥٩].

الرومان

أمدت مصر المحتلة الرومان بالثراء الذى أنعش بلادهم، وأمدتهم بالأيدى العاملة المصرية الكثيرة والماهرة والمحبة للأرض بالغلال التى هم فى مسيس الحاجة إليها، وقد استمر كبار التجار المفاوضين والسماكون والنبلاء والبرجوازيون اليونان فى نشاطهم

لمصلحة روما الكبرى، وكل الأمور الملكية وأملاك الدولة والاحتكارات الصناعية التى صنعت ثراء البطالمة ستؤول إليهم، ولكن هل سيستطيع الرومان أن يكملوا هذا الإنجاز؟ الإسكندرية ثمرة ثلاثة قرون من جهود التجار وأول مدينة فى العالم ذات مصادر بشرية وتجارية لا تنتهى، كما أنها رأس معبر تجارى بين الشرق والغرب، ومفتاح أفريقيا الشرقية والبحر الأحمر والجزيرة العربية والهند، فهل احتفظت بامتيازاتها هذه؟ وهل ستحافظ روما على استمراريتها هذه أم ماذا يمكنها أن تضيف لما هو موجود؟

يستمر الانطباع عبر مراحل التاريخ، تاريخ هذا القطر الثرى [مصر] حتى الاحتلال العثمانى. فليس عصر أكثر نشوة ومثابرة وتواضعًا من هذا [العصر الرومانى](٦٠).

هكذا كانت الحقيقة المؤلمة، واستغل الرومان مصر مثل كل من امتلكها، لمصلحة روما وسوف نرى إلى أية درجة من البؤس قادوا الفلاحين المصريين.

الإسكندرية فى عهد البطالمة

أسسها الإسكندر عام ٣٣١ على جزيرة فاروس، وهى تتصل بالساحل عن طريق معبر الهيبتاستاد الذى تحدث له توسعة كل عام عن طريق طمى النيل، وبها يسكن ستمائة ألف نسمة، وتجمع بين السلطة السياسية والرخاء الاقتصادى، ويمكن القول بأن الاسكندر كان يعيش فى اكتفاء ذاتى بمعزل عن مصر، التى تفيد مما يعملون أو تعانى مما يقررون عليها. ولتغذية التجارة فضل البطالمة الملاحة فى البحر المتوسط كما فى البحر الأحمر.

وأعطت نار جزيرة فاروس اسمها لكل نيران الملاحة فى العالم، وأنشئت العديد من الموانئ أو أعيدت على البحر الأحمر مثل هيروبوليس بوادى طميلات عند نقطة

الانطلاق من القناة بين النيل والبحر الأحمر وكليوباتريس أرسنيوى على الساحل، وعلى الضفة الأفريقية نجد كل المراسى اليونانية:

فيلوتيرا دميوس- هرموس وليكوس ليمن أو القصير وأخيراً برنيقوس عند أسوان، وأنشئ عام ٢٧٥ على يد بطلميوس فيلادلفوس، وكانت هذه الميناء الأخيرة رأس خط الملاحة على مدار ثلاثة قرون إلى الهند، ويصلها طريق عسكرى له رسم مرور إلى قفط، مزود بخزانات للمياه، "الهيدراما: Hydrouma"، وأبعد من ذلك عد وليس تخدم مملكة أكسوم، وبعد ذلك توجد مراسٍ أخرى من بينها عواليت ومالاو وأوبون[٦١]. أما الساحل الشرقى فيوجد به قليل من الموانئ: "لوكى- كومى: Leuke- kome" ونيجرا فيكوس: Nega Vicus، وموزا Mousa" بالقرب من مخا وأوسيليس (O cilis) بالقرب من باب المندب ثم أخيراً عدن أو عدانا أو "أرابيا أو دايمو: Arabia Eudaema" وكانى على حضرموت بالقرب من لسان "فارتاك: Fartak".

وكانت البضاعة تأتى من البحر الأحمر إلى النيل عند طرف "قناة الملوك الأربعة"

ومن هنا تأخذ فرع النيل الذى يمر بكانوب وتصل الإسكندرية عن طريق قناة طويلة، نحو خمسة وعشرين كيلو متراً[٦٢].

فهم الرومان دور الوسيط الذى تلعبه مصر- وبخاصة الإسكندرية- بين الغرب والشرق، واعتنوا بالقنوات فترة طويلة، ولكن حدث أن توقفت الإمبراطورية عن الاهتمام بها؛ فانهارت التجارة وردمت القناة بالرمال وهجرت السفن المصرية البحر الأحمر.

الرومان وتجارة التوابل

اهتم الإسكندر وكذلك أغسطس بعد ذلك بحالة الطرق وتجارة الطيب والتوابل والعطور- المنتجات النادرة والغالية جداً التى أولعت بها روما- وفى المقابل لم يكونوا

على علم بمصدرها فاعتقدوا أنها جاءت من الجزيرة العربية[٦٣]. وفكر الرومان أن باستطاعتهم وفى الحال أن يسلبوا العرب احتكارهم التجارى الأرضى الذى يتمتعون به فى الجزيرة العربية باجتذابها إليهم عن طريق البحر الأحمر؛ حاول البطالمة أن يوجهوها نحو النيل عن طريق برنيقوس وقفط، وأراد الرومان الذهاب إلى مصادرها.

وهو عمل ضخم فى قارة شاسعة حول منتجات قادمة من أماكن أخرى[٦٤]! ولكن أغسطس اهتدى للحل، فقد امتلك ما كان يفتقده البطالمة: الإرادة السياسية.

الحملة الرومانية ضد العرب (٢٥-٢٤)

قرر أغسطس شن حملة عبر البحر الأحمر تجاه النباتيين[٦٥] واليهود الذين، كما يعتقد، قد يساعدون فى قتال العرب، وكان ذلك تقديرًا خاطئًا؛ لأن النباتيين فى البتراء تحديدا كانوا يعيشون فى قوافل عربية. وعهد بهذا المشروع الكبير إلى أوليوس جاليوس عام ٢٥ ، أوجب على البتراء "مملكة الجمالين"[٦٦] أن تمده بألف رجل ومعهم جمالهم وكذلك بالأدلاء، وأمده هيرود الكبير[٦٧] أيضًا بخمسمائة من اليهود من حرسه الخاص[٦٨]، وخضعت البتراء لحكم ملك خامل يدعى أوبوداس الثانى، وتعامل الرومان مع وزيرهم خولاى باليونانية، وهذا النباتى، بلا شك استدعى للإسكندرية وأقنع جاليوس باستحالة عبور مصر للجزيرة العربية بالطريق البحرى لنقص نقاط التزود بالماء، وفى الحقيقة كان النباتيون يسيطرون على الممر حتى الحجْر، وكان يوجد ممران عمليان ولكنهم لم يرغبوا فى رؤية الرومان عندهم، ونظرًا لجهله التام بالإقليم أخذ جاليوس الطريق البحرى، وجمع فى كليسما أسطولاً مأخوذًا من أسطول البحر المتوسط، وحُملت قطعه المفككة على ظهور الجمال! هذا الأسطول الحربى المكون من سفن طويلة وسريعة كان لا يتناسب مع البحر الأحمر ولا الحملة المرتقبة، وكان الأفضل الاستعانة بسفن متوسطة معدة لنقل القوات ومناسبة للبحر، ومع ذلك فقد نقلت طبقًا

لاسترابون عشرة آلاف رجل[٦٩] نزلوا على الساحل العربى فى لوكى- كومى، "القرية البيضاء" فى أقصى الجنوب من الموانئ النباتية، واجتاح الوباء صفوف القوات الرومانية التى عانت فى موقعها من صيف ملتهب. وبلا سبب واضح - بدلاً من الذهاب للجنوب- دخل جاليوس الجزيرة العربية عندما سار باتجاه الشرق، ومكث الرومان شهراً فى الحجر ، مركز الهجر فى بلاد "أريتاس: Aritas" حليف النباتيين، وربما بحث سيلتيس عن المعلومات حول الطرق؛ لأنه سار خمسة أسابيع باتجاه اليمن العربى السعيد وتوجه إلى نجد باتجاه تايما وأخذ نجرانا بمحازاة وادى كاريد، وانتصر فى المعركة ضد بعض الخصوم النباتيين، واندفع حتى "ماريابا: Mariaba" أو مأرب، ولم يثبت أنه استولى على المدينة التى تشبه عمومًا بسبأ القديمة ولكنه هزم بها الملك "سابوس: Sabos[٧٠]". وسار حتى قطبان باتجاه "طوما: Thomma" جنوب صنعاء على بعد مسافة قصيرة من عدن.

وبعد عدة أيام من الجهد المضنى سقطت المدينة المفتاح على البحر الأحمر، والمهيأة لمواجهة خطر بحرى أو برى فى أيديهم بعد هجوم مباغت لهم من الخلف، ولم يكن لهم دليل إلى اليمن ولا معرفة بما حوله.

أنهكت القوات، وخارت شجاعة جاليوس واستعان بسيلتس الذى لا يعرف الإقليم، رغم أن المعرفة بالاتجاه نحو الساحل كان يمكن أن تنقذ الموقف وتهب النصر لجاليوس. وأحدث الاستيلاء على عدن دويا هائلاً. ولعدم وجود هدف ولانعدام مظاهر الثراء أعطى جاليوس أوامره بتمهيد الطريق وساروا لمدة ستين يومًا عن طريق نجران ومكة والمدينة ووصلوا "إيجرا: Egra"؛ ميناء يقع إلى الشمال من لوكى- كومى[٧١].

وركبت القوات الناجية من الترحال فى الجزيرة العربية السفن المتبقية بالبحر وعلى الساحل، ووصلوا ميوسى- هورموس بعد أحد عشر يومًا من الإبحار بدلاً من أربعة أيام كما هو المعتاد، واكتشف الرومان من معاناتهم أن البحر الأحمر يمكن أن

يكون صعبًا مثل البحر المتوسط، واستمروا فى السير فى الصحراء لمدة خمسة أيام ليصلوا إلى قفط على النيل.

واتهم جاليوس سيلتيس لإخفاقه، وهو الفشل المقدر سلفًا؛ لأن النباتى الوزير الكبير فى مركز المرور فى البتراء لم يكن يعلم بلا شك طرق الجمال بالصحراء، وفى الجزيرة العربية، لم يكن المسئول عن مسافة طريق للقوافل على دراية بالضرورة بطريق آخر. واقتسام الاختصاصات كان الضمان الأكيد لصالح كل قبيلة.

السيادة البحرية بالبحر الأحمر

تأكد الرومان بعد حملة جاليوس أن الجزيرة العربية وبها مدينة البتراء لا تنتج الطيب والتوابل التى يضمنون نقلها، لم يفهموا إلا عن طريق الخطأ أن غزو اليمن العربى السعيد لا يتم إلا بعد السيادة البحرية فى البحر الأحمر، ورغم هذا الإخفاق فقد اتخذوا احتياطات بهدف تسهيل التجارة البحرية، وأعيدت طرق الاتصالات التى تسمح بالوصول لمسارات الطرق، وأعيد حفر خزانات الماء والقنوات وإصلاحها.

وللإعداد للهجوم أنزلوا بعض القراصنة بالقرب من البحر الأحمر، وإذا ما صدقنا ما جاء فى "رحلة البحر الأريترى" ، فإن جنودًا رومانيين سوف يحتلون عدن (عدان) عن طريق البحر للثأر من فشل حملة جاليوس، وهو أمر غير محتمل يبدو أنه قد نتج عن الخلط لدى من قام بنسخ الوثيقة. فربما ظن "هيسار: Hisar" ملك سبأ الصغير هو القيصر، وقد كان هيسار قد قام بحملة ضد عدن وكانيه فى عهد أغسطس(٧٢). ولنا أن نتخيل ما يمثله احتلال الرومان لعدن، فلم يأت أى أجنبى إلى هنا ليزيح النظام التجارى المستقر منذ قرون.

وتقرر الأمر ولم يصل الرومان إلى عدن، ولا يمكن أن نتحدث عن سيادة رومانية فى البحر الأحمر فى الوقت الذى تتسع فيه سلطة أهل أكسوم، وقد وضع موت قيصر عام ٤٤ق.م نهاية لمشروع غزو إثيوبيا، وأرسل نيرون[٧٣] فيما بعد حملة إلى مروى وأعدت خطة للغزو، ولكن آخرها ثورة[٧٤] اليهود فى يهودا[٧٥] عام ٦٦.

القرن الثالث: مصر مقاطعة رومانية

زار سبتيم سيفير مصر عند عودته من الحملة على بلاد ما بين النهرين، عام ١٩٩ بعد الميلاد، والتقرير الذى ينسب إليه عن النوبة كان لدق ناقوس الخطر لكى يأمر بتحصين "عش الصقور" فى بريمس[٧٦]، وخلال عصر الفوضى الممتد من ٥١ حتى ٢٦٨، طالبت مصر بإيمليان إمبراطوراً، وكان أسيراً لدى القوات القادمة من روما التى نهبت الإسكندرية وخربتها وتركتها أطلالا مهجورة فريسة للأوبئة الفتاكة.

كانت مصر تبحث عن كيفية حماية نفسها؛ فسعت لعقد صداقة مع زنوبيا ملكة بالمير[٧٧]، ومن ثم فقد جاء من بالمير جيش أكثر عدداً من القوات الرومانية، عام ٢٦٩ واتخذ حامية له فى مصر، وهى العملية التى نتج عنها احتفاظ الرومان بالسلطة، وفجأة ثارت بالمير ضد الرومان، ووصل التمرد أعالى النيل، حيث وجدنا قبيلة من البربر وهى قبيلة البليميس تتسبب فى الدمار الشديد، واندلعت ثورة أخرى فى الإسكندرية بهذه المناسبة، وقضوا على شركاء زنوبيا فى حى بروشيون الذى دمر تماماً. وكان على الرومان كذلك أن يقاتلوا الليبيين على الحدود الغربية ويطاردوهم فى بطلمية وقفط، وكان النصر المؤقت، ثم اضطر دقلديانوس لقبول أن يقوم الليبيون بالقتال ضد "البليميس: Blemmyes".

تضاعفت الأعباء والضرائب الملقاة على عاتق الفلاحين مما اضطرهم إلى هجران أراضيهم:

"فى وادى النيل، كان هم روما، هو الضريبة، لا شىء إلا هذا النهم، والقسوة إلى أبعد مدى حتى لا تفقد شيئًا"[٧٨].

وتفشت المجاعة فى الإسكندرية وزاد منها الامتيازات المعطاة لروما، واستولى دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) بعد ثمانية أشهر من الحصار على المدينة ودمرها من جديد، وحدّ من تصدير القمح، وليذكّر بفضله نصب تمثالاً له أعلى قمة عمود يسمى عمود بومبى (Pompei).

شهدت هذه المرحلة القضاء على الذكريات البطلمية بمصر؛ فبعد ثلاثة قرون فرضت روما قانونها ولغتها وعاملت البلاد على أنها مجرد مقاطعة رومانية.

دور أكسوم

نحو منتصف القرن الثالث بعد الميلاد بدأت أكسوم تدخل فى صراع مع إقليم الجزيرة العربية، وهو الإقليم الذى وفدوا منه قبل ذلك بقرون[٧٩]، وبفضل نسخة من نص منقوش فى "عدوليس: Adoulis" عام ٥٢٧ نقش تاجر يونانى من الإسكندرية يدعى كوزماس إنديكوبلوست، نعلم أن إحدى شركاته كان يديرها ملك يدعى "أفيلاس: Aphilas"، ويحتفظ الفاتيكان بإحدى هذه المخطوطات التى تشير، بالإضافة إلى رسم المدينة فى كروكى عام إلى لوحة وكرسى من المرمر، وشوهدت نقوش يونانية فى الهامش، ونقش اللوحة مؤرخ بعهد بطلميوس الثالث إيفرجيت نحو عام ٢٤٠ ق.م، يعطى قائمة بمحطات الصيد التى أسسها البطالمة على سواحل بحر إريتريا حتى يحصلوا على الأفيال بأسعار أفضل من الهند، ويقص خبر المهمة التى قام بها أفيلاس، حيث قام بحملات الأكسوميين فى اليمن العربى السعيد ضد الأريابيتيين والكينايدو كلبيت ويقول النص: "لقد قدت الحرب من لوكى- كومى حتى بلاد سبأ"[٨٠].

يدل النقش الأول على أن البطالمة اعتادوا الوصول إلى عدوليس فى القرن الثالث ق.م، ومما يسبب الضيق من مؤلفين مثل كامرير الذى لم يستطع عام ١٩٢٩، تخيل أن أكسوم يمكن أن تؤرخ بالقرن الخامس ق.م، وأنهم يعتقدون أن عدوليس ربما تكون قد أنشئت قبل وصول الأكسوميين، ولكن يجب أن نشير إلى أن مأوى خليج زولا استخدم قبل هذا العصر عن طريق التجارة، وكان معروفًا ومجهزًا على يد السبئيين لدى هجرتهم من الحبشة.

ويشير النقش الثانى للغزوات الخاطفة التى لم تمثل خطرًا حقيقيًا على الملوك الحميريين، ونعلم من نقوش مؤرخة بالعام ٢٧٠ و ٢٧٣، بعد الميلاد أن هؤلاء حكموا سبأ وحضرموت وإقليم كانيه(٨١). ويخبرنا نقش من أكسوم مؤرخ بمنتصف القرن الرابع بعد الميلاد أن الملوك الثلاثة أميدا وإيزانا قاموا بغزو كل جنوب الجزيرة العربية وتلقبوا بملوك أكسوم وحمير ورايدان وعباسات وسبأ، وهو غزو سرعان مازالت آثاره لأن لدينا نقشًا من عام ٣٧٨ يشهد بوجود ملوك حميريين.

وفيما بعد، وفى عام ٥٣٠ استغاث مسيحيُّو اليمن الذين تطاردهم المملكة "اليهودية" فى نجران(٨٢)، بالملوك المسيحيين فى أكسوم، وغزوا نجران وحكمها نائب ملك حبشى. استمر هذا الوضع على الأقل حتى الغزو الفارسى للجزيرة العربية عام ٥٧٠(٨٣).

نباتا ومروى (Napata et Meroe)

لا شك أن الاتصالات القليلة التى قام بها الرومان مع "الإثيوبيين"(٨٤)، فى جزيرة فيلة فى بداية الاحتلال، تركت أثرًا فى أولئك الإثيوبيين جعلهم يقبلون الحماية الرومانية.

وفى هذا العصر، اتحدت نباتا ومروى وإرجامين معًا لفترة ثم سرعان ما انفصلوا، وكانت نباتا الأقرب إلى الرومان، ومن ثم ربما دخلت فى صراع معهما، وقد أفقرت الحملة فى البحر الأحمر الحاميات الرومانية، هاجم كانداس نباتا وعرقل الجنود الرومانيين وأطلق غزوة خاطفة وصلت إلى منتصف وادى النيل، وأطلق الحاكم الرومانى كورنيليوس جالوس حملة عام ٢٩ ق.م ضد "كانداكى: Kandake"،(كانداس أو ملكة) الأعور الذى يحكم المملكة.

لم تتوقف الغارات النوبية، وفى عام ٢٤ شن خليفته كايوس بترونيوس هجومًا جديدًا ضد النوبيين من خلال جيش مكون من عشرة آلاف راجل وثمانمائة فارس[٨٥] استولوا على عش الصقر فى بريمس[٨٦]، وحاصر بترونيوس نباتا بعد أن قطع أكثر من ألف وخمسمائة كيلو مترًا عبر وادى النيل بعد أسوان، واستولى على المدينة ودمرها وأخذ البشر عبيدًا. وجعل البعد الرومان يخافون من تحالفات ضد الاحتلال الدائم فعادوا إلى بريمس فى النوبة السفلى، ودمرت نباتا وطلبت الملكة السلام ولكنها جددت هجومها بعد ذلك بعامين، وقرر أغسطس احتلال إقليم "سين: Syene" فى هيراسيكامنيوس عسكريا، وألحق السكان بحاكم إلفنتين، وتم التوصل إلى السلام أخيرًا على يد مبعوثين نوبيين قطعوا رحلة طويلة من أجل مقابلة أغسطس فى "ساموس: Samos[٨٧]". واستمرت هذه الحال لثلاثة قرون فلم يغامر الرومان فى هذه البقاع خلالها.

لم تقم لنباتا بعد تدميرها على يد الرومان قائمة، وبعد ألف وخمسمائة عام من الوجود ينتهى تأثيرها، وتنتقل العاصمة نهائيًا إلى مروى، ولكن المملكة عرفت الوحدة، وعبر العهود تبدل الوضع، فقد مر على حكمها ابتداء من عام ٢٠ ق.م حتى عام ٢٥٤ تسعة عشر ملكًا، ثم ضعفت السلطة المركزية وساد نظام قبلى، وقررت أكسوم التى كانت تهتم بصلات ودية مع مروى، ولسبب مبهم أن تكمل التدمير الذى بدأه بترونيوس فى نباتا إلى الشمال وهاجمت مروى. ونجهل تاريخ هذه الحملة تحديدًا ولكننا نعرفها

من نقش عثر عليه فى عدوليس، وفيه أن ملكًا- يعتقد كامرير برأى إيزانا- يسمى نفسه[٨٨] "ملك الأكسوميين والحميريين":

"بعد أن هزمت التانجاويين الذين يسكنون حتى حدود مصر، شيدت طريقًا يصل بلاد مملكة حتى مصر.

وبخلت فى معركة ضد نوباس (Nobas النوبيين) عندما تمردت هذه الشعوب"[٨٩].

استعمل واستكمل الأكسوميون بلا شك الطرق التى تبدأ من عدوليس على البحر الأحمر، والتى كانت تستغل فى تصدير بخور الصومال، حيث يتم استلامه هنا ليصل فيما بعد إلى مصر.

اليهود

اليهود فى العهد الفارسى

دمرت مدينة القدس عام ٥٨٦ ق.م، على يد نبوخذ نصر، واقتيد صفوة مملكة يهودا إلى بابل، وكانت مصر- كما هى العادة- الملجأ الرئيسى للسكان، ووجد اليهود الأماكن المألوفة لآبائهم[٩٠]، تانيس، هليوبوليس، بلوز ودافنى وبوبا سطة ومنف ونزلوا حتى سيان[٩١].

وهكذا تطور اليهود المشتتون بشكل مختلف، فالصفوة العبرية التى تملك السلطة هربت إلى بابل فى إطار نشاط دينى وروحى كبير سوف يبقى مع شعب إسرائيل على مر القرون.

وآوت مصر جالية يهودية صناعية سوف تطور نشاطًا تجاريا مفيدًا جدًا. وفى عام ٥٣٦، وبعد غزو بابل على يد الفرس سمح لليهود بدخول القدس، وظلوا بها قرنين تحت النفوذ الفارسى حتى وصل الإسكندر الأكبر.

اليهود تحت الحكم البطلمي

بعد استيلائه على صور وغزة عام ٣٣٢ أصبح الإسكندر سيد فينيقيا، وذهب إلى القدس حيث استقبله كبير الكهنة يادوس، وتواضع بدبلوماسية رقيقة أمام وزير الإله وكسب اليهود فى صفه[٩٢].

وازداد تأثير اليهود فى مصر فى عهد البطالمة، وتجمعوا فى جالية استوطنت "شبيا: Schebia" فى عهد بطلميوس الثالث والإسكندرونة فى عهد بطليموس الرابع وأتريب فى عهد بطليموس إبيفانس، وأعطاهم بطليموس سوتير حق البرجوازية فى الإسكندرية حيث استأثروا بحى بكامله، وقد فضل بطليموس ترجمة العهد القديم للإغريقية[٩٣]، وسمح لهم بطليموس فيلوميتور أن يشيدوا فى لنتيوبوليس، بالقرب من بواباسطة، نسخة مطابقة لمعبد القدس.

كثر اليهود بمصر وكان لهم زعيم مشهور، كما يخضعون للحاكم الرومانى والحكام والولاة الذين يساعدهم مجلس كبير يسمى "السانيدرين: Sanhedrin"، وكانت لهم محاكمهم الخاصة، ويحكم فى القضايا طبقًا للشريعة الموسوية، وفى القرن الأول قدر أحدهم- فيلون- أتباع الديانة اليهودية بنحو مليون، شكلوا جماعة مهمة ونشيطة جدا فى الإسكندرية وتوسعوا خارج حيهم الخاص، لدرجة أنهم اقتربوا من السكنى فى حيين من أصل خمسة أحياء. وهناك جاليات عبرانية أخرى سكنت المدن الكبرى الأخرى، وبخاصة أرسينوى[٩٤].

احتفظ اليهود منذ فترة باكرة بعلاقات طيبة مع البطالمة أصحاب السلطة، وبالتالى شعروا بالاستقلالية، هذا الشعور الذى يدل أحيانًا على عدم رغبتهم فى مشاركة المجتمع برفضهم على سبيل المثال أن يدرجوا ضمن قوائم القبائل، وهو الأمر الذى أغاظ اليونانيين. يضاف هذا إلى الشك المتولد من تطلعاتهم المتجهة بقوة نحو القدس، عبر العصر الهللينستى.

تبدل هذا الوضع الجيد عند دخول بطليموس فيليباتور عام ٢١٦ معركة ضد أنتيخوس الثالث الذى هزمه فى "رافيا: Raphia" وسيطر المصريون على فينيقيا وفلسطين، وعندما عارض الكاهن الأكبر فى القدس مرور فيليباتور، غضب هذا الأخير جدا وعامل اليهود بمصر معاملة قاسية جدا. وفى عام ١٦٧ ثار اليهود تحت قيادة "يوداس مكابى: Judas Maccabee"، وحدث ما لا يمكن تصوره حيث تغلبوا على قوات أنتيخوس وأسسوا مملكة، وفى عام ١٦٤ حل أنتيخوس الخامس محل والده المتوفى وهزم كبير الكهنة يسوع - ياسون واستولى على القدس من جديد، وعهد خليفته ديمتريوس الأول بالسطة لألكيم الذى حاول عبثًا القبض على يوداس- مكابى الذى قتل عام ١٦٠ فى معركة "إلازا: Elasa".

ولم يكن هذا الوضع الجديد بلا عواقب؛ فقد وضع نهاية لهذا المناخ الطيب الذى نعم به الشعب اليهودى فى مصر ابتداء من عهد الإسكندر، وترسخ شعور من عدم الثقة استمر طويلاً فى عهود البطالمة والرومان الذين رأوا فى اليهود المصريين بالإسكندرية عملاء للقدس. نهضة هذه المدينة وإشعاعها الجديد نتج عن الروحانيات المتراكمة خلال السبى البابلى، الذى كان موضوع جذب مشروع لشعب من المفروض أن يرضى فى مصر بمجرد نسخة مشابهة لأماكنه المقدسة. وقد جلب اليهود كثيرًا من الثراء لمصر بمشاركتهم النشطة فى التجارة. ونظر البطالمة- والرومان من بعد- للوضع، من منظور سياسى لا روحى، فتولد لديهم عدم ارتياح تجاه جماعة متماسكة ثرية نسبيا ومنظمة بشكل جيد، مشكلة أحيانًا "دولة داخل الدولة".

وخلاصة القول: إنه فى عهود البطالمة اعتمد موقف السلطة تجاه اليهود على الصلات الآنية مع القدس، ولكنهم تمتعوا بحرية دينية واستقلالية كبيرة.

اليهود تحت الاحتلال الرومانى

عاد نشاط اليهود المصريين المندمجين فى تيار التبادل التجارى بين البحر الأحمر وأوربا بالفائدة الكبيرة على البلد، وجرَّ عليهم ثراؤهم نوعًا من الرفض، وبتحليل ذلك نتأكد أن مواهبهم عادت عليهم بالمشاكل، فهم صناع ومنظمون ومتماسكون فأثروا سريعًا وأصبح لهم تأثير يفوق تأثير الجماعات الأخرى، فهم متدينون جدًا ومتميزون بالتجديد الروحى العبرى بالقدس، وكانوا قريبين من وطنهم الأم ليبحثوا عن الاندماج فى مصر. كل أصل عرقى يرفض الاندماج مع مجموعة بشرية أخرى ويرفض التكيف مع نمط الحياة السائد يتسبب عمومًا فى حدوث المواجهة.

- اليهود ينحازون إلى الرومان ضد مصر

نصب القنصل بومبى عام ٥٥ إيولالس فى مصر بمساعدة جابينوس حاكمًا رومانيا على سوريا، فعقد تحالفًا مع اليهود وعندما وصل ضابطه مارك- أنطونيو إلى بلوز تلقى مساعدة الجالية اليهودية التى كانت تستعد هناك وقدموا له دعمهم حقيقة، فهل شعروا مسبقًا بالدور الذى سيلعبه الرومان؟

وفى عام ٤٧ عندما توقف قيصر فى ميناء الإسكندرية، قدم الجيش الرومانى تحيته لوصول فرقة أرسلها كالفينيوس وقوات ستراب برجام الذين هبوا لنجدته، والإيدومى أنتيباتور ومن معه من اليهود.

منذ بدايات تأسيس السلطة الرومانية فى مصر كان اليهود إلى جوارهم.

- رفض يهودا الخضوع لروما رغماً عن هيرود

وكان الوضع مختلفًا فى يهودا؛ حيث رفض اليهود الاندماج فى الإمبراطورية، وفى محاولة منهم لإحداث التجانس ومنع محاولات الانفصال، وضع الرومان على عرش يهودا هيرود بن أنتيباتور، حاكم إيدومى القديم(٩٥)، وأصبح مشهوراً بالضغط الذى مارسه على اليهود عام ٤٧ ق.م.

وتهددت السلطة الرومانية فى يهودا عام ٤٠ بغزو بارتيس، واتحد اليهود معهم مع وعد بخمسمائة سيدة من أرستقراطيات القدس ومبلغ كبير من الفضة، واستولت القوات اليهودية بقيادة أنتيجون وقوات بارتس على المدينة.

- هروب هيرود وعودته

لجأ هيرود إلى قلعة "مصعدا: Mesada" ثم بحث فى البتراء عن ملجأ لكنها رفضته، وذهب إلى مصر لكن لم تنجده الملكة كليوباترا، وذهب إلى الإسكندرية ومنها إلى روما، وهناك رآه أكتافيوس وأعلن مجلس السنات أنه ملك اليهود، وعبر منتصراً الطريق المقدس وضحى بعجل فى معبد جوبتر قبل أن يقدم لكل روما مع مارك أنطونيو فى موكب، أما الجالية اليهودية فى روما والتى وصل تعدادها نحو خمسين ألفًا فقد قللت من مصداقية هيرود كيهودى.

وعاد إلى يهودا واستولى على السلطة بعد أن تغلب على جيش يهودى بمساعدة الرومان، وبشكل متناقض كانت هذه القوات مخلصة له، وخلال أكثر من عامين قادت صراعًا ضد متمردى أنتيجون، وفى عام ٣٧ ق.م خضع باقى البلاد، واستولى هيرود على جرش وتقدم إلى القدس عبر طرق جبلية، وعزل المدينة وقاومت أسوارها آلة الحرب الرومانية، وتسلق الرومان الأسوار بالقوة واجتازوها بعد عجزهم عن هدمها ودارت

معركة حامية الوطيس، رجل لرجل وبيت لبيت على أرض المدينة، واحترقت المدينة وتدخل هيرود لكى لا يجد العاصمة كلها أطلالاً، وسقطت القدس وأصبح الإيدومى الذى فرضته روما أخيرًا ملكًا على يهودا[٩٦].

- مصير اليهود فى مصر

حظى اليهود برضا الملك فى مصر فى عهد أغسطس وتبريوس، أما البطالمة فرغم الاستقبال الطيب، فإنهم لم يظهروا أى ميل تجاه اليهود الذين أقلقوا اليونانيين فى صراعهم مع روما.

لم يعش اليهود فى جيتو فى الإسكندرية؛ فهم يتحدثون اليونانية ويدرسون إنجيل سبتانت باليونانية، بل أحيانًا ما يستخدمون فى أسمائهم حروفًا يونانية، بينما كان لدى الهللينستية انطباعًا بأن اليهود كانوا فى كل مكان وأنهم يرون كل شىء.

فى عام ٣٨، كانت الدراما: فقد حصل اليونانيون من الحاكم الرومانى على تصريح بمعاملة اليهود على أنهم أجانب ودخلاء، فقاد اليهودى فيلون وفدًا إلى روما ولكن لم يأت بنتيجة، وأكد لهم أمر كلود، وبحقهم فى الإقامة بالإسكندرية ولكن دون إعلام الحزبين بأن عليهم الالتزام بالاعتدال فى المستقبل، وذكر اليهود "أنهم قادمون من أماكن أخرى" ولا يجب عليهم أن يبحثوا عن الاستقرار فى فلسطين، وكل لبيب بالاشاره يفهم".

لم تكن عداوة سكان الإسكندرية لليهود عداوة مسلحة، فكان كاليجولا[٩٧] يكرههم فيما عدا واحدًا منهم هو هيرود أجريبا، صديق الطفولة الذى فرضه على يهودا، وأدان يونانيو الإسكندرية اليهود؛ لرفضهم العمل فى نحت تمثال كاليجولا فى الكنيس، وجُلد ثمانية وثلاثون من قدمائهم ونهبت البيوت اليهودية وأُرهق السكان[٩٨].

على الرغم من غزوها على يد بومبى وأنها أصبحت مقاطعة رومانية، فإن يهودا احتفظت ببعض الاستقلالية، الشعب اليهودى متعال ومتكبر ويأبى أن يدفع الضريبة لأجنبى "غير مؤمن"، وفى عام ٦٦ وفى نهاية عهد نيرون، طلب الحاكم الرومانى فلورس من اليهود أن يسلموا كنوز المعبد، فحملوا الأسلحة وأعملوا القتل فى القوات الرومانية، وزادت الإهانة واعترى الرعب نفوس اليونانيين بالإسكندرية فاجتمعوا للإعداد لإرسال بعثة إلى روما، وتسلل اليهود خفية إلى المدرج ليتجسسوا عليهم ويعرفوا ما يدبرون وتبودلت كلمات السباب. والضربات.

الحاكم الرومانى تيبريوس جوليوس ألكسندر، يهودى مارق، وكان يهود الإسكندرية يؤملون بلا شك فى حياده، فاغتاظوا وهاجموا اليونانيين بالحجارة وحاولوا إشعال النار فى المدرج، وسلمهم للجنود الذين أحرقوا الحى اليهودى، وقضى على خمسين ألفًا منهم، كما يقال فى هذه المناسبة[٩٩].

– الحرب ضد اليهود فى يهودا

كان الاستيلاء على يهودا عام ٦٩ ضرورة، حيث قاد فاسباسيان حملة شاقة ومجيدة، وفى طريق عودته من سوريا إلى روما مر بالإسكندرية، وبناء على أوامر نيرون استعان بقوات من مصر لحصار القدس، وقاتل ومعه خمسون ألف رجل حتى اعتلائه العرش فى ٦٩، ثم ترك القيادة لابنه تيتوس الذى حاصر القدس عام ٧٠ لمدة خمسة أشهر ومعه ستون ألفًا من الرجال، وقضت المجاعة على أغلب السكان ولكنهم لم يستسلموا، واستطاع الرومان أن يقتحموا أسوار المعبد الذى أحرقوه يوم ٣٠ أغسطس عام ٧٠[١٠٠]. أما المدينة نفسها فقد استولوا عليها فى هجوم استمر أربعة أشهر، حيث هاجموا منزلاً بعد منزل ثم استولوا على القصر ثم المعبد:

"ذبح الجميع وتحولت المدينة إلى خراب وأحرق المعبد فيما عدا بعض الأبراج التى تركها تيتوس لتكون آثارًا للأجيال القادمة، فلم يتبق حجر فوق حجر، واحتفظ تيتوس من انتصاره بسبعمائة أسير والمائدة الذهبية وكساء المقصورة وكتاب الشريعة والشمعدان ذى السبعة أفرع الذى يوضع على قوس النصر المشيد أعلى الطريق المقدس"(١٠١).

وفى روما، أُلقى زعيم الثوار سيمون بار جونا(١٠٢) من أعلى صخرة "تاربيين: Tarpinenne" فى الوقت الذى كان فيه تيتوس المنتصر فى الكابيتول، وأمرنا سباسيان بتعقب "كل من بقى من نسل داود، حتى لا يبقى من اليهود رجل من القبيلة الملكية"(١٠٣). وأزيلت القدس المحطمة تمامًا، وشيد الرومان مدينة رومانية، جوبتر أبوللونيا، وأسموا يهودا باسم فلسطين، بلد الفلسطينيين، المنحدرين من أصول يونانية من "شعوب البحر" والذين هزمهم اليهود منذ قرنين من الزمان(١٠٤).

الانعكاسات على الجالية اليهودية بالإسكندرية

تألم يهود الإسكندرية بشدة لهذه الهزيمة، وجاء لاجئون من يهودا واستقروا فى حى دلتا، أحد خمسة أجزاء تتكون منها المدينة التى يسكنونها، ونظرًا لقلة الخبرة والواقعية فقد حاولوا أن يثيروا إخوانهم فى الدين بمصر ضد الرومان، وهؤلاء التقاة المتعصبون أعلنوا مرارًا أنهم لا يعترفون بسيد آخر غير الله ورفضوا الخضوع للرومان، فما كان من الحاكم الرومانى لوبوس عام ٧١، إلا أن منع عنهم حق التبعية للإسكندرية:

"وسط الهموم والآلام الكثيرة التى نعلمها ونتخيلها لا يمكن أن نترك أحدهم يعطى الإمبراطور اسم سيد، ويبدو أن أرواحهم لا تشعر بالآلام وأنهم سعداء برؤية أجسادهم

تمزق بالحديد وتأكلها النار[١٠٥] ألن يقولوا مسيحيين ولا يريدون أن يضحوا من أجل الآلهة؟"[١٠٦].

ومن توابع هذه الأحداث الجسام تدمير معبد لينتوبوليس على يد لوبوس عام ٧١.

ومنذ القرن الثانى قبل الميلاد، استقبلت "القدس الجديدة" يهود مصر، ولم يتبق بها سوى أطلال عدة ومقابر لأبناء إسرائيل، ولكن المقاومة استمرت وآخر الأحياء من الثوار اليهود لجأ إلى قلعة مصعدا، ومنذ القرن الثانى قبل الميلاد استقبلت "القدس الجديدة"[١٠٧] الحصينة، فما كان من الرومان إلا أن شيدوا عن طريق الأسرى اليهود طريقًا صاعدًا، وأسبوعًا بعد أسبوع كانوا يقتربون من المدخل، وعندما أخذوا الأمر بالهجوم فى أول أيام عيد الفصح لعام ٧٣ لم يجدوا حيا سوى بعض النساء والأطفال المختبئين فى كهف، فقد انتحر كل اليهود، وترك زعيمهم إليعازر بن يائير رسالة تقول: "نطلب الموت فى مواجهة من يرفضنا ويتركنا نفقد حريتنا!" وتحكم الـ (Pax Romana) الدموية على يهودا التى أبيد نصف سكانها، ففى هذا العام -٧٣- وبعد سبعة أعوام من الحرب، لم تعد سوى مدفن كبير.

اليهود فى الإسكندرية لكى يحتفظوا بحياتهم ولكى يمضوا وقتهم، ولم يتوقف عقاب اليونانيين فقد أرسلوا عشرين عام ١١٤ إلى "تراجان: Trajan[١٠٨]" فى روما، وحصل اليهود على مساندة الإمبراطورة "بلوتين: Plotine" والإمبراطور، وفى عام ١١٥ ساد شعور لدى يهود مصر بأن قلاقل سوف تندلع فى الإسكندرية، وقمع اليونان التمرد بقتلهم المتمردين[١٠٩].

وكَوَّن يهود الإسكندرية فى حيهم نوعًا من الجمهورية يحكمها والٍ يساعده مجلس شيوخ. وإبان نشوب ثورة أخرى بالقدس ضد الرومان عام ١١٦، عانوا من رد الفعل وتهددهم الموت، وهدموا مبنى "النمسيون: Nemesion" الذى كان يحفظ رأس بومبى

وقتل الكثير، وبعد انتصار المسيحية أراد الأسقف "سيريل: Cyrille" أن يقضى على من بقى منهم بالإسكندرية لكنه لم يبلغ هدفه.

ثورة جديدة بالقدس

سيدب انهيار من جديد بالقدس وستشتعل الثورة من جديد من الشعب اليهودى منذ عام ١٣٢ حتى عام ١٣٥، تحت قيادة شخص يدعى سيمون -بار- كوخاه، فقد كانوا غير راضين عن تأسيس مستوطنة رومانية فى المدينة، ولم يتحمل اليهود المشاركة فى تشييد معبد الجوبيتر، وبانتصارهم على الرومان حرروا كل يهودا حتى الجليل والسامرة، وكان من المتفرض أن يتدخل هادريان الذى كان مقيمًا فى مصر فى يهودا، وعهد بذلك إلى الجنرال سفيروس الذى أمر بتجميع صفوة القوات، فرقة الـ (Fulminate) أى فرقة الصاعقة، واستمر القتال عامين أعقبه تخفيض قلعة بيطار[١١٠] التى أبيد بها أواخر المقاتلين، ومنهم سيمون، ودمرت البلدة وأصبحت أطلالاً وصحراء وتحقق الهدف وكانت نهاية السلطة السياسية لليهود، أما القدس فكانت محرمة عليهم، ومهد هادريان الأرض وسوَّاها بواسطة الأسرى وشيد مكانها مدينة رومانية، أليا أبو للونيا، وكرسها لجوبيتر واسم يهودا نفسه أصبح محرمًا تمامًا ولم يعد الكلام إلا عن فلسطين.

وقضى على العجائز، أما الشباب الفتىّ فتحولوا إلى عبيد وتشتتوا فى أنحاء الإمبراطورية، وحمل الأطفال وبيعوا فى أسواق العبيد فى أوربا، واقتيدت الفتيات والمراهقون إلى بيوت الدعارة وبعضهم قفز فى البحر لتجنب الذل والمهانة[١١١]، وإذا كان اليهود قد فقدوا جنسيتهم فإنهم لم يفقدوا دينهم، ولكن عددًا منهم وخاصة أولئك الذين فى "الشتات: Diaspora" فقد أيضًا لغته، كانوا منبوذين من الجميع، أذلاء، وعانوا خلال ثمانية عشر قرنًا من اللعنة الإلهية.

سبقت هذه الحرب التى أعلنها الرومان ضد اليهود بقليل من التعذيب الذى مارسوه ضد المسيحيين، وفى هذا دلائل الصراع الذى سوف تقوده الإمبراطورية ضد ديانات التوحيد التى تنكر ولا تحترم سلطة الدولة والعبادة الرسمية(١١٢).

وإذا كان التوحيد العبرى لم يستطع أن يشكل شيئًا كبيرًا للإمبراطورية الرومانية، فإن التوحيد المسيحى سيجبرها على استيعابه، أما التوحيد المسلم فسوف يجتاح كل ممتلكاتها القديمة.

الهوامش

(١) الأريون، طبقا لجيمان تعنى "المكرمون".

(٢) نسخة ميدروردرت لم تخط باتفاق كامل، زينوفون يعطى نسخة أخرى أكثر سلاما ولكن إخضاع الفرس للميديين قائم.

(٣) طبقا لرواية أخرى فإن قورش كان ضابطًا لدى عمه "كياكسر: cyaxare" الثانى ولم يستول على السلطة إلا بعد موته فى عام ٥٣٦ أى بعد عامين من الاستيلاء على بابل، انظر: Guillemin,op.cit.,p.333,note 1.

(٤) الأسيد ومون أرض ضمن جمهورية إسبرطة التى انتصرت على أثينا عام ٤٠٤، النبلاء لم يمارسوا سوى الحرب، وكانوا ٨٠٠٠ فى عام ٤٣٠ وأصبحوا ١٥٠٠ فقط فى عام ٣٧١ .

(٥) ولكن توجد روايات كثيرة حول نهايته.

(٦) شكل عبور سيناء عقبة كأداء، وصلها الفرس عن طريق الخداع والخيانة، اشتكى ضابط مصرى يدعى فانس من أحمس والدبسماتيك ولجأ لبلاط قمبيز وأخبره بالوضع فى مصر، وبناء على نصائحه. عقدوا مؤامرة مع العرب قادة المعابر الموصلة لوادى النيل، وهؤلاء وبمساعدة جمالهم عبروا على نقاط صحراوية محددة بالاتفاق مع الفرس الذين معهم الجلود المملوءة بالماء، وانتظروا جيش قمبيز لإرشادهم ولإمدادهم بالماء والزاد.

(٧) ابن بسماتيك وألفان من الشباب من عائلات كبيرة سيقوا مقيدين بالحبال وأعدموا وأجبر بسماتيك على أن يشرب من دماء ثور ميت.

(٨) بناء على نص من العصر كتبه وجاحورسنت مدير الأسطول الملكى فى عهد أحمس والسماتيك الثالث، توج قمبيز فى مصر باسم نوت رع، مما يشير بأنه سيحمى المعابد ولكن هذا الشخص المقرب من قمبيز ومستشار داريوس ألم يكن متواطئًا مع الفرس؟

(٩) فى الحقيقة يتعلق الأمر بالنوبيين؟

(١٠) J.J. Guillemin, pp. cit., pp.313 a 344، ومن وجهة أخرى يذكر نوتو بأن صخرة بهيستون Bél-listoun –تحمل نقشا لداريوس يجعلنا نقترح أن قمبيز قد انتحر: op.cit, II,578.

(١١) J. J. Guilemin op.cit., p. 351.

(١٢) G. Hanotaux, pp.cit., t. II, P. 580.

(١٣) G. Hanotaux., op. cit.,m T. II, p. 581, A. Moret Citant, Weissbach et Daressy.

(١٤) Ibid.

(١٥) ربما كانت المثابرة فى التقاليد الصومالية ذات تأثيرات فارسية واختيار الصومال مكانًا للهجرة بعد ذلك بقرون من قبل الفرس ربما يفسره وجود صلات بين البلدين منذ عهد داريوس.

(١٦) G. Hanotaux, op. Cit., t. II, p. 584.

(١٧) Ibid., p. 585. Victoire de Thémistocle sur la flotte de Xerxés.

(١٨) Ibid., p. 399.

(١٩) Ibid.

(٢٠) Ibid., p. 410

(٢١) نعلم أن عددا كبيرا من العبيد تم شحنهم إلى فارس فى هذا العصر بلا شك، وبخاصة عند عودة الفرس عبر البحر الأحمر فى عهد باهرام الذى حكم من ٤٢٠ حتى ٤٣٩ بعد الميلاد، قدم هؤلاء العبيد أواخر الملوك الساسانية وكانوا لهم مماليكها.

(٢٢) G. Hanotaux, op. cit., t. I, P. xxxVII

(٢٣) التعبير لبيير جوجيه.

(٢٤) J.J. Guillemin, op. cit., p. 432.

(٢٥) بلا شك فى صحبة بطليموس.

(٢٦) P. Jouguet, L'Egyypte Ptoléma?que, G. Hanotaux, op. cit., t. III, P. 2.

(٢٧) هذا أحد افتراضات غالى بها (P. Faure) فى كتابهم (Alexandra) الذى نشره (Fayard) وأنه كان شاذا جنسيا ويئس بعد موت عشيقه ديونيوس.

(٢٨) Ibid., p. 428.

(٢٩) اسم سوقطرة جاء من الهندو ديو سوفوتورا أو دفينبو سوفوتو والتى تعنى "جزيرة مخطوطة" التى جعل منها القدماء ديوس كوريد، انظر: A. Kammer, op. cit., t. II, vol. III, p. 114.

(٣٠) استنتج من ذلك أن مستعمرة يونانية قد أنشئت والتى ظلت تمارس التبادل التجارى بين الهند وأفريقيا ثم سوف يتوقف عمليا ودخلت المسيحية على يد تجار يونانيين لكنها معروفة بشخصيتها رغم الخليط العرقى والثقافى عندما قدم البرتغاليون فى بداية القرن السادس عشر.

(٣١) P. Jouguet, op. cit., Hanotaux, op. cit., t,III p. 6.

(٣٢) كان ينتجون منويتا لموس شقيق الإسكندر وأصبح ملكا عام ٣٠٦ ق.م.

(٣٣) P. Jouguet, op. cit., pp. 450-451.

(٣٤) قتل أنتيجون فى نفس العام فى معركة أبسوس فى اليونان.

(٣٥) انظر أدناه اليهود فى عهد البطالمة.

(٣٦) Ibid, p. 463.

(٣٧) A. Kammerer, op. cit., t. II, p. 211.

(٣٨) P. Jouguet, Op. cit., Hanotaux, op. cit., t. III, p. 130.

(٣٩) Ibid., t., III, p. 47.

(٤٠) أنشئت ميناء أرسينوى فى العام السادس عشر من حكم بطليموس الثانى أى فى عام ٢٦٩ .

(٤١) بقيمة ١٩٢٩ .

(٤٢) G. Hanotaux, op. cit., t. I, p. XLVII, citation, de Ebers.

(٤٣) فهود الصومال مبرقشة الجلد على أرضية بيضاء أو فهود أفريقيا الشرقية أو شيتاس Chittes.

(٤٤) P. Jouguet, op. cit., G. Hanotaux, op. cit. t. III, p. 91.

(٤٥) Ibid., Ibid., t. III, p. 103.

(٤٦) بعض الممارسات لها دلالتها "يقينية وقياسية".

(٤٧) P. Jouguet, op. cit.

(٤٨) أرشميدس "سيراكوس" القرن الثانى ق.م، انظر Ibid.

(٤٩) أنطيوخوس الثانى، تيوس حفيد سليوكوس الأول مؤسس أسرة السليوسيديين، حكم فارس وأسيا الصغرى من ٢٦ حتى ٢٤١ ق.م.

(٥٠) بطليموس الثالث إيفرجيتس (المحسن) (٢٤٧-٢٢١).

(٥١) ربما أوسيليس بجوار جبلى الشيخ سعيد.

(٥٢) بطليموس الثالث إيفرجيتس الثانى (المحسن) والمقدس فى ١٤٤ وكان عاهلا سانجا مليئا بالحقد.

(٥٣) متريدات السادس أوبانور المسمى الكبير، ملك بونت من (١١١-٦٣).

(٥٤) P. Jouguet, op. cit.

(٥٥) الجالوا والجرمان مرتزقة قدامى يدافعون عن مصالح جابنيوس ومحسوب أنهم يحرسون بطليموس ولكنهم فى الحقيقة يثيرون المشاكل التى لا تنتهى.

(٥٦) الذى أيضا يحمل اسم متريدات.

(٥٧) أنتيباتور حاكم إيدومى كان والدهير الأكبر الذى كان ملك يهودا مكان مكابة cabbies 1922، تفضلا من الرومان عام ٣٧ حتى عام ٤ ق.م، وابنه يدعى كذلك هيرود فى عهد المسيح، على الرغم من ديانته اليهودية فإنه ميرور الأكبر كان أدوميان أو أدوميت، يعيد هذا الشعب إبراهيم وإسحاق والذى أرشده الدين يوحنا هيركان منذ ثلاثة أجيال، انظر: W.F. Albright, op. cit., pp. 69-170.

(٥٨) Ibid., pp. 491.

(٥٩) Ibid

(٦٠) P. Jouguet, op. cit., G. Hanotaux, op, cit., t. III, p. 398.

(٦١) انظر الفصل السابع: "البحر الأحمر المسلم" الوكالات التجارية" فى البحر الأحمر، ص ١٨٩، وما بعدها.

(٦٢) A. Kammerer, op. cit., t. I, P. 8.

(٦٣) البخور الذى وصل سعره عشرة أضعاف سعر الذهب وخاصة بسبب تدخل الكثير من الوسطاء كلف روما مائة مليون سسترس سنويا.

(٦٤) البخور يأتى من اليمن العربى السعيد، من جنوب اليمن والصومال وليس من الجزيرة العربية.

(٦٥) البنائيون ينتمون لجماعة الآراميين نوى الأصول البابلية أسس بتر إحدى الجاليات التى جاءت لتستقر بها عند هذه النقطة بشمال البحر الأحمر بين السويس وعبلا بوادى موسى، انظر Mommsen, Histoire romaine, Remimer, Berlin, 1856.

(٦٦) التعبير لألبرت كامرير.

(٦٧) هيرود الأكبر، واد مونى من بترا بن أنتيباتور الحاكم القديم الأدومى.

(٦٨) A. Kammerer, op. cit., tome I, vol. I, p. 112 et suivantes et tome premier, vol. ii, annexe I, P. 389 pour le recit de Strabon.

(٦٩) ألبرت كامرير يعتقد أن القوات الرومانية كانت كثيرة ولكن ستراب قللها لكى يقلل مسئولية صديقة جاليوس.

(٧٠) A. Kammerer, op. cit., tome I, vol. II, p. 263, note 1.

(٧١) اكتشفت ريتشارد بيرشون عام ١٨٧٨، بمدخل وادى حامد على بعد ستين كيلو مترا شمال هوارة المقترحة لوكى - كومى عمودا من الألباستر جاده من معبد صغير رومانى بلا شك يسمى قصر جدرام سعود الذى ربما شيد خلال التوقف الطويل لرحلة الذهاب، يطابقون بإجراء مع الوجيه، انظر R. F. Burton, the Land of Midian Londres 1879.

(٧٢) A. Kammerer, op. cit., t. I, vol. I, p. 119.

(٧٣) نيرون بعدما قتل امرأته يوبيه بضربة قدم عام ٦٥، كرس لها مرة واحدة المخزون السنوى من البخور بروما.

(٧٤) الثورة الأولى استمرت من ٦٦ حتى ٧٠ ولم تنته حقا إلى بالاستيلاء على قلعة ساء Mansrada عام ٧٣ .

(٧٥) P Jouguet, op. cit., Hanotaux, op. cit., t. III, p. 251.

(٧٦) Ibid., p. 255.

(٧٧) ملكة بالميرد زوجة "أودى نات: Oda Nath" أعطى بالمير دفعة كبيرة عن التطور وهزمه أورليان عام ٢٧٢ .

(٧٨) V. CHapot, L'Egypte romaine , Hanotaux, op. cit., t. III, p. 398.

(٧٩) A. Kammerer, op. cit., t. I, vol., I, p. 100.

(٨٠) Ibid., p. 31

(٨١) Ibid., p. 100.

(٨٢) الفصل السادس، "المسيحية في العربية: Kammerer, op. cit., t. I, vol, I , p. 114, note2.

(٨٣) A. Kammerer, op. cit., t. I, vol. I, p. 101.

(٨٤) الحقيقة أن الأمر يتعلق بالنوبيين.

(٨٥) V. Chapot, op. cit., G. Hanotaux, op. cit., t. III, p. 247.

(٨٦) قصر إبريم، نقطة محصنة مرتفعة على حافة النيل.

(٨٧) A. Kammerer, op. cit., t. II, p. 211 et surivantes.

(٨٨) على لوحة مروى التى عثر عليها عام ١٩٠٩ .

(٨٩) A. Kammerer, op. cit., t. II, p. 213.

(٩٠) هذه الأماكن مذكورة فى الإنجيل بأسماء أخرى: تكنيس صوان وهليوبوليس، أون أو أين دبلوز= سين ودافنى= تيهافنس وبوباسطة= بى باست ومنف= نوف.

(٩١) G. Hanotaux, op. cit., t. I. P. 143.

(٩٢) G. Hanotaux, op. cit., t. I, p.XXXVII

(٩٣) وتسمى هذه النسخة السبعينية وترجع للقرنين الثالث والثامن ق.م.

(٩٤) V. CHapot, op, cit, G. Hanotaux, op. cit., t. III, p. 144.

(٩٥) هذا هو الذى أتى لنجدة قيصر فى الإسكندرية.

(٩٦) N. Koker et abbé R. Galmard , En terre sainte aux siecles de Jesus, p. 11 et suivantes.

(٩٧) إمبراطور من ٣٧ حتى بعد الميلاد.

(٩٨) V. Chapot, op. cit., G. Hanotaux, op. cit., t. III, p. 249.

(٩٩) Ibid. Ibid., p. 251.

(١٠٠) اندلع الحريق فى إثر هجوم يهودى ضد الرومان الذين أطفأوا النار فى فناء المعبد، أعطى تيتوس الأوامر بإنقاذ المعبد كآثر لم يستخدم كحصن فإنه يفيد فى المراقبة La Guerre des Juifs et des Romains, Flavius Josephe, Livre VI- XXVI.

(١٠١) E. Peitit, Op. cit., t. I, P. 586.

(١٠٢) شيمون بارجونا، حرفيا سيمون الخارج على القانون بالآرامية.

(١٠٣) Eusébe de Césarée, Histoire ecclésiastique, III, XII, Cite par Ambelain, op, cit., p. 111.

(١٠٤) رأينا فى الفصل السابق أن اسم فلسطين مشتق من السيف، وهى كلمة عبرية تعنى غزو الشعب الذى يوجد به شعب من شعوب البحر، وقدم فيما يحتمل من كريت ويجب أن نلاحظ أن الفلاسفة ليسوا ساميين "شاؤول" أول ملوك العبريين نحو عام ١٠٢٠ قاتلهم وابنه داود أخضعهم تماما. فلا يوجد أدنى ثنائية أو ليس اليوم ولا يوجد مجال لأن نرى فيهم أية مسحة رومانية ليطالبوا بأراضى العبريين.

(١٠٥) C. de la Ronciére, la Géographie de L'Egypte á travers les âges, G. Hanotaux, op. cit., III, p. 144.

(١٠٦) تعليق رونسيير.

(١٠٧) قادها إليعازر ابن يائيرحفيد يهودا، انظر E. Renan, Histoire des origines du christianisme, Paris, 1863, Réed. R. Laffont, 1970, p. 482.

(١٠٨) إمبراطور من ٩٨ إلى ١١٧ .

(١٠٩) V. Chapat; op. cit., et G. Hanotaux, op. cit., III, p. 253.

(١١٠) Albright, op. cit, p. 182.

(١١١) R. Ambelain, Jésus et le mortel secret des Templiers, p. 111

(١١٢) E. Petit, op. cit., t, I, p. 590.

الفصل السادس

التأثيرات والكفاح الدينى

تتميز الضفة الشرقية من البحر الأحمر بأنها مهبط الأديان الثلاثة، وموئل الشعوب السامية التى أعلنت عن هذه الأديان والتى أدت إلى الانقلاب فى العالم. ظهرت اليهودية من أربعين قرنًا، وفتحت المجال أمام فكرة التوحيد الدينى المقصورة على الصفوة أو الشعب المختار من الله، ثم ظهرت المسيحية بعد عشرين قرنًا، وأشارت إلى الكيان المقدس للإنسان وابن الرب المرسل إلى الأرض فى صورة الإنسان أو صورة الإله، والمسيحية هى التى أشارت إلى رأى الثالوث مع الاعتماد على فكرة التوحيد، ثم ظهر الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ودعا إلى التوحيد ورفض فكرة حلول الذات الإلهية فى الكيان الإنسانى.

على عكس اليهودية، التى تخص شعب الله المختار وحده، عملت الديانة المسيحية على نشر الرسالة الإلهية ودعوة الأفراد والحكام إلى اعتناق الدين المسيحى والتضحية فى سبيله، فى حين أشار الإسلام إلى التوحيد فى العبادة من خلال الدين المحمدى.

إن هذه الأديان المختلفة لا تنفصل عن تاريخ البحر الأحمر، ويتضح ذلك من دراسة منشأ وأصل هذه الأديان وأصدائها الاجتماعية والسياسية لدى الشعوب المختلفة.

التعددية والوحدانية

تلاقى المصريون وشعوب بلاد ما بين النهرين فى نفس الإقليم، عبر آلاف من السنين، وكذلك الأمر مع أولئك الأجانب الوافدين على المنطقة، من الفرس واليونانيين والرومان، واشترك هؤلاء جميعًا فى ملمح وسمت وحد بينهما، وهو الديانة التعددية. ويمكننا أن نتحدث طويلاً عن الأسباب التى أدت بالبشر لانتهاج هذا المنحى الدينى، غير أن هذا يخرج بنا عن هدفنا فى هذا الكتاب. ومادام الجهد الفكرى المبذول لم يصل إلى درجة من النضج، فإن الإنسان يلجأ لتصور مهام إلهية متعددة، لكل مهمة منها إله، حيث ظن أنه يصعب على إله واحد فقط أن ينهض بأنواع الحماية المختلفة التى يبتغيها الإنسان لنفسه.

ومن الثابت أن التعددية لديها قدر كبير من المرونة، فهى مهيأة لاستقبال معبود جديد، سواء أكان هذا ممكنًا تخيله أم غير ممكن.

وقد انتهج الساسة الرومان سياسة متسامحة أو جيدة؛ فقد قاموا بتقديم القرابين والأضاحى لآلهة الشعوب المقهورة. ولم تحدث الصدامات إلا حين كانوا يريدون تغيير الأشياء كلية وبشكل سريع؛ فعندما أراد الفرعون أمنحوتب الرابع وزوجته نفرتيتى[١] إحلال الإله آمون بالإله آخيت آتون(*) الإله الشمسى عندما هاجم قمبيز المختل الإله أبيس هيج المشاعر، ولا يمكننا أن ننكر أن الغازى كان يسعى إلى السلطة السياسية والشرعية، وتلك هى حالة وموقف الحكام الرومان الذين أرغموا اليهود على اعتبار إمبراطور روما إلهًا مبجلاً. وإجمالاً، تفوق فيما سبق التسامح الدينى وكانت التعددية مخرجا موفقا ومقنعًا.

(*) العاصمة الجديدة التى انتقل إليها أخناتون والمعروفة باسم "تل العمارنة" حاليا.

مع ظهور التوحيد، تتغير الأشياء؛ فوحدانية الإله تتعارض مع التعددية بين الآلهة المختلفة؛ فكل واحد يرفض ديانة الآخر، فالوحدانية تحمل فى طياتها بذرة مخيفة، وهى عدم التسامح، فاليهود- ولسوء حظهم- لا يتنازلون عن مبدئهم، وقد رأينا كيف حافظوا فى إصرار على إيمانهم، وكذلك فعل المسيحيون ثم المسلمون. وتعميم الكلام عند الحديث عن ديانات التوحيد يقوى بالطبع الاتجاه السيئ لإقصاء الآخر، الوثنى أو العلمانى أو غير المؤمن.

وكانت لديانات الوحى الثلاث عواقب سياسية متباينة إلى حد كبير:

١- يشير اليهود إلى أن رسالة الذات الإلهية نزلت فقط من أجل شعب الله المختار، وأن هذا الاختيار أو التقدير يشير إلى أن هذه الرسالة كونية، وأن هناك اختلافات بين طرق التفكير حول هذا الموضوع؛ بحيث إن الرأى الغالب لم يتبدل على الرغم من مرور السنين، وبحيث إن اختيار الشعب اليهودى من قبل الذات الإلهية أدى إلى نبذه من سائر الأمم.

٢- أشار المسيحيون إلى مفهوم الخلاص الدينى، ومارسوا التعددية وجاء عدم التسامح فيما بعد[٢] وزادت حدته بالاشتراك فى السلطة السياسية.

٣- أما عن المسلمين فإن العقيدة الإسلامية دفعت أمة بلا ماضٍ حتى تاريخه لأن تغزو العالم، تحدوها فى ذلك فكرة وحيدة :اليقين بأنها على الحق[٣].

هذه العوامل الدينية كانت لها آثار مهمة على حياة الشعوب المقيمة حول البحر الأحمر.

التعددية واليهودية

توصل العبريون منذ وقت مبكر إلى توليفة دينية مهدت للوحدانية، وأحرزوا بهذا السبق الروحى بين جيرانهم تميزا، وحفظوا خصوصيتهم الثقافية على مدار

القرون، ولكنهم دفعوا ثمنا لذلك تمثل فى إقصائهم بقسوة، وكان هذا تحديا لم يدركوا معناه.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن جاءت بهذا التوحيد بعد ذلك الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية. وكان الموقف مرتبكا؛ لأنه استوجب قبول هذا السبق المؤكد، ولأنه لا هؤلاء ولا أولئك كان باستطاعتهم استبعاد العهد القديم كلية.

عندما كان اليهود وحدهم هم الموحدين، فإنهم لم يعذبوا بسبب من إيمانهم، ولكن لأنهم رفضوا قبول إحدى الممارسات الدينية للتعددية التى كانت تدين بها السلطة السياسية المسيطرة؛ فكان يشق عليهم الاعتراف بالإمبراطور إلها ووضع تمثال له فى المعابد اليهودية، وخاصة يهود الإسكندرية الذين كرسوا معبدا شيدوه فى القدس من أجل يهوه وليس من أجل جوبيتر.

ومن المؤكد أن عناد اليهود وروحهم النزاعة للاستقلال وكذلك شجاعتهم وميلهم للتضحية قد دفعهم للتمرد أكثر مما دعاهم للتفاوض. فهل قبلت السلطة الرومانية أن تناقش هذا فى حين أن الأمر يتعلق بدلائل وإشارات توحى بالخروج على الخضوع للإمبراطور؟ يمكننا أن نتشكك فى ذلك، ولكننا لا نملك دليلا على حدوث تفاوض من قبل اليهود قبل وفد تراجان عام ١١٤. ألا يتعلق هذا بمصير يهود مصر فقط؟ لكن هذا لم يمنع من تدمير القدس عام ١٣٠.

ولم يقبلوا السيادة الأجنبية أيا كان مصدرها، وتشير إلى هذه الحقيقة الثورات التى أشعلوها. وهم "شعب معتز بنفسه ومتميز"[٤]، وربما بسبب ذلك سحقهم الرومان فعاشوا ثمانية عشر قرنا من التشرد والبؤس؛ لرغبتهم فى الاستقلال وإعلان إيمانهم.

يسوع والمسيحية

يشير الإنجيل إلى أن يسوع كان طفلاً يهوديا ولد فى مدينة "بيت لحم"[٥]، قبل دمار بيت المقدس، كان اسمه يسوع "تحريف من يسوى Josué". (يسوع اسم معروف

ومشهور)[٦]، يقول لنا رينان: إنه لا يعني يشوا-ها-نوزى الذى يعنى بالآرامية "تحية الحامى" وأيا ما كان فإن يشوا-يسوع كان موجوداً بلا شك. وهذا الاسم يعنى (المخلص)، وقد شهد يسوع بلا شك مصيراً مأساويا ومجيداً.

هل كان يسوع، على الصعيد الدينى الضيق، استمراراً لأتباع المذهب الإسينى Esséniens[٧]، الذى سبقه بنحو مائة إلى مائة وخمسين سنة ما يعرف بـ "المسيحيين قبل المسيح"، وكان هؤلاء يهوداً قبل أى شيء، وكان أصحاب هذا المذهب يقيدون أسماءهم ضمن الديانة المسيحية التى أبرزها يسوع كظاهرة تاريخية؟.

كانت هذه الديانة ظاهرة تاريخية فريدة من نوعها متشابهة مع عقيدة إسرائيل التى سبقتها[٨]، وعلى هذا الصعيد، يمكن اعتبار يسوع امتدادا لفكر حزقيال الذى أراد أن يجذب اليهود خارج الحدود الأرضية لعقيدتهم نحو روحانية أكبر.

وقد عرفنا أن المسيحيين الأوائل كانوا قبل كل شيء يعتبرون أنفسهم " يهوداً جددا"، وساروا فى نفس الاتجاه، واعتنقوا مذهب الشك، كما فعلها فولتير، وشككوا فى أن يسوع كان ينوى تأسيس المسيحية، لكن هل يكفى للقول بذلك مثال واحد؟ من المؤكد أن ديجول لم تكن لديه النية لتأسيس الديجولية عندما دعا للمقاومة، ومع ذلك، على صعيد الخطة السياسية، تعدد ارتداد المسيحيين عن ديانتهم وانتشر بشكل كبير، فى حين اختفى اليهود تماما على حواف البحر الأحمر لعدة قرون، فى حين انتشرت المسيحية فى مصر وأوربا، ثم جاء الإسلام أيضًا وانتشر، فكان المسلمون متمركزين فى الشرق بينما كان المسيحيون متمركزين فى الغرب.

إن تاريخ ومحل ميلاد يسوع حولهما اختلاف، وغير متشابهين والأناجيل نفسها تختلف بشأن تحديد التاريخ[٩]:

– وفقًا لـ "القديس متى"، كان ميلاد المسيح يسوع قبل موت "Herode" الأكبر فى السنة الخامسة ق.م[١٠].

- وفقًا لـ "القديس لوقا"، بعد عزل أرخيلايوس ابن (Herode) كان ميلاد المسيح في في السنة الخامسة قبل الميلاد[١١].

- وفقًا لـ "القديس إريني" ولد المسيح يسوع في سنة ١٧ قبل الميلاد، ومات سنة ٣٣م، في سن الخمسين "توفى بعدما أصبح عجوزًا"[١٢].

ويذكر أحد الباحثين في جامعة كامبريدج- ممن اعتمدوا في دراستهم على تاريخ ظهور المذنب[١٣] الذي يشير إلى أن ميلاد يسوع في السنة السادسة قبل الميلاد- و أن الصواب هو كلام "القديس متى".

احتلت روما هذه المناطق الأربع الواقعة على بحر الجليل والبحر الميت منذ قام بومبي بغزو هذه المناطق فيما سماه الرومانيون "فلسطين" بعد سحق اليهود.

كانت منطقة الجليل ويهودا معمورتين بالشعب اليهودي ذي العقيدة الحماسية، وكانوا معارضين للاحتلال الروماني خلال قرنين، كما أن نار التمرد قد أخمدت، بعنف وسالت الدماء التي سالت فوق الرماد.

في إيدوم والسامرة لم تكن اليهودية عقبة كبيرة، ونَعِمَ السكان بالثراء وزيادة الأموال في ظل السلام الروماني.

كثير هي الأعمال التي كرست لموضوع المسيحية منذ ميلاد يسوع بن مريم[١٤]. وقد كتبت أقدم النصوص التي اعتنت بالفترة التالية لموت المسيح في السنوات من ٦٠ إلى ٨٠ تقريبًا للكاتب "فلافيو جوزيف" الذي كان عمله بعنوان "حرب اليهود والرومانيين"، ولم يشر في كتاباته عن حياة أو موت يسوع المسيح"[١٥].

وكان من الصعب نقلها أو سردها وفقًا للترتيب التاريخي الدقيق[١٦] هل ولد يسوع في بيت لحم؟ لا شيء مؤكد[١٧]، منذ نهاية حكم أسرة الأسمونيين[١٨] حلم بعض الملوك القدامى بالوصول إلى الحكم، إلا أن حكام أسرة أسمون انتقموا

من أعدائهم شر انتقام. وكان الاعتقاد الشائع حينئذ أن "ميســى" بن داود مولـود مثله فى بيت لحم، ووجوده فى هذا المكان طبقًا لبعض الآراء سبب ليسوع نوعا من العنف.

وثمة إشكالية أخرى: فميلاد المسيح كان فى الناصرة المعروفة ونقلت عنه بعض الأساطير التى تجعل ميلاده فى بيت لحم، ومرجع ذلك إلى الإحصاء الذى تم طبقًا لمرسوم الإمبراطور قيرينيوس[١٩].

- فأين عاش يسوع؟

لقد بيَّنت بعض الدراسات والوصف الذى بينه لنا الإنجيل أن المسيح يسوع ولد وعاش فى الناصرة[٢٠]، ولكن هذا كله لا يتوافق مع وضع المدينة الحالية، حيث تقع عند منحنى من الأرض[٢١].

وبالمقابل فإن ناصرة الأناجيل تتفق تمامًا مع جامالا: "أنت نور العالم" ولا يمكن أن تكون مختفيًا"[٢٢]، وهذه سهل الوصول إليها[٢٣].

كان جبل "جامالا" ذا شكل محدب وعر تمر عليه الجمال، ومن هنا سمى بهذا الاسم. ها هو نص مستخرج من قلب عمل عنوانه حروب يهودا "لفلافيو جوزيف":

"بعد استيلاء جوباتا على أهل الجليل الذين هربوا من أيدى الرومان شغلوا كل الأماكن الخارجية فيما عدا جيشالا (Gischala) وجبل تابور. وانضمت جامالا للخاضعين؛ مدينة التاريشيين الواقعة أعلى بحيرة طبرية".

لكن جامالا لم تخضع بسبب صلابتها؛ لأن أرضها صخرية، وتقع المدينة على مرتفع صخرى كأنها رقبة بين كتفين، أو كأنها ظهر جمل.

ورغم هذا الموقع المهيأ للدفاع فإن تيتوس بن فاسباسيان استولى على جامالا فى اليوم ٢٣ من شهر هيبروريتايوس، أى الموافق ١٠ نوفمبر من العام ٦٧م، أى قبل الاستيلاء على القدس بثلاثة أعوام وقتل أربعة آلاف يهودى وشرد خمسة آلاف[٢٤].

ورغم أنه لم يعثر على أثر للناصرة- طبقا لأمبلان- من عصر المسيح فإنه توجد آثار لجامالا، مدينة الأطهار، مدينة الزيلوتس[٢٥]، والموجودة على الخرائط القديمة برغم جهلنا بمكانها اليوم. والزيلوتس متطرفون يهود قادوا حركة مقاومة ضد الرومان، ومعروفون كذلك باسم السيكاريس[٢٦]، نظراً لأنهم يصنعون السيكا (Sica) وهو سيف معقوف مخصص لبقر بطون الأعداء[٢٧].

وكانت جامالا منذ زمن طويل مقر المقاومة اليهودية ضد الاحتلال الرومانى. فى عام ٤٦ ق.م أسر حاكم الجليل الذى عينه قيصر شخصًا يدعى حزقيال الذى أخضع المقاطعة الرومانية فى سوريا بالحديد والنار، وكان يهوديا وقد وجه هيرقان (Hyrcan) كبير كهنة إسرائيل لومًا عنيفًا للحاكم لصلبه رجلاً من أصل ملكى "ابن داود"[٢٨] حقًا، والحقيقة أنه الزعيم المعترف به للمقاومة اليهودية[٢٩].

كان هذا الحاكم هو هيرود الأكبر، فى البتراء ابن أنتيباتر الحاكم الرومانى القديم فى أبدوم، ولم يكن يهوديا لكن الرومان فرضوه ملكًا على يهودا . وقد خفف أسر حزقيال والضغط الدامى الذى صاحبه من الشعور بالإهانة العامة. وقد وقع حدثٌ لا يصدق، حيث استدعى هيرود للمثول أمام الساندرين للاستفسار عن شئون القدس، والساندرين هو مجلس الحكماء وعدد أعضائه سبعون صوتوا جميعًا بالبراءة فيما عدا واحداً يدعى الحاخام شيمايا[٣٠].

وقد تسلم يهودا جامالا المعروف باسم ابن حزقيال القيادة واستكمل المعركة ضد الرومان عام ٦م: "يهود بن حزقيال أربك هيرود واستولى على ترسانة سيفوريس

وأصبح ملكًا، وكان يجب أن يصل فاروس حاكم سوريا ومعه كتيبتان وليذبحوا ألفين من اليهود فى الأماكن المرتفعة من البلاد"[٣١].

يهودا جامالا والمسمى يهوذا الجليلى ويهوذا جولانتيد قاد حملته الأخيرة فى العام السادس الميلادى، وهذا يتعارض مع الإحصاء، وفقد حياته. وقد وصفت أعماله بأنها مجرد هوجة فلاحين، وأنها "قليلة الأهمية"، دور رجل منذ ثورته الأولى جعل كتيبتين رومانيتين ترحل بعدما ذبحت ألفين من اليهود[٣٢].

لماذا تستحوذ جامالا على اهتمامنا؟ توجد الإجابة فى أعمال الحواريين بطرس ومن معه ثم سجنهم وفق تعليمات كاهن بيت المقدس لكى يضع نهاية للحركة الشعبية التى تنسب إليهم القدرة على شفاء المرضى، ثم تركوهم بعد الاستماع إليهم، وجاماليل، وهو دكتور فى القانون يشبه المسيح جاء اثنان من زعماء الزيلوتس، وهما تيوداس ويهودا جامالا وأحاطوا بالمجلس، ويحكى لنا القديس لوقا[٣٣]:

"منذ فترة، كان هناك تيوداس الذى زعم أنه عظيم وكان معه أربعمائة رجل لكنه قتل وتشتت من معه. ومن بعد يهوذا الجليلى (يهود جالونيت أو يهودا جاملا) والتف من حوله الناس لكنه مات وتفرق أتباعه"[٣٤].

اللوم الذى يوجهه جاماليل لحواريى المسيح عمل تيوداس ويهودا جامالا يستحق التفكير: هناك خلط بين المخطئين من كل اتجاه. وبكلمات أخرى إذا ما دافع اليهود عن ذكرى حزقيال لماذا حاربوا إذن ابنه جامالا، ولماذا فعل نفس الشىء مع المسيح وضد رسله بعد موته؟ دون الوصول للقول بأن المسيح ابن يهودا فى جامالا، بل ربما كان ابنه الروحى؟ ماذا كانت صلته مع الزيلوتس هؤلاء المقاومين من اليهود الذين يسميهم الرومانيون مستحضرين صورة النازيين خلال الحرب الأخيرة "الإرهابيين"؟

يمكن أن يكون المسيح فى الناصرة إذا ما كان رينان وأمبلان على صواب، فى الحقيقة المسيح فى جامالا، إذا ما سلمنا بالحكم عليه بوصفه زعيمًا زيلوتيًا[٣٥]، وأنه

على صلة بهم، أو أن الرومان وجدوا هنا حجة سهلة لإدانته؟ ولنتذكر هنا أنه لم يخف وجوب المقاومة المسلحة: "لا تظنوا أنني أتيت أحمل السلام للأرض، لم آت بالسلام ولكن بالسيف[٣٦]".

وهناك فقرة أخرى في إنجيل القديس لوقا توضح هذه السمة المميزة التي نتغاضى عن رؤيتها :

"أتيت لأشعل النار في الأرض، ماذا أبغي إذا لم تشتعل الأرض؟"[٣٧].

يقول المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف[٣٨]: إن تلميذين من تلامذة المسيح، سيمون - بييروجاك[٣٩] (يعقوب)- وهما من أبناء يهوذا الجليلي (يهوذا جامالا) واللذان على عصر سيرنيوس اليهود وحرضا على الثورة ضد الرومان، وتم صلبهما في بيت المقدس "طبقًا لأوامر تبريوس الكسندر بن الإسكندر بالإسكندرية وكان الأكثر ثراء في هذه المدينة الكبرى والذي لم يكن قاسيًا مثل ابنه الذي هجر ديننا"[٤٠]. ويمكن أن نؤرخ بدقة تاريخ موت سيمون وجاك؛ لأن فلافيوس جوزيف يضيف:

"في عهد تبريوس ألكسندر ضربت المجاعة الكبرى يهودا؛ حيث اشترت الملكة هلين القمح بسعر مرتفع جدا من مصر لكي توزعه على المواطنين، وفي هذه اللحظات تم إعدام أبناء يهوذا الجليلي، يعقوب وسيمون، حيث أمر الإسكندر بوضعهما على الصليب"[٤١].

ونعرف تاريخ هذه المجاعة بدقة؛ لأن إيوزيب أسقف قيصرية أشار في كتابه "التاريخ الكنسي" إلى أن سيمون بيير كان في بيت المقدس أثناء المجاعة أي في عام ٤٦ و ٤٧ وقت انعقاد المجمع الديني[٤٢]، ومن ثم فالتاريخ الذي طرح أخيرًا لإعدامهما غير صحيح وهو العام ٦٢[٤٣]. وحول هذه النقطة تصرح الأناجيل كذلك:

"أليس كذلك أنه هنا النجار، ابن مريم وشقيق جاك (يعقوب) أليسوا هنا بيننا؟"[٤٤].

كان ليسوع إذن أشقاء وشقيقات بالمعنى الكلاسيكى للكلمة، وهذا مقبول لعدم وجود لبس فى النص اليونانى الذى استخدم أدلفوس للشقيق وليس أبنسيوس التى تعنى ابن العم. لا توجد أية ترجمة بأية لغة معاصرة عدلت هذا النص، فقط تأويل خاطئ يسمح باستخدام إحدى الكلمتين مكان الأخرى؛ لأن الكنيسة نفسها لم تسمح لنفسها أبداً باستخدام هذا[٤٥] المصطلح الذى استخدمه مرقص: يسوع "فى وطنه" يؤكد[٤٦] أنه على الرغم من أنه فى وطنه فإنه يصرح "لا كرامة لنبى فى وطنه، فى بيته وبين أبويه"[٤٧]. فلا يوجد شك فى أن يسوع كان عنده فى جامالا وأنه شقيق سيمون ويعقوب.

وإذا ما صدقنا ما قاله فلافيوس جوزيف الذى ولد عام ٣١، وكان له من العمر ١٦ عاما عندما صلب سيمون وجاك (سمعان ويعقوب)، فإن يسوع كان شقيق أبناء يهوذا الجليلى وأن هذا يصبح من ثم والده، ويكون هو بذلك الابن الأكبر له ووريثه والحفيد هو حزقيال! مثله مثل والده وجده، هو حفيد داود وزعيم حركة مقاومة متطرفة تهدف لطرد الرومان، واضطلع بعبء النسب الملكى برفضه – لأنه "ابن ملك أرض إسرائيل" – دفع الرسوم لكابرنايوم:

"ملوك الأرض، أيجبون منهم الرسوم؟ أمنَ الأبناء أم من الأجانب؟ وقال له سيمون: من الأجانب.

وأجابه يسوع: "فليُعف الأبناء"[٤٨].

ومن جهة أخرى فإنه طبقًا لإنجيل الاثنى عشر رسولاً، كان يمكن ليسوع أن يكون ملك يهودا؛ لأن كيريوس الذى أرسله تيبريوس لتهدئة كل الأقاليم، قال لهيرود أنتيباس:

"هذا (يسوع) جدير بأن يكون ملكًا على كل يهودا وكل أماكن فيليب"[٤٩]. ولم تكن هذه مهمة هيرود أنتيباس بن هيرود الأكبر الذى كان رئيس الجليل فقط، والذى كان يسعى لعرش يهودا[٥٠]، وكان عليه أن يقدم يسوع على أنه تهديد للإمبراطورية، وفعلها

حيث يقول مؤرخ يهودى: "لقد استولى على العرش كأنه ثعلب، وحكم كأنه نمر، ومات كالكلب[٥١]".

كان يمكن ليسوع إذن أن يصبح ملكًا على يهود إذا قبل أن الحشود غير المسئولة التى تبحث عنه تصل إليه[٥٢].

هل رفضه يسوع بار يهودا بن يهوذا الجليلى، من نسل داود، إذا كان يسعى لتوحيد فلسطين، وكذلك يهودا والسامرة المنفصلتين منذ عهد سليمان؟ ومع ذلك فقد رفض وفضل اللجوء إلى كابرينايوم، وبفرض أنه قبل، ماذا يمكنه أن يفعل تجاه القوات الرومانية إلا أن يقود شعبه للهلاك.

عقاب هيرود[٥٣] حليف النبلاء اليهود الجبناء، وحذر بونس بيلات سوف يقودان المسيح للموت فى "الجلجلة: Golgotha". وكانت المسئولية الملقاة على عاتق كايف كبير الكهنة اليهودى الذى يترأس المجلس الدينى كبيرة[٥٤]، حيث إنه إذا لم يقم بإدانة يسوع فلن يتمكن الرومان من الحكم عليه بالموت[٥٥].

عامل اليهود تلاميذ يسوع على أنهم خونة ومارقون فى عهد كاهن جامالا الأكبر الذى مات عام ٥٢، وهو صمويل الذى ابتكر صلاة بهدف المعافاة من هذه الممارسات، وإذا كانت فترة أصول المسيحية ونشأتها قد وصلت إلى نهايتها بالنسبة لليهود، فإنها بدأت بالنسبة للعالم مع تطبيقات اجتماعية وسياسية ضخمة، وكانت مصر فى المقدمة من بلدان البحر الأحمر التى تم فيها ذلك.

المسيحية فى مصر

لأنها الأقرب بلا شك ولأنها اعتبرت مستعمرة يهودية مهمة، فقد شهدت مصر انتشار المسيحية بها كالسيل[٥٦]، وقبل سوريا وآسيا الصغرى، حمل المسيحيون

الأوائل على ضفاف النيل الانقلابات الدينية والسياسية التى سوف تؤثر على كل الغرب؛ لأن مصر لم تكن سوى وطن ومستعمرة رومانية وأرض مهمة.

"تزامن انتشار المسيحية مع إلغاء الحياة السياسية فى عالم البحر المتوسط: فقد انبثقت المسيحية وانتشرت فى عصر لم يوجد فيه وطن، وهكذا إذا كان هناك شىء يؤخذ على مؤسسى الكنيسة فهو تراجع الوطنية، تنمو الاشتراكية عندما تخبو الوطنية"[٥٧].

ومع ذلك لم يحملها من "الرسل الكبار" إلا القديس بطرس والقديس بولس اللذان احتقرا الإسكندرية وفضلا سوريا وبابل واليونان وروما، وكانوا مسيحيين متواضعين متبعين الطريق الذى اتخذه يوسف وماريا للوصول لمصر وقاموا بعمل معجز: "ما إن وصلوا استقبلتهم العاصمة التى استقبلت المسيحيين الأوائل، وعلى هذه الأرض تمت الدعوة وتوضيح المبادئ التى صيغت بشكل نهائى ثم نقلت الدرس الإلهى لسكان البحر المتوسط، ومنه لكل العالم، فإذا لم تكن الإسكندرية هى الأم فقد كانت الأستاذة والمربية، وديانة المسيح فى الشرق بأسره تستلهم تصورها العقائدى من الإسكندرية[٥٨].

تسببت الحركة فى تولد حماس كبير خلط الإيمان الجديد بالعقائد القديمة. وكثرت الكنائس: اثنتان وثلاثون كنيسة رعوية وستمائة دير بالإسكندرية والعديد من الكنائس فى أقل قرية مكرسة للعذراء والملك جبريل والقديس جرجس والقديس مرقص أو سانت إتيين. "كان بمصر خمسمائة دير وستة وسبعون راهبًا وعشرون راهبة"[٥٩].

تسبب هاجس الطهارة فى الانسحاب إلى الجبال والرهبنة، وكان أن هيئ الجو للحصول على اللذة بتعذيب الجسد والوصول إلى السعادة الأبدية عبر إماتة النفس وجلد الذات، وبحث آخرون عن سلامة أرواحهم فى الصحراء، حيث عاشوا فى ظروف قاسية.

شكل مثل هذا التقدم فى الدين الجديد خطراً فى وجه الاحتلال الرومانى فلم يكن أمامهم إلا القمع، ففى عام ٦٧ قطعت رأس الإنجيلى بول فى روما وفى القرن الثانى تأسست بالإسكندرية المدرسة الغنوصية، وأطلق الإمبراطور تراجان حملات التعذيب ضد المسيحيين، وفى نهاية هذا القرن نفسه نشأت بالإسكندرية مدرسة الوعظ الدينى الموجه[٦٠]، وكان يساندها رجال عقيدة ورجال فكر من أمثال الصقلى بانتين والأثينى كليمون وأوريجين، وقد حاول هذا الأخير أن يخرج من تحليل التعددية والتوحيد بالثالوث المقدس.

عانت المدرسة من عراقيل وضعها أمامها سبتيم سيفير، وفى عام ٢٠٤ طرد كليمون من الإسكندرية ومات فى المنفى عام ٢١٦. وفى عام ٢٥٠ تمت عمليات انتقام أخرى فى عهد دسيوس الذى تسبب فى هروب الأسقف ألكسندر دنيس إلى ليبيا.

وشكل دسيوس مجالس مهمتها التأكد من أن كل واحد يضحى من أجل الآلهة[٦١]. وباشر فالريان عمليات التعذيب عام ٢٥١، وتم طرد المسيحيين إلى الواحات مثل الخارجة مرات عدة، وفضل جاليان الهدنة بسبب صعوبات كان عليه أن يواجهها. اغتيل جورج دو كابادوس أسقف الإسكندرية وألقيت جثته فى البحر؛ مما تسبب فى وقوع عمليات انتقام دموية قام بها طلاب الإسكندرية.

وساء الموقف الاقتصادى بمصر وازدادت الضرائب بلا ضابط. وتسببت المسئولية الجماعية للضريبة فى انتزاع الأرض من الفلاحين وازدياد بؤسهم، وقرر ضابط رومانى وهو: لوسيوس دومنيوس دومنيانوس، أن يعالج هذا الوضع مطالبًا سكان الإسكندرية أن يكون إمبراطورا تحت اسم أخيل.

حاصر دقلديانوس عام ٢٩٦ المدينة لمدة ثمانية أشهر ثم دمرها وتم ذبح العديد من المسيحيين[٦٢]. وفى عام ٣٠٢ أعطى أوامر من جديد بتعذيب المسيحيين، ولكن التعذيب بلغ ذروته فى عهد ماكسيمان داتا عام ٣١٠[٦٣]. ومن هذا العصر يؤرخ

لتأسيس جماعات النساك والرهبان فى الصحراء لتقدم الحياة فى الأديرة المسيحية وتطور الكتابة القبطية.

وانتهى التعذيب الدينى فى مصر ضد المسيحيين عندما قام الإمبراطور قسطنطين باعتماد الديانة المسيحية ديانة.رسمية للدولة عام ٣١٣، لكن رغم ذلك لم يدم السلام فى البلاد، وترك كفاح الماضى آثاره على الفكر الدينى لكنيسة مصر التى انحرفت عن كنيسة روما، وجعلت لنفسها خصوصية مثل الأريوسية[٦٤] التى قبلها قنسطانس الثانى (٣٣٨-٣٦٠) وبطريرك الإسكندرية جورج الإسكندرانى، ومذهب الطبيعة الواحدة[٦٥] الذى أيده ديوسكور بطريرك الإسكندرية (٤٢١-٤٥١) الذى فرضه فى المجلس الثانى للكنائس فى إيفيز عام ٤٣١.

أدركت روما والبابا ليون الأكبر الخطر، وكان التحالف ضد ديوسكور. واعتمد مجلس خالقدونيا عام ٤٥١ المذهب الخالقادونى (الذى جاءت منه كلمة: كاثوليكى) الذى تفرضه روما وتبعه عزل ديوسكور، فانعقدت الصلات بين إستانبول والإسكندرية والحبشة. وتم اغتيال بريتريوس البطريرك الكاثوليكى بالإسكندرية عام ٤٥٧، وحل محله تيموتى إلور من مذهب الطبيعة الواحدة، وسالت الدماء وسقط عشرة آلاف قتيل[٦٦].

فى عام ٤٨٢ حاول الإمبراطور زينون بمرسوم الاتحاد أو (Henotikon) تخفيف توابع مجلس خالقدونيا، ولكنه لم ينجح إلا فى التغلب على الشقاق بين روما وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة[٦٧].

واستمر مذهب الطبيعة الواحدة فى الازدهار بمصر عبر عهود الأباطرة الرومان حتى جاء جوستنيان وقرر فى مارس عام ٥٣٦ إنهاءه بمصر، وفرض الأرثوذكسية الكاثوليكية، ولكنه لم يتمكن من تخفيف نظام الضرائب الباهظة التى أثقلت كاهل السكان.

والأكثر سوءًا أن جوستنيان تجاهل الجيش أو كان عاجزًا عن إعادة تأهيله، فقد ظل الجيش خاضعًا لخمسة دوقات والقضاة وجامعى الضرائب أكثر من خضوعه لقادة حقيقيين.

ولم يتمكن أبدًا من توحيد القيادة التى تعطيه التحالف والفاعلية. وكان الإنذار شديدًا عام ٦٠٩، عندما هاجم نسيتاس ضابط هيراكليوس مصر، وارتعدوا من الهزيمة أيضًا بعد ذلك بعشر سنوات عندما هاجم الفرس مصر ولم ينقذ الموقف إلا بصعوبة بالغة.

وقد سعى مجمع الأساقفة الذى عقد فى هيرابوليس عام ٦٩٨ إلى توحيد كنيسة مصر ولكن ذلك جاء متأخرًا، فلقد كان فرسان الله[٦٨] على أبواب مصر وحاصروا حصن بابليون. وفى عام ٦٤٠ انهار الجيش أمام القوات المتواضعة للعرب، وفقدت روما والغرب مصر المسيحية التى اكتسحتها الموجة الإسلامية[٦٩].

المسيحية فى النوبة والحبشة

عضد بطريرك الإسكندرية مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة، وهو المذهب الذى انتشر وامتد حتى وصل أعالى النيل والنوبة وإثيوبيا[٧٠]. وقد اعتنق النوباد المسيحية عام ٥٧٥ ثم العلود المسيحية. وصلت إذن المسيحية علوا عاصمة العلود جنوب الخرطوم. ظلت هذه المدينة حتى القرن الخامس عشر مركز دولة مسيحية تشتمل على ثلاث مقاطعات وسبع عشرة أسقفية، أما الهرطقة فقد سادت فى أكسوم، وفى عام ٩٨٧ أرسل بطريرك الإسكندرية فى نفس الوقت إلى النوبة وإثيوبيا يبشرهما[٧١].

استقبل إيزانا ملك أكسوم تيوفيل إنديا، رسول بيزنطة للإمبراطور الرومانى كونستانس الثانى[٧٢]، والذى سوف يطلب منه أن يطرح مذهب أتاناس ويعتنق مذهب أريوس[٧٣].

وقد عثر على نقش فى أكسوم[٧٤] يحكى قصة حملة ضد النوباس والنوبيين الذين دخلوا المقاطعة فتعقبهم إزانا حتى علوا[٧٥]. هذا النقش مكرس ل "سيد السماء" ويدل على اعتناق إزانا للمسيحية، على أن هناك نقشا آخر يتعلق بحملة سابقة يذكر الإله أرس[٧٦]، وطبقًا للعملة التى عثر عليها فى أكسوم، يكون اعتناق إزانا للمسيحية عام ٣٣٠[٧٧].

أما النصوص التى تتعلق بدخول الحبشة فى الإسلام فهى غير دقيقة، ومن أهمها نصان:

١- أعمال تكلا هيمانوت بدير دبرا دامو، وربما كانت من نص سورى باللغة العربية من (Historia Ecclesiastica) للراهب روفان (٣٤٠-٤١٠)، أعيدت ترجمته فى الكنيسة الحبشية بواسطة الراهب الأب سيما فى نهاية القرن الرابع عشر[٧٨]. وقد وصلتنا قوائم الترتيب التاريخى للملوك من نقوش حبشية تذكر مدى يبلغ ألف عام بعد آخر ملوك معروفين، ولكنها لا تحتوى على جوهر تاريخى حقيقى. ويبدو بالعكس أن أول لقب لنيجوس أخذه شخص يدعى أبرهة، نائب الملك الحبشى للعربية نحو عام ٥٧٠[٧٩].

٢- وفقًا للأسطورة الإغريقية كان هناك تاجر إغريقى مسيحى قدم مع ابن أخيه وغرق بالقرب من عدوليس، وذبح الجميع، لكن الإمبراطور كونستانتان هاجم البليمس والأكسوميين، ونجا فقط من الشباب فريمنيتوس وعهد إليه بتعليم إزانا ابن الملك علا عميدا، وكان أميرًا عند موت هذا الأخير. واعتنق إزانا المسيحية بتأثير مربيه، الأب سلامة الذى أصبح مهما لدرجة أنه حكم البلاد مع أم الأمير الشاب.

وهناك مبشرون مسيحيون من أصول سورية سبقوا فريمنتيوس جاءوا قبل مذهب الأريوسية المجهول فى الحبشة، وقد ولد فريمنتيوس فى الإسكندرية عام ٣١٨[٨٠]، ووصل هذه المدينة عام ٣٤٠ لكى ينصب كاهنًا ويحصل على لقب "أسقف" وعيَّنه أتناس

ليستكمل هذه الوظائف الكهنوتية، ويارك الإمبراطور أريوس مستبعداً أتناس، ووضع في مكانه جورج وطلب من ملك أكسوم ليجعل تيوفيل مكان فريمنتيوس، وهو أسقف أريوسى قام هو بتعيينه، أول رفض لإزانا. وفى عام ٣٥٥ وصل يتوفيل إثيوبيا ليطلب من جديد نزع ملكية فريمنتيوس ورفض إزانا الثانى ألا تتوغل الأريانية فى إثيوبيا، بالنسبة لأكسوم الأثر الرئيسى للصراع العقيدى المثار فى العالم المسيحى كان العزلة. ويروى الأسقف لونجان وهو إنجيلى من النوبة فيما بين عام ٥٦٩ وعام ٥٨٠ أنه قابل أكسوميين وقعوا فى أخطاء جوليان (وهيلارناس) واتبعوا بعض الاتجاهات للطبيعة الموحدة المتطرفة فى كنيسة مصر، الطبيعة الوحداة الجوليانية.

وفى عام ٥٠٠م تقريباً أدين تسعة رهبان بيزنطيين من مذهب الطبيعة الموحدة بعد مجمع أديان خالقدونيا ولجأوا إلى أكسوم، وكانوا وراء ترجمة الأناجيل اليونانية المستخدمة[٨١] فى أنطيوس.

وأتموا زرع المسيحية فى الإقليم[٨٢]، ومنذ ذلك التاريخ وجد نوع من الاعتماد بين الكنيسة الحبشية والكنيسة المصرية التى انشقت بعد مجمع خالقدونيا لتصبح فى القرن السادس الكنيسة اليعقوبية أو القبطية، وهذه التبعية الشديدة للإسكندرية جعلت الأحباش لا يبالون كثيراً بما يجرى من تغيرات على الإيمان المسيحى فى العالم، كما قال كامرير:

"عندما يعجب بطريرك الإسكندرية بقرار إيوتيشس تصبح الحبشة تابعة لمذهب الطبيعة الواحدة، وتبقى كذلك بلا شك"[٨٣].

هذه التبعية جعلت من الضرورى تعيين زعيم للكنيسة " أبونا"، وهو الذى يعينه بطريرك الإسكندرية ويختار الجميع من بين الأقباط، وكل شىء تغير بين الأقباط حتى إنهم فقدوا الإحساس بلغتهم؛ فلم يعرفوا لا الجيزية- اللغة الكهنوتية القديمة- ولا الأمهرية.

المسيحية فى الجزيرة العربية

عندما ضم الرومان البتراء فى القرن الثانى الميلادى فقد النباتيون موطئ قدمهم بها وتلاشى نفوذهم السياسى، وفضل الرومان زرع قبيلة مسيحية، الغسَّانيين وأخذوا لقب فيلارك، ولعبوا دور الدرع الواقية ضد الفرس الساسانيين، ولكن هؤلاء الأخيرين نصبوا أمامهم قبيلة عربية أخرى هى قبيلة لخم وفنيت القبيلتان فى صراع مستمر حتى القرن السادس[٨٤].

أمام تعذيب "دقلديانوس فى القرن الثالث هرب مسيحيون للجنوب فى القرن الثالث ووصلوا شمال اليمن، ومارسوا فيما يبدو الشعائر اليعقوبية القادمة من سيناء وشعائر نسطورية[٨٥]. وأصبحت الجزيرة العربية فى القرن الخامس (heresium fera) طبقًا لقول أحد الكهنة مكانًا لالتقاء البدع والإلحاد الدينى، فهنا التقى اليهود القادمون ضمن حركة نزوح قديمة قبل بداية عصرنا واستقروا بها واستطاعوا أن يتأقلموا. وفى القرن السادس اشتملت هذه المملكة اليهودية على يهود ومسيحيين وعاصمتها نجران، وكانت مزدهرة مثل دويلات اليمن الصغيرة واعتمدت فى حياتها على نقل التوابل ومنتجات الهند[٨٦]. ولم تختلط الجماعتان مع العرب بل واجهتا الخطر مع ظهور الإسلام[٨٧].

وفى الجنوب فقدت ممالك اليمن العربى السعيد نشاطها ودياناتها وتراجع دورها السياسى والاقتصادى، وأوجد هذا الوضع نوعًا من الأراضى التى تتحد معًا فيدراليا، يعيش فيها يهود ومسيحيون. وكانت يثرب[٨٨] فى أيدى اليهود ابتداء من القرن الرابع وشهدوا على حراسة أرضها التى يزرعها العرب الذين كانوا فى وضع أقرب إلى العبودية، وهذه الحراسة تمت من خلال ستين حصنًا.

دَفعة الأمراء الغسانيين للمسيحية بالحجاز فى منتصف القرن السادس أضرت باليهود كما أضرت بالقبائل العربية. وكانت يثرب نقطة الصراع المحتدم بين اليهود

والعرب المهاجرين، الأزديين(٨٩). وكان هذا هو الوضع عندما عقد محمد تحالفًا مع اليهود لكي يتمكن من محاربة أعدائه بشكل أفضل(٩٠). وبالمقابل لم يكن لليهود ولا للمسيحيين ثقل سياسى حقيقى فى مكة.

واقعيا كيف دخل النصف الجنوبى من اليمن فى المسيحية؟ نعرف من دراسات لكونتى -روسينى أن الإيمان المسيحى قدم من العربية شمالاً، وحمله التجار اليونانيون إلى الحبشة والمحتمل أنه وصلوا به إلى سوقطرة، ومر بجزيرة فرسان حيث توجد بقايا كنائس(٩١)، ثم عاد للعربية جنوبيًا ربما عند غزو أكسوم.

تدخل أكسوم فى الجزيرة العربية

انحدر الأكسوميون من أصول ترجع لجنوب العربية، وهم طبقًا للأسطورة ينتمون للفرع السامى(٩٢)، واحتفظوا دومًا بقوة مفيدة لشبه الجزيرة، ويزعم كونتى- روسينى أن أول تدخل فى الجزيرة العربية وقع فى القرن الأول قبل الميلاد، لكن الدليل على ذلك ضعيف. لدينا نص يونانى جمعه كوسماس يتعلق بحملات اليمن العربى السعيد فى القرن الثالث من عصرنا:

"أرسلت ضد الشعوب التى تسكن الشاطئ الآخر من البحر الأحمر، العرب والكنايدو- كولبيت(٩٣)، حملة برية وبحرية، وبعد إخضاع ملوكهم أخضعتهم للجزية وأجبرتهم على ضمان أمان المواصلات الأرضية والبحرية. من لوكى-كومى حتى بلاد سبأ خضت الحرب، وكنت أول من يخضع كل هذه الشعوب بفضل المدد الذى منحه لى الإله القوى أرس"(٩٤).

هذه الحملة سابقة على التحول الذى نرصده نحو عام ٣٣٠، ولم تلعب أى دور على الصعيد الدينى، فلم تكن سوى حملة من حملات أخرى(٩٥).

تعرض مسيحيُّو العرب فى عام ٥٢٣ لتعذيب واضطهاد مارسهما ضدهم ذو نواس ملك نجران، الذى حاول التخلص من المسيحيين، وتآمر هؤلاء مدعومين من ملوك أكسوم ضده[٩٦]. وثمة افتراض مفاده أن يوسف ذو نواس اعتنق اليهودية عام ٥١٨ وهذا هو سبب اضطهاده للمسيحيين، لكن أليس هذا افتراضًا ساذجًا؟ ولأنه كان كارهًا للأجانب فقد عاملهم جميعًا بقسوة، سواء كانوا يهودًا أم رومانيين أم يونانيين، مقيمين أو مجرد تجار.

وفى هذه الحال، اعتنق اليهودية أو لم يفعل فإنه ذبح وعذب بوحشية المسيحيين وحرقهم أحياء فى الأخدود، وعانى زعيمهم أريتاس نفس المصير. وهناك آيات فى القرآن تذكر هذا الحدث:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾[٩٧].

يبدو أن اتفاقًا تم قبل ذلك بوقت يسير بين إمبراطورية أكسوم وكنيسة الشرق للوساطة بين اليهود ومسيحي العرب الذين يعيشون فى ظروف سيئة، ولكن هذه الأحداث سبقت أى شىء. حكم ذو نواس الكافر أو الذى اعتنق اليهودية كل الإمبراطوريات القديمة باليمن العربى السعيد حتى المحيط الهندى، وكان ذا سلطان كبير.

أعد الملك الأكسومى حملة، فهو يمتلك بحريته المتمركزة فى عدوليس، فكيف استطاع أن يمارس التجارة بدونها؟ والافتراضات القائلة بأن البحرية البيزنطية التى حملت الجنود الأكسوميين غير واعية، واستولوا على نجران وذبح ذو نواس وازدهرت الكنائس فى كل مكان وكانت كنيسة صنعاء أجملها.

من الواضح أن إستانبول كانت تشاهد بغير رضا ما يحدث من تعاون بين كنيسة الإسكندرية وأكسوم، وهو التعاون الذى امتد ليشمل الجزيرة العربية. أراد الإمبراطور كونستانس أن يقوم بالمصالحة فأرسل رسله للسبئيين ثم للحميريين، وزار دامعين ومأرب وصنعاء، وعبر أحدهم وهو تيوفيل أندیان البحر ليصل إلى أكسوم ومن غير المؤكد ما إذا كان قد سمح له أم لا.

وكان الحاكمان المسئولان عن إدارة الجزيرة العربية فى حرب أهلية مستمرة، أحدهما أبرهة الأشرم، نائب الملك فى صنعاء الذى أراد نحو عام ٥٤٠ أن يستولى على الكعبة بمكة التى كانت تحكمها قبيلة قريش، وكانت أهدافه اقتصادية وثقافية فى ذات الوقت.

فقد طمع فى الإفادة من السوق السنوى والإفادة كذلك من الحجيج، وهذه الحملة معروفة عند المسلمين باسم حرب الفيلة[٩٨].

لم تدم سيطرة أكسوم على اليمن، وفى عام ٥٧٢ أفاد من النزاع بين نواب الملك الأكسوميين باليمن بهدف غزو جنوب الجزيرة العربية. واستدعاهم بلا شك سيف ذو يزن، حاكم محلى يمنى أراد التخلص من نفوذ أكسوم. عهد خرو بحملة تحت قيادة ويلاز الذى رحل من هرمز ووصل ساحل حضرموت فى مكان يسمى ميوم، وهزم الفرس وقتلوا مروج نائب الملك الحبشى وحجّموا مملكة الحميريين[٩٩]، والأكثر خطورة أنهم احتلوا مكة وعدن. وهذه الميناء الأخيرة غدت النقطة الأخيرة فى الإبحار بالنسبة للقادمين من الهند ومخزنًا إجباريًا للتجارة البحرية. وسوف يبقى البحر الأحمر مغلقًا حتى عام ٦٢٩[١٠٠]. فقدت عدوليس التجارة الدولية التى تمدها بالثروة، وفقد البحر الأحمر بعضًا من دوره لصالح ممرات القوافل الداخلية. وقد منع انتصار الساسانيين اليمن من الاتصال مع كل من أكسوم وبيزنطة، فيما عدا استخدام مجرى النيل الذى يصبح غير آمن؛ لأن البليمس الحلفاء المخلصين لأكسوم كانوا مهددين بواسطة

النوبيين عام ٥٤٣، ومنذ عام ٦١٦ غزا الفرس مصر حتى الصعيد، وأصبح وادى النيل مغلقًا فى وجه أكسوم. ولم يتبق لهم إلا ممر يعبر البحر الأحمر فى اتجاه الحجاز عن طريق مركز القوافل مكة[١٠١]، وهو طريق مرور سهل بسبب الصلات الطيبة بين الشعبين. ولكن راكب جمل (يقصد النبى) والذى سوف نتناوله بالحديث تفصيلاً، سوف يدعو لدينه الجديد الذى سوف يوحد العرب. وفى عصره كانت الصلات، لا تزال طيبة ولكن بعد موته سوف ينطلق الفتح الإسلامى ويستولى على إثيوبيا لقرون عدة والجزيرة العربية وبيزنطة[١٠٢]. وكانت المحاولة الأولى للدعوة للإسلام فى إثيوبيا بعد تدمير عدوليس على يد العرب عام ٦٤٠ [١٠٣].

محمد والدين الجديد

ولد محمد[١٠٤] عليه السلام بمكة، تلك المدينة الغنية بقوافل الحجاز بين عامى ٥٦٩، ٥٧٩ م. وتاريخ ميلاده غير مؤكد[١٠٥]. والده عبد الله وأمه آمنة من قبيلة قريش الغنية من التجارة ومن حراستها للكعبة وقيامها بخدمتها. الأسطورة تجعل محمداً من نسل إسماعيل بن إبراهيم ومن الجارية المصرية هاجر التى كانت زوجته الثانية. واستقر إسماعيل بمكة وتلقبت قبيلته فى يوم ما باسم قريش.

فقد والده وله من العمر عشرة أشهر، وعهد به إلى حليمة بنت زويب، مرضعة قبيلة بنى سعد، والتى كانت تعيش فى البادية، وهو إقليم جبلى وصحى جدًا بالحجاز. وعند بلوغه سن الرابعة أصبح فى كفالة جده عبد المطلب عندما تاه فى وادى تهامة بابتعاده عن والديه المرضعين وسط جموع الحجيج. عاش محمد مع أمه آمنة التى توفيت بعد ذلك بعامين، وذهب إلى جده الذى توفى عن عمر يناهز الخامسة والتسعين، وذهب محمد بعدها إلى كفالة عمه أبى طالب.

كان أبو طالب المشرف على خدمة الكعبة وهى وظيفة شرفية أكثر منها ربحية. وانطلق فى التجارة بين اليمن وسوريا. كان محمد قد اعتاد فى البداية رؤية القوافل، ومن ثم سمحوا له وهو صغير السن بالذهاب مع قوافل عمه.

على هضبة جبل حوران الذى يطل على السهل السورى، يوجد دير يعيش فيه راهب يدعى بحيرا. تزعم الأسطورة أن هذا الراهب رأى بين كتفى محمد "خاتم النبوة" ورأى فيه النبى المنتظر، وقال لعمه: "استمع جيداً لما أقول:

ارجع فى أسرع وقت لبلدك مع ابن أخيك واحرسه بعناية شديدة ولا تأمن لليهود: نعم! إذا ما رأوا وعلموا ما علَّمنيه الله سوف يؤذونه؛ لأن ابن أخيك سوف يكون له شأن عظيم فى الحياة!"[١٠٦].

نظراً لخبرته فى العمل مع القوافل استخدمته خديجة، وهى سيدة ثرية وأرملة من زوجها الثانى، وكانت تتابع التجارة بنفسها، وسرَّها عملُه وأعجبت بشخصيته وتزوجت منه وهى فى الأربعين من عمرها، وكان محمد فى الخامسة والعشرين. ورزقا ثلاثة أولاد توفوا جميعاً فى سن صغيرة وأربع بنات أصغرهن فاطمة.

محمد الملقب بالأمين بلغ الثلاثين من عمره عندما هدمت الكعبة، وأعيد بناؤها بالحجر وصنع سقف الشرفة من خشب سفينة غارقة على ساحل جدة، وكان هناك غطاء من قماش الكتان القبطى يغطى البناء، حل محله فيما بعد كساء من قماش مخطط يمنى ثم الكسوة وهى الحرير الأسود الحالى الذى يُجدد كل عام[١٠٧].

خلال خمسة عشر عاماً لم يشارك محمد فى الحياة العامة بمكة، فقد كان يعتزل فى الصحراء ليتعبد فى الخلوة. ومن الواضح أنه استنكر مسلك مواطنيه، فهؤلاء فى الحقيقة كانوا قد هجروا ديانة التوحيد التى كان عليها جدهم إبراهيم والتى كانت الكعبة رمزاً لها، لكنهم أضافوا إليها أصناماً وعبدوها فأصبحوا مشركين، يعبدون اللات والعزى وكثيراً من الأصنام الأسرية.

بالإضـافة لهذه الممارسات الشـركيـة كانت هناك عـادات رذيلة، فـالزواج لم يكن متوازنًا وكل واحد يملك عددًا من النساء وفق رغبته. الحموان يتزوجان بلا خجل والآباء يئدون البنات أحياء، والميسر والخمر والبغاء الذى قضى على أخلاق الناس. ولم يرض محمد عن هذا كله وقرر أن يقضى عليه. خلال إقاماته الممتدة بالصحراء، فكر فى حلول ممكنة عن طريق التأمل فى صفاء. ومن غير المحتمل أن كل سور القرآن قد كتبت خلال هذه المدة، فبعضها أضيف مع تتابع سنى حياته(١٠٨).

ولم يكن لمحمد، مثله مثل موسى وعيسى حظ، فى مواجهة شعوب فظة، فى أن يرى رسالته تبلغ للأجيال التالية إلا بترجمتها عن الوحى الإلهى. موسى قدم ألواح شريعته بعد عودته من جبل سيناء ولكنه نسبها إلى الله. والأناجيل تجعل للمسيح أصلاً إلهيا بعد وفاته بثلاثة قرون، ومحمد قدم دستور حياة على أنه وحى الله، الله الواحد، الانطلاقة الوحدانية فى مقابل التعددية، تتجه لتعاون المؤمنين، فأحدثت تأثيرات مبهرة فى المجال الأخلاقى والاجتماعى والحضارى.

استخدم محمد التخويف وحاول إثارة الألم عندما أعلن "القارعة"، نهاية العالم واليوم الآخر، كما هى الحال فى المسيحية:

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥﴾(١٠٩).

ولأن الناس تشككوا، فقد أضاف:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾(١١٠).

استقبل الناس فى مكة الرسالة التى بشر بها محمد استقبالاً سيئًا. وجعل اقتراب موسم الحج توضيح وشرح القضية أمرًا ضروريا. وتساءلوا عما يمكن أن يقدموه للحجيج، فهل محمد منجم أم به جن، شاعر أم ساحر؟ لم يكن محمد شيئًا من هذا كله، لكنه رجل عذْب الحديث وفاتن الأسلوب(١١١).

الهجرة للحبشة

فرضت قريش عقوبات دموية ضد أتباعه، وأشار عليهم محمد أن يبحثوا لهم عن ملجأ عند مسيحيى الحبشة "زعيمهم النجاشى (نيجوس) مشهور بتسامحه وعدله" وكانوا ستة عشر مسلمًا.

بقيادة جعفر ابن عم محمد غادروا الجزيرة العربية عام ٦١٥(١١٢) ووصلوا البحر، الأحمر وأقلعوا من شهيبة على متن مركب صغيرة ليصلوا الحبشة عن طريق عدوليس وارتحل آخرون من المدينة والتحقوا بهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانى عشرة امرأة عند وصولهم الحبشة(١١٣)، ووصل رسولان من مكة أبلغا النجاشى بخطورة حديث المسلمين على مسيحيى الحبشة(١١٤)، واحتار النجاشى فى أمر هذا الدين الجديد "الذى لم يكن (دينه) ولا أى دين يعرفه"(١١٥) وطمأنه ما اقترحه عليه جعفر الذى قرأ عليه جزءًا من السورة الرابعة، الآية ١٦٩(*) التى تتناول المسيح:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

وهكذا لم ير النجاشى شيئًا غير عادى فى الإسلام هنا فهو مثل الديانة المسيحية، الأمر الذى دفعه إلى إيواء المسلمين. لكن ماذا لو كان يعلم كل ما تقوله الآية المذكورة؟

(*) هذا جزء من الآية ١٧١ وليس ١٦٩ من سورة النساء. المترجم.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾.

وتلا جعفر كذلك آيات من السورة رقم ١٩ التى تتعلق بمريم.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾[١١٦].

وبكى النجاشى عند سماعه هذه الآيات وبللت دموعه لحيته[١١٧]. وقال:

"حقا هذا الوحى وما جاء به عيسى يخرجان من مشكاة واحدة، اذهبوا فى سلام فلن أسلمكم إلى أعدائكم[١١٨]".

وشرح جعفر كذلك للنجاشى محاسن الإيمان الجديد:

"كنا نعيش فى ظلمات الجهل، ونعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله[١١٩]".

عاش المهاجرون خلال إقامتهم الطويلة بالحبشة فى وئام وانسجام مع السكان، ورزقت زوجة جعفر ولدًا وأصبحت مرضعة ابن النجاشى الذى ولد فى نفس اليوم،

الاثنان كانا مسيحيين لكن الزوجتين عادتا للجزيرة العربية، حيث تزوجهما النبى، وزواجه من الثانية تم بتفويض من النجاشى نفسه.

التحالفات السياسية الأولى

فقد محمد بموت أبى طالب وخديجة كل سند له بمكة، والأخطر أن الذى حل محل أبى طالب عمه أبو لهب الذى أصبح خصماً عنيداً. ومن جهة أخرى فإن نبوته المحدودة بحدود مكة حتى الآن لم تحمل معها الشىء الكثير من الناحية السياسية. فقد كان فى حاجة لضم القبائل العربية من حوله ليضمن أمانه الشخصى على الأقل. وكانت المحاولة الأولى فى الطائف، وهى مدينة شرق مكة مشهورة بنخيلها ولكنه لم يحرز نجاحًا. وعاد تحت وقع الحجارة التى قذفه بها الصبية واحتمى داخل حديقة، ولم يرجع مكة إلا فى ظل حراسة.

وبشكل متناقض، أحرز محمد أول نجاح له لدى يهود يثرب[١٢٠] الذين كانوا ينتظرون نبيا. أسرع سادتهم من الخزرج فى الانضمام إليه وقاموا بإبرام السلام مع أعدائهم من الأوس وانضموا جميعًا إلى محمد، وتعاهد الجميع على الدفاع عنه وعن دعوته. وكانت هذه أول خطوة يخطوها الإسلام المحارب. واختار محمد اثنى عشر نقيباً وقال لهم: "أنتم رسلى إلى أقوامكم كما كان الحواريون رسل عيسى بن مريم لدى أقوامهم"[١٢١].

وقد أقلق هذا التحالف الذى أبرمه محمد قريشًا، فقرروا القيام بعملية اغتيال جماعية تشترك فيها القبائل جميعًا، لكن فشلت المحاولة. وغادر محمد مكة سرا. واختبأ فى غار ثم واحة القبة، وكانت هناك جائزة مرصودة لمن يقتله، لكنه فى النهاية وصل يثرب، التى اتخذت اسم "مدينة النبى"، وبشكل مبسط "المدينة". وتمت الهجرة فى

بداية شهر يوليو عام ٦٢٢ من العصر المسيحى، وسوف تكون تلك الهجرة نقطة انطلاق التقويم القمرى الإسلامى.

عندما قام محمد بتشييد أول مسجد بالمدينة، حدد القبلة (اتجاه الصلاة) نحو المسجد الأقصى، مما أثار بعض الجدال المشوب بالاستكبار من قبل اليهود تجاه العرب والشعور بالاستعلاء عليهم، ثم عدل محمد القبلة بعد ذلك تجاه الكعبة بمكة، وما أقلق اليهود اتجاه الدين الجديد نحو توحيد شعب منقسم على نفسه عادة تحت شعار الأخوة الإيمانية، ووجدت مخاوف اليهود صدى عند كبار العائلات العربية الذين وجدوا فى الدعوة للمساواة ما يثير القلق.

الحرب المقدسة (الغزوة) الأولى

حتى يستولى محمد على مكة أمر بالجهاد، الحرب المقدسة[١٢٢]، ولكن ممارساته كانت تشبه عمليات قطع الطريق. النهب المقصود القافلة بها مائة جمل تتحول إلى معركة منظمة، وذاع انتصار محمد ووصل إثيوبيا، فعاد أصحابه عند سماعهم هذا الخبر إلى المدينة تدريجياً[١٢٣].

نقلت قريش بمكة بدورها المعركة أمام المدينة، وجرح فيها محمد وهزم المسلمون فى أُحد، وحدثت مناوشات أخرى متتالية بين المسلمين وقبائل عربية أخرى، وعانت المدينة من الحصار واحتمت خلف الخندق، وعقد محمد معاهدة سلام مع قريش لمدة عشرة أعوام ليتمكن من أداء فريضة الحج.

الحج بمكة

بعد عقد صلح الحديبية أصبح لمحمد الحق فى الحج بمكة وخبأ أسلحة قواته فى الصحراء وقدم الجميع للمدينة حجيجًا. قبَّل محمد الحجر الأسود[١٢٤]، وأتم الأشواط

السبعة سعيًا بين جبل الصفا وجبل المروة، وتذكر هاجر زوجة إبراهيم التى كانت تجرى هنا وهناك بحثًا عن الماء لتروى ظمأ إسماعيل[١٢٥]، وهذا طمأن أهل مكة ولو جزئيا.

محاولات البلاد المجاورة

فى عام ٦٢٧ باءت محاولات محمد لإدخال البلدان المجاورة الأجنبية فى الإسلام بالفشل فيما عدا اليمن، حيث اعتنق نائب الملك بازان الإسلام[١٢٦]. أرسلت مصر "مارية القبطية وهى أمة نادرة الجمال" اتخذها محمد جارية. وبعث محمد رسولاً إلى الأراضى السورية، وكانت خاضعة للاحتلال الرومانى ولكن اغتاله حاكمها، فجهز محمد حملة عقابية مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة زيد بن حارثة الذى قتل، مثل معظم من معه.

فأرسل رسولاً آخر إلى قورش ملك الفرس، ووصل إليه بينما كان يتفاوض حول الإسلام مع الإمبراطور هيراقليوس[١٢٧]، وكان شكل الخطاب مهينًا طبقًا للنظرة الفارسية، فمزقها الملك الفارسى وأرسل لحاكم اليمن الذى يحكم البلاد باسمه لكى يقبض على محمد، وأطيح بقورش واغتاله ابنه قبل تنفيذ هذا الأمر، ولكن هذا الحاكم كان بازان، فماذا عساه أن يفعل وقد دخل فى الإسلام؟ بل إنه دعا هيراقليوس لكنه لم يتكرم بالرد عليه.

وصل نجاشى الحبشة رسولُ محمد، عمر بن أرماح وربما أجاب بأنه اعتنق الإسلام[١٢٨]، ومن غير المستبعد أن النجاشى أمام الاتفاق الواضح بين الديانتين حول عيسى بن مريم قد أعلن- بهدف سياسى- اعتناقه الإسلام، وهو يعتقد أن المسيحيين يعتقدون نفس الشىء. فى الحقيقة حاول العرب أسلمة مسيحيى سواحل

الحبشة، يعتقد أنه فى إثر إحدى حملاتهم دمرت عدوليس ، بلا شك عام ٦٤٠، ونرى أن الانسجام كان بعيد المنال.

الغزوات

أتم محمد فتحه بدخول مكة يوم ١١ يناير بدون قتال، فحطم الأصنام الثلاثمائة الموجودة بالكعبة، وأجهز على أهم صنم فيها وهو صنم " خزاعة " المصنوع من البرونز والخزف والذى كان يقف فى فناء الكعبة[١٢٩]. كانت مدينة الطائف آخر معاقل المقاومة، حيث تجمعت هوازن وثقيف وحيث محمد وقواته المكونة من اثنى عشر ألف رجلاً، والتقوا فى وادى حنين حيث هربت الإبل واستعاد محمد من خلال هجوم مضاد الموقف، وأخيرًا انتصر محمد على الطائف التى استسلم أهلها واستولى المسلمون على ٢٤ ألفا من الإبل و ٤٠ ألفًا من الغنم.

وعندما بلغ المسلمين استعداد أهل سوريا المسيحيين الموالين للرومان لمهاجمتهم استعدوا لهم للمبادأة، فتجمع جيش قوامه من ٣٠ إلى ٤٠ ألف رجل، وهو أكبر جيش فى الجزيرة العربية ، وفى مناخ مشحون بالرياح والرمال كادوا يهلكون فى الصحراء لولا هطول الأمطار.

وصلت القوات واحة تبوك وألقت معجزة وصولهم أحياء الرعب فى قلوب أعدائهم، واستسلموا لمحمد الواحد بعد الآخر من سيناء حتى سوريا. " إذا لم يكن مهتما بإنجاز مهمته فى الحجاز قبل أى شىء آخر لواصل تقدمه إلى قلب فلسطين بدون مقاومة"[١٣٠].

فى عام ٦٣٢ قام محمد بالحج فى مكة، حجة الوداع، وارتقى جبل الرحمة[١٣١] وعاد للمدينة وقد أضعفه المرض، ولكنه استجمع قواه وأرسل حملة ثالثة ضد سوريا، ولكن هذه الحملة عادت عند سماعها بقرب وفاة النبى.

محمد واليهود

فى بداية نهجه السياسى اعتمد محمد على اليهود، فهؤلاء مثله يواجهون القبائل العربية، بل إنه توصل معهم لتحالف رسمى عام ٦٢٤، ومنع عنهم التعنت والظلم اللذين وقعا هذا الشعب اليهودى ضحية لهما. ولكنه كان تحالفًا وقتيا؛ لأن محمداً لم ينس أن هؤلاء لم يتركوا دينهم ليعتنقوا دينه، وتجمع لكى يعذبهم وأجلاهم عن المدينة ومن خيبر وقلعتهم الحصينة التى دمرت وكذلك من واحة فدك، ووصلوا شمالا بشرق حتى طيما "(١٣٢).

وكان الإكراه الذى استخدمه محمد ضد اليهود غير مبرر، وتحجج بطرفة سخيفة(*)، كانت امرأة عربية طرفًا فيها عند تاجر حُلى يهودى بالمدينة. فأجلى يهود بنى قينقاع إلى خيبر لكى يقضى عليهم، وبعد خمسة عشر يومًا قرر محمد قطع رقابهم " كمثال يعتبر به اليهود الآخرون، وأطلقهم بعد وساطة شخص يدعى عبد الله بن أُبىّ بعد أن استولى على أموالهم وأجلاهم إلى سوريا(١٣٣).

وقام محمد بحملات أخرى ضد اليهود، بحجج مختلفة، بنو النضير كان عليهم الجلاء وكذلك بنو قريظة حلفاء الأوس، وكان عليهم أن يدفعوا ثمن تعاونهم مع قريش خلال حصار المدينة غالبًا. وقتل الرجال كلهم وعددهم سبعمائة، وأخذت النساء والأطفال عبيدًا وصودرت أموالهم.

لكن قوة اليهود كانت لا تزال كبيرة فى بلاد محاطة بنخيل خيبر إلى الشمال من المدينة بين منحدرات صخر الحرة، وبالتعاون مع حلفائهم فى غطفان قطعوا طريق القوافل من المدينة إلى سوريا. وبعد أن عقد محمد هدنة لمدة عشر سنين مع قريش، تفرغ لهم واخترق حصونهم حصنًا بعد حصن، خيبر ونثا وساب وأخيرًا الخامور، حيث

(*) إنها ليست طرفة سخيفة بل واقعة تاريخية ثابتة. المترجم.

لجأ إليه كنانة أمير بنى النضير. وتذكر الأسطورة أن عليا الذى أصيب بالرمد الشديد فى عينيه قتل أمرخاب العملاق اليهودى المحارب الذى دافع عن القلعة الحصينة المعروفة، واستعبد محمد كل الإقليم ونهب أموال المزارعين اليهود(*). وبعد ما صادر محمد أراضيهم وزَّعها على أصحابه وألحق الملاك القدامى بنظام المشاركة. وهزيمة اليهود الكاملة جعلت جزءًا من الجزيرة العربية يخضع لمحمد، وكذلك حملت إليه ثراء كبيرًا.

تمت هذه الأحداث سنة ٦٢٩، أى قبل وفاته بثلاثة أعوام. بالعودة لمعسكره، قبل محمد نعجة مشوية قدمتها امرأة يهودية تسمى زينب، ادعى أنها كانت مسمومة، وقد مات بسبب الأكل منها صاحبه بشْر، وتأثر هو بعد الأكل منها تأثرًا بالغًا. صلبت المرأة اليهودية وقبل موت النبى قال لأخت بشْر :

" تمزقت شرايين قلبى من الطعام الذى أكلته مع أخيك بشْر[١٣٤]".

وفاة محمد

وقبل وفاته بقليل طلب محمد حبرًا وورقًا ليكتب "كتاب محفوظ لكم للأبد بلا خطأ[١٣٥]"اعترض عمر: رسول الله يعانى: أليس معنا القرآن؟ كتاب[١٣٦] الله يكفينا[١٣٧]. نهض محمد وقت أن كان أبو بكر يصلى بالناس ورجاه أن يستمر، وعاد لحجرته وتوفى بعد أن استاك بعود الأراك فى يوم الاثنين ٦ يونيه عام ٦٣٢.

تطلب العمل السياسى أن يكون لمحمد خليفة، وكان أبو بكر الذى اختاره النبى ليصلى بالناس[١٣٨] وعلى ابن عم النبى[١٣٩] لم يشارك فى اجتماع اليثربيين تحت

(*) هكذا يتكلم المؤلف بهذه الجرأة وهذا دليل عدم حياده طيلة فصول الكتاب. المترجم.

السقيفة فى إشارة للاعتراض على عمه العباس. دفنوا محمداً تحت التراب فى المكان الذى توفى فيه فى ليلة ٧ إلى ٨ يونيه ٦٣٢، من العصر المسيحى فى العام الحادى عشر للهجرة(١٤٠).

الغزو الإسلامى

شكل البدو كثيرو التمرد خطراً بعد وفاة محمد، ولكن كان أبو بكر سريعًا فى التصدى لحركة الردة وانفصال بعض القبائل العربية عن وحدة المسلمين(١٤١). لم ينقص العرب إلا فن القتال، وانتبهوا لهذا بعد معركتهم فى سوريا وأفادوا من محاربيهم ماكينات حربية مجهزة مثل ماكينات اليونان.

كان العالم مقسمًا ، عند موت محم ، بين إمبراطورية الشرق والإمبراطورية الفارسية، على الرغم من امتداد أراضيهما فإنهما كلتيهما كانتا على وشك الانهيار. وكانت أوربا فريسة للبربر الذين مزقوا الإمبراطورية الرومانية بالغرب. وكانت إسبانيا فى يد وسيجث، وهزمت القسطنطينية بلدان أفريقيا خاصة مصر التى دمرت تارة بسبب الصراعات الدينية وتارة بسبب الضرائب.

ليس من قبيل المصادفة أن يتجه الفتح الإسلامى أولاً إلى سوريا؛ فالمدن التى كانت بعيدة عن الصراع بين الرومان والفرس كانت غنية من تجارتها، ولكنها كانت تعيش يومًا بيوم: "فالعالم ينتهى بالنسبة لها عند أبواب المدينة، فالمناخ الأخلاقى سيئ وغياب الحكومة التى تعبد النظام الذى كان على كل واحد أن يقيمه بنفسه وسط خمول عام(١٤٢)".

"يمكن أن نلخص فى كلمة موجزة حالة الشعوب اليونانية والرومانية والآسيوية عند ظهور محمد بقولنا: إن كل مثالى قد مات عندهم منذ زمن طويل، حب الوطن

وعبادة الآلهة القديمة لم يكن لها وقع فى النفس، والشعور العام هو حب الذات والأنانية، مع نموذج كهذا لا تقاوم شعوبًا مستعدة للتضحية بحياتها من أجل معتقداتها(١٤٣)".

الغزوات القريبة

فى السنين الأولى استولى المسلمون على البلدان القريبة، فاستولوا على غزة عام ١٧ للهجرة أى ٦٣٩م، ولم تهزم القدس حقيقة لأن عمر لم يدخلها إلا مع بعض الصحابة واحترم الأماكن المقدسة. وفى مصر ألغوا كل الضرائب واستبدلوا بها الجزية وهى مبلغ بسيط قبله المصريون بسعادة. فما أراده العرب كان أكثر من الفائدة المادية فقد أرادوا نشر الدين والحضارة وقاموا بذلك بدون قلق؛ لأن الحرية الدينية فى مصر كانت كبيرة(١٤٤).

لم يمكث أبو بكر فى السلطة سوى عامين، ولكنه أيقن أنه لكى يضمن السلام الداخلى عليه أن يبحث عن الضرورات التى تحد من عنف العرب.

وعند موته خلفه عمر، ومكث فى الحكم من عام ٦٤٤ حتى عام ٦٥٥، وأطلق الغزوات، وسقطت سوريا بعد سبع سنين من المقاومة بعد سبعة قرون من الاحتلال الرومانى. وانهارت فارس فى شهرين وآخر الساسانيين اختفى، وخلفه عثمان وأطلق ضباطه فى غزو آخر الأراضى الفارسية ودخلت قواته القوقاز والهند، وتتبعت جيوش الإسلام خطوات الإسكندر الأكبر.

الأمويون والغزوات البعيدة

علىٌّ ابن عم النبى تولى السلطة عام ٦٥٥، لكنه اغتيل عام ٦٦٠، وهكذا انتهى عهد حكم أصحاب محمد وبهم انتهت الرحلة الديمقراطية الأصلية فى الإسلام. خليفته

معاوية- على شاكلة الملوك الآسيويين- أسس نظامًا ملكيا للأمويين ونقل الخلافة إلى دمشق وأطلق أسطولاً مكونا من مائتى سفينة فى البحر المتوسط ليغزو جزرها وليستولى على كل بلاد المغرب حتى المحيط الأطلنطى.

فى عام ٧١٢، استطاع العرب أو بالأحرى أسطول الشعوب الحليفة : الفرس والمصريين والليبيين والبربر أن يعبروا جبل طارق ويستقروا فى إسبانيا لمدة ثمانية قرون، وتوقفوا على حدود فرنسا فى معركة بواتييه كما نعلم عام ٧٣٢[١٤٥] وانتهت مرحلة الغزو ولتبدأ مرحلة التنظيم.

الهوامش

(١) نفرتيتى أميرة ميتانية الأصل تدعى تادوجنيبا ومن الطبيعى أنها حاولت أن تفرض إلهها.

(٢) فى المقام الأول، الأسباب داخلية، كان الشقاق المسيحى، ولنتذكر سريعًا وباختصار: الأريوسية الموحدة التى لم تقبل إلا إلهًا واحداً وتنكر الطبيعة الإلهية للمسيح والأسطورية التى تميز بين طبيعتين فى يسوع- الميسح ولكنها ترى ان المسيح بشر أصبح إلهًا:مذهب الطبيعة الواحدة ويرى أصحابه أن الطبيعة الإلهية كامنة فى يسوع - المسيح، وأصحاب هذا المذهب الأخير يلقبون كذلك بالأرثونوكس، والمذهب الكاثوليكى الذى يعترف بالثالوث والذى نشأ فى مجمع قلقدونية عام ٤٥١ والذى اعتمد نظرية مجمع نيس لعام ٣٢٥، (strict mera) وهو مذهب التعددية.

(٣) ولم ينج الإسلام من الشفاعة: الشيعة ويهتمون بالنسب الروحى مع النبى والسنة لا يهتمون بالنسب بقدر ما يهتمون بتطبيق الشريعة على خليفتهم.

(٤) التعبير للجنرال ديجول.

(٥) ترجع أصول هذة المدينة لـ٣٥٠٠ عامًا، وهى مثال نموذجى للطبيعة فى فلسطين واسمها يعنى "معبد الإله لاخوم" بالكنعانية،"بيت الخبرة" بالعبرية والآرامية و"بيت اللحم" بالعربية.

(٦) E.Renan,op.cit.,p.31.

(٧) ال (ENéniens) وال (Sadducéens ،pharisiens) كانوا طوائف منعزلة فى المجتمع اليهودى، واحتوت مخطوطات البحر الميت معلومات عن الـ (Essèniens). وتأخر نشرها جعل الشك يتسرب فيما يتعلق بمحتواها. رغم أن تفسيرات هذا الوضع بعد ٤٧ عامًامن اكتشافها يتناقص مع احتمال أن يسوع، مثل جون باتيست كان ضمن هذه الطائفة وأن المسيح لم يكن سوى المتمم لعمل سيد الحق عند الـ ENéniens, اختفت بعض النصوص وظهرت فى الفاتيكان، وهناك ميكروفيلم يمكن هانتنينجتون الحصول أخيرًا على إجابة:هل العقيدة المسيحية أصلية ومستقلة أم هى مجرد استمرار للعقيدة اليهودية؟

(٨) W.F.Albright,op.cit.,pp.269-270.

(٩) فى ضوء معارفنا الحالية، الآثار ودراسة النصوص الإنجيلية المختلفة التى عثر عليها على صفحات البردى وما تبقى من المنقولات الشخصية لدى الآرامية تسمح بالقول بأن الأناجيل أكثر قدمًا مما كان يعتقد فيما مضى قبل العام ١٠٧٠، وبمعنى آخر، فى فلسطين الروايات الإنجيلية ثم ترتيبها من خلال طوائف تتحدث

الأرامية، فى فلسطين، خلال الثورة الأولى من (٦٦-٧٠) ميلادية. وتأكيد أخر، الأناجيل لم تكتب فى فلسطين، ولكن فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية، وهذا ما يفسره عدم دقة التحديد الجغرافى.

(١٠) Matthiueu,chap.II-1-3-7-12-15.

(١١) Luc,chap.II-1â7.

(١٢) R.Ambelain,op.cit.,p.62.

(١٣) بدون إنكار وجود هذا المذنب يجب أن نذكر أن ربنا تحقق من أقدم اعتقاد عند اليهود، ووصول المسيح أعلن عنه نجم "وجاءت رسل الشعوب البعيدة منذ ميلاده لتقديسه وتقدم له الهدايا".

وطبقًا له فقد قبل السكان يسوع على أنه المسيح وأعلن الإتقان مع النبوات القديمة، ومن هنا جاء القول بوجوب ميلاده فى بيت لحم ولا يقوم على هذا دليل برغم ذلك وبعث أسطورة الملوك المجوس.

(١٤) العمل المهم عن اليسوع هو بكل تأكيد تام به الأكاديمى إرنست ريزان والمنشور عام ١٨٦٣، والأعمال الأخرى كلها لا تتعدى انطباعات الأناجيل التى تقرها الكنيسة، بعض المؤلفين المعاصرين لا يترددون فى التأكد من مؤرخى الإيمان.

والتناقض بين المصطلحين لا يثير القلق فالإيمان بكنية ويقبل كما هو ولكن التاريخ يريد المنهج العلمى والنقدى، وأخرون يستخدمون مواهبهم للتوفيق مع القانون باستبعاد الأشياء المختلف عليها، وهناك قلة من المؤرخين الذين خاطروا السلوك والمنهج التاريخى مثل دانيل ماسى، وكانوا ضحايا المتعصبين المسيحيين انظر: L'ouvr.

(١٥) إذا كانت توجد نقرة من عشرات الأسطر، فإن النص كله موجود منذ وقت طويل ولا يرى فيه سوى تعس وسيئ الحظ أراد تفويض الصمت التام حول مؤسس المسيحية. Josèphe,op.cit.,livre XVIII-IV.

(١٦) لا توجد ديانة تتسامح مع القدر مثال حديث عز العالم الإسلامى وما يحدث فيه بكثرة.

(١٧) يشير رينان إلى وجود بيت لحم فى أماكن أخرى فى الناصرة، ويحيل إلى: Josné XIX- 15.

(١٨) عائلة مكابى من أصول من أسمون: Agmen.

(١٩) Renan,op.cit.,pp.90-91.

(٢٠) لم يتحدث عنها فى العهد القديم إلا التلمود، جوزيف المؤرخ اليهودى فى العهد الرومانى لا يذكر هذه المدينة. وطبقا لأمبلان فى مدينة تازاريت غير مذكورة فى أى نص سابقة على الأناجيل أى فى القرن الرابع. والمصطلح ربما يعنى "مدينة الأطهار" وتتطابق تماما مع جامالا، مكان مقاومة النظر فيه اليهود وربما شيدت المدينة فى وقت متأخر جدا عندما توافد الحجاج الأوائل لكى يتثبتوا من إيمانهم، دراسة علمية يقوم بها مؤرخون متخصصون فى هذا الإقليم، يمكن أن تقضى على اللبس الذى يكتنف هذا الموضوع. ويجب أن نبحث فى المستوى اللغوى عن معنى تازاريت كوصف لـ "مدينة الأطهار" والمنطبق على جامالا". دراسة طبوغرافية تفيد فى هذا الصدد للتقريب بين المدينتين.

(٢١) E.Renan,op.cit.,p17.

(٢٢) Évangile Saint Matthieu,chap.V-14.

(٢٣) Évangile Saint Saint Luc,chap.IV-29.

(٢٤) استشهد به أميلان Cité par R.Ambelain,op.cit.,p.117.Ce texte différe quelque peu de celui de Josèphe.Cf.la Guerre des Juifs contre les Romains,livre II-III et VII.

ويختلف هذا النص عن نص جوزيف.

(٢٥) يتطابق مع زيلوش اليونانية كانا العبرية والمصطلحان يعنيان متعرضين متطرف، متحمس.

(٢٦) Ich تعنى رجلا بالعبرية، ويسمونهم كذلك: Ishib أو lahkarit أو scariotis أى رجال السيكا sica.

(٢٧) Ibid.,p.94,citaino de Flavius Josèphe,livreII,xxIII.

(٢٨) قبل يسوع نفسه هذا اللقب "ابن داود" الذى أعطوه إياه انظر: E.Renan, op. cit, p. 90.

ولكن يجب النظر بنسبيه للقطة ابن التى تعنى فى الشرق معانى كثيرة.

(٢٩) R.Ambelain,op.cit.,p.120. رينان لم يتحدث عن (Egechias) الذى موته سابق على ميلاد يسوع وفى المقابل يرفض اعتباره من نسل داود.

(٣٠) بعد ذلك بأعوام وبعد الاستيلاء على بيت المقدس، أعدم هيرود كل الأحياء من رجال المجلس الدينى فيما عدا شيمايا الذى احترم شجاعته.

(٣١) Daniel-Rops,Jésus en son temps,pp.139-138 et 158.

(٣٢) J.Duquesn,Jésus,paris,Flammarion,p.74.

(٣٣) السبب غير واضح عكس القديس يوحنا، الترتيب التاريخى، ليجعل ثورة تيوداس التى تؤرخ نحو عام ٤٥ قبل ثورة يهودا دوجامالا التى كانت فى العام ٦ وباءت بالفشل.

(٣٤) Actes des Apôtres de saint Luc,chap. V-36.

(٣٥) Cullman, Dieu et César,p.14 Ouvrage cité par R.Ambelain,op.cit.,p.97.

(٣٦) Matthieu,chap.X-3.

(٣٧) Luc,chap.XII-49.

(٣٨) Flavius Josèphe,sur des Antiquités judaiques et la Guerre des Juifs contre les Romains (37-91).

(٣٩) جال شقيق يسوع كان زعيم الجماعة المسيحية فى بيت المقدس وقتل أثناء هذه المظاهرات الوحشية للمعارضين للمسيحية، والتى اندلعت أثناء الأعوام التى سبقت مباشرة الثورة الأولى (من عام ٦٦)،

انظر: Jacques,frére de Jétait chef de la commuauté de Jérusalem.Il fut tué"au ors d'une de ces brutales manifestation d'antichrisianisme qui explosérent pendant les annèes immére rèvolte(de 66)"Cf.W.F.Albright,op.cit.,p.263.

(٤٠) Flavius Joséphe,Antiquités judaiqhes,op.cit.,livre XX-III.

(٤١) Ibid.

(٤٢) CF.Eusébe de Césarée,Histoie ecclésiastique,III,VII,8. Cf.R.Ambelain,op.cit.,p.105

(٤٣) Duquesne,op.cit.,p.81.

(٤٤) Marc,chap.VI-3 et Matthieu,chap.XIII-55.

(٤٥) R.Ambleain,op.cit.,p.74-75.

(٤٦) Marc,chap.VI-1.Le lieu n'étant pas indiquè,on precise parfois en note qu'il sagit de Nazareth,mais cette ville n'existant pas alors,c'est plutôt Gamala qu'il faudrait lire. والمكان غير موضح ويشيرون أحيانا في هامش إلى أنه يتعلق بتازاريت ولكن هذه المدينة لم تكن موجودة أنذاك ولكنها مدينة جامالا التي توجد هنا.

(٤٧) Marc,chap.VI-4.

(٤٨) Matthiu,chap.XVII-23à25.

(٤٩) ترجم هذه الوثيقة عام ١٩٠٤ ريفيو، أمين متحف اللوفر ومذكورة ومشروحة في: R.Ambelan.op.cit.,pp.200 à202.

(٥٠) هيرو أنتيابس، الابن الثاني لهيرور الكبير، حاكم الجليلي وبيريه في مقاطعة تتبعه أيضا، أخوة فيليب تعود إقليم ديكابول شرق الأردن، وبالنسبة ليونس ببلات ابتداء من العام ٢٨ قاد يهودا والسامرة.

(٥١) N.KotKer et abbé R.Galmard,op.cit.,p.54.

(٥٢) Jaen,chap.VI-15.

(٥٣) الذي اغتال يوحنا كان في زيارة القدس بمناسبة عيد الفصيح، رئيس مع الجليلي وكان يسوع هدفه.

(٥٤) من الواضح أن ملفا عن المسيح كانت توجد به كل النبوءات التي أعلنها... إلخ، وكل تنقلاته كانت مراقبة بالنسبة لليهود، يبدو المسيح كان مجدفا ومقلقا بالنسبة للرومان كان لهم مصلحة في قبول اليهود التخلص من مسبب للقلق، كايبف مثل هيرود "حوكم" قبل مثول المسيح. نشر تماما في الرأي مع الأب المبجل بروكبرجر فيما يتعلق بوجود ملف ولكن من المحتمل أن القطع اليهودية قد دمرت لحظة الاستيلاء على المدينة على يد تيتوس عام ٧٠. وبالنسبة للملف الروماني حول المسيح، ربما لم يكن قد دمر عام ٣١٣، عندما قبل الإمبراطور قسطنطينة الإيمان المسيحي؟ يمكننا أن نحفظ بعض الوثائق تشبه ابن الإله بمتعصب وطني يهودي؟ ألم يدمروا رسميا في باريس عام ١٩٤٦، ملف اليهود الذي يذكر إحصاءهم قبل الحرية بحجة أنهم لا يقبلون بملف قائم على أساس عرقي السياسة الرسمية تبدلت؟

(٥٥) كاييف هم أن، أيضا كاهن أكبرا، يمثل المسيح عدة مرات أمام الواحد أو الآخر. آن هو الذى ترأس ساندريين عن طريق صهرها كاييف، وكان له شكر خاص ضد المسيح لأنه لكى يتحكم بشكل جيد فى التجارة بوجود تجار فى ساحة المعبد وطردهم يسوع من ساحة المعبد من المهم أن نذكر أن مقبرة عائلة كاييف تم اكتشافها حديثا بالقرب من القدس.

(٥٦) C.de la Roncière,la Géographie de l'Egypte à travers les âges,in G.Hanotaux,op.cit.,pp.193 et suivantes.

(٥٧) E.Renan,op.cit.,pp.256-257.

(٥٩) Ibid.,p.197.

(٦٠) مدرسة مناقشة الأفكار.

(٦١) V.chapt,op.cit.,G.Hanotaux,op.cit.,t.III,p.359.

(٦٢) Ibid.,t.III,p.257.

(٦٣) بهذه المناسبة دونات أسقف نوميدى وزعيم المقاومين المسيحيين انفصل عن الكنيسة الرسمية.

(٦٤) الأريوسية، مذهب إذاعة أريوس، كاهن ليبى بالإسكندرية نحو عام ٣١٨، وهو مذهب توحيدى ينكر التثليث مثل ألوهية المسيح ولا يعترف سوى بإله واحد.

(٦٥) مذهب القائلين بطبيعة واحدة للمسيح، وهو مذهب أيرتيشس ويعتبر أن الطبيعة الإلهية سيطرت على يسوع المسيح، وهو مذهب الأرثوذوكس.

(٦٦) C.Diel,l'Egypte chrètiene.G.Hnnotaux,op.cit.,t.III,pp.446 et suivantes.

(٦٧) Ibid.,p.450.

(٦٨) الله اسم الإله عند العرب، ولكن له ٩٩ اسما فى القرآن، والاسم رقم ١٠٠ لن يعرف الإله فى الآخرة.

(٦٩) Ibid.,p.478.

(٧٠) غالبا ما تستخدم مصطلحات الحبشة وإثيوبيا أحدهما مكان الآخر وحلت الثانية محل الأولى فى أيامنا هذه، من المفيد تحديد أن الحبشة مشتقة من حبش، اسم قبيلة عربية جنوبية أسس أكوم، واعتبر حبش بن كوش وحفيد حام، أما اسم إثيوبيا فقد اشتق سواء من إثيوبس الاسم اليونانى لحبش أو من إثيوبس ملك سباى قادم من اليمن لغزو البلاد، انظر: Kammaer, op. cit, Ii. P.235 et. Aal2، ونضيف له أن حبش فى العربية تعنى "الدماء المختلطة، فى تلميح إلى أسطورة ملكة سبأ التى بزواجها من سليمان أعطت ولدا هو منليل الذى يعنى ابن الحكيم.

(٧١) C.de la Ronciére,op.cit.,G.Hanoaux,op.cit.,t.I,PP.203-204.

(٧٢) قنستانس الثانى (٣٢٨-٣٦٠) اشترك مع أريوس وعزل أتاناس بطريرك الإسكندرية وفرض البطريرك الأريوس جورج مكانه.

(٧٣) A.Kammerer,op.cit.,t.I,vol.II,p.209.

(٧٤) 11. Inscription N°.

(٧٥) Il pourrait s'agir de Mèroé.

(٧٦) A.Kammerr,op.cit.,pp.210 et 214.

(٧٧) Ibid.,p.224.

(٧٨) Ibid.,p.243,note 1.

(٧٩) Ibid.,p.225.

(٨٠) Ibid.,p,.244.

(٨١) كتبت اللغات الحبشية القديمة بالسبئية، لغة ذات أصول يمنية ذات سمات سامية مشتقة من السبئية تطورت اللغة حتى القرن الرابع، وأصبحت الحبشة القديمة وذهبت السبئية فى طى النسيان، وتطلبت صعوبة الكتابة وإدخال حروف متحركة فيما عدا نقل علامة قريبة من العربية، والذى أعطى ميلاداً للجيزية التى أصبحت شكلاً من أشكال كتابة اللغة الكهنوتية. انظر: A.Kammerer,op.cit.,t.I,vol.II,p.238.

(٨٢) Ibid.,p.246.

(٨٣) Ibid.,p.247.

(٨٤) A.Kammerer,"pètra et la Nabaténe",chap.XVI.

(٨٥) نسطوريوس، بطريرك إستانبول، حدد طبيعته ليسوع المسيح، ولكنه يعتبر أن المسيح بشر أصبح إلها، وأراد ذلك من المجمع المسكونى فى إيفيس عام ٤٣١ نسطوريوس الذى مات فى الصحراء الليبية عام ٤٤٠.

(٨٦) كل مدن الجزيرة العربية قبل محمد كانت جمهوريات تجارية خاصة تعيش على مرور القوافل القادمة من بلاد سبأ وعدن لتصل دمشق عبر بترا. وهذه كثيرا ما ذكرها الأب. د. لامنس الذى تؤرخ دراساته بعام ١٩١٤ و١٩٢٢ واستشهد بها كامرير A. Kamrer, op.cit, i/1, p.10.

(٨٧) ليس من نافلة القول تحديد أن كلمة الإسلام مشتقة من فعل أسلم، أى وثق فى خضع إسلام تعنى من ثم "الخضوع لله".

(٨٨) المدينة منذ قدوم محمد إليها.

(٨٩) A.Kammerer,op.cit.,t.I,pp.120 et suivantes.

(٩٠) Cf.infra:"Mahomet et la nouvelle foi",p.153.

(٩١) كان لا يزال بعضها موجودا ودمره البرتغال فى بداية القرن السادس عشر ليمنعوا أى مأوى قد يلجأ إليه الملاحون العرب.

(٩٢) يتكون عرب اليمن طبقا لابن خلدون من فرعين:

اليمنيون أنفسهم المنحدر من سام بن نوح من كاثان جوكتار فى الإنجيل، ومن سام سوف ينحدر الحضرميون والذى استقل منها حضر موت، السبئيون والحميريون، والفرع الثانى الإسماعيليون المنحدرون من إسماعيل وهذا ابن إبراهيم وجاريته هاجر التى أصبحت زوجته والقبيلة القرشية التى منها محمد تنحدر من إسماعيل.

(٩٣) يرى كامرير أن الأوائل هم الحميريون والأخيرين من قبيلة بإقليم الحديدة.

(٩٤) A.Kammerer,op.cit.,t.Ivol.II,P.215.

(٩٥) Cf.chap.4:"Le rôle d'Axoum".

(٩٦) Ibid.,p.123.

(٩٧) سورة البروج - الآيات (٤-١٠).

(٩٨) ركب أبرهة الفيل وتقول الأسطورة إن الفيل رفض دخول مكة وسوف يذكر محمد هذا الحادث عند عودته لمكة عندما توقفت ناقته ورفضت أن تتقدم وتؤرخ هذه الحادثة، عن طريق الخطأ بأن ٥٧٠ وهو عام ميلاد محمد.

(٩٩) A.Kamirer, op.cit, I/2,P.218ss.

(١٠٠) فى هذا التاريخ اعتنق ولاة كسرى الثانى الإسلام أو اختفوا والسلطة الفارسية الضعيفة تلاشى أثرها فى الإقليم.

(١٠١) لا يمكن للمرء أن يتخيل أن مكة آنذاك كانت واحة خضراء تقع وسط قحط وكانت سعيدة الحظ لامتلاكها مصادر مثل زمزم وهو مصدر التزود الوحيد بالماء للقوافل. ولكنه مكان للحج ويقع بالقرب من أسواق تجارية معروفة.

(١٠٢) J.Cuoq,l'Islam en Ethiopie,pp.21 et suivantes.

(١٠٣) A.Kammerer,op.cit.,t.Ivol.II,P.220.

(١٠٤) فى العربية محمد تعنى "المحمود" الممدوح.

(١٠٥) يذكر التاريخ العربى أبريل ٥٧٠.

(١٠٦) I.E.Dinet et Slimane ben I brahim,Mohamed,Mohamed,prophéte d'Allah,Édition d'ar,pair,1918,p.31.

(١٠٧) Ibid.,p.43.

(١٠٨) كتبهـــا فى المكتبــة لأن محمــدًا كان أمينا لا يقرأ ولا يكتب ولم يمارس الكتابة. Montet,le Coran,Mohmoet,oais,payot,1925.pp.44-45.

ونلاحظ أن كلمة قرآن تعنى "القراءة" وهى مشتقة من جذر سامى هو قرأ الذى يعنى أصلا "رقص وحكى" يقول بصوت مرتفع. ثم أخذ مع الوقت معنى "قرأ" أى مجرد حامل نص، وهذا يعنى "كتاب" وســـورة تعنى "صف" وســـورة هى "مـــجـــمـــوعـــة من الآيات"، انظر: Montet,le Corn,Mohmet,paris,payot,1925,pp,44-45.

(١٠٩) سورة القارعة، الآيات (١-٥).

(١١٠) سور الحج آية١ "وسورة الزلزلة" آيات (١-٨).

(١١١) Mohamed,prophéte d'Allah,op.cit.,p.64.

(١١٢) كان محمد محميا فى مكة فى كنف عمه أبى طالب، وتبدل الوضع بوفاة عمه عام ٦١٩، مما اضطره للرحيل إلى يثرب.

(١١٣) واحد وأربعون من هؤلاء عاد إلى مكة بعد ذلك بقليل، وظل الباقى فى الحبشة حتى عام ٦٢٨، بعد انتصار محمد على اليهود فى خيبر.

(١١٤) Ibid.,p.78.

(١١٥) Ibn Isaq, Al sira al Nabawyya,Ixe siécle,traduction de Guillaume en 1955,déjà cié par J.Cuoq,op.cit.,p.28.

(١١٦) القرآن الآيات ١٩ و٣٥ يقصد سورة مريم. المترجم.

(١١٧) Ibn Issaq,op.cit.,p.335,cite par J.Cuoq,p.29.

(١١٨) القرآن الآيات ١٩، ٣٥، نجد هذا النص بشكل أعم فى سورة المائدة، الآيتات (٨٥، ٨٦).

(١١٩) G.Le Bon,la Civlisation des Arabes,p.68.

(١٢٠) يثرب مدينة قديمة، فى عهد الملك البابلى نبوخذ نصر (٥٥٦-٥٣٩) قبل الميلاد، خضعت له، يذكر بلينى القديم، أنها إحدى مراحل على طريق التجارة مع الجزيرة العربية. يسميها الجغرافى بطليموس ياثيرا. وهى توجد فى الواقع على طريق القوافل التى تقصد سبأ باليمن، والتى تتجه إلى غزة على البحر المتوسط. تغير اسمها إلى مدينة النبى على عهد محمد. هذا المصطلح مشتق من الجذر السامى دين الذى يعنى "عقاب" وأخذته الآرامية" ونطقته مديناتا "مكان التطهر" فى الحقيقة المدنية تشير إلى المحيط الذى يحكمه دين محمد. نفس الشكل موجود بالنسبة لإسرائيل:ماينات إسرائيل، المقاطعة التى تؤكد الإيمان العبرى: S.Zehuibour,op.cit.,pp.337 et 426.

(١٢١) E.Dinet et Slimane ben Ibrahim Mohamed,prophéte d'Allah,op.cit.,p.97.

(١٢٢) بالضبط "المجهود" الجهاد فى سبيل الله لنشر العقيدة الإسلامية.

(١٢٣) E.Dinet et Slimane ben Ibrrahim,Mohmed,prophète d'Allah,op.cit.,p.130 et suivantes.

(١٢٤) الحجر الأسود الذى يوجد فى الكعبة على ارتفاع الرجل الواقف، حجر هبط من السماء وكان موضع عبادة أسبق على اليهودية، والإسلام، فقد عبده الساميون القدامى للاحتفال بجمع التمر وكذلك للاحتفال بعيد المظال عند اليهود القدامى، انظر:

S.Zeghibour, op.cit, p.131

وهناك أحجار أخرى عبدت بهذا الشكل فى الهند وخاصة فى كشمير، وهى مقاطعة مسلمة فى الهند ولم تكن سوداء إلا بعد أن قام الحجاج بطلائها باللون الأسود، ربما بدلا من اليوم المقدس فى عبادة قديمة، هذه الممارسة بالهند أصابت بالخلل الحدود الكيلومترية التى وضعها الإنجليز على امتداد الطرق.

(١٢٥) ينسب التاريخ العربى أصول العرب البدو إلى نسل إسماعيل فى مقابل العرب المقيمين عرب اليمن المنحدرين من سام. القبائل الكثيرة المذكورة فى الإنجيل البنائيون والأدميون والموابيون والأماليون، والأمونيسيون وأهل مدين منحدرون هم كذلك طبقا "لـ. ج. لوبون: G. LeBon" من إسماعيل.

(١٢٦) كان للتغير فى اليوم الأول عواقبه المتمثلة فى معاملة منحازة لليمنيين من الخلفاء الأوائل فكانوا كثيرين فى الجيوش المسلمة خلال الغزو، ونتج عن ذلك أن اليمن قل عدد سكانه لصالح المحيط الإسلامى بالشرق الأوسط.

(١٢٧) إمبراطور رومانى على الشرق وحكم من ٦١٠ حتى ٦٤١.

(١٢٨) A. Kamer, op.cipt, p.220 ، أشار إلى أنه لم يكن هناك شىء، وأن هذا يتعلق بأسطورة انظر:
J. Cuoq, op.cit, p.32

(١٢٩) Ibid.,p.192.

(١٣٠) Ibid.,p.219.

(١٣١) اسم الرحمة يطلق على جبل من الجرانيت بارتفاع ستين مترا يقع شمال شرق منخفض عرفات تقول الأسطورة إنه بعد طرده من الجنة يحمل اسمه فى جزيرة سيلان، أما هى فتهبط فى جدة، الزوجان فى الإنجيل تعارفا، بهذا السهل. هبوط أدم وزوجه من الجنة ثابت فى القرآن الكريم وليس أسطورة. المترجم.

(١٣٢) A.Kammerer,op.cit.,p.121.

(١٣٣) Dinet-Slimane,op.cit.,p.171 et suivantes.

(١٣٤) Ibid.,p.177.

(١٣٥) وجدت الكتابة العربية فى عصره لكن القراءة والكتابة لم تكونا محدودتى الانتشار فى الجزيرة العربية. يقال إن محمداً كان أميا وسورة ٧ الآية (١٥٦ تشهد بذلك E.Montet,op.cit.، إن لم يكن هناك اختلاف فى الترجمة، انظر الترجمة صحيحة لكن رقم الآية هو ١٥٧. (المترجم).

(١٣٦) كتب القرآن يوما بيوم، عملية، يمليه محمد ولكن عند موته، كان النقل الشفهى، فلم يكن هناك نص ثابت ووجد العديد من حفظة القرآن فى صدورهم، زيد بن ثابت كان الوحى حرر أول نسخة من القرآن عام ٦٣٣، ثم انتشرت أربع طبقات متتابعة فيما بين ٦٣٣و ٦٥١، فى هذا العام جمع عثمان الخليفة الثالث كل النسخ الموجودة وكتب النسخة النهائية المكونة من مائة وأربع عشرة سورة كما نعرفه اليوم.

(١٣٧) Ibid.,p.233.

(١٣٨) إمام تعنى "رئيس الناس" وهذا يعنى حرفيا الذى يقود الناس فى الصلاة بالمسجد وبالتبعية أخذت كلمة إمام معنى لقب السيادة والسلطان.

(١٣٩) وضع علىٍّ آثار حركة معارضة الشيعة الذين أخذوا اسم الشيعية.

(١٤٠) نقل جثمان محمد إلى المدينة.

(١٤١) H.Laoust,les Schismes de l'aiaslam,pp.1-2.

(١٤٢) G.Le Bon,op.cit.,p.96.

(١٤٣) Ibid.

(١٤٤) bid.,p.100.

(١٤٥) فى الحقيقة من المحتمل جدا فى أكتوبر ٧٣٢، ولم يتم إيقاف زحفهم فقط عام ٩٧٣، حيث قدم أواخر العرب فى شكل عصابات وفرق عن طريق البحر وهزموا على يد مسيحيين فى جبل القلال المسمى بجارد فرينيه.

الفصل السابع

البحر الأحمر والمسلمون

إن ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية سوف يغير الأوضاع السياسية والاقتصادية على سواحل البحر الأحمر بوصفه بحيرة داخلية وسط العالم الإسلامى، وسوف يخضع لسيطرة محكمة لم تك يومًا حتى لروما على البحر المتوسط، فأى ثأر وأى تعويض كبير للشعب العربى "الأكثر فقرًا والأكثر عوزا"، كما يقول بحق هانوتو، والذى سوف يطرد من هذه الأماكن إمبراطورتى العصر: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية.

بينما كانت أوربا تعيش فى ظلمات العصور الوسطى، كان الشرق يستلهم الثقافة اليونانية ليشيد حضارة كبرى فى عهد أوائل العباسيين فى الفنون والعلوم والصناعات والتجارة، وتطور كل هذا بسرعة فائقة خاصة فى عهد هارون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة والذى بعث إليه شارلمان نفسه سفيراً. كانت هذه هى المرحلة المنتصرة من الوحدة الإسلامية، ولكنها لم تستمر لما بعد القرن الثالث الهجرى.

سوف يكون البحر الأحمر محرمًا على الأوروبيين لمدة تسعة قرون أى حتى وصول البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر، وحتى بعد ذلك لم يكن الوصول إليه سهلاً، وظلت سواحله عدائية لمدة طويلة[1]. ولم تتوقف التجارة به ولكن تحكم فيه العرب أو الشعوب التى دخلت فى الإسلام، ولم تكن للحبشة إلا نوافذ محدودة للغاية.

ولم يكن أمام أوربا وبضائعها خلال القرون التى تلت سوى نقاط بعيدة عمليا غير مفيدة لصعوبة اتصالها بالداخل، وانتهت مرحلة الانتصارات بعد هزيمة بواتييه عام ٧٣٢، والاقتصار على إسبانيا وحيث يسيطر العرب على جزر المتوسط وسواحل المغرب. لقد أصبح الإبحار عشوائيًا ومكلفًا بشرًا وسفنًا.

ومن تبعات ذلك أن تصبح المشتـريات باهظة التكلفـــة ولكن الفـــوائد كبيرة كذلك؛ فالحصول على منتجات الشرق متاح والعالم الإسلامى فى حاجة للحديد والأخشاب.

كانت هناك أخطار ومحاذير، لكنها لم تكن لتوقف التجارة عن المضى فى طريقها.

والإهانة التى لحقت بالغرب عندما يرى أسراه من كل المقاطعات ينحنون مقيدين، والسكان يعانون من السلب والنهب على السواحل، وصفوف العبيد الذاهبين ليمثلوا خدمًا فى خدمة سادة الشرق الجدد، كل هذا لم يمنع التبادل التجارى.

الإسلام فى مصر

بعد سوريا وفلسطين عام ٦٣٦، وصل الفتح العربى مصر، التى ستصبح قاعدة انطلاق إسلامية لغزو جزر المتوسط وكل الساحل الجنوبى، وأسست الخرطوم عام ٦٧٠ وسقطت قرطاج عام ٦٩٨.

كان وراء غزو مصر ابتداء من القرن الأول الهجرى عدم التسامح الدينى فى العالم المسيحى؛ فقد عذبهم البيزنطيون فاستنجد الأقباط بالعرب الذين أرشدهم هؤلاء. إنه عمرو (بن العاص)[٢] أحد قواد محمد - هو الذى فتح مصر، ولم يكن معه إلا جيش صغير. ولكن النجاحات فى سوريا وبلاد الرافدين كان لها صدى، ولم تستطع قوات بيزنطة الضعيفة التصدى للمسلمين[٣].

يمكن أن نقول: إن الانقسام الداخلى والصراع المذهبى المسيحى سهل وساعد على نجاح موجة الفتح الإسلامى التى سوف تجتاح مصر ثم المغرب.

بدأت الحملة عام ٦٣٨ بحصار حصن بابليون[٤] على الضفة الشرقية للنيل، فى مواجهة الأهرام ومنف، ثم الاستيلاء على الحصن المنيع الذى يبلغ طوله ثلاثمائة متر ومائة وخمسة عشر متراً عرضاً، والذى قاوم عام ٦١٦ القوات الفارسية بقيادة "جوسرس: Ghosrès" سقط فى أيدى العرب بعد حصار ثلاثة أشهر[٥]، وحوصرت الإسكندرية طويلاً وسقطت ٢٢ ديسمبر عام ٦٤٠.

وتوغلت القوات المنتصرة فى اتجاه مصر العليا، لكى تحاصر اليونان وحلفاءهم من النوبيين البليميس، سقطت كل مصر فى أيدى عمرو بن العاص، ولا تدهشنا السهولة التى سقطت بها الإمبراطورية الرومانية؛ لأن مصر كانت بسبب الصراعات الداخلية ثمرة ناضجة آيلة للسقوط. رجع عمرو للمكان الذى نصب فيه خيمته وشيد مدينة أسماها ببساطة شديدة الفسطاط[٦]. وأبدى عمرو تسامحاً دينيا كبيراً، وأعاد القناة التى تصل بين البحرين للعمل لتسهل وصول الحجاج للجزيرة العربية، ووصول القمح من مصر. وإعادة الحركة التجارية ضاعف من الملاحة فى البحر الأحمر، ولم يدم هذا الوضع؛ ففى عام ٧٦٠ ثارت المدينة ضد الخلفاء وأهملت القناة.

كان يجب الانتظار لمدة قرنين من الزمان قبل أن تشيد مدينة القاهرة؛ ففى عام ٩٦٩ تلقى القائد جوهر الأمر من الخليفة الفاطمى المعز بتشييد مدينة كان يمتد فيها معسكره بين الفسطاط وهليوبوليس، على طريق القوافل الذاهبة إلى الحجاز وسوريا، وتشييد هذه المدينة التى ستكون عاصمة الإسلام لم يكن اعتباطاً. وكانت بغداد مدينة الخلفاء، قد بدأ نجمها فى الأفول وازدهرت الحضارة العربية فى إسبانيا، وكانت مصر نقطة التقاء وتوازن فيما بينهما.

فى ١٤ مايو، وجد المنجمون مكانًا مناسبًا، حيث حدد جوهر موضع المدينة القادمة، وحدد لكل فريق من قواته حيًا من الأحياء يسكنه، وأسماها الـ "khahira: القاهرة " وكان ميلاد القاهرة(٧).

ابتداء من العام التالى- أى فى عام ٩٧٠- شيد جوهر قصر المعز الذى كان مبنى مبهرًا يحتوى على اثنى عشر" بافيون"، وعندما فتح صلاح الدين(٨) مصر عام ١١٦٩، وجد اثنى عشر ألف امرأة من الإماء(٩)، وكان تطور المدينة كبيرًا؛ ففى عام ١٠٤٦، أى بعد أقل من قرن على تأسيسها أورد لنا أحد الرحالة واسمه نصيرى هذا الوصف :

" القاهرة مدينة كبيرة، وقليل من المدن هى التى تصمد للمقارنة معها، فهناك الحانات والحمامات والمبانى العامة الأخرى بأعداد كبيرة لدرجة يصعب معها تعدادها، وللمدينة خمسة أبواب، ولم تكن محاطة بسور حصين ولكن المبانى والمنازل مرتفعة فهى أعلى من أى حصن، ومعظمها له خمسة أو ستة طوابق، ويفصل بينها أماكن خضراء وحدائق، والماء اللازم يرفع بواسطة عجلات لرفع الماء(١٠)".

انكماش المسيحية

كانت لصعود نجم الإسلام نتائج عميقة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر، وخاصة فى البلدان التى بها مسيحيون، ورغم أن الإسلام أصبح دين الدولة الرسمى، فإنه لم يمارس اضطهادا ضد المسيحيين وظلت لبطريرك الإسكندرية سلطاته. فيما مضى لم يكن التبشير متسامحًا، وزاد ضغط الإسلام، وبمرور الوقت يزداد الشعور به لدى السكان، وهناك ارتداد لأعداد كبيرة من الأقباط.

وثمة موقع حصين وبارز للمسيحية وهو دير سان سيميون فى جبل أسوان، وقد خضع لضغط مستمر من النوبيين المسلمين. استولى عليه صلاح الدين عام ١١٧٣، فى حين قاوم ديران آخران : دير العبايد (الدير الأبيض) والدير الأحمر، ويصف لنا الرحالة فان سلب الدير الثانى عام ١٦٧٢ قائلاً:

"واحد من أروع المبانى التى ترتفع فى مصر، مربع الشكل بطول ٣٧ وقامة وقدمان و ١٨ قامة وثلاثة أقدام[١١]، وله ست بوابات ضخمة من الجرانيت الأحمر، أغلقت اليوم كلها فيما عدا البوابة الرئيسية وصفان من النوافذ. وما بداخله قد تحطم فيما عدا الهيكل حيث يقام القداس، وسلم رائع يفضى إلى أماكن النوم للمتدينين، بنى من أحجار كبيرة جداً مليئة بالأرقام والأشكال الهيروغليفية، ولكن الكل موضوع بالمقلوب بالجدران من الداخل ست كوات فى كل جانب مقبية السقف ونحتها دقيق مما لا أستطيع أن أصف معه إعجابى[١٢]".

لم تفلت السودان والنوبة من الضغط الإسلامى، فبعد الفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو، ظلت ثلاث ممالك مسيحية صغيرة فى السودان :

- موكوبا عند الجندل الثالث، خليفة نباتا المسيحية نحو عام ٤٥٠.
- ماريس فى الجنوب عند تلاقى أثارا بالنيل.
- "عدا: Ada، أوعلوه: Aloa" فى مرتفع على النيل الأبيض، وظلت بها بقايا من مروى القديمة.

بدأ الإسلام نحو القرن الحادى عشر عملية حصار بطيئة اختلط فيها العرب والكوشيون، ولم تكن لدى مصر الوسائل التى تساعدها على غزو هذه البلاد، وكان المسلمون يؤثرون التغلغل بمكر. نحو عام ١٢٧٠ وسط سلطان ضد الملك داود ابن أخيه سكاندا، وحصل منه على وعد بإحراق الكنائس ودفع الجزية للمسلمين.

وحدثت عام ١٢٨٠ قفزات فجائية، وفى عام ١٣١٦ بينما أسقطت حملات مصرية كارانبوس آخر ملوك المسيحية بالسودان الذى اختفى، لم تستطع مصر أن تثبت وجوداً عسكريا دائماً، وغاصت البلاد فى الفوضى، وكان يوجد أربعة ملوك يتحكمون فى نحو عشر إقطاعيات[١٣].

وعلى مدار قرنين فقدت المسيحية الكثير وانكمشت فى الجنوب، فى كردفان أولاً ثم فى مملكة علوة بين مروى وسمنار، وحكمتها أسرة مسيحية حتى عام ١٦٨٠.

أما الحبشة فلم تتأثر مباشرة بالغزو الإسلامى. ويبدو أن الأحباش قاموا بعدة هجمات منطلقين من سواحل الجزيرة العربية، ولم يحل شىء دون تقدم الفاتحين العرب شمالا نحو مصر فى الغرب وفارس فى الشرق، فى الواقع لم تكن الحبشة هدفًا للغزو، ولكن الوضع المعادى للأحباش قد منعهم بغير شك.

قبل وفاة محمد فى يوليو عام ٦٣٠، هاجم الأحباش شهيبة على البحر الأحمر، على بعد نحو سبعين كيلو مترا فقط من مكة، وجددوا هجومهم عام ٦٤٠، والأساطيل الأربعة التى تعقبتهم لم ترجع أبدًا، دون أن نعرف ما إذا كان البحارة غرقوا فى البحر أو أن الأحباش ذبحوهم بعد تدمير عدوليس، ولم يذكر العرب شيئا عن ذلك، حتى فى عام ٧٠٢ عندما هاجم الأحباش جدة صدهم العرب دون أن يتعقبوهم. وهناك رواية تفيد أن الأحباش يريدون هدم الكعبة، ويتبع العرب حديث النبى[١٤] الذى يقول: "دع الأحباش فى سلام طالما أنهم لم يهاجمونا ".

يتبقى غموض النهاية التى واجهها ميناء عدوليس؛ يقطع بعض المؤلفين بأن تدمير عدوليس على يد العرب كان فى عام ٦٤٠، بعد سلسلة من الضربات المتكررة[١٥]، وآخرون- وبرغم الآثار الواضحة للتدمير والحريق- لا يستبعدون أسبابًا طبيعية مثل الزلزال[١٦] سواء أكانت مسببة أم طبيعية، نتفق مع القول بأن تدمير عدوليس تسبب

فى ثراء جدة، ونتهم بشكل أوضح المحاولات المتجددة للأحباش ضد الموانئ العربية على الساحل الشرقى للبحر الأحمر.

ولم يكن التكتيك العربى يهدف لاحتلال الحبشة ولكن لعزلها وقطع اتصالاتها مع البيزنطيين، فاحتلال جزر دحاليك[١٧] بامتداد مصوع منع الأحباش من الممر الحر الموصل للبحر الأحمر. ومع ذلك سوف تغدو أمة قارية أكثر منها بحرية[١٨]، وسوف تواجه مصيرها وحدها.

إلى الشمال من أراضى الحبشة بين الممالك المسيحية بالنوبة والبحر الأحمر، على الأراضى التى تعتمد على جزء كبير من مملكة أكسوم، خمس ممالك صغيرة مسلمة تمتد من أسوان حتى حدود الحبشة " ممالك يجا " والاسم مشتق من اسم القبائل التى تتكون منها، وسوف تعزل مع مرور السنين الأحباش عن مصر والبحر الأحمر[١٩].

سوف تحكم الأسرة الأكسومية الحبشة حتى نهاية القرن السادس، وسوف تدخل البلاد فى عصر من الأهوال لم ينته فعلاً إلا فى آخر عام ١٢٦٨، بظهور أسرة زاجوى المسماة بالأسرة السليمانية؛ لأنها تدعى أنها من سلالة الملك سليمان. وهذا النسب أسطورى على ما يبدو؛ لأنه يؤرخ بالقرن الرابع عشر الميلادى، فى حين أن الملك سليمان عاش فى القرن العاشر ق. م، ولكن لماذا لا يذكرونها فى حين تحتل أساطير أخرى مكانها فى إطار النصوص المقدسة ؟

ربما أنجبت ملكة سبأ ولداً من سليمان "ابن الحكيم" الذى سيصبح منليك الأول، مؤسس أكسوم حيث سينتقل القوس المقدس لليهود، وهو القوس الذى لا توجد منه إلا نسخة مقلدة[٢٠].

لا شيء من هذه الأسطورة يصمد لأدنى نقد، لكنها شيقة. أول عاهل سليمانى هو ياكونو أملاك حتى عام ١٢٨٥، ولم يكن على وئام مع المسيحيين المحتلين للأراضى

الواقعة تحت سلطته. ابنه أجيبيا سيون أخبر فى عام ١٢٩٠ السلطان المملوكى بمصر أنه سيحميهم[٢١]. ولكن هذا الوضع لم يدم، حيث تدل الآثار على محاصرة الأحباش لأتباع المسلمين أو المؤيدين لهم ومن ذلك مدينة زيلع.

الإسلام فى إفريقيا الشرقية

إن عزل إمبراطورية أكسوم، بعد تدمير عدوليس نحو عام ٦٤٠، جعل الأكسوميين يتجهون نحو زيلع على الساحل الأفريقى لخليج عدن، وحضورهم فى المدينة – والوضع التجارى الذى عاشته فرض عليها بشكل طبيعى الديانة المسيحية، هذا الوضع سيستمر طويلاً طالما وجدت إثيوبيا، وسوف تكف فى القرن العاشر عندما تضعف بسبب الحرب وسوف تنكمش كثيراً. وبالتتابع سوف يصبح الساحل شيعيا لفترة من الزمن تحت تأثير زيدية اليمن، ونعلم أن زيلع وبربرا أسلمتا نحو القرن الثانى عشر[٢٢].

أصبح الأحباش قوة فى زيلع من عدة أوجه، فقد ذهب قاض من هذه المدينة بين يدى بطريرك قبطى بمصر عام ١٣٣٢ ليوقف هذه العقوبات[٢٣]، وسيُهزم السلطان سعيد الدين حاكم زيلع ويعدمه الأحباش ١٦ فبراير ١٤١٥[٢٤]، وأخلوا سريعا المدينة وأسلمة الساحل أصبحت مؤكدة ولكنه لم يوقف التجارة مع الحبشة بل، على العكس فإن زيلع التى اندمجت مع العالم الإسلامى ستستمر حتى القرن التاسع عشر على استقلالها التام لتلعب دورها فى التبادل التجارى بين أفريقيا الشرقية واليمن والهند.

المبشرون والرحالة

انتشرت فى العصور الوسطى أسطورة الكاهن يوحنا، العاهل الأسطورى لإمبراطورية مسيحية فى قلب أفريقيا امتدت لأوربا[٢٥]، هذا على الرغم من أن أى

عاهل إثيوبى يحمل الصفة الكهنوتية[٢٦]. هذا الإيمان زاد بعد الاكتشاف الذى تم فى القدس بواسطة الصليبيين " لجماعة مسيحية ذات ديانة قبطية لكنها ليست من أصل قبطى، فقد كانوا ذوى بشرة سوداء دون أن يكونوا زنوجًا[٢٧]".

الوصول إلى إثيوبيا عن طريق مصر مستحيل عمليا على المسيحى، فالممالك الإسلامية تحول دون ذلك، كما أن المعرفة بطرق البحر الأحمر غير كاملة، وفى عام ١٢٨٩، فقد رسول البابا نيقولا الثانى، يوحنا مونتكورفينو، وفى ١٣١٦ ثمانية من الرسل الدومينيكان ليوحنا الثانى والعشرين استوقفوا وأجبروا على العودة[٢٨].

من عام ١٤٢٠ حتى عام ١٤٤٤، زار رحالة فينيسى، يدعى نيقولا دوكونتى، الذى تعيش عائلته فى دمشق، الهند وعاد عن طريق البحر الأحمر، وتوقف فى عدن وبربرة وأبحر تجاه جدة[٢٩] والطور. ولا تحمل قصته شيئًا مهما فيما عدا ما يختص بالمراكب التى يستخدمها الهندوس والتى وصفها بدقة وقال: إن لها خمسة صوارٍ[٣٠].

صعوبة الاقتراب من مملكة القس يوحنا حاول التغلب عليها أكثر من مغامر وأكثرهم الفرنسيسكانى جون باتيست إيمولا، الذى ادعى رحلة إلى إثيوبيا، وبلغ به الأمر أن طلب بعثه رسمية فى أكسوم مع ساجرا، وهما أب إسبانى وآخر إيطالى يدعى جيوفانى دى جالابريا، ونجح فى السفر من قفط بمصر ووصل ميناء القصير وأبحر حتى سواكن ووصل أكسوم عن طريق البر عام ١٤٨٢ واستقبل بشكل سيئ للغاية.

ورغم ذلك عاد إيمولا عام ١٤٨٣ على رأس إرسالية مكونة من اثنى عشر فرنسيسكانى دون أن يحرز نجاحًا كبيرًا.

ويجب أن ننتظر حتى عام ١٤٨٧، حتى تكتشف بعثة برتغالية مكونة من بدرو دو كوفيلا وأفونسو دو بايفا حقيقة الوضع فى الحبشة المسيحية، وتقوم بما يجب عليها إزاءها.

وتبع ذلك إرساليون آخرون، مثل الفينيسى الذى ذهب من فينيسيا حتى أكسوم فى ١٨١ يومًا فى نهاية القرن الخامس عشر. جاءت ثلاث ديانات حبشية إلى القدس عام ١٥٢٢ والعزلة مضروبة، ولكن القصص لا تزال تجنح للطابع الأسطورى والدجالون كثيرون[٣١].

إن إصرار العرب بمصر على منع المرور إلى الحبشة والبحر الأحمر لا يفسره فقط كره المسيحيين والرغبة فى عدم إفشاء سر الطرق التجارية؛ ولكن يضاف لذلك الخوف من رؤية غير المؤمنين يمرون عبر النيل، الذين نعلم أنهم جاءوا من أعالى الحبشة[٣٢].

" لم يترك السودان أى مسيحى يمر إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ولا حتى عن طريق النيل، فى اتجاه الكاهن يوحنا؛ خشية أن يمنع المسيحيون ما يجلبه النهر أو أى شىء يناقضه، ولأن المسيحيين أو يوحنا من هناك يشنون عليهم الحرب، لم يستطع السودان الإفادة من هذا النهر لكن يوحنا استطاع وأمرها بما يشاء، وإذا لم تفعل يموت كثير من مسيحيى مصر من الجوع إذا ما منع النهر من الجريان[٣٣]".

اثنان من جنوة، جيرولامو أدورنو وجيرولامو دى سان استفانو رحلا من القاهرة عام ١٤٩٤، وصعدا بالنيل حتى "كينيه: kénéh" ومن هنا وصلا ميناء القصير عن طريق قافلة تسلك طريق وادى الحمامات. وبعد نحو أربع سنوات من مرور أنطونيو دو بايفا، علما أن مصوع التى يحكمها مغربى، هى ميناء بلاد الكاهن يوحنا. حتى بدرو دو كوفيلا كان يجهل إمكانية استخدام هذا الطريق، وهو المدخل الطبيعى للحبشة؛ لأنه

قام بدوران طويل عن طريق زيلع. وسافر بمركب سيئة استغرقت خمسة وثلاثين يومًا لتصل مصوع ثم إثيوبيا.

بالتوقف فى عدن، الشخصان اللذان من جنوة ذهبا للملك الذى يحكم : " زعيم هذه البلاد عادل وطيب جدًا، ولا يقارن بأى سيد غير مؤمن[٣٤]".

الأتراك فى الإسلام

فى عام ٥٤٦، ولم يكن النبى محمد قد ولد بعد، تمردت قبيلة بجبال التاى على حدود منغوليا وسيبيريا ضد حكامها، قبيلة من قبل المغول تسمى آفار[٣٥]، وكان أبناؤها يعملون فى صناعة الأسلحة البيضاء، كان هذا الشعب معروفًا للصينيين باسم الترك، وهذه ليست إلا واحدة من قبائل عديدة بالإقليم الذى يسميه المسلمون أولاً ثم تبعهم الأوربيون باسم الأتراك.

زعيم الترك بومان، أكد قوة كل القبائل الناطقة بالتركية بالإقليم الذى تحرر من سيطرة المغول- بومان وفيما بعد ابنه تاردو- اتصل بالأسرة الساسانية بإيران. كان الأتراك جنودًا أشداء ولكنهم أظهروا دبلوماسية عالية؛ لأن كورش لم يستخدم فقط مرتزقة أتراكًا فى جيشه، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك فتزوج من أميرة تركية[٣٦].

وأخذ الترك ثمنا للتحالف والمصاهرة مقاطعة إيرانية قديمة أصبحت تركستان أو أوزبكستان. وهكذا وجد الإيرانيون أنفسهم فى مواجهة شعب خطر وشديد المراس، أبرم تحالفًا سريعا مع أعدائهم اليونانيين، وهاجموا عدة مرات الإمبراطورية الفارسية وهزموها.

بعد مرحلة الغزو الإسلامى، تولدت رغبة عارمة فى الحرب بين العرب كما هى الحال بين الإيرانيين. وقد وافق الأتراك على أن يخدموا كمرتزقة فى صفوف الإيرانيين. وأسر عدة آلاف فى بخارى ووجدوا أنفسهم عام ٦٧٤ فى قوات حاكم بسرا[٣٧].

من عام ٧٥٠ حتى ٩٠٠، زادت الهجرات التركية وأعداد المرتزقة الترك الذين اسماهم العرب باسم المماليك أو"العبيد البيض، لكى يميزوهم عن السود، وأصبحت لهم أهميتهم الكبرى فى الجيش وفى إدارة البلاد".

وفى عام ٨١٨ حدث أنهم قتلوا وزيراً! حتى بعد أن ألغى الخليفة المتوكل[٣٨] وظيفة الوزارة، اتجه للأتراك فعينهم فى الوظائف العليا بالدولة؛ ولذلك لا نندهش إذا ما رأيناهم عام ٨٦١ يغتالونه ويختارون خليفته، ومنذ ذلك الوقت والسلطة الحقيقية فى أيدى الأتراك الذين أنقذوا البلاد من ثورة العبيد السود- الزنوج- نحو عام ٨٧٠.

"ج. ب. روى: J.P. Rouy" يعول على الافتراضات المعتادة التى تقول بأن إسلام الأتراك كان شكلياً وأنهم لم يندمجوا بعمق مع السكان، عن طريق المنع ثم عن طريق الميل الطبيعى بعد ذلك للابتعاد عن السكان. تزوجوا من نساء جىء بهن خصيصاً من آسيا الوسطى. ويمكننا أن نقرر فى إيجاز أنهم كانوا أتراكًا قبل أن يكونوا مسلمين، وبدقة أكثر كانوا بثقافتهم يشكلون العنصر ما قبل الإيرانى[٣٩].

المماليك فى مصر

فيما يخص مصر، وبشكل مباشر فيما يخص موضوعنا بكباك، بدأت السيطرة التركية يوم ١٥ سبتمبر ٨٦٨، عندما صاهر أحمد بن طولون فى هذا اليوم، حاجب الخليفة المعز، ووصل الفسطاط ليعيد النظام فى البلاد. والحقوق التى آلت إليه جعلته سيداً متحكماً، فجمع الضرائب وأنعش الاقتصاد، وأثرى هو نفسه دون أن يجعل عامله يفيد من ذلك شيئًا، وأطلق برنامج الأعمال الكبرى، ونظم جيشًا من المرتزقة. نجح ابن طولون لدرجة أن ابنه خمارويه تزوج عام ٨٨٤ من ابنة الخليفة العباسى. وإذا كانت أسرة ابن طولون لم تستمر فى الحكم بمصر فإن حاكمًا تركيًا آخر عينه العباسيون عام ٩٠٥، باسم إخشيد قد خلفه، وبعد عدة محاولات نجح الفاطميون الشيعة فى

الاستيلاء على مصر، وفى عام ٩٦٩ استبعد الأتراك عمليًا المنحدرين من أصول بربرية: "كان الملوك والوزراء عرائس فى أيدى الجنود[٤٠]" وإذا لم يكن المماليك المصريون حتى الآن ملوكًا فإنهم كانوا فى الطريق[٤١].

السلاجقة

وهناك قبيلة أخرى خرجت من العباءة التركية من البدو والتركمان والكينيك سوف تلعب دورًا كبيرًا فى الشرق الأوسط، هؤلاء الأتراك مشهورون باسم مؤسس الأسرة، سلجوق، جاءوا من الشمال واستقروا نحو عام ٩٨٥ شمال شرق بحر الأورال، على الضفة الشمالية لنهر السرداريا[٤٢].

اعتنقوا الإسلام رسميا، وجاءوا بعد عدة أجيال ليلعبوا دورًا مهمًا فى إيران. أحد أحفاد سلجوق ويدعى طغرل بك (أى الصقر) استطاع أن يغزو هذا البلد عام ١٠٥٩ بالاستيلاء على أصفهان حيث أسس عاصمته[٤٣]. وقد استنجد به خليفة بغداد فأعطاه نجدة سريعة، وما كان من الخليفة إلا أن زوجه وهو البالغ من العمر سبعين عاما من ابنته، واستلم ابن أخيه ألب أرسلان (الأسد) السلطة عام ١٠٦٣، وكان حاكمًا لإيران وقرر القضاء على الخلافة الفاطمية بالقاهرة وهاجم البيزنطيين، وفى عام ١٠٧١ هزم القوات المسيحية المكونة من عدد كبير من اليونانيين والمرتزقة الأتراك، وأسر الإمبراطور رومان ديوجين إمبراطور بيزنطة[٤٤].

كانت سوريا الهدف القادم ! وقوات أوغوز التى هاجمت القدس سنة ١٠٧١، معدة تمامًا حيث استولت على دمشق فى عام ١٠٧٦، وقد أخطأ أتسيز رئيسهم عندما طلب المساعدة ضد الفاطميين من ملك شاه بن أرسلان، وانتهز الفرصة وأرسل أخاه توتخ لنجدة أوغوز الذى حرر دمشق عام ١٠٧٩، ولكن قتل أتسيز ووصل البحر المتوسط حتى شرب فرسه من مائه كما يقال[٤٥].

العثمانيون

يلقب المنحدرون من قبيلة أوغوز أنفسهم بأولاد عثمان أو عثمانى بالتركية، وقد عاشوا فى القرن الثالث عشر فى إقليم بحيرة فان فى أقصى تركيا الحالية على الحدود مع أذربيجان على أبواب الإمبراطورية البيزنطية.

حشد العثمانيون كل المقاتلين والمغامرين ابتداء من عام ١٢٩٠، وهاجموا البيزنطيين، ونراهم عام ١٢٩٩ واثقين من قوتهم، تعاظمت السلطنة الصغيرة حتى غدت إمبراطورية فى عهد الابن الثالث لمؤسسها السلطان غازى[٤٦] الذى استلم مقاليد الحكم تحت اسم عثمان الأول.

استولى العثمانيون على المدن المسيحية مثل بروس ونيسيه عام ١٣٣١ و نيكوميدى عام ١٣٣٧ وغاليبولى عام ١٣٥٧[٤٧]. ووضعت معركة أنقرة عام ١٤٠٢ بين باجاريت العثمانى وتامرلان نهاية الإمبراطورية لمدة تسع سنوات، ولم يستعدها إلا محمد الفاتح ٢٤ إبريل ١٤٥٣، وتقدم إلى القسطنطينية ومعه ٣٥٠ مركبًا واثنا عشر ألف رجل، وبعد حصار دام شهرًا واحدًا وبمدفع واحد هزم الإمبراطورية المسيحية بالشرق. فى ٢٩ مايو ١٤٥٣، قتل الإمبراطور قسطنطين وسلاحه فى يده ودخل محمد الثانى بازيليك سانت صوفيا راكبًا فرسه. وهكذا حقق المسلمون بعد ثمانية قرون ما بشر به محمد بخصوص القسطنطينية: "سعيد الجيش والقائد الذى يفتحها[٤٨]".

وانتهت كنيسة الشرق بعد عشر سنوات من مجمع الكنائس فى فلورنسا الذى امتد من عام ١٤٣٩ حتى عام ١٤٤٢، الذى حاول عبثًا توحيد المسيحية، ورغم رغبة الفرنسيسكان فى إقناع الكنائس القبطية بمصر والحبشة بالمشاركة سيما فى ظل الأخطار والهجمات الأولى على القسطنطينية :

" سبعمائة ممثل لكنائس الشرق وافقوا فى حضور مائة وسبعين أسقفًا لاتينيًا على بنود المذهب الكاثوليكى الذى بسببه انفصلت الكنيسة اليونانية عن الكنيسة

الرومانية واعترفت بمكانة البابا، ووحدت الكنائس الكاثوليكية واليونانية ووقعوا على ذلك فى يوليو ١٤٣٩، على يد بطريرك القسطنطينية ويوحنا الثالث باليولوج، لكن هذا الاتحاد صوَّت عليه الممثلون الذين أخبروا بالمخاطر العسكرية التى تهدد المسيحية على يد الأتراك، والذى يجب أن تضم إليه كنائس أخرى وبخاصة الكنيسة اليعقوبية التى لم يقبل ممثلوها بهذا. واستمرت مفاوضات مجمع فلورنسا حتى كان الفشل النهائى فى عام ١٤٤٢[٤٩].

وهكذا قادت العقيدة الرومانية والعمى البيزنطى المسيحية إلى إخفاق خطير.

غزاة مصر

وقد احتل السلاجقة فى سوريا على أيام نور الدين دمشق، وانطلقوا إلى مصر، وعهد بهذه الحملة عام ١١٧١، إلى شيركوه الذى اصطحب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى نسميه صلاح الدين اختصاراً، والذى كان كرديا[٥٠]، واستلم السلطة بمصر وأسس أسرته الحاكمة أى الأسرة الأيوبية التى سوف تنتصر على الصليبيين.

بعد ثلاثة قرون ونصف القرن وفى عام ١٥١٢، وبعد تقلبات البلاط والمذابح العائلية التى تلت وفاة محمد الثانى، استلم ابنه الثالث يافوز السلطة فى القسطنطينية باسم سليم الأول الملقب بـ "المرعب"، ونظراً لرغبته فى الاستيلاء على التجارة بين الهند وأوربا، كان عليه أن يغزو سوريا ومصر، وتم له ما أراد فى غضون عامين، وفى عام ١٥١٦ استولى على حلب وحمص ودمشق والقدس، وفى ٢٢ فبراير ١٥١٧ هزم المماليك واستولى على القاهرة، وسلَّم شريف مكة الأماكن المقدسة فأصبح العثمانيون قادة فى السياسة وسادة فى الديانة الإسلامية[٥١].

وبعد نحو ألف عام استطاع الأتراك أن يهزموا المسيحية ويصبحوا قادة الإسلام على حساب العرب. كل جهود الغرب خلال الحروب الصليبية لم تستطع سوى أن توقف توسع الأتراك فى أوربا، ولكن الغرب كان قد فقد الشرق تماماً.

ترجع رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة للقرن الرابع، وأمّنت الإمبراطورية السلام وتمكن حجاج الغرب من زيارة قبر المسيح. وثمة وثيقة تسمى - "inérarium à burdigala Jerusalem usque" وتشمل كل الإشارات المفيدة فيما يتعلق بهذه الرحلة الطويلة. ورغم أن الغزو الإسلامى أعاق تدفق الحجيج فإنه لم يمنعه تماماً، وأصبح الحج سهلاً عن طريق تحول المجريين بنهاية القرن العاشر إلى الطريق البرى الأقل خطراً والأقل مغامرة من الإبحار فى البحر المتوسط.

الأتراك يمنعون المسيحيين من دخول القدس

لم يمنع اضطهاد الخليفة الحاكم (بأمر الله) الذى أزال القبر المقدس، من إعادة تشييده ثانية عام ١٠٤٨، وعلى الرغم من الصعوبات فإن الصلات مع المسلمين لم تمنع تماماً حج المسيحيين للقدس. كانت غزوات من أوغوز على هذه المدينة عام ١٠٧١، وعام ١٠٧٦ ثم السلاجقة عام ١٠٧٩، التى وضعت نهاية لهذا الأمر. وكان لهذا انعكاسه على النفوس فى الغرب.

" هذه الدفعة الكبرى التى تستلهم الدين مهما كانت الخلفيات المصاحبة وهذه الرجفة غير العادية، كل السلالات اختلطت، مسيحية الغرب والارتماء فى حضن المغامرة الكبرى جعلت اليد تلامس طبيعة مسيحيى العصور الوسطى ونظرته لمسقط رأس إلهه، والألم المبرح الذى اعتراه بسبب تدنيس قبره على يد غير مؤمن[٥٢]".

بالنسبة للبعض كانت الحروب الصليبية " هجوما مضاداً "، فكر فيه المسيحيون وقتاً طويلاً وأعدوا العدة لحرب الإسلام، عبر حركة حماس دينى عفوية[٥٣].

كانت الانطلاقة الأولى للصليبيين عام ١٠٩٧، وهزموا السلاجقة فى دوريليه. استولى اليونانيون على نيسيه وتراجع الأتراك إلى الأناضول، وبيزنطة تراجعت وعبروا آسيا الصغرى وحاصروا أنطيوش فى أكتوبر ١٠٩٧، وسقطت المدينة فى يونيه ١٠٩٨ ثم كان الدور على القدس والتى منها هزم جودفروى دو بويون الأتراك السلاجقة فى ١٥ يوليو ١٠٩٩.

كان الصليبيون ماكرين، فالأتراك كانوا مسلمين سنَّة فى حين كان المصريون فى معظمهم عرباً وشيعة، وتلاعب بهم الصليبيون الواحد ضد الآخر، وهاجموا الأتراك فى أنطاكيا، كما استرد منهم المصريون القدس التى انتزعها الصليبيون بعد ذلك(٥٤).

الحروب الصليبية فى البحر الأحمر

دمرت مدينة الفسطاط عام ١١٦٨، أول عاصمة لمصر الإسلامية قبل تأسيس القاهرة بناء على أوامر السلطان شاور؛ لكى يتجنب وقوعها فى أيدى الصليبيين بقيادة أمورى، ملك القدس(٥٥)، واحترقت المدينة خلال أربعة وخمسين يوماً، ولجأ السكان إلى القاهرة، لكن مصر نجت من الاحتلال.

صلاح الدين الكردى أزاح عمه شيركوه الذى جاء معه إلى مصر عام ١١٧١ وتسلم السلطة بمصر، وفى عام ١١٨٠ حدث صراع مميت بين مصر والمملكة المسيحية بالقدس(٥٦).

وفى عام ١١٨١، دخل رينو دو شاتيون سيد الحرب تحت قيادة فرقة حربية منادياً لأول مرة بفكرة ضرب الإسلام فى العمق والاستيلاء على مكة.

وقد فشلت أول محاورة، لكنه تذكر أن الكعبة غزاها من قبل فى عام ١١١٦ الفرنسيون الأحرار، الذين طردوا عام ١١٧٥، لأن عبور ألف كيلو متر بالصحراء

صعب، فإن رينو أعاد غزو المدينة أو على الأقل حاول الاستيلاء على منفذ على البحر في عمق الخليج، ولم يكن معه أى مركب لكنه شيد المراكب فى مكانه، وفكك، وحمل على ظهر الجمال خمس مراكب ضخمة أخرى جاءت من موانئ فلسطين.

هذه السفن ذات المجاديف على كل منها ألف من الرجال المؤمنين الذين أفادوا من وضعهم للتحرك فى كل الموانى التى يصلونها: "عيدات: Aidhad(٥٧)"، ميناء الحجيج دمروه، ست عشرة مركبًا شراعية وجدت غارقة(٥٨). حملة فى داخل الأراضى سمحت بسرقة ونهب قافلة "رابيج وهوارا: Rabeig et Haouara" ميناءان تحيطان "بيامبو: Yombo" وقد نهبا كذلك؛ وربما وصلوا، عدن وحدث لها(٥٩) ما حدث، كل هذا حدث فى غياب صلاح الدين كان الذى يحارب فى الفرات مما سمح بوقع هذه الأعمال، لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً.

الملك العادل شقيق صلاح الدين وشريكه فى حكم مصر لم يكن لديه أسطول فى البحر الأحمر. مثل رينو، نقل إلى القلزم السفن من النيل ومن الإسكندرية مفككة من قبل ذلك. وفى عام ١١٨٣ عهد بهذا الأسطول إلى الأميرال لؤلؤ المسمى بالحاجب، ونقلها بالبربر المغاربة وهم محاربون مهرة فى حروب البحر، وسرعان ما أسروا السفن الثلاث الكبرى التى كانت تحاصر جزيرة "جراى: Graye" وأحرقوها وذبحوا من عليها. وفتش الأسطول المصرى الموانئ، ميناء بعد الأخرى بالبحر الأحمر، حيث كان يظن وجود المسيحيين المحاربين. وتعقبهم لؤلؤ وفاجأهم أمام هوارا وكانت القوات قد أقلعت وتقدمت على طريق المدينة عندما هوجمت السفن، وأعضاء السفن الذين بقوا على قيد الحياة حاولوا الالتحاق بالفرقة المسيحية وساروا أيامًا كذلك، وكانوا ثلاثمائة على بعد يوم من المسير من المدينة، عندما هوجموا وهزموا وأسر منهم مائة وسبعون أعدم كثير منهم بالمدينة ومكة، وآخرون اقتيدوا إلى مصر وقضى عليهم، وقد سجل الحدث الرحالة ابن جبير!

"الأسرى المسيحيون كبلوا على ظهور الجمال، والوجه فى ناحية ذيل الحيوان، وساروا وسط قرع الطبول وتصفيق الجمهور، ثم قطعت رءوس الجميع". هذا ما يحكى لنا يجعل قلوبنا تنبض بسرعة تأثرًا، فقد حمى الله الإسلام مرة أخرى وأحلَّ الطمأنينة فى قلوب المسلمين الطيبين، له الحمد، مالك الملك"(٦٠).

رينو دو شاتيون الذى لم يشارك فى حملة البحر الأحمر، كان عائدًا إلى إمارته، فقد أفلت إذن من المذبحة وأسر عام ١١٨٧ فى موقعة حطين عندما هزم صلاح الدين الصليبيين شرَّ هزيمة. وكانت هذه نهاية مملكة القدس. وقد أطلق سراح الأمراء والفرسان المسيحيين جميعًا بعد دفع الفدية إلا رينو "شيطان الغرب، الذى نقض العهود والمواثيق، والعدو اللدود لصلاح الدين(٦١) فقد أعدم ".

نهاية المملكة اللاتينية

وفى عام ١١٧٤، وبموت أمورى الأول، خلفه ابنه بودوان " الملك المجذوم" وكان عمره ثلاث عشرة سنة، مات قبل أن يهزم صلاح الدين الصليبيين ويستولى على القدس.

كانت للحملات الصليبية الأخرى فرص مختلفة، فخلال الحملة الثانية ارتدت قوات كونراد الثالث حتى ممر الأناضول فى أكتوبر ١١٤٧، وأجبرت قوات لويس السابع(٦٢) على العودة للأرض المقدسة عن طريق البحر(٦٣).

وفى أوربا كان للفشل صداه، مثل هزيمة نيقوبوليس فى سبتمبر ١٣٩٦، أمام العثمانى بايزيد، تلته تلك الهزيمة التى لحقت ب"فارنا" بالبحر الأسود وكوسوفو عام ١٤٤٨(٦٤).

وقد قام ملك فرنسا لويس التاسع بآخر محاولة لإنقاذ المملكة اللاتينية فى فلسطين، حيث وصل دمياط عام ١٢٤٩، وهزم فى المنصورة فى العام الذى تلاه وأسر. وإنه لمصير مخزٍ ذلك الذى وجد فيه ملك فرنسا نفسه يفتدى حريته. وبقى فى فلسطين حتى عام ١٢٥٤. ثم قضى سلطان مصر بيبرس البندقدارى على اللاجئين فى يافا والصليبيين عام ١٢٦٧.

رفض لويس التاسع أن يعترف بفشله، وفشل المسيحية، فتبنى خطة غبية لاستعادة الأرض المقدسة عن طريق المرور بالغرب؛ فوصل تونس عام ١٢٧٠ محاولاً تبشير هذا البلد، لكنه أصيب بالطاعون ومات فى قرطاج. كان سان لويس، مخلصًا لدينه حتى الموت، مسجلا بذلك الثمن الذى دفعته فرنسا "الابنة الكبرى للكنيسة " فى قضية خاسرة، وهى إعادة احتلال الأراضى المقدسة.

التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى

خلال قرون التاريخ القديم كانت الملاحة البحرية والتجارية فى القرن الأفريقى والبحر الأحمر من نصيب العرب فى حضرموت الذين يطلق عليهم تسمية أشهر هى السبئيون، وبعض رحلات المصريين والعبريين الذين يساعدهم الكنعانيون.

إن وصول اليونانيين لمصر قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون غير الموقف قليلاً، وعدل من وضع الملاحين باليمن، الذى يسمى باليمن السعيد، وفى المقابل الرومان مثل الفرس أبدوا اهتماما، ولكن موجة الانتصار الإسلامى كرست العودة لعصر السيطرة اليمنى، بل عاد بعض البدو من الداخل ليمارسوا الملاحة بعد عصر من التراجع، لكنهم كانوا ملاحين متواضعين، يخافون من عُمر (بن الخطاب) خليفتهم[٦٥]. وظلت هذه الهيبة تجاه الملاحين العرب حتى القرن الثامن عشر، حيث وجدنا إنجليزيا يدعى روك يكتب :

"يخافون من الرياح المواتية كخوفهم من الرياح المعادية، يبقون بمعزل يطلبون السلامة، يرفعون الشراع ليفيدوا من الرياح المواتية، عندما أصبحوا أقوياء نوعا ما استولوا على السواحل المحيطة بالصخور، ولا يشعرون بالأمان إلا وسط هذه المخاطر، ولكن بدون الرياح الهادئة تتوقف ملاحة العرب، وهذا ما يجعلهم لا يعبرون من جدة إلى السويس قبل مايو؛ لخوفهم من عدم تمكنهم من الوصول قبل هبوب الرياح الموسمية، وإذا ما هبت رياح الشمال من المستحيل على السفن أن تبحر فى الاتجاه المعاكس وتمر بالقناة الضيقة فى الطور حتى السويس(٦٦)".

خلال هذا العصر مباشرة أو عبر وسطاء، مارست الشعوب الإسلامية سيادة اقتصادية فى البحر، ومنها نقلت للغرب "التوابل" هذا المصطلح النوعى من أصل غربى يشمل طبقًا لتعريف البرتغاليين منتجات نادرة مشتهاة لنكهتها أو ببساطة لشكلها، وهى المنتجات التى أحبها الشرقيون منذ زمن بعيد، وتهافتت عليها الطبقات المترفة فى الغرب للوصول إليها والحصول عليها. بعد ألف عام من الاتصال مع الغرب حلت عزلة مساوية تمامًا. بعض الأوربيين مثل الفينيقيين أصبحوا حلفاء للعرب فى تبادل احتكار الإمدادات على ضفاف المتوسط، وآخرون مثل أهل جنوة وأهل بيزا كان لهم مكانهم.

"فى عام ١١٨٨، كانت توجد فى ميناء الإسكندرية ٣٧ سفينة تجارية من جنوة وبيزا وفينيسيا أو بلدان أخرى، وفى عام ١٢١٥ يروى المقريزى أن أكثر من ٣٠٠٠ تاجر مسيحى من الغرب كان يقيم فى الميناء فى نفس الوقت، وكانت مناسبة للتوقف الجماعى ثم تحصيل الجمارك العامة، وهذا رد فعل نتيجة لما تتخذه أوربا من إجراءات متشددة ضد مصالح مصر(٦٧)".

وضع استغله البرتغاليون بحجة نشر الدين لكى يقضوا على فينيسيا ويحلوا محلها مدنًا أخرى.

بالنسبة للطرق البرية، نتذكر الصراعات بين المصريين والفرس لتأمين تجارة الهند إلى أوربا عن طريق البحر الأحمر ومصر بالنسبة للأولى، عن طريق الخليج الفارسى وسوريا والأناضول بالنسبة للثانية، وقد أفاد العرب من هذه الصراعات، حيث نشطت حركة القوافل التى كانت تنطلق من حضرموت تجاه اليمن والمدينة والبتراء والساحل اللبنانى وسوريا، وكان للغزو الإسلامى أكبر الأثر على القبائل العربية من حيث زيادة المنافع التى يدرها تكثيف التجارة.

أصبحت دمشق عاصمة تجارية كبرى ومهمة للغاية، تمرر لصالح الخليج الفارسى جزءًا كبيرًا من تجارة البحر الأحمر وخليج السويس.

كان يوجد به أكثر من مكان إذن للتطور التجارى تجاه الهند وتجاه الغرب، ابتداء من القرن العاشر، أعطوا الخليج الفارسى اسم بحر الصين؛ لأنه كان الطريق الطبيعى إليها. كان هذا الطريق معروفًا منذ عصر السندباد البحرى، الذى وصل فى نهاية القرن الثامن إلى ملقة[٦٨].

الملاحة فى البحر الأحمر وخليج عدن

لم تكن الملاحة سهلة ميسورة بالبحر الأحمر، فشطآنه مليئة بالجزر والصخور، ومنفذه الضيق، باب المندب (ميناء النار) لم يكن مكانا محببًا بالنسبة للبرتغال، يذكر البحر الأحمر وخليج عدن بشكل السحلية[٦٩]: "رسم مضيق البحر الأحمر يشبه شكل جسد سحلية، حيث موانئه مكان العنق لكونها رفيعة ثم الرأس، كما يمكننا القول بأنها البحر الذى يمتد خارج الموانئ بين راس جاردافوى وراس فارتاك[٧٠]".

قسم بحارة حضرموت البحر الأحمر لثلاثة قطاعات طولية لكل منها ملاحتها الخاصة :

"قسم البحارة المغاربة "هذه الاثنى عشر "جوموس: Jomos: لثلاثة أجزاء طولية، وبهذا الشكل يظل البحر مقسمًا ثلاثة قطاعات: قطاع الوسط، الذى يمثل العمود الفقرى ويشبه ظهر السحلية الذى نسميه البحر الأعلى ليكون حرا للإبحار به نهاراً أو ليلاً، ويبدأ من موانئ المضيق حتى نهايته، وعمقه لا يقل عن خمس وعشرين وحدة قياس بحرية ولا يزيد على خمسين(٧١). وهذه ليس هى الحال مع القطاعين الآخرين، فأحدهما يسير بمحاذاة شواطئ الجزيرة العربية والآخر بمحاذاة الأرض الإفريقية التى تسمى "أجام: Ajam، وأبيزيا، Abasia" لأن هذين الساحلين حافلان بالجزر الصغيرة والقواقع وقنوات السلاحف وعمقها يتراوح بين ثمانى إلى خمس عشرة وحدة قياس بحرية، وهى صعبة على البحارة الذين ترسو سفنهم مع غروب الشمس "(٧٢).

قسم "الناقوداس: Nacoudas" العربى طول البحر الأحمر إلى اثنى عشر جزءا، وطبقًا للبرتغاليين الأوائل فقد حمل كل جزء اسم "جومو: jomo":

"البحارة المغاربة الذين مارسوا الإبحار بامتداد اثنى عشر جومو والأكثر عرضًا من بينها لا يتعدى ستة وثلاثين فرسخا(٧٣)".

تصبح الأشياء معقدة للأسف إذا ما حاولنا أن نحدد ماهية الجومو، نعتقد ابتداء أنها اثنا عشر قسمًا ذات أطوال مختلفة، وكذلك ذات عرض غير متساو، متصلة بأجزاء من البحر الأحمر، لتقدم بعض التجانس، ربما نرى فيها اثنتى عشرة منطقة للملاحة، ويزداد الأمر تعقيداً إذا ما قيل لنا: إن الجومو أيضا مقياس:

" هذا الجومو المقياس هو الجزء الثامن من ٢٤ فرسخًا بحريا، والذى يغطى لمسافة بالأيام والليالى، أجزاء من الطريق، كل ساعة يقطعون فرسخًا وثلاثة فراسخ تعدل جومو (٧٤)".

الجومو يساوى ٣ فراسخ ؟ وهذا يجعل البحر الأحمر قصيراً.

أما الفرسخ فهو: "وحدة قياس عتيقة عند الفرس، ويطلق عليها اليونان عن طريق الخطأ باراس فنجا[٧٥]".

كما نعلم أن الفرسخ يساوى ٥٢٥٠ مترًا [٧٦]، ونتأكد أن الجومو الذى يشكل الجزء الثامن من ٢٤ فرسخًا يساوى ٣ فراسخ أى نحو ١٨ كيلو مترا، لا يختلف عن ثلاثة من الفراسخ. فما الذى يمكن أن نستخلصه من ذلك؟

١- الناقوداس العربى هو الفرسخ فى الساعة، أى نحو ٣ فراسخ، وهذا يبدو قليلاً[٧٧].

٢- أن الجومو وحدة لقياس المسافة، تبلغ نحو ٩ أميال بحرية، ولكن المصطلح إذا ما عبر عن الامتداد فهو يعنى كل جزء من الأجزاء الاثنى عشر من البحر الأحمر، ولا يمكننا أن نتجنب محاولة التقريب بين اسم جومو الذى يشير "للفرسخ الثامن من ٢٤ فرسخًا بحريا" طبقا للبرتغاليين، وبين الوحدة العربية المستخدمة " الثامنة من ٢٤ ساعة " ألا يوجد بعض الخلط ؟[٧٨].

بالنسبة لاسم هذا البحر نفسه، ألا يرجع للرمل الأحمر الذى تثيره الخماسين من الجزيرة العربية عليه أو بسبب نباتات مائية حمراء ؟ يفسر هذا المستكشفون البرتغال:

" عمومًا يسميه البحارة المغاربة بحر القلزم، أى البحر المغلق (على الرغم من أنهم يعطون هذا الاسم للكاسبيين (Caspienne) الذى لا مدخل له.) وآخرون يسمونه بحر مكة، ويندهش الجميع عندما نسميه البحر الأحمر، وسبب هذا الاسم، أن أفونسو ألبوكرك أراد أن يعرفه عندما أبحر، فقال فى خطاب بعثه للملك دوم مانويل حول هذا الموضوع: إن هذا الاسم "أحمر" ينطبق عليه تمامًا؛ لأننا عندما نبحر فيه فى المنافذ (المضيق) فإننا نرى تيارات ماء ضخمة حمراء تخرج وتمتد أمام عدن وداخل الموانئ"[٧٩].

المنافسة التجارية

لقد دخلت مصر البحر الأحمر فى ذلك الوقت ورغبت فى تطوير التجارة لصالحها، فخاضت منافسة تجارية مباشرة مع اليمن، ونجحت فى أن تؤثر على جزء من دحاليك، ففى سنة ١٢٦٣ بذل المسلمون قصارى جهدهم للتمسك بحريتهم ضد السادة الزبيديين[٨٠]، ولقد أعلن الإسكندر عن المنتجات المستوردة " هذه المنتجات كانت منتجات ذات روائح عطرة وأحجار نفيسة وحبوب كانت آتية من بلاد الهند لإثيوبيا والجزيرة العربية[٨١]".

تجد هنا الفيانس والقاشانى من ملقه، والروائح والعطور والتوابل والفواكه، والمسك والفلفل، والحبهان، والقرفة، وكل الأخشاب النادرة مثل الأبنوس، وهناك العاج واللؤلؤ والبخور...إلخ[٨٢].

الوكالات التجارية فى البحر الأحمر

كانت الموانئ القديمة بمثابة وكالات تجارية، ويتأكد هذا من زاوية النظر البحرية؛ حيث يوجد مأوى طبيعى مزود بما يحتاجه. ومن الناحية التجارية؛ فهو منفذ على البحر لبلد لديه منتجات يبيعها، أو هو فى حاجة لمنتجات أخرى يبتاعها. نعرف هذه الموانئ من وصف المؤرخين القدامى، الذين لم يكونوا أول من رآها.

المصادر القديمة

قدم المؤرخ اليونانى هيرودوت الذى عاش فى القرن الخامس ق.م، وصفًا لهذه الموانئ، مستندًا على أصل من الحقيقة التى تغللها المسحة الأسطورية، ففى القرن الثانى استقبل بلاط البطالمة الفيلسوف، أجاتارسيد دو سنيد، الذى لم يكن رحالة ولا

جغرافيًا، لكنه سجل قصص البحارة، وكتب عملاً مهمًا بعنوان "عن بحر إريتريا " يحتوى على خمسة أجزاء، فقدت كلها، لكن نحو العام ١٠٠ ق.م أرتميدو ديفيز جمع منها جزءًا كبيرًا، وفيما بعد فعل سترابون وديودور الصقلى الشيء ذاته. وتضم هذه الأجزاء كثيرًا من المعارف ولكنها تفتقر إلى الدقة. عرف السكان بأسلوب التعميم من طريقة حياتهم: (أكلة النعام) و(أكلة الجراد) و(شاربو لبن البركة) لا شيء من هذا يساعد على معرفة مَن هؤلاء السكان.

نحو العام ٨٠ بعد الميلاد كتب عمل مجهول المؤلف "رحلة حول بحر إريتريا " ينسب لأدريان، وهو صانع سفن يونانى من برنيق، وقد قدم وصفًا ممتازًا لشواطئ البحر الأحمر والقرن الأفريقى وحتى للهند. والمسافات محسوبة بالاستاد[٨٣]، المصرى بلا شك، وتسمح بالتعرف على بعض الموانئ بشكل مؤكد.

بعد نحو ستين عاما لخص كلود بطليموس- فلكى وجغرافى يونانى ولد فى مصر- مجمل علوم وجغرافيا العصر فى مرشد جغرافى مكون من ٨ كتب، فقرر أن الأرض كروية وصمم مساقط جغرافية مخروطية[٨٤].

نحو العام ٥٠٠، كوزماس المسمى إنديكوبلوست؛ تاجر من الإسكندرية، جاءه الإلهام بإنكار كروية الأرض، وأن يستمد من العهد القديم ما يقول، ويحتوى كتابه "الطبوغرافية المسيحية" على معلومات محلية مهمة لكنه يحيطها باعتبارات دينية عن الكون ويذكر أن الذى يتحكم فى النجوم هم الملائكة ".

المصادر العربية

كان يجب انتظار علماء الجغرافيا والخرائط الجغرافية العرب لنحصل على مزيد من الدقة والمنطق : الخوارزمى عام ٨٢١، وابن خردانبه قرطبة عام ٨٤٤، والجراز عام ٨٦٩، والمروزى عام ٨٨٧، واليعقوبى عام ٨٩١، والفقى ٩٠٣، والجيهانى عام ٩٠٨[٨٥].

وبناء على سعى روجيه الثانى بمملكة النورماند فى صقلية تم وضع كتاب كامل عن الجغرافيا عام ١١٥٢ " كتاب روجيه أو كتاب الروجارى "يتحدث عن الجغرافيا ويحتوى على سبعين خريطة[٨٦]. استقبل فى باليرمو الشريف الإدريسى (١٠٩٩-١١٥٤) "أكبر علماء الجغرافيا العالم فى زمانه[٨٧]" والذى عذبه الفاطميون، وأخذ ابن سعيد هذا العمل وأحل محله فى العالم العربى جغرافيا بطليموس التى لعبت نفس الدور[٨٨].

فيما يخص قصص الرحالة بشكل خاص، لدينا العديد من المؤلفات لرحالة عرب من العصور الوسطى، ذهبوا بعيداً لحبهم للترحال الذى يفرضه الحج إلى مكة على المسلمين البعيدين مثل سكان مملكة غرناطة فى الغرب والصين وتركستان وأفريقيا الشرقية وزنجبار فى الشرق، بينما كانت أوربا مغلقة حول نفسها "بدون أوجه للمقارنة[٨٩]" ارتحل المسلمون وسجلوا. المسعودى المتوفى عام ٩٥٦، كاتب مسلم، زار القرن الأفريقى عام ٩٣٥، وكتب تعليقًا على الرحلة[٩٠]. على الرغم من أنها شهادة معاينة فإن وصفه غامض ومبالغ فيه. لا يتحدث عن منشآت ساحلية من تلك التى يتردد عليها زملاؤه فى الدين[٩١]. اهتم المسعودى بمناجم الذهب واستشهد المؤرخ الفرنسى كاترمير بفقرات مهمة منه.

ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) وهو رحالة وفى نفس الوقت تاجر وأديب، وهو جغرافى من أصل يونانى على الرغم من اعتباره عربيا وألف كتاب " معجم البلدان" فى عدة أجزاء.

أبو الحسن على بن سعيد، المتوفى عام ١٢٨٦، جغرافى عربى من أصل إسبانى، من بين أعماله نجد كتابًا صغيراً بعنوان "الجغرافيا" يتعلق بأفريقيا الشرقية.

أبو الفدا، أمير حماة (١٢٧١ - ١٣٣١)، جغرافى عربى من أصول دمشقية، يستشهد غالبًا بابن سعيد، لدرجة أن ينكروا أنه زار حقا أفريقيا الشرقية.

محمد بن عبد الله بن بطوطة، بربرى من طنجة، ارتحل لمدة أربع وعشرين سنة، من عام ١٣٢٥ حتى عام ١٣٤٩، زار الجزء الأكبر من العالم المعروف، ثم فى عام ١٣٥٦، أملى قصص رحلاته لأديب يدعى ابن جوزى، على الرغم من أنه ذكر من الأعاجيب أشياء فإنه يذكر تفاصيل ثمينة عن الأماكن والبلدان والسكان والتجارة.

- ثلاثة مصادر صينية من العصر نذكرها

- شو يوكوا، مؤلف صينى من القرن الحادى عشر يقص فى كتاب يسمى شو فان شى "رحلة مراسل عربى" جاء من القرن الأفريقى ربما من زنجبار، وزار بلاط الصين.
- فى سين، ضابط شاب محرر بجريدة على متن الأسطول الصينى الذى زار سواحل أفريقيا الشرقية عام (١٤١٧ - ١٤١٩) و(١٤١٢ - ١٤٢٢).
- رئيس البعثة، يسمى تشينغ هو، ترك أيضا قصة الرحلات التى ترجمها يوسف كمال بعنوان "رحلات تشينج هو على الساحل الأفريقى من عام ١٤١٦ حتى ١٤٣٣"[٩٢].

موانئ الساحل الإفريقى

القلزم[٩٣] عند مخرج القناة القديمة بين البحرين، وهى ميناء "مصرية عتيقة أعيدت للاستخدام فى القرن السابع بواسطة العرب وأصبحت المنفذ الرئيسى لمصر المسلمة على البحر الأحمر. وحل الطور، فى جزيرة سيناء محله حتى عام ١٠٥٨ ثم هجر لأسباب مجهولة[٩٤]".

القصير أو ميوس هرموس، تاو عند المصريين[٩٥] وليكونليمن عند اليونان، قفط الحديثة، ومن هنا نصل بسهولة للنيل عن طريق وادى الحمامات[٩٦]، هذه الميناء خليج طبيعي يمرون به نحو فارس، وعانى عندما احتلت فارس مصر، وعلى أنقاضها شيد بطليموس الثانى ميوزوموس (أوميوس – هورموس)، ومنا تبحر السفن الشراعية نحو أفريقيا الشرقية. وتنتهى الرحلة هنا بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يصلوا القلزم قبل هبوب رياح الشمال، وقد حلت ميناء القصير محل ميناء الطور لبعض الوقت. وفى العصر الإسلامى جعل تمرد القبائل ومذابح الحجاج الناس يهجرون هذا الميناء لصالح "عيذاب: Aidhab" ولكنه لم يكن يعمل بسبب ماء البحر الهادر الذى لا يحتمل.

برنيق أسسه بطليموس الثانى فيلا دليفوس عام ٢٧٥ ق. م، فى أسوان على درجة ٢٤ الموازية فى العمق لرأس بيناس، وكانت مخزنًا للتجارة أكثر منه ميناء، وربما كانت مرفأ بسيطًا تحميه الجزيرة، وكانت ترتبط بطريق يوصل إلى قفط فى وقت الرحلة البحرية.

ميوس هورموس وبرنيق كانا منفذى مصر نحو باب المندب والمحيط الهندى، وأفادت الميناءان من الرياح الشمالية الغربية والموسمية التى تهب فى يوليو فتسمح بالخروج من البحر الأحمر قبل نهاية سبتمبر. والتأخير يكون بسبب الرياح وطول المسافة التى تصل مائة وستين عقدة بحرية بين الميناءين، وقد يمتد التأخير إلى يومين أو ثلاثة قبل الوصول إلى برنيق، وبالمقابل فإن التأخر بالنسبة للموانى الواقعة جنوب عدوليس، أكثر طولاً حيث يتراوح بين ستة إلى ثمانية أسابيع، الأمر الذى يجعل التجارة النادرة متأخرة أو على الأقل الجيدة وتكون بالتالى ذات أسعار مرتفعة.

"عيذاب: Aidhab" ومازال تحديد موضع هذه الميناء تحديداً دقيقًا أمرًا صعبًا، وربما كان يقع عند درجة ٢٢ موازية لرأس علبة[٩٧]. وأصبح عيذاب ميناءً رئيسية للتصدير إلى مصر، تلى القلزم والطور والقصير، ونعتقد أن الذى يستخرج من وادى العلاقى ويحمل بسهولة للقصير كما فى السابق، وفى عام ١١٨٢ رأينا رينو دو شاتيون

يدمر الميناء. ونعرف أنه فى عام ١٢٨١ أبحر أمير من اليمن ليعود لبلده[٩٨]. وكانت مدينة قوص على النيل مخزن عيذاب، وقد تسبب تدمير هذا الأخير بسبب المنافسة الدنيئة مع مكة فى إلحاق الضرر بميناء جدة، وقد حدث هذا عام ١٣٢٥ وربما سبب أفول قوص[٩٩].

سواكن إلى الشمال من الخط ١٩ والموازى جنوبًا من بورسودان، ميناء قبيلة البجا التى تتكون من العرب[١٠٠].

إلى الجنوب قليلاً، جزر دحاليك وفرسان وكماران، وقد لعبت دورًا خاصا فى الملاحة والتجارة بالبحر الأحمر وخدمت كمحطة ومأوى، وأدى موقعها الخاص إلى انتهاكات القادة العرب بمصر ومنهم بيبرس وابن قلاوون اللذاين تدخلا ضد السادة المحليين، والثانى فى عام ١٢٨٨ قاد البحارة المصريين حتى اليمن والهند، ونخمن أنهما كانا يهدفان لحمايتهم ضد السلاطين الصغار بالبحر الأحمر وهاجموا جزرهم[١٠١].

وكانت جزر دحاليك من الأماكن المركزية للتعامل مع السود والتجارة بكل أشكالها، والعبيد جاءوا من إقليم الخرطوم من وديان بركة وأنسيبا، والذهب من وادى العلاقى يأتى عن طريق ميناء عيذاب.

مصوع التى سمَّاها العرب فى البداية بادية[١٠٢]، تبدو المدينة التى تسميها خريطة فرامورو عام ١٤٦٠ دى ماس سوا، وهى تحددها بشكل غير دقيق فى مكانها الحقيقى، وتضع ساتوريس وعدوليس القديمتين إلى الجنوب[١٠٣].

تقع عدوليس فى خليج زولا الذى يفتح على قناة مصوع فى إريتريا فى مواجهة أرخبيل جزر دحاليك، وهذه الميناء الذى أسسه السبئيون الذين هاجروا للحبشة فى القرن السادس ق. م، أصبحت له أهمية خاصة؛ نظرًا لموقعها الجغرافى جنوب خط ١٩ الذى يؤكد بطليموس الثانى نحو عام ٢٧٠ ق.م وجوده به. وأصبحت عدوليس كذلك

مهمة للغاية بالنسبة للرومان والفرس الساسانيين فى الملاحة فيما وراء باب المندب. الأكسوميون أنفسهم أصبحوا مهمين بالنسبة لهم لدرجة أن الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٥ -٣٠٥) عقد سلامًا مع أكسوم ومنح سكانها المواطنة الرومانية، عدوليس ميناء محظوظى بالرياح، ومنها تبحر السفن الشراعية إلى القرن ابتداء من نهاية مايو بأسابيع قبل الأخرى، وربما دمرها العرب عام ٦٤٠.

إسيس ميناء ذكره بللينى القديم فى " التاريخ الطبيعى " ووصف الأماكن ينطبق على عصب، وتمر به البهارات القادمة من البلدان الواقعة فيما وارءه وبخاصة البخور.

فيرون، مأوى معروف للمصريين واقع على جزيرة قبل باب المندب.

هنرى دو مونتريد الذى زار بقاياها يضعها بالقرب من جزيرة بادير بلا شك فيما حول رأس روميرا. ويعطينا هذا البحار وصفًا دقيقًا للطريق الأصلى المستخدم لتأمين الإمدادت بالماء من هذا المكان المحروم منه تمامًا: أوانٍ فخارية كبيرة تدفن فى الأرض وتغطى بالصلصال ويشيدون عليها أهرامًا من الحصى والزلط، وتتابع الهواء السخن والرطب من البحر مع نسائم الأرض المنعشة صباحًا تضمن كثافة وتجمع الماء وتجمعه(١٠٤).

ديريه- أى عنق- بوغاز، يذكر كلاوديوس بطليموس أنه ميناء تقع بعد مضيق بالقرب من أفاليتس. المكان الوحيد الطبيعى الممكن لديريه وهو بزبوز واقع شمال شبه جزيرة رأس سيان على الساحل الأفريقى، بعد باب المندب، على الرغم من وصفها بالمدينة بواسطة بطليموس فإنها مجرد مرفأ.

أفاليتس بحسب الرحلة البحرية سوق مهم بدون تنظيم سياحى، ولا يمكن إلا أن يكون زيلع، حيث الأقمشة والحبوب والخمر والصوف، وتبحر السفن منها محملة بالمر وبالبخور والعاج واللؤلؤ والقصدير والسلاحف.

أقامت أفاليتس صلات تجارية مستمرة مع موزا[١٠٥]. وسمحت زيلع فى القرن الثامن والتاسع للأكسوميين الحاطين عمليا بالمسلمين فى الشمال بأن يحلوا محل عدوليس المدمرة. المدينة التى احتفظت بصلاتها مع عجن فتحت أمام الحبشة طريق اليمن والمحيط الهندى.

كان سكان زيلع فى هذا العصر من المسيحيين، مما يشير للتأثير الدائم للأكسوميين[١٠٦]. زيلع، وبسبب موقعها المتميز وصلاتها القديمة مع شوا وعدن وتجارتها المزدهرة واستقلاليتها عاشت حتى أيامنا هذه، وسوف تحتفظ باستقلالها السياسى حتى الاحتلال البريطانى فى نهاية القرن التاسع عشر. ولا شك أن العامل الحاسم فى هذا النجاح كان دورها المهم فى تصدير العبيد السود.

مالاو: الراجح أنها بربرة، "ميناء للمياه العميقة، محمية بالجبل ومزودة بتنظيم معين"، تستورد الأقمشة والحديد وتصدر المرور والبخور والصمغ. تمتلك هذه الميناء العملة الذهبية الفضية، فهى إذن تخطت مرحلة المقايضة[١٠٧].

موندس هى ميت أو هيس، نتردد حتى الآن بلا شك حول كونه وصفا بحريا ومدى دقته "تكون السفن فى مأوى آمن تماماً بسبب الجزيرة القريبة للساحل المتد أمامها" مايت، تمتلك هذه الجزيرة ولكن هيس مثل جبل سان ميشيل بها جزيرة صغيرة اكتشفت عند أقصى الجزر، ولا يفصل بينهما سوى عشر عقد بحرية وعثروا بها على نفس منتجات مالاو.

موسيلون: يقول بيريل: على بعد "ثلاثة أيام من الملاحة من موندس: هى سوق عتيق اشتق اسمه من نوع من البهارات من أشجار القرفة المسماة " موزيليتيك " قدمها ديوسكوريد على أنها الأجمل لكننا لا نجدها إلا فى سيلان. موسيلون عبارة عن وكالة تجارية كبيرة لنقل البضاعة بين الهند ومصر، ولا شك أن البحارة الهنود هم الذين

حملوا هذه البضاعة إلى الميناء سواء أكان ذلك بشكل مباشر أم من خلال وساطة السفن العربية[١٠٨]".

نيلو - بطلميون وطباتيجى مرسيان، بلا شك فى مكان بيرو أو كندالا، هذه الميناء الأخيرة تصدر الصمغ والبخور لعدن.

دفنون الصغيرة: من الصعب تحديد موقعها ولكن على بعد ٣٧ عقدة بحرية من كندالا نجد بندر مرايا غير المسكون تقريباً أثناء موسم الحج، ولكنه أصبح اليوم مكانا مهماً فى سبتمبر لتصدير الصمغ. سبتمبر! تحديداً هو الوقت الذى تصل فيه السفن الشراعية من البحر الأحمر لتعبر رأس جاردافوى. سبتمبر كان يمثل فترة انعقاد السوق الكبير فى بربرة حتى نهاية القرن التاسع عشر.

ودافنون الكبيرة: هى علولا فيما يحتمل، على بعد أحد عشر ميلاً إلى الشرق من رأس فيلان حيث تباع البهارات حتى يومنا هذا.

المدن الساحلية بالساحل الآسيوى

أماكن المأوى على هذا الساحل قليلة العدد؛ لأن الملاحة تتم بملاحين محليين بين سلسلة الصخور المرجانية والساحل[١٠٩].

آسيون جابر، أقدم الموانئ المعروفة التى تربطها صلات بالقرن الأفريقى، وتقع داخل خليج العقبة ومنها أبحرت سفن سليمان نحو أوفير للبحث عن الذهب والخشب والأحجار الكريمة.

لوكيه - كوميه، حيث تقلع القوات الرومانية فى أليوس جاليوس وتقع عند درجة ٢٥,٥، وهى حالياً ميناء صغيرة جداً، نعرف من رحلة بحر إريتريا أن :

" من ميناء ومن قلعة لوكيه – كوميه طريق يؤدى إلى البطرة، عاصمة ماليخوس، هذه الميناء وكالة تجارية لهؤلاء الذين يأتون ببضائعهم على متن سفن صغيرة قادمة من الجزيرة العربية (موزا وعدن)، ولهذا السبب الأخير نجد محصلاً أو جامع ضرائب يحصل بنسبة ٢٥ ٪ وكذلك قائد المائة الذى يقود الفرقة الصغيرة التى توجد هناك"(١١٠).

إجرا أو نجرا ميناء طبقًا لاسترابون تقع على ارتفاع درجتين شمال لوكيه – كوميه ".

صوبيا: وكان يقع مكان ميناء جدة الحالية ولم تأخذ اسمها ومكانتها الحالية إلا بعد أن أصبحت ميناء مكة، ومن صُوبْيا أبحر أصحاب محمد الأوائل الذين لجأوا إلى إثيوبيا(١١١).

موزا فى مواجهة جزر حنيش كانت مقر مملكة صغيرة ومركزًا سياسيًا، حلت محله ميناء موكا الحالية إلى الشمال قليلاً.

أوسيليس التى يسميها العرب قبل الإسلام خور ساحل، تقع بالقرب من باب المندب أسفل جبل الشيخ سعيد. وهى بحيرة داخلية نصلها عن طريق ممر حين يكون البحر فى حالة مد، واهتمت به فرنسا لبعض الوقت فى القرن التاسع عشر.

عدن: أقدم وكالة تجارية على الساحل، الوكالة العربية عند الجغرافيين القدماء ومعروفة من الأوصاف الواردة فى الفصول السابقة، وتمارس هذه الميناء التجارة مع صور فى العصور الإنجيلية:

"هاران "كان (كينيه) وعدن يأتون لتجارتك، سبأ وأشور وجلماد يبيعونك بضائعهم"(١١٢).

ما نعرفه بشكل أقل هو أنه قبل أن نعثر على طريق رأس الرجاء الصالح انشغلوا فى أوربا بإغلاق هذا الميناء التى نعلم جيداً أنها كانت مفتاح التجارة على البحر الأحمر.

فى نهاية القرن الثالث عشر وبينما كانوا يبحثون عن وسيلة للاتصال بمملكة الكاهن يوحنا الأسطورية[١١٣]، جرى اتفاق بين الفرس والبابا ضد الإسلام وشهدت هذه الفترة بداية التنفيذ.

إيجون، ملك منغولى فى فارس أرسل للبابا ولفيليب الجميل خطابات يعرض فيها أن يسير ضد المسلمين بمصر. وشيد أسطولاً بجزر البحرين وهرمز. وانطلقت سفن كبيرة نحو الفرات بمساعدة جنوة وخبراء قدموا من الغرب. كانت الفكرة[١١٤] تدور حول غلق عدن بمساعدة سفن جنوة المشيدة بالخليج الفارسى، وحدث هذا عام ١٣١٧ ونفذ المشروع عام ١٣٢٤ على يد المبشر الفرنسى فى بومباى جوردان كاتال، ثم كان الحصار البرتغالى الذى تم بعد ذلك بقرنين[١١٥].

الساحل الشرقى للقرن الإفريقى

توجد جزيرة سوقطرة أو سوكوتورة بطول القرن الأفريقى، والمعروفة كذلك باسم ديوسكوريد أو لوكاترا، وكانت لدى الإسكندر الأكبر رسومات كبيرة لطريق الهند، وفى عام ٣٢٤ ق.م، وصلها وترك بها فرقة يونانية مسئولة عن جمع النباتات الطبية[١١٦]؛ فقد كان معلمه الفيلسوف اليونانى أرسطو يرى أن نبات الألوة الذى يكثر فى سوقطرة هو أساس كل دواء. كانت سوقطرة دومًا محطة بين الهند وأفريقيا. وهنا السفن الشراعية الهندية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة مخصصة للتجارة تقف بها قبل الدخول للبحر الأحمر. ويمارس السكان صيد الحيتان والقرصنة على نطاق واسع[١١٧].

رأس جاردافوى[118] فيما وراء الساحل الشرقى ينقلب نحو الجنوب ويسمى أحيانا إليفانتاس هيبالوسى بعد اكتشاف نطاق الرياح الموسمية عام ٤٧ بعد الميلاد بواسطة هيبال. يسميها "رحلة الدوران حول أفريقيا" بسبب منحدرها الصخرى الحاد أبو كوب: "بالقرب من أبوكوب تنتهى الوحشية حيث يوجد مرسى مميز بتغير لون أعماقه، معلنًا عن العاصفة والكل من ثم يهرب إلى تابايه".

يجعل "كتاب الرحالة" تابايه "نتوءًا بارزًا بالقرب من أبو كوب" لا يمكن إلا أن يكون خور - هورديا، وهو مأوى مناسب يقع على الواجهة الغربية من جزيرة رأس حافون.

يقول " كتاب الرحالة عن تابايه " وبالدوران حول شيرزوميز سوق أخرى تدعى أوبون " وربما كانت دانتى حافون.

يقول بطليموس: "بعد الشواطئ يبدأ خليج آخر حيث يوجد سوق يدعى إسينا". لا نعرف إلا نقطة واحدة تناسب المسافة المذكورة وهى عدالى (إيتالا سابقًا) حيث بروز الأرض الذى تقع عليه قرية تدعى " الطرف اليونانى ".

سرابيون: لا شك أنه هو ميناء وارشيخ شمال مقديشيو وهو مرسى ممتاز، ورغم ذلك لم يذكره القائد جيان فى القرن التاسع عشر.

نيكون ميناء غامضة وربما كان هو جوندارشيخ، بين مقاديشيو ومركا، وهو عبارة عن قلعة حصينة على جزيرة صغيرة، الأطلال الحالية طبقًا لحالتها من الحفظ لاحقة على بقايا المدينة العتيقة، ولكن المكان يغطى الوكالة التجارية القديمة، ويقع جوندار شيخ بالقرب من قرية صومالى وبالقرب من مزرعة نخيل جميلة[119].

ويرى مؤلف الرحلة البحرية أنها ربما كانت نهاية العالم المعروف، أما بطليموس فيرى العالم يمتد فيما بعد براسون، بلا شك رأس ولجادو وجبل يغطى بالثلوج التى ليست سوى الكليمنجارو.

المنتجات والبضائع

كانت المنتجات مادة التجارة القديمة فى العصور الوسطى فى البحر الأحمر، وذكرناها عبر الفصول السابقة، ولكن ليس من العبث أن نتوقف عندها قليلاً ها هنا.

لا شك أن أهم هذه المنتجات والتى تشغل حيزًا كبيرًا من التجارة هم العبيد الذين يعاملون كأى منتج آخر لا أكثر ولا أقل. العبيد السود مطلوبون كأيد عاملة بشكل رئيسى فى اليمن العربى السعيد، أو كمرتزقة. وهم مطلوبون لحرابهم الدقيقة والطويلة وكذلك لشجاعتهم، أما النساء وبخاصة الإثيوبيات فيذهبن للحريم.

استيراد هذه الأعداد الضخمة من الأجانب أصاب النظام السياسى لهذا البلد بالخلل عام ١٠١٨، وفى القرن التاسع تمرد العبيد فى العراق، والجديد أنهم استولوا على السلطة كما حدث مع المماليك، وهو الصنيع الذى شهده الإيرانيون مع الأتراك وعرفته مصر بدورها فيما بعد[١٢٠].

فيما يخص المنتجات الحقيقية، يمكننا أن نقسمها لعدة أنواع:

١- المعادن الثمينة: يستخرج الذهب من المناجم الأفريقية، وهناك كذلك الأحجار الكريمة ونصف الكريمة فى بلاد النوبة واللؤلؤ المعروف بندرته وجماله، وكل ذلك ضمن هذه المنتجات النادرة و الغالية.

٢- المعادن المألوفة مثل الحديد والقصدير.

٣- عدد من المنتجات العطرية والتوابل المستخدمة فى المطبخ.

والعطور ومنها البخور والمر والريحان والبخور الفاخرة والقرفة والعاج والمسك والقرنفل والزنجبيل وجوز الهند والكثير من الحبوب الغذائية... إلخ.

٤- الخشب الثمين الموجود فى الهند وخاصة خشب الأبنوس وكل الأخشاب الاستوائية.

٥- المنتجات التى تمت صناعتها خصيصًا من أجل التبادلات التجارية مثل الأوانى المختلفة المصنوعة من الحديد أو من النحاس، وكذلك مثل الغازات والأسلحة والأوانى الزجاجية والأنسجة والأساور والقلائد والفيانس والقيشانى.

٦- الحيوانات النادرة : الفيلة والزراف والفهود.

وصل مصر معدن الرصاص والقصدير من بلدان الشمال والخمور والخيول من سوريا والملابس والفازات الفخارية بخاصة للجيش وللرومان. كان القليل هو المعد للتصدير: الفحم والزجاج والبردى، ويتراوح سعر الفحم بين ١٠ دراهم للوحدة التى تساوى ٣٠ لترًا فى عهد فسباسيان إلى ١٠٠ فى عهد دقلديانوس، وقضت عملة البطالمة على عملة الرومان. وكانت المقايضة الأسلوب المتبع للتبادل وعانت التجارة من هذا الأسلوب.

مكة مدينة تقع فى إقليم مجدب تمامًا، تعيش على مرور القوافل التجارية، فقد كانت همزة الوصل بين اليمن وسوريا، من اليمن العربى السعيد تأتى القوافل محملة بالمنتجات التى تجلب من بحر الهند وإثيوبيا والصومال وحتى من الصين البخور والبهارات وبودرة الذهب والحرير[١٢١].

وفى الحجاز القوافل محملة بالتمر من يثرب أو من الطائف. وفى سوريا يتبادلون هذه المنتجات مقابل الحبوب: القمح والأرز والشعير والتين والعنب المجفف، وكذلك كل المنتجات المستوردة من اليونان ومن روما[١٢٢].

كان هذا هو الوضع فى البحر الأحمر عند مطلع القرن السادس عشر، قبل قدوم البرتغاليين الذين التفوا حول أفريقيا من جهة الجنوب، وبدقة أكثر بهدف القضاء على الاحتكار الإسلامى للتجارة مع الشرق.

الهوامش

(١) حقا إن رغبة الأوربيين لقطع طرق التجارة مع الهند المتجهة نحو الخليج الفارسى والبحر الأحمر كانت محتدمة انظر الفصل ٨ "العصر البرتغالى".

(٢) اسمه عمرو بن العاص.

(٣) A.Kammerer,op.cit.,t.I,vol.I,p.9.

(٤) حصن بابليون بمصر شيده طبقا لبعض المؤرخين أسرى بابليون على أيام رمسيس الثانى، وطبقا لمؤرخين أخرين، شيده محاربون أشوريون فى عهد سميراميس، أو جنود فرس فى عصر قمبيز، وسمّاه العرب "قصر الشمع" ربما تذكر بعبادة النار التى كانت تمارس فى العصر الفارسى.

(٥) C.de la Ronciére,op.cit.,G.Hanotaux op.cit.,t.I,p.214.

(٦) فى العربية، كلمة فسطاط تعنى خيمة من جلد الماعز وجلد الجمال، وسوف تتعرض هذه المدينة للحريق ١٢ نوفمبر ١١٦٨ على يد السلطان شاور، عند مقدم الصليبيين بقيادة عمورى، ملك القدس.

(٧) C.de la Roncière,op.cit.,p.216.

(٨) Saàh ed Din.

(٩) C.de la Roncière,op.cit.,p.218.

(١٠) Ibid,p.216.

(١١) نحو ٧٥ مترا على ٣٧ مترا.

(١٢) C.de la Roncière,op.cit.,G.Hanotaux,op.cit.,t.Ipp.210-211.

(١٣) A.Kammerer,op.cit.,pp.293-294.

(١٤) حديث الرسول هو ما يقوله الرسول وليس قرآنا.

(١٥) A.Kammerer,op.cit.,t.I,vol.II,p.220.

(١٦) يتفق كول مع هذا الرأى، انظر: J.Cuoq,op.36، وكذلك كوجلان حاكم عدن، الذى بعدما زارها فى فبراير ١٨٦٠، لاحظ أن المدينة تقع بالقرب من مخر سيول واسع، يمكن أن يكون قد دمرها فجاة فيضان.

(١٧) هذه الجزر غيرت تبعيتها أكثر من مرة نفس نحو عام ٨٧٩، ومرة أخرى عام ٩٣٥ توجد أدلة على تبعيتها لأصحابها الذين انتزعوها من العرب. انظر J.Coq,op.cit.,pp.42à44.

(١٨) احتفظت مع ذلك لصلاتها مع اليمين عن طريق زيلع.

(١٩) J.Couq,op.cit.,p.43.

(٢٠) op.cit.,p.262. A.kammerer

(٢١) J.Cuoq,op.cit.,P.61,note 64.

(٢٢) Ibid.,p.75 et suivantes.

(٢٣) Ibid.,p.62.

(٢٤) Ibid.,citant Maqrizi.

(٢٥) منبع هذه الأسطورة كريستيان، أسقفماينز الذى كتب بنفسه نحو عام ١١٨٠، خطابًا مزورًا يدعى أنه مرسل للإمبراطور مانويل فى بيزنطة على يد ما يسمي بالكاهن يوحنا. وقبل على أنه حقيقة تاريخية، وأشار البرتغال وحفزهم لدرجة أنهم أطلقوا حملات من الساحل الغربى لأفريقيا نحو هذه المملكة المسيحية التى اعتبروها قريبة، انظر الفصل ٨.

(٢٦) بوصفه شماسًا فقد ارتدى الصليب ومن هنا جاء الخلط عند المسلمين الذين لم يعتدوها التفريق بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية.

(٢٧) A.Kammerer,op.cit.,p.275.

(٢٨) Ibid.,p.294.

(٢٩) جد تعنى فى العربية خالاً أو عمًا، وجده تعنى "خاله أو عمه"وجدة تعنى"خالة أو عمة. ولكن طبقًا لنوامس، هذا المصطلح يؤخذ هنا بمعنى "جد" بمعنى"والد الأب أو الأم" طبقًا لعادة عربية وهنا حواء بعد طردها من الجنة ونوح بعد الطوفان لاحظ تجويف فى شكل بشرى حدده بقوس معنى لبنائه أن هذه مقبرة حواء، انظر: Thomas, op. cit., p. 51.

(٣٠) A.Kammerer,op.cit.,t.II,vol.III,p.27.

(٣١) Cf.chap.8,p.203.

(٣٢) A.Kammerer,op.cit.,t.II,pp.313à317.

(٣٣) هذا الخوف لم يكن بلا سبب لأن المشرع حاوله عدة مرات وبخاصة البرتغاليين.

(٣٤) رحلات جلبير دولارنوا عام ١٤٢٢، استشهد بها كامرير، A.Kammerer,op.t.II,p.296.

(٣٥) Ibid.,p.29.

(٣٦) J.p.Roux ,Histoire desTurcs,p.58.

(٣٧) Ibid.,P.68.

(٣٨) Ibid.,p.132.

(٣٩) خليفة تعنى "خليفة" أى ذلك الذى يحل محل النبى على رأس المؤمنين.

(٤٠) J.p.Roux,op.cit.,pp.133-136.

(٤١) Ibid.,p.138.

(٤٢) Ibid.

(٤٣) Ibid.,p.146

(٤٤) Ibid.,p.149.

(٤٥) Ibid.,pp.155-157.

(٤٦) Ibid.,pp.161-162.

(٤٧) Ibid,p.241.

(٤٨) Ibid,p.242.

(٤٩) Ibid,p.270.

(٥٠) A.Kammerer,op.cit.,t.II,P.305.

(٥١) J.PRoux.,op.cit.,p.164.

(٥٢) Ibid.,p.273.

(٥٣) R.Hoursel,pélerins du Moyen ?ge,pp.3-4.

(٥٤) J.p.Roux,op.cit.,p.163.

(٥٥) R.Grousset,Bilan de l'Histoie,p.214.

(٥٦) A.kammerer,op.cit.,t.I,pp.74-75 et C.de la Roncière,op.cit.,p.215.

(٥٧) Ibid.,pp.60 et suivantes.

(٥٨) تقع هذه الميناء فيما حول رأس علبة بلا شك، وربما فى مرسى حلايب مكان تجمع الحجاج قبل الإسلام. ويقال إن الملك داود طرد منه الشياطين المتمردين. ازدهر نشاطه بسبب الحجاج المسلمين ولكنهم خضعوا لمعاملة قاسية لدرجة أنهم لم يتمكنوا من دفع الضرائب الباهظة التى كان يطلبها السكان، Ibid.,pp.60 et suivantes.

(٥٩) A.kammerer,op.cit.,t,I,p.72.

(٦٠) Ibid.,t.I,pp.60-62.

(٦١) استشهاد أورده كامرير A.Kammrer, Op.cit., I.p.62

(٦٢) Ibid.pp.60-62.

(٦٣) ابن لويس السادس الكبير، لويس السابع الصغير المولود عام ١١٢٠، كان ملك فرنسا فى عام ١١٣٧ حتى عام ١١٨٠، مهر زوجته الأولى ألونورد أكيتان التى آلت إلى إنجلترا بعد زواجها من هنرى الثانى بلانتاجنت.

(٦٤) A.Kammerer,op.cit.,p.163

(٦٥) Ibid.,P.270.

(٦٦) عندما كان يسأل عن ماذا يشبه البحر كانت الإجابة التى يسميها عمر أنه مثل "حيوان كبير يطارده ناس بلهاء مثل رود على خشبة" وكان عمر يمنع المسلمين من المغامرة فى البحر A.Kammerer,op.cit.,p.163.

(٦٧) A.Kammerer,op.cit.,p.68.Citation de Rooke.

(٦٨) A.Kammerer,op.cit.,p.17.

(٦٩) A.Kammerer,op.cit.,p.11

(٧٠) كل الاستشهادات من نصوص باروس أوكوتو مأخوذة من عشاريات منشورة عام ١٧٦، نشرتها مكتبة سام كارلوس فى لشبونة وترجمة مبعثرة من البرتغالية القديمة فى هذا الكتاب.

(٧١) de Barros Decada II,liv.VIII,pp.256-259.

(٧٢) لم يتأكد البرتغاليون أن قاع البحر الأحمر فى منتصفه أكثر عمقا مما كانوا يتوقعون.

(٧٣) J.de Barros,op.cit.

(٧٤) أى نحو ٢١٦ كيلو مترا المرجع السابق.

(٧٥) J.de Barros,op.cit.

(٧٦) Ibid.

(٧٧) قيمة أخرى، ٥٩٤٠، البراسفانجا يعطيها بارجيه: J.de Barros,op.cit.

(٧٨) البراهين كثيرة تؤكد مسافة متوسطة تبلغ نحو ١٠٠ ميل بحرى فى ٢٤ ساعة أى نحو ٤ عقد بحرية.

(٧٩) C.f.Grosset-Grange,op.p.19.

(٨٠) Ibid.

(٨١) J.Cuoq,op.cit.,p.51.

(٨٢) Guillaume de Tyr, chronique XIX,P.27.cité par A.Kammerer,op.cit.,p.13.

(٨٣) A.Kammerer,op.cit.,pp.10-17.

(٨٤) الاستاد اليونانى يبلغ ٩٠٠ قدم ولكن حجم هذا الأخير يختلف فى اليونان نفسها يضع بعض المؤلفين الأستاد بين ١٤٧م و١٩٢م وآخرون ٢٤٥م و٢٢٠م. القدم فى النظام القديم يبلغ ٣٠,٨سم مما يعطى مسافة ١٨٤,٨م للاستاد. نعلم أن الاستاد يبلغ أيضا ٢٤٠ خطوة مسافتها ٠,٧٤ أى نحو ١٧٧,٦ لنا يخلص لمسافة متوسطة تبلغ ١٨٠م أى نحو ٠,١٠ ميلاً بحريًا، من جهته يأخذ كامرير بالافتراض الاحتمالى جدا، أن الاستاد المصرى يبلغ نحو ١٥٧,٥٠. نعرف أيضا أن التدقيقات التى يعطيها الجغرافيون والملاحون القدامى لا تعطى أى ضمان على دقتها. العنصر الوحيد المفيد هو مدة الملاحة. نعرف بانتظام اتجاه الرياح بهذا الإقليم، كما يمكننا الحصول على استنتاجات أقل عشوائية.

(٨٥) هذه المؤشرات ظل معمولا بها فى عام ١٥٠٧، حيث قام البرتغاليون بتحديث هذه المعطيات بحسب الضرورة آنذاك.

(٨٦) A.Kammerer,op.cit.,pp.31à56.

(٨٧) محفوظ فى المكتبة الوطنية بعد الحصول عليه من القاهرة على يد القنصل أصلان.

(٨٨) A.Kammerer,op.cit.,p.48.

(٨٩) فى الماضى، فيما يتعلق بالبحرين الأحمر وأفريقيا الشرقية، لم يقم الإدريسى إلا بانتحال عمل بطليموس وجمع معلومات أخرى معروفة.

(٩٠) التعبير الدقيق خبرا هو تعبيرا كامرير.

(٩١) ترجمة كل من مينادر وكور تفيل عام ١٨٦١.

(٩٢) القائد جيان: فى القرن الماضى وضع افتراض أنه إذا كان المسعودى لم يتحدث عنها فذلك مراده أنها كانت معروفة.

(٩٣) نشر عام ١٩٣٩ على شكل مستخرجات فى: Monumenta cartographica Africae et Aegypti IV,fascicule 4.

(٩٤) كليسما نقطة الانطلاق للإبحار نحو الهند، ونتجت من انحسار البحر. وتطور هذا الاسم وسمى البحر الأحمر فى العصور الوسطى القلزم، من اسم هذه المدينة يأتى الماء من قرية تقع جنوبا تسمى سويس التى أصبحت السويس واتصلت بكليسما ابتداء من القرن الثالث عشر.. G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.151

(٩٥) G.Hanotaux,op.cit.,t.I,p.151.

(٩٦) وطبقا لـ هـ. دوما تفرد الاسم المصرى القديم القصير وهو إينوس .Route interdite,op.cit.,p.8

(٩٧) تحققنا من خطأ قديم ظل معمولا به حتى القرن السابع عشر، والذى يجعل مياه النيل تتصل بوادى الحمامات مجراه كان مستقلا وأربعمائة متر فى المستوى تفصل بينهما فلا يتوغلون فى النيل وهم فى طريقهم لهذا الوادى. .Route intedite,op.cit.,p.8

(٩٨) رأس علبة عد كامرير ليس إلا رأس جدار بالخرائط الحالية فى منتصف الطريق بين بريق ورأس راوى، التى ذكرها كامرير والتى يسميها رأس دواير، وهى ليست سوى رأس أبو شجرة التى تقع عند خط عرض ٢٣، عند مدخل خليج بحناب، ومن هنا ينطلق المسار البحرى الأقصر للوصول إلى جدة ومن ثم مكة.

(٩٩) A.Kammerer,op.cit.,pp.72-73,citations de W.Heyd in Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge (1885).

(١٠٠) Ibid.,p.79.

(١٠١) Ibid.,p.323.

(١٠٢) Ibid.,p.25.

(١٠٣) Ibid.,p323.

(١٠٤) Ibid.,p.376.

(١٠٥) H.de Monfried, la Route interdite,op.cit p.13.

(١٠٦) فى قرية ماوشيع الحديثة بالقرب من قرية خوخة جعل موتعريد بطلة ماركوس يقيم بها فى "الطريق الممنوع".

(١٠٧) J.Cuoq,op.cit.,p.55.

(١٠٨) اختفت بربرة كمدينة ولم تعد فى القرن التاسع عشر سوى نقطة تبادل كبيرة خلال موسم الشتاء واستمرت إلى أن ولدت مدينة بربرة من جديد بعد الاحتلال البريطانى.

(١٠٩) يوجد بالقرب من رأس لونى بين جيبس ومايت مكان يسمى موسيرت.

الفصل ٢، ص ٢٣.

(١١٠) Cf.chap.2,p.23.

(١١١) A.Kammerer,op.cit.,citation du périple,p.117.

(١١٢) A.Kammerer,idid.,p.322.

(١١٣) Ezèchil,chap.XXXVII,v.23.

(١١٤) سنرى فى الفصل الثانى ما يعتقده البرتغاليون بعد ذلك بقرنين.

(١١٥) المؤلف شخص يدعى جيوم آدم، وهو ملاح معروف بالمحيط الهندى.

(١١٦) A.kammerer,op.cit.,pp.283-284.

(١١٧) واجهت مصيرا غريبا لأنها أدخلت المسيحية بعد ذلك بعدة قرون على يد التجار اليونانيين النسطوريين لكنها تأثرت بالاتصال بالهندوس الوثنيين وخاصة أصحاب مذهب تناسخ الأرواح والذين يبحر معهم اليونان... فى القرن السادس يقول كوزموس إنهم كانوا يتحدثون اليونانية. ولم يندهش البرتغاليون عند رؤيتهم المسيحية بهذا المكان، ثم اختفت الجماعات النسطورية مع نهاية القرن الثامن عشر.

(١١٨) يحكى ماركو بولو هذه الأحداث مثل كثير آخرين فيما يتعلق بالحبشة عن طريق القصص التى سمعها منهم، وهو نفسه لم يبحر فى البحر الأحمر، Cf.Ramusio, v.II,1613,chap.34,p.57,cite par A.Kammerer,pp.279 et 283.

(١١٩) جاء هذا الاسم ربما من تحريف اسم عربى الفيل.

(١٢٠) لم يتوصلوا فى عام ١٩٦٣، لأى أثر لهذه القرية. المدخل الوحيد كان ساحل قوارب صغيرة، خطر متقلب والذى يحتفظ لنا ببعض المفاجآت.

(١٢١) J.Cuoq,op.cit.pp. 45-46.

(١٢٢) لم ينقل الحرير عن طريق البحر الأحمر ولكن فقط عن طريق حضر موت وقوافل الجزيرة العربية، طريق الحرير يمر بآسيا الوسطى والبحر الكاريبى، وقليلا ما يمر بفارس وسوريا ويتزود به التجار الغربيون فى إستانبول.

(١٢٣) Slimane ben Ibrahim,op.cit.,p.34.

الفصل الثامن

العصر البرتغالى

كان اكتشاف طريق للوصول إلى المحيط الهندى عن طريق جنوب أفريقيا عملاً قام به البرتغاليون أواخر القرن الخامس عشر. وكانت لهذا الاكتشاف عواقب جيو سياسية واقتصادية ضخمة، فقد سمح بتقدم هائل فى معرفتنا بالعالم، كان فاتحة للعصر الاستعمارى الأوربى الذى استمر نحو خمسمائة سنة فى أفريقيا كما فى الشرق[١]. كانت هذه أول رحلة كبيرة لاكتشاف سواحل أفريقيا، إذا ما استثنينا رحلة نياكو البحرية التى لم تكن لها أية نتائج جيو سياسية أو اقتصادية لكنها تبقى الرحلة الأولى للطواف الكامل حول القارة[٢].

نعرف فى أوربا منذ أكثر من قرن أن الأرض كروية بفضل المدرسة الجغرافية التى أنشأها الفرنسيسكانى دنس سكوت، وللوصول إلى الهند كان ثمة اختياران: البحث عن طريق بحرى فى الغرب، أو بالعثور على ممر لجنوب أفريقيا، إذا كان يوجد.

إسبانيا: ومع ظهور كريستوفر كولمبس، تم تبنى الاختيار الأول، فى حين جنح البرتغاليون إلى الاختيار الثانى. اكتشاف العالم الجديد عن طريق رجل من جنوة لم يكن إلا مغامرة رجل بمفرده، أعطوه بعض الوسائل لكى يذهب ليتحقق مما يقول. أما البرتغاليون فقد قاموا بمجهود جماعى خلال أكثر من نصف قرن مستخدمين عشرات

من السفن ومئات من الرجال، والسمت المنهجي للبحث جعلهم الأكثر تفوقًا في عصرهم عمليًا أو بحريًا. واستخدام أحدث التقنيات في المعرفة كما حدث مع ناسا واحتشادها لغزو القمر.

كانت الهند إذن هي الفضاء بالنسبة للبرتغاليين مغامرة مدهشة ترضى الرجال وواعدة للتجار، ومطهرة للإيمان ولكنها تمت تحت قيادة أمير ثرى وذى سلطة هو الطفل دوم هنريك المسمى بهنرى الملاح، الابن الثالث لجواو الأول ملك البرتغال[٣].

مجهودات هاتين الأمتين متكاملة، تتمم إحداهما الأخرى، كما أنها متعاصرة بارتلومو دياز اجتاز راس بون إسبيرانس عام ١٤٨٨، وكريستوفر كولمبس وصل سات سلفادور يوم ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢، شاء القدر أن دياز هو الذى استقبل هذا الأخير عند عودته من الأنتيل يوم ٤ مارس ١٤٩٣ وفى ميناء ستيلو عند مدخل تاج[٤]، وكانت الحملة على يد فرناندو دو ماجلاس المسمى ماجلان، برتغالى يخدم فى مصلحة شارل كانت، عندما وجد عن طريق الغرب ممرا يوصل إلى الهند عام ١٥١٩[٥].

أدت هذه الاكتشافات الأوربية إلى ميلاد عصر جديد من التدخلات الكونية : ففى عام ١٤٨٨تم فتح ميناء الشرق، وفى عام ١٤٩٢ ميناء الغرب وعام ١٥١٩، عرفوا أبعاد الحدث. أوربا لن تعود ثانية كما كانت، فسوف تجد نفسها منجذبة بشدة نحو هذه البلاد الجديدة عبر سلسلة من عمليات الاحتلال التى سوف تغير كثيراً حياة شعوب البلاد الأصلية. الصلات التى ظهرت نشأت على استغلال البشر والاستغلال التجارى بالقوة، وعلى الصعيد الثقافى، سوف تفرض عاداتها وديانتها وبشكل رئيسى فى أمريكا مصحوبًا بعنف يعكس استبعاد الحضارات المكتشفة.

ويضاف لذلك التبادل غير المحسوس للجراثيم المدمرة التى فى المكسيك وصلت بالسكان إلى حد الطاعون فى أوربا فى العصور الوسطى.

فى نهاية العصور الوسطى، نشأت فى أوربا شبكة من التبادلات التجارية داخل أوربا بكثافة، وبجانب المنتجات الأخرى، اهتمت بالأخشاب والفرو الإسكندنافى وعنبر البلطيق وحديد السويد وملح البحر وأسماك بحر الشمال والخمور.

وبشكل موازٍ كانت هناك تبادلات ما بين أوربا وإفريقيا وأوربا وآسيا، وتركزت على الحاصلات الزراعية والأقمشة وعناصر الزخارف وكل المنتجات التى يبحث عنها عشاق الرفاهية والقصور. والبهارات كذلك كانت مشتهاة من الطبقات المرفهة، لكى يتغلبوا على وقاية الطعام.

استوردوا من أفريقيا الذهب والعاج وريش النعام، واستوردوا من الشرق- من فارس، ومن الهند أو من الشرق الأقصى- منتجات نادرة مثل السكر- سكر القصب- والفلفل والعطور والأحجار الكريمة والسجاد والأقمشة الفاخرة، وصدروا كذلك منتجات معدنية وأقمشة وزجاج.

تمثلت فى موانئ أفريقيا الشمالية المحطات التجارية لأفريقيا جنوب خط الاستواء. وكانت الإسكندرية مخزنًا كبيرًا ورئيسيًا للبضائع القادمة من الشرق عن طريق عدن والبحر الأحمر. وفى سوريا محطات أخرى تصل الطرق البحرية بالبحر الأسود أو بالخليج الفارسى والطرق الأرضية بآسيا الوسطى. ابتداء من القرن الحادى عشر، استفادت جمهوريات المدن الإيطالية من سوقها البحرى المتميز، وجعلت العمليات التجارية المتجهة إلى أوربا تخدم مصلحتها، وبلغت فينيسيا القمة فى القرن ١٥.

لا يستطيع الغرب أن يحصل على التوابل، هذه التجارة التى تدر أرباحًا هائلة، ولديه الحاجة الملحة منذ ضاعف الإنتاج والتبادل التجارى فى القرن الثالث عشر، لأن يوجد منافذ جديدة. هذه البداية للاقتصاد الرأسمالى، والشركات الأولى التجارية والبنوك خلقت حاجة للتوسع. ودخل الغرب فى خصومة مع الإيمان الدينى وفرض الصراع ضد الحاجز الإسلامى المعارض للتجارة مع أفريقيا فآسيا. عمليات احتلال

الإسلام فى إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وجزر المتوسط تقدمت مثل الحروب الصليبية بنفس الدافع وهو تحرير الأماكن المقدسة، وكذلك تأمين الطرق المؤدية إلى مواطن المنتجات الأفريقية والآسيوية. نعرف منذ رحلات ماركو بولو من ١٢٦٠ حتى ١٢٦٩ حيث توجد " الهند " التى تعد مصدر هذه المنتجات، أن الطريق الأرضى المؤدى إليها تحت سيطرة العرب. ونافسهم الفينيقيون فى موانئ الشرق، ودانت لهم السيطرة. اثنان من جنوة، الفيفالدى، حاولا عام ١٢٩١ العثور على طريق الهند، وفمر، بمضيق جيرالتر ووصلا الكنارى. وبما أنهما لم يعودا أبداً قيل إنهما: حاولا الدوران حول أفريقيا أو مثل كريستوفر كولمبس قاما بحسابات خاطئة، فسارا عن طريق الغرب بعبور جنوب الأطلنطى[٦].

دوافع البرتغال

كانت "البرتغال أول دولة أوربية تصل لوحدة أراضيها، وكانت أول دولة تحاول تمديد أراضيها فيما وراء البحار بنشاطها[٧]".

لم تكن البرتغال لتقف مكتوفة الأيدى وهى ترى التوسع الأوربى، وبما أنها تتحكم فى أراضيها فهذا يعطيها فرصة واعدة.

موقعها الجغرافى عبارة عن مسرح كبير تتجه نحو الأطلنطى فى بداية القرن الخامس عشر كان ضغط التجار ضخمًا والسلطة السياسية مواتية، واتصالاتهم المتعددة مع أوربا البحرية، جعلت البرتغال تفهم أفضل من الآخرين الموقف الاقتصادى الأوربى.

أما عن الدوافع الرسمية لدوم هنريك الذى يمثل الإدارة السياسية للاكتشاف لدى البرتغال، فلم تتعد التعريف بجوميز إينيز دو أزوريرا وأعطى خمسة أسباب فى كتاب "Chronica Guine"[٨] ثلاثة أسباب اقتصادية وسببين معنويين:

- السبب الأول والرئيسى هو إحياء أطلال فينيسيا واستعادة تجارة التوابل.

- الأمل فى العثور على ميناء أو مدينة مسيحية فى أفريقيا، محاطة بالمسلمين، ونخمن هنا أنه تعامل بشكل جيد لأن هذا لم يخطر للمسلمين على بال، لأن أيا من المسلمين لا يرغب فى أنه التعامل معها وأملوا أن يأتوا بالبضائع البرتغالية.

- الثالث - إذا كان السبب الثانى غير واقعى- يجب نستنتج "أن قوة البحارة المغاربة فى أفريقيا أكبر مما نتوقع عمومًا، ولا يوجد بينهم أى مسيحى أو أى أجنبى آخر".

- السبب الرابع الذى حرك دوم هنريك طبقًا لأزوريرا هو:

"أنهم منذ واحد وثلاثين عامًا حاربوا ضد المغاربة لم يجدوا ملكًا مسيحيًا ولا سنيورًا أجنبيًا فى بلد محب للسيد يسوع المسيح، يساعد فى هذه الحرب، وكان يود أن يعرف ما إذا كان يوجد فى هذه المعارك أمير مسيحى تحيا فيه محبة المسيح والحماس له لكى يأتى ليساعد ضد أعداء الإيمان هؤلاء(٩)".

- السبب الخامس "تولد الرغبة العارمة التى يسميها (دوم هنريك) نشر الدين المقدس للسيد يسوع المسيح، وحمل النفوس كلها إليه وإنقاذها".

الأسباب الثلاثة الأولى اقتصادية، والرابع يعبر عن الأمل فى المساعدة الدينية، والأخير يعبر عن وجهة انظر الكنيسة التى لا تتفق معها البرتغال(١٠).

المقارنة بين أوضاع إسبانيا والبرتغال

لم تكسب إسبانيا الحرب ضد المغاربة إلا بعد الاستيلاء على غرناطة فى يناير ١٤٩٢، وبلا شك فقدت من كريستوفر كولمبس بعد طول سنين، ولكن لماذا استأنف

جواو الثانى ملك البرتغال عام ١٤٨٣م، غزو الأراضى الأفريقية التى آلت إلى البرتغال فى كوتا عام ١٤١٥؟ لماذا رفض البرتغاليون الطريق الغربى ؟ لأنهم اختاروا طريق الشرق وحاولوا جاهدين أن يبعدوا عنه إسبانيا. الواقع أن مجهودات الحرب أعاقت الإسبان أكثر مما أعاقت البرتغاليين، ولو أن الإسبان انطلقوا متأخرين للاكتشاف فإن أمريكا التى غابت عنهم لم تكن مجهولة تماماً بالنسبة لهم.

لم تكن روح الحروب الصليبية غائبة عن الخصمين. وحضُّ الباباوات على إيقاف توسع الترك واضح. ويمكن القول: إن الحملات البرتغالية الأولى فى الأراضى الأفريقية، فى كوتا، تدخل ضمن خطة لاحتلال الأماكن المقدسة، وتمثل مرحلة أولى على الطريق المعروف إلى أراضى ولكنه كلية يقع فى أيدى المسلمين. كل حرب صليبية تطلب الذهب، كثيراً من الذهب. لم يتأخر كريستوفر كولمبس نفسه فى أن يعد ملك إسبانيا به لكى يقود حملته. فهل ما فعله البرتغاليون أدى إلى تحويل السيطرة على التجارة من أيدى المسلمين إلى أيدى المسيحيين؟ حطموا خصمهم لصالحهم وأخذوا الذهب منه. هل يمكن أن نتخيل خطة تهتم بالعبور، حتى على أطلال أقدم مدينة مسيحية وهى فينيسيا ؟

فى أوربا تحركت الأرواح الطيبة والبحارة الطيبون واستثمروا وبدأوا افتراض طريقين للوصول للهند. باولو توسكانللى، رياضى وجغرافى وعالم فلكى فى وقته نصح بطريق المحيط عام ١٤٧٤، نصح بذلك الملك ألفونس الخامس ملك البرتغال، وختم خطابه بإثبات أن الخطأ تترتب عليه نتائج خطيرة:

" الطريق الأقصر للوصول للتوابل[١١]، ومع أن البرتغاليين لم يعملوا بهذا الرأى؛ لأنهم كانوا سائرين على سواحل أفريقيا، فإن كولمبس أفاد منه ليحصل على قرار الإسبان.

بارتلومو برسترللو - لومبارد المولود فى البرتغال، حاكم الجزيرة الصغيرة فى بورتو سانتو فى مادير وتزوجت ابنته كريستوفر كولمبس، وكان يحلم بالسفن القادمة من الغرب لتتوقف على السواحل الرملية[١٢]، الزوج الشاب من جنوة الذى أقام فى الجزيرة عام ١٤٨٠، عانى من انتظار نداء من الغرب مثل والد زوجته وأثبت اعتقاده :

" انتظار الغرب للشرق[١٣]" .

معاهدة الكوباسا فى عام ١٤٧٩، وقعها دوم ألفونسو الخامس بعد معركة طورو ضد إسبانيا، وقد منعت هذه المعاهدة أى مشروع على السواحل الأفريقية، وهكذا انتهت أعمال القرصنة الإسبانية التى يقوم بها دوق مدين (Medina) على سواحل غينيا[١٤].

إحداث زخم للاكتشاف كان بلا شك ممكنًا عند البرتغاليين، فتخيل كيف يكون احتفال جواو الثانى بعد جلوسه على العرش عندما يأتيه نبأ الوصول إلى الهند بواسطة بدرو دو كوفيلا عن طريق البحر الأحمر، واكتشاف ممر للوصول للمحيط الهندى بواسطة بارتلومو ديا ! كيف لنا أن نقارن هذه النتيجة التى توصلوا إليها بعد سبعين عامًا من الجهود، بالاستثمار المتواضع الذى سيقوم به ملوك إسبانيا الكاثوليك بعد ذلك بخمسة أعوام ليمدوا كريستوفر كولومبس بثلاث سفن معدة بشكل سيئ وبعد ثلاثة أشهر من الارتجال والتسرع ؟

التمهيد للاستكشاف

الطفل دوم هنريك - "دوم أمريك" كما تشير إليه مخطوطات العصر- كان الابن الثالث لجواو الأول - مولود فى بورتو أو فى فيللا فيكوزا، يوم ٤ مارس ١٣٩٤، اهتم بدراسة الرياضيات والجغرافية، وكان معجبًا ببطليموس، ولم يهمل أيا من المؤرخين وعلماء الكون القدامى.

استخدم فى مشاريعه أحد أشقائه، دوم بدرو الذى كان يكبره بعامين من ١٤٢٤ حتى ١٤٢٨، الدوق القادم لكوامبر قام بزيارة أوروبا والشرق الأوسط(١٥). فى فينيسيا أعطوه مثالاً من رحلات ماركو بولو الذى استلهم طويلاً تأملات دوم هنريك واصطحب معه خارطتين، نزعم أنه كان محدداً بهما رأس الرجاء الصالح(١٦).

كان رجلاً ذا شخصية قوية ومنظما ومنهجيا ومثابرا، وكان اقتصاديًا وفى نفس الوقت كان مبشراً. توازن مدهش عند هذا الرجل، يبحث عن مصلحته، كريم فى قيادة البشر، كان قادراً على التعريف بالأجانب ويسمع لما يدور حوله.

دوم هنريك، الثرى المسئول عن أموال المسيح، كان وراء الاكتشافات البرتغالية، تحرك وحده بمنأى عن سلطة ضعيفة. اختار طريق الهند بالدوران حول أفريقيا، وشيد ابتداء من عام ١٤١٥ أسطولاً بحريًا تمركز فى لاجوس(١٧) فى الجرف، وجمع بحارة وقباطنة إيطاليين وبرتغاليين.

قاد مغامرة سوف تستمر إلى ما بعد رحيله، أطلق سفنه التى وصلت سواحل أفريقيا لتكتشف على غير ما كان متوقعًا أماكن كثيرة مثل مادير عام ١٤١٩، والآكور عام ١٤٢٧ و ١٤٥٠، وجزر الرأس الأخضر عام ١٤٥٧، وله يرجع الفضل فى اكتشاف جزر الكنارى المعروفة منذ أزمنة قديمة، ولكنها نسيت فى العصور الوسطى ثم اكتشفت ثانية عام ١٣٤٤، ثم اشتراها من جون بيتانكور، وهو نبيل من نبلاء نورماندى امتلكها منذ عام ١٤١٧(١٨).

وفى عام ١٤٣١ أعطى دوم هنريك للحملات البرتغالية دفعة قوية؛ فأسس المدرسة البحرية فى ساجرس(١٩)، وتقع بالقرب من رأس سان فانسان، الرأس المقدس لدى القدماء بالطرف الغربى من أوربا، على بعد عدة كيلو مترات من هذا المنحدر الصخرى ذى البروز على المحيط وبخليج ساجرس مكان سهل لرسو السفن وبه الأراضى النادرة الخصبة بالإقليم. وقد شيد دوم هنريك بها قصرا معروفا باسم فيللا دو أفانتى، وهنا

تكَوَّن ونضج وتعلم ونظمت كل الرحلات رحلات الاستكشاف البرتغالية، حتى موت هنريك عام ١٤٦٠[٢٠].

جمع حوله علماء الرياضيات والجغرافيين من أمثال جاكوم مالوركا[٢١] عام ١٤٣٨ وجابرييل دو فالسكا، فقد أعد هذا الأخير فى مايوركا عام ١٤٣٩ خريطة دقيقة لكل النقاط الواقعة على الساحل الأفريقى والتى اكتشفها البرتغاليون. فى القرن التاسع عشر، فحص الأب بتنللى والأب لامبيلاس هذه الخريطة[٢٢]. كل الكتابات المعروفة قديمة أو معاصرة رجعت إليها. جغرافى وعالم خرائط ورجل رياضيات بلغ الذروة فى كل هذه العلوم. سمح لنفسه على سبيل المثال بأن يشير على فالسكا بأن يعدل حساباته، معتبرا الدرجات المتوازية متساوية مع درجات خط الاستواء. هذا المقياس الجرىء، على الرغم من أنه تابع بين شكل الأرض أبعادها فإنه قلل من الخطط المستقيمة وسهل عمل الخرائط[٢٣]. خلال اثنى عشر عاما- من ١٤٢١ حتى ١٤٣٣- لم يشعر دوم هنريك ولا بحارته أنهم بإمكانهم تخطى رأس بوجادور[٢٤].

على الرغم من أنه يلقب بـ " هنرى الملاح " فإنه لم يشترك فى أى من الرحلات الاستكشافية، ولكنه يستمع لقصص القباطنة. وكثيرا ما خالفوا أوامره بالذهاب ليروا ماذا على ساحل غرناطة وماذا فى بحار الشرق. واكتشفت مادير والآكور واعتبرت غنائم استردت من غير المؤمنين بالبحر المتوسط : ولكن لا تقدم واقعى على الساحل الأفريقى..

كان دوم هنريك دوما يستقبل القباطنة بصبر، وكان يستمع إليهم ويكافئهم، ومنذ عام ١٤٣٣، سلح مركبا وعهد بقيادته إلى معلمه الفروسية جيل إينيز، وانتظر منه أن يفعل من أجله ما يقوم به الآخرون، فلم يتخط الكنارى، وفى العام الثانى، عهد دوم هنريك بنفس المركب، وقد أعاد تسليحها إلى نفس الرجل وأرسله بعد أن وجه إليه هذا الحديث الصارم :

" لن تجد خطرا مهما كان مادام الأمل فى المكافأة أكبر، وفى الحقيقة أندهش من سيطرة الخيال عليك، لأنك تخشى شيئا غير مؤكد، ولن أسبب لك ألما كبيرا وربما سوف تتعلل لى بآراء أربعة من البحارة، فهؤلاء قادمون من بحار فلاندر ومن موانئ أخرى حيث يبحرون عادة ولا يعرفون استخدام المجال المغناطيسى ولا استخدام الخريطة، اذهب واطرح هذه الآراء جانبا واستكمل رحلتك؛ لأنك ببركة الله سوف تجنى الشرف والفوائد "(٢٥).

دوم هنريك كان لديه الأسلوب لكنه لم يستخدم إلا الهدوء، فى أحاديثه مثل هذا الذى سقناه منذ قليل، أثبت فيها حسما وحزما لدرجة أن جيل إينيز فهم أنه لا يجب أن يرجع دون إحراز نجاح ومضاعفة استكشافاته.

نفهم بشكل غير كامل مخاوف تلك الأوقات آنذاك، فالرأى الشائع حينها ينكر وجود أراض وبلاد فيما وراء رأس بوجادور، وحتى البحارة العرب لم يتحدثوا عن ذلك(٢٦).

يبدو أنهم فى البرتغال تجاهلوا تاريخ هؤلاء المسلمين فى لشبونة الذى دفع للأمام ملاحتهم حتى القرن الحادى عشر حتى وصلت إلى ما وراء الكنارى، ومع ذلك، قاد تجاراً من دبب حملاتهم الاستكشافية حتى مدخل ريو دوس سستوس فيما وراء رأس بوجادور(٢٧). يتعلق الأمر ببعض مخاوف العصور الوسطى المسجلة فى " أساطير البحر المظلمة ". وطبقا لهذه القصة الأسطورية فإن البحارة الذين يذهبون إلى هذه الأماكن البعيدة يعودون كهؤلاء ولا يمكن التعرف عليهم(٢٨).

كان المر من رأس بوجادور الذى سوف تنطلق منه الاستكشافات البرتغالية سهلا للغاية، ولكنه يسبب إحباطا كبيرا. لا نجد بشرا على بعد خمسين فرسخا، فلنعبر للاستكشافات الداخلية التى أطلقها دوم هنريك عبر أفريقيا للعثور على مملكة الكاهن يوحنا، ولنعد للتقدم فى اتجاه أفريقيا الشرقية.

كان التقدم بطيئا جدا لدرجة أن المرور من بوجادور عام ١٤٣٤ إلى الرجاء الصالح عام ١٤٨٧، استغرق نصف قرن، والسفن التى تحمل الصليب المعقوف بأمر المسيح نشطت فى عام ١٤٣٤، وسار بالدى نديم دوم هنريك فى طريق جيل إينيز، ولكن فى عام ١٤٣٦ أوقفت الحرب مجهودات البرتغال.

أطق دوم هنريك عام ١٤٤١ حملة وصلت رأس برانكو لكنها لم تصل خط عرض ٢٠ شمالا، وفى عام ١٤٤٤ اكتشف دينيس دياز الرأس الأخضر، وفى العام التالى تابع ألفارو فرنانديز وواصل السير جنوبا. وفى عام ١٤٤٥ يذكر لنا باروس[٢٩]، أن نونو ترستاو قد ذبح وفريقه "عند مصب جابا" الذى طبقا لرونسيير هو المنفذ والممر الموصل لنهر جامبى.

صدرت ثلاثة قرارات بابوية بامتلاك الأراضى المكتشفة، والتى سوف تنكشف لمصلحة طفل البرتغال دوم هنريك. إذا ما كان الأول غامضا، فإن قرار نيقولا الخامس عام ١٤٥٤، وكاليكست الثالث عام ١٤٥٦، أعطوه الأراضى الممتدة من رأس بوجادور ورأس نوت حتى غينيا. ويبدو أنه، على الرغم من اختلاف الصيغ، فإن الحدود كانت معروفة بدقة " حتى حدود الهند لتخليد اسم المسيح ".

من هنا جاء الخلاف حول الأهداف الحقيقية لدوم هنريك، هل اهتم بالهند أو اهتم فقط بأفريقيا، حيث استطاع أن يجد جنوب مصر المملكة المسيحية بالحبشة ؟ البابا، هل يفكر فى المسيحيين اليعقوبيين بالحبشة أم بالنسطوريين فى آسيا الجنوبية؟ دوافع دوم هنريك كما عرضها أزوريرا تدل على أن "مملكة الكاهن يوحنا" الذى بالغ فى أهميتها لم يكن لها فى مشاريعه سوى دور الضاغط.

وتزايدت المعارف تباعا، فبموت دوم هنريك ١٤٦٠ كان البرتغاليون على ساحل أفريقى عند خط عرض ٤ شمالا حيث ينحرف الساحل شرقا. وهكذا لم تكن حياة دوم هنريك كلها كافية لاكتشاف الممر الموصل للمحيط الهندى، وكان على جواو الثانى أن

يقود هذا المشروع. وهل من المشروع أن نتساءل عن خمس وأربعين سنة من نشاط هنرى البحار والتى لم تكن كافية للوصول إليه على الرغم من الدعم السياسى الذى سانده؟

لاشك أنه كانت ينقصه الصرامة مع رجاله؛ لأن نصف قرن كانت تكفى وزيادة للدوران حول أفريقيا.

لم يحصوا منذ بداية الاستكشافات التى أطلقها دوم هنريك حتى عام ١٤٤٦ سوى إحدى وأربعين سفينة استخدمت في البحث عن طريق الهند. وعموما ربما كانت أقل مما هو مطلوب، سفينة كل عام تقريبًا. ومنذ القرن القرن السابع عشر، كانت للأساطيل الصغيرة أهمية كبيرة فى هذه البقاع.

وبعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك عام ١٤٥٣، كان جواو الثانى الذى لقب بـ "سيد غينيا"[٣٠]، العاهل الوحيد الذى استجاب لنداء الحروب الصليبية الذى وجهته البابوية؛ حيث تابع انتكاس الأحداث بالمغرب وبطء للتقدم على الساحل الأفريقى. بدأوا واستقروا واستقبلوا الزعماء الأفارقة واقتادوا العبيد ليبيعوهم فى سوق لاجوس، لكنهم لم يقوموا باستكشاف، وكانت زيارة سفير ملك بنين، البلد الذى اكتشفه دييجو كام وجواو أفونسو دافيرو، هى التى أقنعت الملك جواو الثانى بأن يواصل الاستكشافات قبل أى شيء آخر. وعلم أنه يوجد إلى الشرق من مملكة بنين ملك أقوى من باقى ملوك الإقليم يدعى أوجانيه"[٣١].

تذرعوا بأن هذا الملك الذى سنطلب منه تقلد الأمور سيضع للسفراء " النحاس ليحملوه على صدورهم كشيء دينى مقدس، على طريقة الصلبان التى يحملها قادة القديس يوحنا"[٣٢]، عندما تحدثوا عن الهند فقد كانت فى هذا الوقت دوما مشكلة هذا الكاهن يوحنا الذى نقول عنه إنه مسيحى، نأمل أن يسهل الوصول إلى الهند. لم يكن هناك شك لدى الملك أنه يتعلق بنفس العاهل، لكن يجب أن نهتم أولا بمزاعم إيزابيلا

الكاثولوكية التى طالبت فى أغسطس ١٤٧٥، بحق التجارة عبر سواحل أفريقيا، واضطرت أساطيل الأندلس البرتغاليين ما بين عام ١٤٧٦ وعام ١٤٧٨، للضغط عليهم واستبقائهم.

وقد أدت معاهدة ٤ سبتمبر ١٤٧٩ إلى تفاهم منح قرار بابوى بتاريخ ٢١ يونيه ١٤٨١، السيادة للبرتغاليين على المنطقة الواقعة جنوب الكنارى، لتستأنف البرتغال الحملات الاستكشافية. وصل البرتغاليون عام ١٤٨٥، إلى المنفذ على نهر زائير ولكنهم ظنوا خطأ أنهم داروا حول أفريقيا، وكتبوا أنهم وصلوا :

" بالقرب من لسان براسو حيث يبدأ الخليج العربى " وهنا الاسم الذى يعطيه بطليموس للمحيط الهندى، وبالنسبة للسان أو بروز براسو[٣٣]، فهو رأس تخيلية، لم توجد فى الواقع[٣٤].

البعثة البرتغالية فى الحبشة

فى عام ١٤٨٧، اتخذ الملك جواو الثانى قرارين مصيرين، فقد قرر البحث عن مملكة الكاهن يوحنا بسلوك طريقين مختلفين : أرضى، عن طريق مصر، وبحرى بالدوران حول أفريقيا؛ فقد " كان يريد أن يرى نهائيات كل هذه الأشياء التى تبعث على الأمل"[٣٥]، انطلق الأول من سانتاريرم ٧ مايو ١٤٨٧، والثانى من لشبونة فى أغسطس من نفس العام.

وهكذا كان الأمير الأوجانى مثل الكاهن يوحنا الذى لم يكن سوى وهم، لعب فى الاستكشافات البرتغالية نفس الدور الذى لعبه سيبانجو اليابانى وكينساى الصينى؛ لأن كريستوفر كولمبس بحث عبثا فى جزر أمريكا الوسطى. ولكن هذا القرن كان فى حاجة للحلم، ومنذ ذلك التاريخ لا حاجة للكلب إذا ما استيقظ الإنسان.

ولأن الأمر يتعلق ببعثة دينية، فقد اختار جواو الثانى أولا كاهنا، فرأى أنطونيو دو ليسبوا وألحق به شخصًا يدعى بدرو دومونتا رويا، وكانت مهتمها اكتشاف مملكة الكاهن يوحنا، ولكن لم يكن أى منهما يتحدث العربية وكان هذا فشلا. اختفى الثانى وزار شقيق أنطونيو القدس وحوّل رحلة الاستكشاف لرحلة حج للأماكن المقدسة.

وعندما علم الملك بهذا الإخفاق، قام بمحاولة ثانية واختار مبشريه بعناية، حيث كانوا يتقنون الجغرافيا والأبحاث العربية التى كانت لا تزال معروفة فى هذا العصر بالبرتغال، وفى هذه البعثة اختار الملك نبيلاً من قصره- الفارس بدرو دو كوفيلام- هذه الصفحة القديمة للملوك ألفونسو ويوحنا البرتغالى أفضت إلى تجريد حملة إلى المغرب. وقد ضمت فضلاً عمن سبق ذكرهم الفارس أفونسو دو بايفا، من أصول من كاستلو برانكو، والاثنان يتحدثان العربية بشكل جيد والأول قد سافر بالفعل.

وأعد الاثنان نفسيْهما بشكل جيد وتعلما كل شىء عن الجغرافيا والأديان والبلاد التى سوف يزورونها ويقابلونها واستخدم جواو الثانى الجغرافى كالساديلا. وكانت تعليمات الملك كما يلى:

" سواء عن طريق القدس أو عن طريق القاهرة، سوف تمرون بأرض الكاهن يوحنا، الذى أبعث إليه برسائلى، لأشارك هذا العاهل كل ما يكتشف على امتداد ساحل غينيا وأستعلم عما إذا كانت بعض هذه البلدان مجاورة لتلك، حتى نستطيع أن نتواصل معا، ومستعد للمساعدة، والإيمان بالمسيح يزداد، وأعلم برغبته الشديدة فى التعرف والتواصل معه فى إطار صداقة حقة"(٣٦).

ورحلوا محملين بخطابات الذمة والدين وأربعمائة أوقية من الذهب (عملة البندقية قديما) من سانتاريم فى ٧ مايو ١٤٨٧، فى حضور دوم مانويل دوق بجه. ووصلوا

نابلس وأبحروا فى اتجاه رودس، حيث كان هناك فارسان برتغاليان من قوات مالطة سهلا لهم مرورهم إلى الإسكندرية، ولسوء الحظ أصيبوا بالحمى ولم يصلوا القاهرة إلا بعد عدة أسابيع، واختلفت الروايات حول ما إذا كانوا قد افترقوا فى مصر أم استمروا حتى عدن(٣٧)، على متن قارب عربى بصحبة مجموعة من البحارة المغاربة من تلمسان وفاس وصولا إلى هذه المدينة. عندما علم أفونسوا دو بايفا أنه أدار ظهره لملكة الكاهن يوحنا، سوف يرجع ويتجه إلى إثيوبيا فقد كان محملا برسائل من جواو الثانى ولم يصل أبدا إثيوبيا وعاد ليموت فى القاهرة.

ولكن لم يفسر أحد لنا لماذا لم يصحبه بدرو دو كوفيلا، تعليمات جواو الثانى لم تتحدث عن رحلة الهند، يجب أن نستخلص وجود تعليمات سرية، أو أنه عهد إليه بهذه المهمة. وحاول أن يعثر هناك على الكاهن يوحنا. ومن عدن وصل الهند عن طريق البحر وزار كالكتا وجوا.

واستعلم تماما عن مكان التلاقى فى الهند، عمن يأتى من الخارج ومن المدن الرئيسية، والكل يضع اسمه على الخريطة البحرية وكانت مكتوبة بشكل ردىء، وبعد أن مر بهذه المدن ذهب إلى صوفالا(٣٨).

هكذا، بدرو دو كوفيلا فى صوفالا! مدينة الذهب، مدينة أوفير على أيام سليمان، يصلها أوربى لأول مرة.

" فى صوفالا، استأجر الجزيرة الكبيرة جزيرة سانا لوران (مدغشقر) التى يسميها البحارة جزيرة القمر، ورأى سكان صوفالا السود مثل سكان غينيا، وفكر فى أنهم من نفس الساحل، وعن طريق البحر نتمكن من الوصول إلى الهند"(٣٩).

من صوفالا وصل البرتغالى عدن ومنها أبحر للقاهرة التى لم يصلها إلا فى بداية عام ١٤٩١ وهناك علم بموت بايفا متأثرا بالمرض دون أن يتم مهمته، وأخبر بأن رجلين يبحثان عنه !

" لأنه كان فى طريق عودته لهذه المملكة " البرتغال " حاملا معه قصة كل شيء تعلمه، فقد فهم أن اثنين من اليهود الإسبان يتغقبانه وكان له معهما لقاء سرى للغاية، أحدهما يدعى رابى أبراهام من بجه، والآخر يسمى يوسف ويمارس مهنة صانع أحذية فى لاميجو"(٤٠).

اكتشف كوفيلا أن رابى أبراهام حصل على مقابلة مع جواو الثانى بعد رحيل البرتغاليين، وأخبر الملك بالرحلة التى قام بها " فى مدينة بابليون التى نطلق عليها الآن بغداد والتى تقع على الفرات ".

وحدثه عن التجارة التى يمكن القيام بها فى جزيرة هرموز، حيث أغنى مدن الإقليم " بها تتجمع كل البهارات وكل أغنياء الهند، عن طريق القوافل تنقل لمدن حلب ودمشق"(٤١).

كلف الملك جواو الثانى رابى أبراهام وصاحبه بالعثور على بدرو دو كافيلا وإبلاغه بهذه التعليمات الجديدة. يجب أن يصلا معا جزيرة هرموز وأمر الملك بضرورة الاتصال بالكاهن يوحنا وإبلاغه بكل المعلومات التى تم جمعها، ونفذ الفارس:

"مجهداً من رحلة بحرية طويلة وطريق شاق رأى به الكثير وتعلم منه الكثير من الأشياء، أخبر يوسف بقائمة تشتمل على ما جمعه، بالإضافة إلى ذلك كتب إلى الملك"(٤٢).

وهكذا أصبح ملك البرتغال على علم بما قام به مبعوثاه عن طريق وساطة صانع أحذية من لاميجو. سرُّ هيبال وزيارة صوفالا وزيارة جوا أصبحت عنده أهم من الاتصال بنيجوس الحبشة ".

بدرو دو كوفيلا ورايس أبراهام أبحرا لعدن وهرموز. وبعدما رأيا المدينة أعطى البرتغالى الأمر لإبراهام بالعودة لأوروبا عن طريق قوافل حلب والعودة إليه عن طريق البحر الأحمر. ووصل الحبشة عن طريق ميناء زيلع، بعد أن نجا بأعجوبة عند عبوره

بلاد جالا، خلف تاجورة ووصل هرر وعبر هواش وقابل النيجوس إسكندر، واستقبل بحفاوة وأبدى سعادة لأن يكون فى بلاطه سفير مبعوث من لدن أمير مسيحى(٤٣). لكن الحظ الذى لعب دوره مع بعثة كوفر تخلى عنه فجأة بعد موت الإسكندر وصعود النيجوس الجديد، وهو أخوه، لم تعد هناك ثقة فيه ومنعه من مغادرة المملكة ولكن أعطاه الأراضى وتزوج وأصبح عنده أولاد ولكنه لن يرى بلده ثانية(٤٤). وتمتع بمكانة مرموقة وعادت الثقة فيه فى البلاط وبخاصة خلال فترة اشتراك الملكة إلينى (هلين) فى الحكم عام ١٥٠٨، وبإلحاح منه كتبت الملكة خطابا للملك مانويل ملك البرتغال عام ١٥٠٩، لكى تدعوه لكى يلحق قواته بقواتها؛ حتى "يهزموا المسلمين فى البحر الأحمر ويحرروا المدفن المقدس ويخضعوا غير المؤمنين"(٤٥).

اكتشاف الممر والمنفذ

لقد اختاروا بارتلومو دياز إيتيل من القصر الملكى لكى يقود الحملة البحرية التى تقصد العثور فى نهاية المطاف على الممر الموصل للمحيط الهندى، ويهدئ من قلق جواو الثانى. وأحرز العديد من الاكتشافات بالفعل على السواحل الأفريقية. وعهدوا إليه بسفينتين على متنها خمسون برميلا، ووضع علامته على واحدة، وتسلم جواو أنفانت قيادة الثانية سانتا باليو، وقاد أخوه دييجو دياز سفينة ثالثة أصغر تحمل الإمدادات والمؤن. كل هؤلاء الرجال كما يقول لنا باروس " خبراء مهرة فى حرفتهم ".

وصل الأسطول تاج يوم ٢ أغسطس ١٤٨٦(٤٦). وتتبع بارتلومو دياز الساحل الأفريقى حتى أنجرا دوسالتو، حيث أخذ دييجو كاو اثنين من السود وحملهما رسائل لقادتهما. أربع زنجيات يلقبن بـ" رسل سلام " وجدت فى أنجرا دوز إلهوس، هؤلاء السيدات الوطنيات ذات الملابس الجيدة والإكسسوار الغنى قد أمضين حياتهن فى البرتغال، ربما عبر هؤلاء عن رغبة البرتغال فى السلام. وربما أملوا جذب انتباه

الكاهن يوحنا. كالكاديلا الجغرافى لدى الملك أصر على القول بأن المدن الساحرة التى يحكمها الملك الغامض ربما كانت قريبة من هنا على هذه السواحل الخالية(٤٧). ترك دياز سفينة أخيه على الساحل مع جزء من الإمدادات.

وتابع دياز الطريق جنوبا وواجه عاصفة شديدة تعوق البحارة ولكنه واصل السير(٤٨). وما إن تخلص من الرياح الشديدة حتى أقلع فى اتجاه جنوب - الغربى مبتعدا عن السواحل. وأبحر هكذا عدة أيام حتى واجه رياح الغرب المواتية التى حملته إلى الشرق؛ حيث وصل الساحل الإفريقى الذى كان لا يزال ممتدا فى هذا الاتجاه. ولكن بعد ذلك بعدة أيام لم يعد يستطيع رؤية الأرض. هنا أدرك دياز فانظر شمالاً حيث وجد الساحل وراء الحد الجنوبى لمنفذ نهر جارتيز ريفر الذى يسمونه ريو دوز فاكاس. ومر البرتغاليون بالرأس دون أن يروها(٤٩). يتيقن بارتلومو دياز من أن اتجاه الأرض قد تغير، وأن عليه أن يترك بعض الألسنة الأرضية خلفه، ولكن البحارة رفضوا التقدم أكثر من ذلك خوفا من المجهول ونصحوه على الأرض وقرر العودة للبرتغال(٥٠). متبعا أمر الملك، أشار عليه ضباطه بالحل. ثم حصل على ثلاثة أيام إضافية للملاحة، واكتشف نهر السمك العظيم الذى جعلوه تحية لجواو إتسانت، كابتن سانتا بانتاليو، وعبر مرحلة كبيرة حتى جزيرة كروز حيث وضع حجراً " علامة حجرية لجيوس المملكة " تشهد بالسيطرة والاحتلال، ويذكر لتابادوس مشاعر دياز:

"عندما حانت لحظة فراق هذا المكان الذى كان فيه كانت مشاعر مؤلمة تلك التى اعترته " عندما ترك ابنه فى عزلته هذه الأبدية، وخاصة عندما كان يقدم نفسه، وكم عانى ومن معه من رجال فى أقاليم بعيدة تلك التى كان عليهم أن يصلوها، فقط لوضع هذا الشاهد الحجرى؛ لأن الإله لم يمنحهم المبدأ"(٥١).

وعند عودتهم شاهدوا الرأس واللسان الذى يدل على آخر أفريقيا، وعلموا أن بطليموس قد أخطأ وأن المحيط الهندى والأطلنطى متصلان أحدهما بالآخر، استبعدوا لتوهم ما اكتشفوه، وقالوا: إنه الممر الموصل إلى الهند، هذا اللسان أو الرأس المختفى

خلال مئات السنين "، نتذكر منه آلاما حدثت، وخلد البرتغاليون اسمه بلسان أو رأس الآلام ".

لم يجد دياز إلا اثنين من الأحياء على سفينة أخيه وأحرقهما، وأخذ كثيراً من الذهب من السودان إلى سان جورج دولا مينا، وعاد إلى البرتغال فى ديسمبر عام ١٤٨٧، بعد ستة عشر شهرا وسبعة عشر يوما من الغياب، وطبقا لروايته فإن الملك أولى اهتماما باكتشافه وقرر تغيير الاسم إلى لسان الرجاء الصالح ليذكر طبقا لباروس : " أن هذا الاسم أعطاه ملك مثل ملك إسبانيا حتى تفتخر لرؤيته يولد وسوف يبقى من أجل مجد ذلك الذى قام بهذا الاكتشاف ما دامت ذاكرة البشر باقية"(٥٢).

عودة كولمبس وشكوك جواو الثانى

أجبر المناخ السيئ كولمبس على أن يترك "نينا: Nina" فى تاج، وحدث أن كان بارتلومو دياز قائد السفينة الثانية الحربية أول من اتصل مع جنوة يوم ٤ مارس ١٤٩٣ عند عودته لأوربا.

يوم ٦ مارس أراد جواو الثانى رؤية كولمبس الذى مثل بين يديه بناء على دعوته " بقدر ما كان الملك سعيدا بقدر ما كان حزينا لوجوده "(٥٣). وكان هناك مقابل عليه أن يتقاضاه؛ فقد أعطى جواو الثانى الأمر ليذكر باحتمال سيادة برتغالية على الأراضى المكتشفة طبقا لمعاهدة الكوياسا، وأجاب كولمبس بنبرة جافة: ليس لديه علم بهذه المعاهدة"(٥٤). أمام بلاط لشبونة المشهور بقسوته ودمويته فى هذا الدير فى فالباريزو فى قلب الغابات برهن على كثير من المغامرة وعدم التروى. يحكم رى دو لابينا مؤرخ البلاط على ما نراه حسنًا أومهينًا(٥٥). طالب نبلاء برأس هذا الكلب الثرثار ولكن الملك رفض(٥٦).

"بدلا من كل هذا، أمـر بأن يلبس الرجـال الذين اصطحـبـهم كـولمبس من بلاد الاكتشافات الجديدة اللون القرمزى".

هؤلاء الرجال وبشكل أدق كانوا مصدر قلق الملك.

"العاهل يصبح حزينا جدا عندما يرى أناسا من البلاد المكتشفة ليسوا ذوى بشرة سوداء وليسـوا ذوى شعر مجعد ولا الوجوه أشباه وجوه الناس فى غينيا، والعكس يشبـه لون شعرهم أولئك الذين نصطحبهم من الهند، وهم الناس الذين عمل معهم كثيرا"(٥٧).

كان الخطر حقيقيا على البرتغال، فاستكشاف الساحل الشرقى لإفريقيا لا يزال قيد التنفيذ ويجب التحرك بسرعة. الجهل فى لشبونة بوجود قارة أمريكية والخشية من أن كولمبس يصل الهند؟ أو البرازيل قد تم اكتشافها سرا، هل يرغبون فى تأكيد ملكيتها؟ ورفع الأمر سريعا أمام المحكمة البابوية لألكسندر السادس، بابا إسبانيا! لم يعط سوى أربعة قرارات فى عامين. عن طريق معاهدة توردیسیلاس الموقعة يوم ٧ يونيه عام ١٤٩٤، يحق للبرتغال التوغل فيما وراء خط طول ٨(٥٨). الخط الذى يصل مناطق النفوذ على امتداد مائة فرسخ إلى الغرب من أكورس. إلى الغرب من خط ٤٦ جنوبا العالم سيصبح إسبانيا، وإلى الشرق سيكون برتغاليا(٥٩). وكانت البرازيل من نصيب البرتغال.

فاسكو دو جاما والمجهود الكبير

بعد مرور عام على توقيع المعاهدة، تدهورت صحة جواو الثانى، وتوفى يوم ٢٥ أكتوبر ١٤٩٥، ربما مات مسموما، وقد قام "دوم دورات" خليفته على العرش، فى العام التالى لحسابه بمشروع الاستكشافات البحرية التى عمل فيها جواو الثانى. احتفظ بالقائد الذى حدده سلفه وهو فاسكو دو جاما، وهو نبيل من بلاد ألم - تيجو. على

الرغم من أن عمره لم يتجاوز السادسة والعشرين، فإن تكوينه الجيد ونجاحه المهم فى بعثات سابقة أكسباه شهرة واسعة. عالمان فلكيان مشهوران من عصره، هما جوزيه ورودريجو، عضوان بمجموعة الرياضيين التى أسسها جواو الثانى، مثلا فى بلاط دوم مانويل وعملا فى جغرافية كالساديلا.

لم يختر جواو الثانى القائد فقط ولكنه حدد المهمة وأمده بالوسائل وتم إعداد التسليح[٦٠]، وأعطى دوم مانويل سرعة عجيبة لتنفيذ المشروع.

" كل شىء محتشد من أجل هذه الرحلة، فلا يوجد ما يسمى بالزيادة فى العدد ولا فى ضخامة السفن، وبسبب هذا أمر الملك سيدنا ببناء أربع سفن صغيرة وأكبرها لن تتعدى مائة برميل، حتى تستطيع أن تدخل وتخرج بسهولة فى كل الأماكن التى تمر بها"[٦١].

جمعوا أمهر النجارين وأمهر الصناع فى كل التخصصات بحارة وقباطنة " اختيروا من بين أفضل علماء البحار[٦٢] " وأعطيت لهم كل الامتيازات والإمكانيات.

وبعد الرجال أعدوا السفن، ضاعفوا الأشرعة والسوارى ثلاثة أضعاف وأربعة، حتى البراميل ضاعفوا الدوائر الحديدية التى تحيط بخشبها من أجل الحفظ الجيد للنبيذ والماء والخل والزيت الذى سوف يتزودون به. وكانت الإمدادات كثيرة وكذلك الذخيرة.

نعتقد أن المؤرخ عندما يؤكد لنا أنه" أُعدت لهذه الرحلة اعتمادات كثيرة وضخمة، فالخشية من إثارة الشك منعت من الدخول فى التفاصيل"[٦٣].

هذا يوضح الأهمية الكبرى التى أولادها البرتغاليون لهذه المغامرة الحرفية العجيبة التى برهنوا على التمكن منها. وموقف الملك كذلك يثبت هذا؛ لأنه وعد فى حالة النجاح بتشييد دير للعذراء فى مكان مقر إقامة البحارة الذى شيده دوم هنريك، وكانت هذه أول خطوة فى دير بيت لحم (بلم)[٦٤].

غادرت المراكب الأربع لشبونة ٨ يونيه ١٤٩٧. وضع فاسكو دو جاما شارته على سان جابريل وهى مركب تبلغ ٢٨ مترا حمولة ١٧٨ طنًا، وقاد أخوه باولو السفينة سان رافائيل، والسفينة الثالثة الأصغر والتى تسمى بريو قادها نيقولا كويلو بالبرازيل. وقاد بدرو نونيز خادم دو جاما مركب الإمدادات، وكان بهذه الحملة سبعون رجلا. وكان بارتلومو دياز على متن سفينة أخرى مهمتها حراسة الأسطول حتى مينا.

وكان هذا إقلاعا خاطئا؛ لأنهم كانوا لا يزالون بمحطة روستللو من أجل الحج للمقصورة الصغيرة مقصورة بيت لحم، حيث لم يكن الدير الكبير، قد شيد بعد.

بعد توقف فى الرأس الأخضر سار بارتلومو دياز فى اتجاه مينا وفاسكو دو جاما سوف يتوقف فى خليج سانت هلين؛ حيث أصابه سهم أحد المواطنين فى قدمه مما كان يمكن أن ينهى المغامرة. يوم ٢٢ نوفمبر وصلت السفن الأربع رأس الرجاء الصالح، واستقبلهم المواطنون لدى تزودهم الأول بالماء، لكنهم بالغوا فى كميات الماء التى أخذوها، وعند القيام بالتبادل مع رعاة محليين حدثت مشادة أجبرت دو جاما على الإبحار. وبعد ذلك بقليل نقلوا على متن سفن أخرى حمولة سفينة إمدادات بدرو نونيز التى أحرقوها.

واجه البرتغاليون أول عاصفة وطووا أشرعتهم، " لأن الموت يلوح من كل اتجاه " وسوف يعود المناخ المناسب لتصل السفينة بادروا لبارتلومو دياز يوم النويل ساحلا يسمونه ناتال.

واستقبل الهوتنتو البرتغاليين استقبالا حارا وكذلك فعل البوشيش حيث قاموا بزيارة لمدة خمسة أيام لهؤلاء.

أخطأ فاسكو دو جاما عندما رأى الساحل قبل خط ٢٠ ينحرف غربا، خشى من وجود خليج عميق فسار بالعرض، وبالتالى لم يمر بصوفالا مدينة الذهب، التى يعرفها البرتغاليون منذ رحلة بدرو دو كوفيلا منذ عشرة أعوام. عثر على الساحل عند منفذ

زامبير الذى سمَّاه ريو دوس بونس سينايس، تأكد من وجود أشخاص بين الزنوج ذوى البشرة النحاسية معلنين عن وجود سكان هنود. استطاع البرتغاليون أن يتحدثوا معهم قليلا باللغة العربية، وعلموا منهم أن بعض أمم الشرق أبحرت مثلهم على متن سفن كبيرة.

الواقع أن احتمال أن يكون هؤلاء هنودا، احتمال ضعيف فربما كانوا صوماليين أو بحارة من كل الذين يعرفون طريق صوفالا. بقى الأسطول البرتغالى الصغير شهرا بهذا المكان وفشل فاسكو دو جاما فى إغراقه، ورأى من خلال كوة فى جانب السفينة الأمواج تحمل مركبه، ويوم ٢٤ فبراير قرر أن يرفع الشراع. واندفع مبحرا بجوار الساحل يوم ٢٩ فبراير ١٤٩٨، ورست سفنهم أمام ساحل موزمبيق بالقرب من جزيرة يسمونها سان جورج، حيث قابلتهم بعض الزوارق المحلية التى تسمى سامبوكس، بين السود يوجد أسود من المغاربة من فاس ومعه المترجم فرناند مارتنز الذى يستطيع التحدث بالعربية. وكانت دهشته كبيرة عندما رأى أسطولا قادما من لشبونة " عظيم جدا أن يسبب له حزنا ظاهرا"[٦٥]. ! وعد المغربى بتذليل الصعاب مع الزعيم المحلى الذى تدفع له السفن الجزية وتقدم له بعض الهدايا. وفى اليوم التالى دعى الشيخ جاما الدخول إلى الميناء " منشأة ضعيفة، وسيط بين تجارة كلوة وصوفالا"[٦٦]. وبقى عشرة أيام ثم تقابل مع الشيخ وثلاثة من المسيحيين الحبشيين الذين انخرطوا فى صلاة أمام صورة الملاك جبرائيل المرسومة على علم جاما[٦٧].

القلق الذى أظهره المغربى اعترى كل سكان المدينة، ونيّات البرتغاليين كانت واضحة، وهى الذهاب للهند. وهذا لا يمكن الوعد به " التوقف عند أصوله يصبح واجبا دينيا، وفى نفس الوقت ضرورة تتطلبها المصلحة"[٦٨].

قرر المسلمون أن يلجأوا للخديعة. فقدموا إلى فاسكو دو جاما القبطانين اللذين طلبهما، ولكنهما طلبا أجرا مقدما مما جعل جاما لا يثق بهما. وأجبر أحدهما على الصعود على متن السفينة، فى حين بقى الآخر على الأرض. وفى اليوم التالى عاد وقد

هاجمه سبعة من السامبوكس والتى كان يجب ردها بالسهام والبنادق ذات الفتيل، وبعد هذا الإنذار رفع الأسطول الصغير شراعه ليرسو أمام جزيرة سان جورج.

تمنى فاسكو دو جاما أن يواصل طريقه للهند، لكن كان عليه أولا أن يتزود بالماء، والقبطان اقترب من الساحل لهذا الغرض، وأرسل البرتغاليون للأرض زورقين. قفز القبطان فى الماء واختفى مع زنجى وهرب. والمحاولات التى أجروها مع المواطنين لاسترجاع الهاربين باءت بالفشل ويجب التحاكم إلى شيخ، وتحت وقع السهام اضطر البرتغاليون لاستخدام القذائف، وأخضع فاسكو دو جاما أحد المواطنين المأسورين للاستجواب. " ما أحرقناه يهدف للتحكم فى تجارة صوفالا بسبب ثرائها بالذهب، وكان بالقرب من سواحل الهند. ولأول مرة نسمعهم يكررون من موزمبيق إلى كالكتا، ولم يكن أمامهم سوى شهر من الملاحة"[٦٩].

عندما رأى الشيخ مهمته تفشل اعتذر وقدم قبطانا جديدا، وبعد إقامته ثلاثة أيام فى سان جورج أبحر فاسكو دو جا ما فى الأول من إبريل عام ١٤٩٨.

حاول القبطان أن يدخل " الأسطول البرتغالى فى ميناء كلوة الضيقة وسيئة الحماية، ولم يصل؛ لأن الأمواج دفعت السفن إلى الساحل، اعتقد جاما أنه يستطيع أن يسترد الأسطول من المسلمين بدون مقاومة.

يوم ٣ إبريل يوم الرامو، قدمت السفن الثلاث أمام ميناء مومباسا، أراد القبطان أن يقنعهم بأن المدينة فى أيدى مسيحيى الحبشة والهنود، ولكن أخذ دو جاما حذره ورفض الدخول.

والحق أنه كان مدعوا بقوة من مبشرين قادمين على متن قارب وكانت هذه هى الطريقة المعتادة لطلب الاستضافة عند الدخول أو المرور بدون التوقف أمام المدينة. ووعد بتنفيذ الدعوة، لكنه تحجج بأعياد الفصح التى اقتربت ولم يفعل، وأرسل ضابطين إلى اليابسة حاملين الهدايا.

وأدهشت المدينة البرتغاليين: "تقع المدينة وسط ميناء، وهى مشيدة على جزيرة، ولا يمكن رؤيتها إلا بعد أن تدخل الميناء، ولكن ما إن وصلوا إلى مدخل الخليج، وكانت هذه طريقة تشييد المبانى، مساكن بسيطة فى شبه الجزيرة"[٧٠].

وفى اليوم الثالث كانت صفحة البحر مغطاة بقوارب العرب متذرعين أن الأمر يحتاج حراسة، ولكنه لم يقبل إلا عشرة على كل زورق، وأبحر: " لسعادة الجميع البالغة، البحارة المغاربة، معتقدين أنهم حصلوا على فريسة سهلة، إلا أن بحارتنا مقتنعون بأنهم بمقابلتهم أمة مزهوة ويحصولهم على أنباء مؤكدة عن الهند بعد أن يكونوا قد أنجزوا مهمتهم"[٧١].

سفينة جاما، حملت للأعماق، جرى البحارة من حافة لأخرى لتنفيذ الأوامر، واعتقد المواطنون المحليون أن أمرهم قد اكتُشف؛ فقفزوا إلى الماء بما فى ذلك القبطان من موزمبيق الذى غطس من مؤخرة السفينة وهرب الجميع. أثناء الليل زوارق ذات مجاديف محاطة بقماش مبرقش حاولت تمزيق الأشرعة دون جدوى. وفى اليوم التالى أخذ البرتغاليون البحر وواجهوا مركبين من مراكب السامبوكس، من المواطنين الذين كانوا عليه ومن الثلاثة عشر الذين أسروهم، من بينهم عرفوا أن ميناء مالنيدى توجد أمامهم، حيث[٧٢] يحكم ملك بشرى، ومنه يمكن الحصول على قبطان يقود السفن إلى الهند[٧٣].

أرخى فاسكو دو جاما الأشرعة أمام مالنيدى يوم ١٤ إبريل ١٤٩٨ وهنا " ذللت كل الصعاب ".

"ملك هذه البلاد مسلم وهو عادل ولكن قلبه مسيحى، له رؤية حكيمة ونيّات واضحة مستقيمة جعلت منه رجلا فريد "[٧٤].

دُعِى جاما للنزول على الأرض لكنه لفرط حذره اعتذر متعللا بأن الملك منعه من ترك سفينته قبل الوصول إلى أملاك ملك كالكتا، ومن ثم جاء هذا إلى متن السفينة

وحيّاه فى تشريفة المدفعية البرتغالية، وحدث هذ الأمر سريعا " : " كانت هناك همهمات بين الناس، الكل يريد أن يسرع إلى الأرض[٧٥]. ذهب جاما نفسه إلى سمبوكس الملك، ومن أول مقابلة ساد جو من الصراحة بين الرجلين.

زاروا سفنه ووضعوا الثلاثة عشر أسيرا على متنها. أراه جاما خريطة مرسومًا عليه ساحل الهند " يتجه بحسب نظام العرب"[٧٦]. القبطان الموجود على متنها " لم يبد أية دهشة عند رؤيته الوسائل البحرية التى يستخدمها المسيحيون، بل أعطى فى هذه النقطة بعض المعلومات الدقيقة"[٧٧]. وكان هذا القبطان مكسبا كبيرا لفاسكو دو جاما، وبفضله ترك الإبحار بجوار الساحل، وانطلق فى خط مباشر متجها إلى الهند عن طريق البحر[٧٨].

طبقا للبرتغاليين، ظهرت بعض المصاعب بشكل مفاجئ فى اللحظة الأخيرة للحصول على القبطان، ولكن عاد كل شيء لوضعه الطبيعى، وفى يوم الثلاثاء ٢٨ إبريل ١٤٩٨ أبحر الأسطول البرتغالى[٧٩]. على الرغم من أن الرياح الموسمية لم تهب بعد يوم ٢٠ مايو كان من الممكن رؤيتهم من كابوكات على بعد فرسخ من كالكتا. وهنا ستبدأ المغامرة البرتغالية فى الهند[٨٠].

عودة فاسكو دو جاما

اختلفت الروايات حول تاريخ مغادرة فاسكو دو جاما للهند، فيرى البعض أنها كانت فى أغسطس[٨١]. فى حين يرى آخرون أنها كانت فى نوفمبر[٨٢]. يحكى أنه منذ شهر أغسطس ألح القبطان فى الرحيل لكى يفيد من الرياح الموسمية المواتية، ولكن فاسكو دو جاما واجه هذه الصعوبات بمساعدة ساموريات، الزعيم المحلى، الذى غير موعد رحيله فيما يبدو، فهل رحل فى أغسطس أم فى نوفمبر؟ إن التاريخ الأول مناسب للرياح والثانى كذلك، لكنه يتوقف على استمرار الرياح، ولكن يقال: إن الأميرال فقد

الوقت لكى يضرب الساحل الهندى بالمدافع، ولكنه قام بقفزة سريعة على الجزر القريبة للتزود بالماء واتخذ اتجاهه نحو ماليندى، وكانت رحلة العودة صعبة، استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر بسبب الرياح المعاكسة، وهبت عواصف شديدة عصفت بالسفن وسببت موت العشرات من الرجال الذين قفزوا فى الماء، كما يذكر البعض(٨٣)، وماتوا بالإسقربوط وفقًا لرؤية آخرين(٨٤).

وفى يوم ٣ يناير ١٤٩٩ وصل فاسكو دو جاما الساحل الأفريقى إلى الشمال قليلا عما كان متوقعا، وبسبب ذلك مر أمام مقديشيو التى ضربها بالمدافع، ووصفت المدينة " بأنها كبيرة جدا ومنازلها بها عدة طوابق، وفى الوسط قصور كبيرة وفى الخارج أربعة أبراج ". وعند الوصول لماليندى ٧ يناير ١٤٩٩، قاد أخوه السفينة سان رافائيل ولكنها فقدت فى عمق البحر مع أنه كان يعرف الطريق فى الذهاب.

وانتقل فريق السفينة إلى سفينة أخرى أبحرت يوم ٢٠ يناير، وتوقفوا فى موزمبيق، فى طريقهم إلى رأس الرجاء الصالح، وباعدت بينهم عاصفة ولقى كل واحد منهم مصيرا مختلفا. كويللو الواثق فى جاما تبعه فى طريقه ووصل لشبونة يوم ٢٩ يوليو ١٤٩٩. وفى الآكور سلم جاما قيادة سفينته لنائبه وبقى ليساعد فى اللحظات الأخيرة أخاه. لم يصل لشبونة كمسافر إلا فى يوم ٢٩ أغسطس ١٤٩٩، وكان قد أصبح أميرال بحار الهند وكونت فيدجيرا(٨٥).

وثبة نحو البرازيل والهند

كان أول اتصال مع ساحل كالكتا، فقد أراد البرتغاليون تقوية وتأكيد اكتشافاتهم بأسرع ما يمكن. سبعة أشهر بعد عودة فاسكو دو جاما، يوم ٨ مارس ١٥٠٠ غادرت ثلاث عشرة سفينة يقودها بدرو الفارس كابرال فى حملة جديدة على الهند فى عجلة غريبة.

بحسب الرواية الرسمية فإن سفينتهم بعد وصولهم الرأس الأخضر يوم ٢٥ مارس، باغتتها عاصفة اضطرتها للجنوح جنوبا بغرب. وفي يوم ٢٤ أبريل سيكتشف البرازيل بعد شهر من الإبحار. هذه الرواية الرسمية محل شك قوى. وجود بارتلومو دياز على متنها ودوارت باشيكو بيريرا مؤلف (Eameralf , de situ orbis) لم يكن اعتباطا.

كيف تفسر هذا الهياج والرعب والتهديدات البرتغالية التى ذكرناها، حتى إن الخط الفاصل بين مناطق النفوذ مع إسبانيا فى المحيط الأطلنطى زحزح إلى الغرب من خط طول ٨، أى نحو ٩٠٠ كيلو متر؟ وبانظرة سريعة إلى الخريطة نعلم أنه كان ضروريا لكى تكون البرازيل المكتشفة ضمن مناطق نفوذها[٨٦].

أيا ما كان الأمر فقد غادر بدرو ألفارس كابرال البرازيل يوم ٢ مايو عام ١٥٠٠، وفى طريقه لرأس الرجاء الصالح فقد أربعا من سفنه الست أثناء عاصفة شديدة، إحداها كان يقودها بارتلومو دياز المكتشف الفعلى لهذا الرأس، والذى أنهى حياته وسط هذه السدود التى اكتشفها منذ اثنى عشر عاما[٨٧]. وفقدت سفينة أخرى بقيادة ديجو دياز.

توقف بدرو ألفارس كابرال فى موزمبيق، وفى الصيف زار كلوة وتوقف فى ماليندى، وفى جزيرة أنشيديا الصغيرة قبل أن يصل إلى كالكتا يوم ١٣ سبتمبر عام ١٥٠٠[٨٨].

اكتشاف مدغشقر ومأساة مقديشيو

خلال هذه الفترة، ذهب دييجو دياز إلى المحيط الهندى على متن مركبة خربتها العاصفة، ولما فقد طريقه اكتشف مدغشقر يوم ١٠ أغسطس عام ١٥٠٠، وأطلق عليها

اسم سان لوران تكريما لقديس هذا اليوم، ووصل الساحل الأفريقى وسار بمحاذاته حتى وصل مدخل البحر الأحمر، وفى طريق عودته توقف فى مقديشيو.

" فى مقديشيو بالقرب من راس جاردافوى[٨٩] عثر على سفينتين محملتين بالتوابل اللتين وصلتا إلى هنا قادمة من جامبيا، البحارة المغاربة على هذه السفينة وكذلك الذين بهذه المدينة، وخوفا من أن يعانوا من الدمار تحت ضربات المدافع التى سمعوها عندما كان يحييهم استقبلوه بشكل جيد وأعطوه أغذية طازجة من البلاد، ولكن بعد أن أفرغت السفن الأقمشة التى كانت تحملها، أمروا باستيقافه، ولكى يتمكنوا من ذلك بسهولة جعلوا هذا الأمر فى يوم يرغب بدرو دياز فيه بالتزود بالماء، وقال مغاربة هذه المدينة: إن الماء يأتى من بعيد فى الأرض"[٩٠]. وحتى يتم التزود بالماء بشكل سريع، كان عليه أن يرسل هذا اليوم المركب وعلى متنها أكبر قدر من البراميل والرجال لكى يقوموا بملئها، وعند وصولهم إلى هذا المكان، لم يشكوا فيهم ولا فى المركب وظلوا تحت أمر المغاربة. وهؤلاء مسلمون تماما على متن مراكب السامبوكس الخاصة بهم هجموا عليه، وبدرو دياز شوهد فى هذا الموقف العصيب وليس معه من الرجال سوى سبعة، فقطع أحبال المراكب وأبحر تجاه هذه المملكة " البرتغال " برحمة الله دون قبطان ودون أن يدرى أحد من أين مروا[٩١]".

استغرقت إعادة بناء رحلة دييجو دياز يوما جديدا بعد عبوره بامتداد سواحل الصومال. وهكذا أنشأ ما سوف يُعرف بمدخل البحر الأحمر ربما وزار بربرة. ومن المؤكد أنه لم يغامر باقتحام هذا الاتجاه المحمول بفريق انخفض عدده إلى سبعة رجال. كان سعيد الحظ أن يصل إلى الساحل جنوب مقديشيو قادما من مدغشقر، ويمكن أن نستخلص أنه عبر أول مرة أمام هذه المدينة التى تعرف عليها بالفعل فاسكو دو جاما الذى تابع طريقه حتى باب المندب حتى اعتقد أنه عثر على الأسطول البرتغالى. ولما لم يعثر على أثر له واصل الاستكشاف حتى بربرة ثم استدار بمركبه. فهل كانت لديه النية للوصول إلى الهند ولكنه مر برأس جاردافوى متأخرا جدا؟

وعندما هبت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لم يستطع إلا أن ينزل من جديد للساحل بهدف إمضاء الشتاء فى مكان ما. ودارت مأساة مقديشيو فيما يحتمل فى منتصف سبتمبر عام ١٥٠٠.

رحلة عودة بدرو ألفارس كابرال

وفى يوم ٣١ يناير ١٥٠١[٩٢]، وفى طريق العودة من الهند، بينما كان يقترب أسطول بدرو ألفارس كابرال من ماليندى، هبت رياح معاكسة دفعت سفينة سانشو دو توار إلى الأعماق، حيث فقدت وتم إنقاذ فريق السفينة بالكامل، وأحرق كابرال السفينة؛ "لكى لا يأتى المغاربة بهذا الساحل ويأخذنوه"[٩٣]. ورغم كل هذه الحيطة "استنفذ ملك ممباسا منها المدفعية التى استخدمت ضد البرتغال[٩٤]".

ووصل الأسطول ماليندى، مأوى السلام للبرتغاليين، وتوقفوا فى جزيرة سان جورج لإصلاح ما دمر أثناء الرحلة.

أرادوا أن يقوموا فى رحلة العودة بمهمة فى صوفالا، تلك التى لم تتم بسبب اختفاء الأخوين دياز التى جعلت هذه المهمة مستحيلة خلال رحلة الذهاب، فبعث بدرو ألفارس كابرال سانشو دو توار فى بعثة ومعه سفن صغيرة، ووصف له ما سوف يقوم به "[٩٥]. واستمر كابرال بما تبقى معه من سفن فى طريقه، ولدهشته فقد وجد فى الرأس الأخضر دييجو دياز الذى ظن أنه قد اختفى فى العاصفة الكبيرة، " شكر الله الذى أنقذ رجاله"، وبعد عودته للبرتغال، كان سان باتيست على موعد مع السعادة عندما رأى سفينتين أخريين تصلان سفينة بدرو دو تاييد، التى اختفت بسبب عاصفة قبل الوصول إلى رأس كورانت، وسفينة سانشو دو توار الذى عاد بخبر اكتشاف صوفالا. ولم يذكر شيئا عن الرجال الثلاثين الذين تركوا فى مقديشيو والذين بلا أدنى شك قد ذبحوا أو تحولوا إلى عبيد.

برهنت هذه الرحلة للبرتغاليين على أن تأثير الكاهن يوحنا على الهند ليس بشيء، وأن المسيحيين الذين قابلوهم كانوا معادين(٩٦). وعلى العكس كان تأثير المسلمين كبيرا لدرجة أن الراجا أميرهم " أفهمهم أنه لا يمكن هكذا أن يطرح خمسة آلاف عائلة من مملكتهم هكذا بكلمة"(٩٧). ضرورة قطع الطرق البحرية وأن يصبح سيد الطرق المؤدية للبحر الأحمر والخليج الفارسي، بدأت تستقر فى العقول، الساموران اقتنع تماما أن البرتغاليين لا يريدون فقط التجارة كما فعل العرب ولكن السيطرة على بلده، ولا يمكن له إلا أن يناصبهم العداء. فى البرتغال سببت هذه الحرب المفرطة بعض المشاكل.

استثمار الاستكشافات

وقد أثارت عودة كابرال والوضع فى الهند قلق البرتغاليين، هل يجب الاستمرار فى هذه الرحلات رغم فداحة الثمن وفقد الرجال، ورغم المعارضة المحلية والضغوط التى سببت لهم المعاناة؟ ما هى المصلحة الحقيقية للبرتغال؟

قبل الحملة الثانية لفاسكو دو جاما للهند، عام ١٥٠٢م، اجتمع بدوم مانويل فى جلسة للتشاور وتلقى ردا غير مرحب :

" أغلبية المجلس أشارت إلى نفورها من استمرار الاستكشاف، نتذكر أن ثلاث عشرة سفينة غادرت قبل عامين، تحطم منها أربع فى أعماق البحار، ومات من على متنها بعض الرجال، حاضر فى الذاكرة غدر الساموران والأخطار وأعمال الإيذاء المختلفة التى واجهها البحار البرتغالى وإنهاك المملكة ومصادرها، وزيادة العقبات التى تنشأ عن الاستكشاف، وقوة المغاربة والكره الذى يكنونه لنا"(٩٨).

رغم هذا الرأى أمضى دوم مانويل شيئا آخر، فقد كان القرار سياسيا، التجانس مؤكد ولكن ما سوف يلاحظ هو التوجه الجديد، المرور من مرحلة الاستكشاف إلى مرحلة الاستثمار التجارى. بحسب باروس، كان ذلك ببساطة " إلهاما من الله ". ومع

ذلك فإن معارضة أساليب الاحتلال البرتغالى ظلت قوية فى البلاد. أوزوريو أسقف سلفيس " منذ متى كانت الديانة ديانة سيف " نبقى مصدومين من وحشية البرتغاليين بخاصة الرعب والتمثيل بالأسرى وحتى بالموتى: جدع الأنوف وصلم الآذان وقطع الرقاب بعيدا عن الأجسام وحرق النساء والأطفال أحياء... إلخ[٩٩]. بعض الكتاب من أمثال هيتور بنتو وكوتو ولويس منديز دوفاسكو نسيلوس عارضوا المبدأ ذاته؛ فقد وجهوا انتقادا ولوما لاحتلال الهند وكذلك بالنسبة للساحل الأفريقى الشرقى والبحر الأحمر وحضرموت : " إن احتلال الهند لن يعطينا حقولا للزراعة ولا مراعى لقطعاننا، لن يزودونا بالمزارعين الذين يزرعون أراضينا، ولكن أبعد ما يكون عن ذلك، بل كلفنا الكثير من بيننا، فالبعض ذهب يحمله الطمع وآخرون أخذتهم ضرورات الحرب، فذهبوا فى غفلة ودون موافقتنا، والبعض ذهب للتفكر فى أن هناك أراضى كثيرة غير مزروعة ويمكن أن نزرعها، وإذا ما أنكروا هذا سوف نجد غابات أقل وأراضى عربية أكثر، فإذا لم يكن الأمل فيما يأتى من الهند سينشغل السكان بما فى أيديهم وبأبوابهم وهناك صناعات أخرى بها"[١٠٠].

الحملة الثانية لفاسكو دو جاما

اتخذ فاسكو دو جاما القرار السياسى وبدأ تنظيم حملة جديدة سوف تنطلق سريعا وبفاعلية فسوف يسافر فاسكو دو جاما للمرة الثانية يوم ١٠ فبراير عام ١٥٠٢[١٠١]، على رأس أسطول مكون من عشرين سفينة شراعية.

يعطينا دو باروس وصفا دقيقا لمروره بموزمبيق والترتيبات الجيدة التى أعدها شيخ آخر بهذا الساحل:

"الأميرال دوم فاسكو دو جاما وبعد وصوله إلى موزمبيق، أسرع للانطلاق فى البحر الأحمر بسفينة مسلحة، وعين قائدها الكابتن جواو سيروا فارس من منزل الملك،

وخلال الأيام الأربعة التى مكثها هنا أعد بعض السفن التى تزوِّده بالماء، وعقد سلاما مع أحد الشيخ بالمكان وهو غير الشيخ الذى قابله فى المرة السابقة التى ذكرناها عندما اكتشف طريقه. وجد مع الشيخ خطابا من جواو دو نوفا وفيه يقدم لكل قبطان سوف يمر من هنا ما يجعله يصل لكل ساحل، ويصل للهند وأن يخبره ببعض الأشياء؛ ولهذا ترك الأميرال للشيخ خطاباً؛ لإيصاله إلى استيفاو دو جاما الذى غادر المملكة مع خمس سفن ولم يصل بعد، وخطابا آخر من أجل لويس فرنانديز وأنطونيو دو كامبو، واثنين من القباطنة اللذين افترقا قبل الوصول إلى رأس كورانت بسبب عاصفة هبت على الأميرال، وهى خطابات يصفون فيها كل ما يجب فعله والتعليمات المختلفة التى أعطيت لكل منهم قبل مغادرة المملكة، وهذا بسبب ما وجد فى خطاب جواو دانوفا"(١٠٢).

كلوة، هذا الفخ الذى حاول قبطانه أن يحاصره بحبسه فيه فى رحلته الأولى، يجب أن يكون الآن خاضعا، وأخبر فاسكو دوجاما الكباتن البرتغاليين عن طريق الرسائل بما سيحدث، فأبطل خداع شيخ كلوة:

" رحل فى اتجاه كلوة، حيث وصل يوم ١٢ يوليو وكانت المدينة محطمة، ورأى الدمار الذى عليه المدينة لدى دخول الأميرال بسبب ضربات المدفع، ولأن ملك هذه المدينة حقير جدا وكان يعامل بدرا الفارس كابرال وجواو دونوفا بالخداع والمكر الشديد، فقد أراد الأميرال أن يدخل على هذا ليرعبه، ولأنه أراد أن يلاعبه عندما يضمن أن الجزيرة محمية بمن يدافع عنها، ولم يمهله، فجعله يأتى على الشاطئ ويصعد على زورق به خمسة رجال ليتحدث إلى الزوارق التى جاء بها الأميرال لكى يتوقف فيجعل المدينة تشتعل نارا وتسيل دما. هذا الملك يدعى الحاج حسين، قابله الأميرال بسماحة وكرم، وهذا ما لا يستحقه لسابق غدره بالكباتن، ولأنه اشترك فى تمرد كبير وأخيرا أعطاه الأميرال خطابا من الملك دوم مانويل، وقرر معه أن يكون

حليفا لكى يحتفظ بالصداقة والحماية مقابل خمسمائة مثقال[١٠٣] من الذهب، وهو ما يعادل بنقودنا ٥٨٤٢ كروزادوس[١٠٤].

فى المقابل أرسل له الأميرال رسالة باسم الملك دوم مانويل يخبره فيها بقبوله حليفا بهذه الجزية ووعده بالدفاع والمساعدة... إلخ. وأكثر من ذلك، أرسل إليه علم الجيوش الملكية لهذه المملكة، فى إشارة لتكريم هذا التحالف وبعض القطع الشخصية، ورفع هذا العلم على سارية وحملته مركب مصاحبة لمراكب أخرى، ورجال كثيرون فى العيد وطبول وجاء الملك ليستقبلهم على الشاطئ، وحيُّوه بأسلوب يدل على القبول بهذه العلامة على الحماية، وما إن أمسكه فى يده بنفسه وحمله فى وقت لاحق وأعطاه لأحد البحارة المغاربة الذى جاب المدينة كلها والناس من خلفه وهو يصرخ: البرتغال، البرتغال، البرتغال"[١٠٥].

فى الطريق للهند قابل فاسكو دو جاما الاثنين ٣ أكتوبر ١٥٠٢، سفينة تجارية مصرية كبيرة الـ " ميريل " خاصة بالسلطان المولكى بمصر[١٠٦]. استأجرها من تجار عرب فى كالكتا، ونقل على متنها كثيراً من الحجيج العائدين من مكة. برهن الأميرال على قسوة وعنف، فقد نهب وقتل وأحرق المركب، وعبثا صرخت النساء والأطفال وسط النيران التى تلتهمهم، وخمدت النيران وتابع الأسطول خلال أربعة أيام وأربع ليال رافضا أن ينقذ أحداً، وأخيرا لم يقبل إلا بإنقاذ عشرين طفلا تربوا على الديانة الكاثوليكية[١٠٧].

دخول ألبوكرك فى المشهد

وفى يوم ٦ إبريل ١٥٠٢ غادرت تسع سفن لشبونة تحت قيادة ثلاثة من القادة؛ أحدهم أفونسو ألبوكرك وكان على موعد مع دور محورى فى المحيط الهندى، ولم يعد

شابا صغيرا. فقد ولد عام ١٤٥٣، ومن ثم فقد كان فى الخمسين من عمره، والقبطانان الآخران هما فرانسيسكو وألبوكرك ابن عم الأول وأنطوان وسالدانا، مسئول بصفة خاصة مع سفنه الثلاث بتدمير السفن المسلمة عند مدخل البحر الأحمر[١٠٨]. ويتكون الأسطول من أربع سفن مسلحة ويمدهم التجار بما يحتاجونه وأبرزهم جيرلامو سرنيجى وكان فلورنسيًا. حاولت فلورنسا هنا أن تجرب حظها ضد فينيسيا لأول مرة.

افتتح الأسطول الممر المباشر الذى يمر شرق مدغشقر دون أن يتوقف عندها، ووصل الهند فى أغسطس ١٥٠٣ بعد نحو خمسة أشهر من الإبحار.

لدى وصوله اكتشف أفونسو ألبوكرك أن كوشن متروكة دون حماية بسبب مغامرة سودريه[١٠٩]. وقد هوجمت ودمرت تماما من قوات الساموران، راجا كالكتا، وبالثأر منه فرض عليه مصادرة كاملة لكل السفن التى تصل جدة[١١٠].

أفونسو ألبوكرك ترك كوش فى ٢٥ يناير ١٥٠٤، ومعه قبطان ممتاز، وعبر بصعوبة المحيط الهندى ليصل أفريقيا ليس إلى مالیندى كما فعل أسلافه، ولكن عند موزمبيق، ووصل لشبونة نهاية يوليو ١٥٠٤، واعترض فى طريقه أسطولا مكونًا من ثلاث عشرة سفينة تحمل مائتى رجل على متنها، تحت قيادة لوبو سوارس دو ألبرجاريا.

كان ابن عمه أقل حظا منه وهو فرانسيسكو، حيث فقد المال والرجال والسفن جميعا، وبالنسبة لأنطوان أو سالدانا فقد هزم السفن المسلمة، ولكن دون أن يواصل الصعود حتى مومباسا وزنجبار، فقد حملته الرياح إلى مدغشقر حيث أمضى الشتاء، وفى أغسطس ١٥٠٤، قام بالتعرف لأول مرة على الجزيرة.

الوصول للمرحلة الاستعمارية

منذ عام ١٥٠٤، حدد دوم مانويل الخطوط العامة للسياسة البرتغالية فى الهند، وأدرك ضرورة أن يجعل منها محورًا رئيسيا للمجهودات (الاستكشافية)، وأن يكون بها

حاكم. وكان يعلم أن ثراء الهند الكبير لن يتحول إلى البرتغال إلا بعد انتزاع المصادر منها وأخذ تجارة كالكتا من المسلمين. وأحس ولكن بشكل غامض أن " أعداءه الحقيقيين هم العرب فى الخليج الفارسى الذين أثاروا قديماً حفيظة الساموران "(١١١).

الآن سوف تتحالف المصلحة الاقتصادية مع التحفز الدينى. فقد قرر أن يبعث بحملة ضد الجزيرة العربية. لم يكن لديه شك إلا ابتداء من هذه الفترة أن أفريقيا هى مورد المواد الأولية للبرتغاليين، وأن الجزيرة العربية ليست مهمة لهم إلا عند الحاجة لإيقاف المنافسات فى البحرين اللذين يحيطان بها. إن رغبة البرتغاليين فى ضمان احتكار تجارة التوابل فرضت عليهم امتلاك المصادر والتحكم فى طرقها.

وكان رأى الملك بإعلان حرب لا هوادة فيها ضد تجارة العرب فى المحيط الهندى، وبالتالى فى الخليج الفارسى والبحر الأحمر.

فى الفترة نفسها مارس " السودان المصرى " كما يقول لنا ديسيو ضغطا دبلوماسيا لمحاولة إيقاف " النجاحات غير المتوقعة للقبضة الأوربية فى جنوب آسيا ". طلب السلطان من البابا ألكسندر السادس الذى يعامله " كملك لكل الملوك المناصرين للمسيح " أن يوقف هذه الممارسات، وهددوه بالانتقام بأعمال مثل تدمير الأماكن المقدسة والقبر المقدس وإبادة المسيحيين بهذه البلاد، وحصل على نتيجة معاكسة لمراده، وقد رأى ودوم مانويل نفسه فى مواجهة البابا فى مشاريعه للاحتلال(١١٢). وحدثت خطوة أخرى مماثلة من نفس السلطان قنصوه الغورى لدى سلطات كالكتا، يطلب منهم ألا يسمحوا للسفن البرتغالية باستخدام موانئهم، ولكن بدون نتيجة فاعلة(١١٣).

ولما لم يستطع أن يعهد بمهمة حكومة الهند إلى تريستاودا كونا الذى يعانى من المرض اختار دوم مانويل فرانسيسكو دالميدا لقيادة الحملة السابعة على الهند. وهذه الحملة كانت بداية انتقال البرتغال من الاستثمار التجارى إلى إدارة من نوع

استعماري. وطلبت وجوداً دائما لأسطول حربي يقوده أميرال يمارس في نفس الوقت مهام حاكم أراضي مستعمر. غادر نائب الملك في الهند البرتغال يوم ٢٣ مارس ١٥٠٥ في صحبة ابنه، وكان الأسطول مكونًا من اثنتين وعشرين سفينة على متنها ١٢٠٠جندي و٤٠٠ بحار، ومدافع قوية مزودة بـ ١٢٠٠ قذيفة. على الساحل الشرقي غزوا كلوة وعزلوا زعيمها الحاج حسين(١١٤). وعلم دون أن يتعرف عليها بوجود أناس من جزر القمر وأخضع مومباسا(١١٥). عند مروره في أغسطس عام ١٥٠٥، شيد بها نقاطًا حصينة(١١٦).

دور أفونسو ألبوكرك

تريستاو داكونا حاضر يملأ المشهد، ومن ثم عهد الملك إليه بقيادة الحملة الثامنة عام ١٥٠٨، وشاركه أفونسو ألبوكرك كقائد عسكري، وبخاصة لمهاجمة عدن وجدة، مزوداً بست سفن خاصة به وأربعمائة رجل. وكانت تعليمات كريستا ودا كونا والملك بقطع جزيرة سوقطرة وعرقلة التجارة العربية التي تمر بباب المندب. وتقرر أن تكون هذه الجزيرة قاعدة العمليات على الساحل الشرقي لأفريقيا وقربها من عدن ومن الخليج الفارسي أكد صحة هذا الاختيار، وطرد كل المسلمين منها. ووجود أناس من أصول يونانية ضمن بعثة كان بعثها الإسكندر الأكبر، اعتنقوا المسيحية على يد تجار يونانيين يتبعون المذهب النسطوري، يؤكد أن البرتغاليين بهذا لن يواجهوا مناوشات هنا.

وكان الأمر أقل سهولة؛ لأن عاصفة شديدة فرقت السفن، وذهب بيريرا أحد القباطنة إلى مدغشقر ضد رغبته(١١٧). والتحق بموزمبيق بينما تريستاو داكونا أراد هو شخصيا استكشاف الجزيرة الكبيرة مع بيريرا وهو ما فعلوه حتى ديسمبر عام ١٥٠٦.

ووجد الجميع فى موزمبيق لإعادة السفن إلى حالتها بعد العاصفة، وخضعت لامو للجزية ودمرت زنجبار، وعند التوقف التقليدى فى ماليندى وضع داكونا فى القيادة للاستيلاء على صوفالا ولكن نفد الوقت، فاستبعد الأمر وأبحر أخيرا إلى سوقطرة(١١٨).

اكتشف البرتغاليون أن السلطنة الصغيرة فى مهرا وعاصمتها كيشن توجد غرب رأس فارتاك على ساحل حضرموت، وهناك قلعة فى السوق (سوقو) على الطرف الشمالى للجزيرة، واستولوا عليها بالقوة، وذبح كل من فيها فيما عدا عمر، وهو قبطان عمل مع فانسانت سودريه عام ١٥٠٢ فى جزر كوريا-موريا(١١٩).

غادر تريستاو داكونا سوقطرة فى الأول من أغسطس عام ١٥٠٧، تاركا فيها أفونسو ألبوكرك، وواصل طريقه نحو الهند ومعه ست سفن، انتهت أعمال ترتيب قلعة فارتاكان فى سوقو عند مغادرة كونا وعهد بحراستها لابن أخيه، أفونسو دو نورونا وأبحر بدوره يوم ١٠ أغسطس عام ١٥٠٧، وكان محظوظا أن يتأكد من عمر الذى كان محتجزا معه كل خرائط الساحل الغربى من البحرين وأعد تخطيطا طموحا.

تيقن ألبوكرك أنه لن يستطيع الاستيلاء مرة واحدة على عدن ويدمر جدة، وأعلن لرفاقه عن رغبته فى الاستيلاء على مسقط، وأن يبقى عدة أيام فى هذه الجهات " لكى يقلق المراكب التى تغادر زيلع ".

كان معرض بربرة لهذا الموسم زاخرا، ووصل العديد من مراكب السامبوكس ساحل مالابار. هل هذا بناء على تعليمات سرية للملك بناء على ما أخبر به عمر من معلومات دقيقة، قرر أن يعهد إليه بهذه الحملة ؟ لن نعرف على الحقيقة من حرك الحملة التى أطلقها ألبوكرك ضد هرموز. سار بطول ساحل حضرموت ليصل إلى هرموز لكنه لم يلتق رفاقه بهذه المشاريع(١٢٠). كانت لديه الخريطة البحرية لعمر، وهى خريطة دقيقة للمدن الساحلية للجزيرة العربية جنوبا، وبشجاعة معتبرة استطاع كشف خيانات

قباطنته المسلمين، ووجد مدينة محطمة جزئيا، مدينة كالايات (خالات) التى بها ميناء ممتازة، واستقبل به بشكل جيد، وبعد التزود منه رحل عنه يوم ٢٢ أغسطس[١٢١].

أخفى ألبوكرك مشاريعه الكبرى الطموح حتى لا يثير قباطنته، ووعد الهند بعصرٍ سعيد[١٢٢]، وما إن وصل أمام كرجات (كوريات) حتى هوجم فأسرت المدينة على الرغم من أنها تحتوى على ستة آلاف ساكن، وصلمت الآذان وجدعت الأنوف وأحرقت المساجد وكذلك المراكب.

أربعة أيام بعد هذا الحدث الوحشى وخضوع مسقط المدينة الثانية فى مملكة هرموز التى للملك دوم مانويل، رغم قبول ألبوكرك هوجمت مراكب وأحرقت ودمرت وحدثت مذبحة كبيرة لسكانها[١٢٣]، الحزم والقسوة اللتين اتسم بهما ألبوكرك جعلت الخوف يملأ قلوب قباطنته فلم يقوموا بحوادث أخرى، أحدهم جواو دو نوفا قبطان أكبر سفينة فلور دو مار حكم مثلهم " هذا كاف للمجد ورفض منافسته فيما تبقى فى الحملة، ونجح ألبوكرك فى جعله يعود عن قراره ويصل الهند وتبعه الجميع حتى سوار. أمام الخوف الذى أشاعته سفن ألبوكرك أعلنت المدينة خضوعها ورفع عليها العلم البرتغالى.

كانت الخطوة التالية خورفا كام (أورفاكات) التى قاومت. و" بفضل شجاعة أنطونيو دو نورونا الذى قاد ثمانين رجلا، واستولى على موقع مهم ". وخضعت أورفاكات واستقبل بها ألبوكرك معلومات عن هرموز التى يبحث عنها وأخذ قبطانا جديدا ووصل موسندن[١٢٤]، بعد يومين فى البحر. واكتشف ثلاث جزر يغطيها الضباب، والمدينة المشتهاة ظهرت له فى يوم ١٠ أكتوبر ١٥٠٧ : " عند رؤية المنارات الكثيرة التى ترتفع أعلى المنازل المسورة، لهؤلاء السكان الذين يعيشون ونراهم ينبثقون من كل فج، والخيالة تحرس الشطآن وستين سفينة أخيرا تقف أمام الميناء، وأفضل من كل هذا وجود المدافع التى لم نحس لها وجودا، وكانت بين البرتغاليين همسات معبرة عن الدهشة"[١٢٥].

لم يكن ألبوكرك مندهشا، فقد عرف الكثير عن هرموز[١٢٦]، في أوروفاكات. يعرف المدينة الحصينة ودفاعاتها، ولكنه أخفى تلك المعلومات عن قباطنته، وفي نفس الوقت كان القبطان مجبراً على الانصياع للأوامر، تظاهر ألبوكرك باكتشاف الموقف." ولنتفق أنه كان عملا كبيرا، ولكن الوقت كان متأخرا للانسحاب ويحتاج لمزيد من الحسم أكثر من النصيحة الطيبة"[١٢٧].

كانت أمام ألبوكرك عاصمة مملكة هرموز التي تمتد على ساحل الجزيرة العربية من رأس روسلجات " رأس الحد " حتى رأس موسندن (رأس موسودام) أي نحو ثمانين فرسخا[١٢٨].

" تقع مدينة هرموز في جزيرة صغيرة هي التي نعطيها اسم جيروم، وتقع تقريبا عند مدخل مضيق البحر الفارسي، فهي قريبة جدا من سواحل فارس التي لا نحسب لها أكثر من ثلاثة فراسخ " ثمانية عشر كيلو متراً " من أرض لأخرى، وتوجد كذلك عشرة فراسخ (ستون كيلو مترا) للوصول للجزيرة العربية"[١٢٩].

كانت الجزيرة عند وصول البرتغال تحت حكم خوجا عطار، وكان موضع ثقة والد الملك الشاب سيف الدين البالغ من العمر اثنى عشر عاما، وابن أخيه كذلك الملك المتوفى سارجول. أخبر بوصول البرتغال فتنادى وتجمع شيوخ القارة واحتشدت قوات معتبرة رجالا ومراكب. وأكثر من ذلك وفدت ستون سفينة إلى الخليج، وإجمالاً يمكن أن يصل العدد إلى مائتي سفينة ذات مجداف، والكثير من التيراداس وهو نوع من السفن الشراعية الصغيرة التي تستخدم في النقل، وخمسة عشر إلى عشرين ألف رجل يدافعون عن المدينة المزودة بمدفعية معتبرة.

لم يكن لدى ألبوكرك سوى ست سفن، ولم يطلب منهم إخضاع هرموز، وهددها لكي يحتفظ بها لمسقط. بدون أن يرفض حاول خوجا عطار أن يراوغ خلال أربعة أيام، كما حاول ألبوكرك، رغم أنه مجهد، وهاجم لمدة طويلة ظل مصير المعركة خلالها

متأرجحا، وكان القول النهائى لمدافع فلور دومار التى أثبتت فاعلية كبيرة ودمرت الأسطول، وعندما رأوا مصير المعركة اندفع المواطنون يقذفون بأنفسهم فى الماء ليصلوا الشاطئ سباحة، واندفع فى إثرهم البرتغاليون بمراكبهم يذبحونهم بدون شفقة.

ولاستغلال هذا التدمير لأسطول هرموز " ألبوكرك دفع شخصيا يقود بنفسه النزول على الأرض، وجرح فى وجهه بسهم، ولم يهاجم الشاطئ بقواته التى أحرقت ضواحى المدينة. وخضع المسلمون معترفين بسيادة البرتغال، والتزموا بدفع الجزية السنوية بمبلغ اثنا عشر ألف كروزادوس.

ونقش الاتفاق على نصلين من الذهب بالفارسية فى هيئة كتاب. وشيد ألبوكرك قلعة على عجل، عند نقطة مورونا، وطبق هنا نظام التحصينات العسكرية التى سوف تحتفظ له بمواطن احتلاله.

لكن قباطنته لم يفهموه، وحدث أمر خطير بالنسبة للبرتغال، فقد هرب خمسة برتغاليون لجيش المسلمين وأخبروا خوجا عطار بأهدافهم وأحوالهم، ولم ينجح أبدا فى استرجاع هؤلاء الخونة، جواو دانوفا وقبطانان آخران تركاه، وبذلك كان لزاما عليه أن يترك هرموز دون أن يحتفظ بانتصاره، ودون حتى أن يستطيع احتلال القلعة.

وصل سوقطرة ولم يستطع العودة لسواحل هرموز إلا كملاحظ، ولم يخطط للسيادة البحرية الضرورية. وأخبره نائب الملك أليدا أنه لا يعترف بما قام به، وأن لديه النية للتخلص منه، وعاد للهند عن طريق جوا نهاية عام ١٥٠٨، الصورة الدقيقة لما كان ينوى فعله فى هرموز كان يجب عليه الانتظار خمس سنوات لينجزه.

فى عام ١٥١٣ أصبح نائب الملك فى الهند وأرسل ابن أخيه بدرو[١٣٠]، ليوجد أمام رأس جاردافوى وسواحل الخليج الفارسى. طلب عبثا استعادة قلعة هرموز، وعاد ألبوكرك مرغما عام ١٥١٤، واستفاد من وضع داخلى قلق لنشوب سلسلة من الثورات،

واستطاع أن يستولى على القلعة لكى يغزو المدينة عليه أن يشترك فى المعارك الداخلية. طوران شاه الذى كان بالجزيرة، عند وصول ألبوكرك كان بين يدى باز أحمد ابن شقيق بازنور الدين وزيره. باز أحمد ولخوفه من البرتغاليين أطلق سراح بعض سجنائه(١٣١)، واستغاث نور الدين بألبوكرك لكى يساعد طوران شاه فى استعادة السلطة مقتنعا أن باز أحمد يخطط لاغتياله قرر ألبوكرك أن يواجهه، واقتنع بأن يكون الرجل الذى يحرر الجزيرة من الفارسيين، ومن خلال مواجهة بين الطرفين قتل البرتغاليون أحمد الذى كان يهددهم. وإن بقى طوران شاه فى مكانه، إلا أن هرموز كانت ابتداء من هذا اليوم فى أيدى البرتغال. وأصبحت المدينة ثرية حتى إنهم يقولون فى القرن السادس عشر : " إذا لم تكن هرموز جنة فهى قريبة من ذلك"(١٣٢).

ردود أفعال المسلمين

فى فينيسيا كما فى القاهرة، كانت النجاحات التى أحرزها البرتغاليون تعنى خسارة مصالح كثيرة. للمسلمين، فضلاً عن انتهاك وتعدى المسيحيين على منطقة يحكمونها بلا منازع منذ ألف عام. ولأنهم ذوو مصالح مشتركة، فإن أهل فينيسيا والمصريين لن يبقوا هكذا صامتين.

قررت فينيسيا أن تدافع عن تجارتها، فأنشأت عام ١٥٠٢، وكالة التوابل بمدينة الدوج (القضاة فى جنوة والبندقية) وضغطت على مماليك القاهرة لكى يتدخلوا. وكان الموقف فى مصر خطيرا فى العام نفسه ١٥٠٢، فالحصار أو الخوف من سفن البرتغاليين – جعل تجارة التوابل تتوقف بها عمليا(١٣٣)، وحاولوا شق قناة ليعبر من خلالها الأسطول التركى إلى البحر الأحمر، واهتمت البندقية كذلك بالمشروع. وأراد البابا سكست – كانت، أن يسيطر على الإسكندرية. جنوح النفوس غالبا دليل قلق واضطراب، ولنا أن نتخيل إلى أى مدى أربك البرتغاليون النظام المستقر. كانت خسارة

ميريل والقسوة الفجة لفاسكو دوجاما فى هذه المناسبة هما ما جعل السلطان يتدخل، فطلب من البابا الراهب الشهير فرامور فى دير مون سيون بالقدس، وقائمة كبيرة ممن ارتكبوا أعمالا شريرة ضد مسيحيى مصر والقبر المقدس، وذهبت هذه التهديدات بلا تأثير بل على العكس(١٣٤).

حملة ألميدا ضد الأساطيل المسلمة

أمام رفض البابا، أعد سلطان مصر عام ١٥٠٨ حملة مكونة من اثنتى عشرة سفينة وعين عليها أحد قواده وهو الأمير حسين، وتلقى مساعدة من الأتراك ومساعدة سرية من أهل البندقية(١٣٥)، وعند وصول الأسطول ساحل مالابار ألميدا لم يكن موجودا وألبوكرك كان أمام هرموز، فكان ابن نائب الملك، دوم لورانسو وألميدا الذى تلقى الصدمة وفقد حياته، مثل معظم البرتغاليين، بينما عاد اثنان من الفيدالجو الذين نجوا من المذبحة، وعن طريقهما علم ألميدا لدى عودته من كوشن بالمذبحة وبموت ابنه. ومن هنا فإن حزنه كأب يفسر سلوكه القادم، فقد فهم أنه يجب الإعداد لعواقب هذه المحنة.

سوف يبرهن ألميدا خلال هذه الحملة على حسم وقسوة قليلا ما نراهما، جمع السفن من كل الموانئ، وكان على رأس مائة منها وهاجم الأمير حسين فى عرض البحر أمام ديو. واجه البرتغاليون مسيحيين فى هذه المعركة، وبعضا من أهل البندقية وبخاصة حلفاء المسلمين ضد هؤلاء الذين يريدون تدمير تجارتهم.

وكانت المعركة حامية الوطيس فى ظل نيران مدافع حصون ديو، ولحسن الحظ، أغرق نينو فاسك بيريرا سفينة الأمير حسين: "استغرقت المعركة الليل كله وامتدت إلى مساء اليوم التالى، وفيها خسر الأعداء أربعة آلاف رجل من بينهم ثمانمائة مملوك من مماليك سلطان مصر، ولم ينج منهم سوى اثنين وعشرين"(١٣٦).

أفلت الأمير حسين من المذبحة وهرب إلى كومبايا، وكانت " هذه نهاية قوة المحمديين بمصر"[١٣٧]، ونجح مع من نجا وبالوسائل المتاحة أن يواصل الطريق للبحر الأحمر ويسيطر على ممر أسطول سلطان اليمن[١٣٨].

ألبوكرك نائب الملك بالهند

بعد إمضائه السنوات الثلاث التى فرضها الملك وفى عام ١٥٠٩، جعل ألبوكرك جاسبار بيريرا يفتح التعليمات السرية لدوم مانويل والتى جعلته نائبا للملك فى الهند. فرانسيسكو وألميدا يسانده الكباتن فى هرموز، وجواو دانوفا على رأسهم رفض مع آخرين أن يسلموا له السلطة، فسجنوه ونقلوه إلى كانانورا[١٣٩]، وفى هذا المكان يوجد ابن أخيه فرناندو كتينو، ماريشال البرتغال، الذى وصل لتوه على رأس خمس عشرة سفينة، وقد عرف بتعيينه من الملك فأطلق سراحه وأبحر إلى كوشن. أصبح ألبوكرك فى هذا الشهر- شهر نوفمبر عام ١٥٠٩- ثانى نائب للمك فى الهند.

بينما ناصر فرانسيسكو ألميدا، فئة تخضع السفن والمدفعية البرتغالية لسيادتها وبذل جهوده فى السيطرة على البحر، فقد بحث أفونسو ألبوكرك أولا عن امتلاك مصادر المنتجات فاستحوذ على جوا وملاقا، وفتح طريقا لمولوك وجزر البهارات وإلى الصين. وهكذا هاجم الأماكن المحصنة التى تتحكم فى الطرق البحرية لهذه التجارة : هرموز مرة أخرى من أجل الخليج الفارسى وعدن من أجل البحر الأحمر.

الموقف فى البحر الأحمر

فى عام ١٥١٣، وردت الأنباء من البحر الأحمر بالنُّذر، فقد حصل أهل البندقية لتوهم من السلطان الغورى بالقاهرة على موافقته للسماح لهم بالتجارة فى مصر، وقد

ترسخ نشاطهم التجارى بها لفترة طويلة. الأمير حسين اللاجئ فى جدة بعد أن فقد أسطوله فى ديو، أزال أحياء بأكملها وشيد سورا محيطا بالمدينة[١٤٠]، ولم يكن بلا مراكب؛ لأنه كما نعلم كان قد استولى فى عودته على معظم أسطول الملك الظافر سلطان اليمن. لم يكن السلطان الغورى مهتما بما يحدث لمصالح حسين رغم هزيمته؛ لأن انتصارات البرتغال أثرت بقوة على الزعماء المحليين بالبحر الأحمر واليمن[١٤١]، وكان الخطر حقيقيا على البرتغال الذين ينتظرون أى حدث بحرى جديد يقوم به المصريون.

تلقى ألبوكرك تعليمات محددة من دوم مانويل : " راقب عن قرب البحر الأحمر وجمع معلومات عن الحبشة، واقتحم المدخل الموصل لإريتريا وأحرق كل ما قابله هناك، ودمر السويس وحاصر الترسانة البحرية الوحيدة، " وعلم الملك بحالة سفنه التى يرثى لها وأسلحته غير الكافية عددا والسيئة كيفا، ولم يخفه سرا أن الحصون والقلاع فى حالة سيئة، وتعددت عمليات الفرار، وخطر التدخل المصرى غير مستبعد"[١٤٢].

وقد عضد وصول أسطولين برتغاليين يوم ٢٠ أغسطس ١٥١٠، تحت قيادة القائدين جارسيا دونورنا ابن شقيق ألبوكرك وجورج دو مللو بيريرا وجارسيا دو سوزا، ويتكونان من سبع وعشرين سفينة، الموقف، وجمع ألبوكرك قواته، وأدخل المراكب التى كانت لا تزال موجودة فى سوقطرة ودمر القلعة التى لم يستطع أن يؤكد احتلاله لها بشكل دائم[١٤٣].

علم ألبوكرك من خلال ما جمعه من معلومات من الأسرى المسلمين أن الأسطول المصرى يتأهب للاستيلاء على عدن، ولكنه لا ينوى دخول المحيط الهندى، واستقبل فى جوا ماتيو رسول الملكة هلين التى تشارك فى الحكم فى الحبشة. ولكنه لم يتعامل معه بخبرته حيث اعتبره جاسوسا وأرسله للبرتغال[١٤٤].

أجَّل ألبوكرك تدخله فى البحر الأحمر؛ لانشغاله بالحريق الذى اشتعل فى كالكتا والاستيلاء على جوا، هذه الأرض التركية والمسلمة بالهند والتى سقطت يوم ١٧ فبراير عام ١٥١٠: عاد الملك دوم مانويل بلا توقف فى خطاباته إلى ضرورة احتلال عدن، حيث كان يرى فيها مفتاح البحر الحمر، وأن قلعة برتغالية تشيَّد بهذا المكان من شأنها تمنع أى تجارة للمسلمين مع مصر. وكانوا يعتقدون فى لشبونة أن سلطان القاهرة يجهز أسطولا بالسويس بهدف هزيمة البرتغاليين بالهند.

عدن المنيعة

دييجو دياز الذى دخل خليج عدن عام ١٥٠٠، مر فقط أمام المدينة. فانسانت سودريه[١٤٥] قاد أسطولا من قوات الأسطول الرابع الكبير البرتغالى الذى تركه فاسكو دو جاما بالهند لحماية البرتغاليين، وقرر بمبادرة منه فى ربيع عام ١٥٠٣، أن يتجه نحو القرن، فاكتشف جزيرة سوقطرة؛ ومن هنا مهد الطريق إلى رأس جاردافوى. بعد التعرف على الساحل الشمالى للصومال، تقدم أمام عدن، ثم فى إبريل ومايو تعرف على سواحل حضر موت، الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية. اكتشف جزر كوريا - موريا، ولكنه غرق فيها وفقد حياته مثل أخيه سودريه براس وكثير من رفاقه[١٤٦]، وظلت عدن غير خاضعة.

فى نفس السنة تلقى أنطوان دو سالاندا الذى اشترك فى أسطول ألبوكرك، مع سفنه الثلاث مهمة مطاردة سفن التجارة العربية التى تمر فى باب المندب[١٤٧]. وفضل مهاجمة زنجبار وممباسا، وإحدى سفنه التى يقودها بيريرا وصلت مدغشقر وقضت الشتاء بها فى أغسطس عام ١٥٠٤.

في يونيه عام ١٥٠٤، أنطوان دو سالاندا الأسطول الثالث من الأرمادا الخامسة مصحوبا بسفينة روى رافاسكو، واكتشف شرق عدن مجموعة جزر تلقب بـ "كانا كانى"، وهى بلا شك جزر سكا.

نتذكر أن ألبوكرك فى أغسطس عام ١٥٠٧ وصل سوقطرة التى تعرف عليها من قبل فانسانت سودريه وبيريرا. وكانوا فى لشبونة ووجد الجزيرة مناسبة جدا لتكون قاعدة انطلاق لعمليات التدخل فى التجارة العربية آخذين فى اعتبارهم أن عدن لم تخضع بعد ويجهلون فى الحقيقة أن السفن العربية التى تبحر بطول ساحل حضر موت غالبا لا تتردد على الجزيرة[١٤٨].

١٠ أغسطس ١٥٠٧، وفى شهر يناير ١٥٠٨، أعطى ألبوكرك الأولوية لحملة ضد هرموز موصوفة سابقا، ولا شك أنه أراد أن يفيد من المعلومات التى جمعها من القبطان عمر، ومن يناير حتى مايو ١٥٠٨ قام بعمل إغارات على الساحل الشرقى الأفريقى حول جاردافوى، واستولى على جزيرة عبد الكوريا كمأوى بين سوقطرة وجاردافوى، وعين رقيبا على اللسان البحرى. واعتقد بذلك أن بإمكانه التخلص من كثير من السفن وتدميرها، لأن الكل، كما يعتقد، من هذا الاتجاه أو ذاك سوف يأتى لهذا الرأس قبل مواصلة طريقه، لكنه لم ير منها إلا أربعا، هرب منهم ثلاث. وقد أرسل ألبوكرك إلى زيلع بعثة بحرية من رجلين مسلم وبرتغالى كلفهما بالوصول إلى بلاط الكاهن يوحنا، ولكن لا يوجد دليل على أنها نجحت فى مهمتها[١٤٩].

الاستيلاء على عدن له أولوية مطلقة عند البرتغاليين، لكن الجميع يتردد، فقد ألبوكرك كثيراً من الوقت؛ ولذا عاد إلى سوقطرة، كانت الرياح شديدة لدرجة تمنعه من الذهاب إلى عدن دون أن يجنح ناحية الغرب. وفى يونيه ١٥٠٨ عاد إلى عمان، ثم إلى هرموز؛ ليحاول بلا نجاح مباشرة أعمال تشييد قلعة، فرحل مباشرة إلى الهند فى نوفمبر من نفس العام ليواجه نائب الملك ألميدا[١٥٠].

يستقر أسطولان برتغاليان فى شرق أفريقيا دون أن يهاجما عدن. وفى عام ١٥٠٨ أنشأ الأسطول الذى يقوده دوارت دوليموس حصونا على الساحل، وآخر بقيادة دييجو لوبيز دو سوكيرا هاجم تجارة البحر الأحمر عند الخروج من المضيق[١٥١].

يوم ٨ فبراير ١٥١٣، أبحر ألبوكرك فى اتجاه عدن، وكان أسطوله يتكون من عشرين سفينة على متنها ألف وسبعمائة برتغالى وثمانمائة من المواطنين الذين يساعدون ضمن القوات البرتغالية. نظرا لحاجته للتزود بالماء فقد استدار فى اتجاه سوقطرة حيث أدهشه الفارتكان[١٥٢] الذين كانوا يقومون بإصلاح قلعتهم. احتجز سفينة قادمة من شاول وأخذ قبطانها ضمن قوائمه. نصحه هذا بالإفادة من نظام الرياح، ولكنه لم يدلِ بمعلومات ذات قيمة فيما يتعلق بسواحل عدن. ألبوكرك اتخذ طريقه نحو الساحل الأفريقى عن طريق جزر عبد الكوريا وحتى جزيرة ميى [١٥٣] على الساحل الشمالى للصومال.

" انظرا لأنه لم يصطحب معه قبطانا على دراية جيدة بهذه الملاحة، فكان معه فقط مارتن منديس الذى كان بالفعل فى كانارى[١٥٤]. والقبطان المغربى لم يفد كثيرا. لنصيحته لهذا كان على ألبوكرك أن يتجه لرأس جاردافوى، ثم يسير بمحاذاة الساحل حتى يقترب من عدن ثم يعبر من هنا سريعا ليصل ساحل الجزيرة العربية بسبب الوقت"[١٥٥].

وصل فى اليوم التالى إلى دارزينا على بعد ستين كيلو مترا شرق عدن " مع الرياح الباردة وصل ميناءها " ولكن ألبوكرك خشى من المفاجأة ومعه هذا العدد الكبير من السفن. وتجنب أن تتشاجر السفن فيما بينها، فأمر بالتوقف أثناء الليل.

" لكن بيرو دالبوكرك ابن أخيه جاء على زورق ليراه على سفينته ليخبره بأنه وجد عمقًا يصل٣٥ باعا(*) هو ما فحصه أفونسو دالبوكرك، ولما كان الوقت ليلا فقد أمر بإيقاف السفن والمجس فى يده والذى وصل لعمق قريب يبلغ نحو ١٤ باعا بالقرب من ميناء عدن والذى نراه من هنا؛ ولأن المغاربة يريدون أن يفقد الأسطول طريقه أو يخطئ الميناء، فقد أمروا بإشعال النار فى نقطة منخفضة أمام مدخل المضيق : هكذا اتجهت السفن نحو هذه النيران وهى ترى المدينة، لكن ألبوكرك لم يثق فى النيران ولا فى العمق الذى سبر غوره فأطلق الأشرعة (١٥٦).

وهكذا فقد ألبوكرك ورقته الرابحة وهى عنصر المفاجأة، وفى اليوم التالى صباحا يوم الجمعة المقدس، ذهبت السفن البرتغالية لترسو أمام المدينة، وقضى البرتغاليون اليوم فى ترتيب وتنظيم أماكن رسو السفن، واستقبل ألبوكرك زيارة الأمير مرجان(١٥٧).

" يدعى مرسى - مرجان، مولود فى أبكسى " الحبشة " ولكنه أصبح مغربيا " مسلما " وقد طلب ألبوكرك منه إمدادا لأسطوله. وأجاب أفونسو ألبوكرك بأنه كابتن عام هذه الأقاليم الهندية بأمر الملك دوم مانويل سيده، جاء هنا للبحث عن أساطيل الروم التى قالوا له: إنها رحلت من السويس"(١٥٨).

ولم ينخدع الأمير لأنه سمعهم يقولون: إن البرتغاليين سوف يذهبون للسويس، وقدم الطعام والقوت لكنه رفض النزول من المراكب.

أعطى ألبوكرك أوامره بالهجوم فى ظروف سيئة؛ لأنه فقد الزوارق التى تساعد فى إنزال القوات على الأرض، وحاول البرتغاليون تسلق الجدران بمساعدة سلالم لكنها لم تسعفهم. وظل بعضهم بالداخل بعض الوقت ثم أبيدوا.

(*) وحدة قياس بحرية تبلغ نحو متر و٦٧سم. المترجم.

كان الوضع خطيرا حيث جزيرة سيراح الصغيرة[١٥٩]، الأسطول بستة وثلاثين مدفعًا، فى مفاجأة غير سارة للبرتغاليين الذين اعتقدوا أن المدينة لا تملك مدافع. استولى نورونا على الحصن وأخذ المدافع التى أضيفت إلى قوة الأسطول ضد المدينة ولكن عبثا، والمعلومات التى جمعتها الجمال[١٦٠] سرعان ما ذهبت إلى العرب، وألبوكرك لم يرد استكمال باقى المهمات ورفع الحصار يوم ٢٦ مارس[١٦١]. فقد الكثير من الرجال، من بينهم مائة أسير تركهم بين يدى الأمير، وأمام هذا الثمن الفادح لم يفعل سوى إغراق عدة سفن.

مشروع لتحويل مجرى النيل

لا تتوافر معلومات كافية عن التعليمات المعطاة للمبعوثَيْن إلى الكاهن يوحنا واللذين أرسلهما ألبوكرك إلى زيلع عام ١٥٠٨، والراجح أن الهدف من هذه البعثة كان إقامة اتصال بين الجانبين. بيد أنه من المحتمل أنها كانت تهدف إلى القيام بمشروع خيالى بعض الشيء والذى يمنى ألبوكرك به نفسه : تغيير مجرى مياه النيل[١٦٢]. نعلم أنه كتب مرات عدة إلى الملك دوم مانويل يرجوه :

"أن يقدم إلى الحبشة عدة مئات من مزارعى ماديرا، المشهورين بقدرتهم على الحفر والردم بمهارة والأكثر ثباتا، وفى هذا العصر وكانت طبيعة الجزيرة تقتضى أن تنحت الجبال حتى تسوى بالوديان لرى قصب السكر"[١٦٣].

كان هذا من جهة أخرى مشروعا قديما أثير عام ١٤٤٢، فى رحلات جلبير دولانوى[١٦٤]. أمير فرنسى، برتراندون لابروكيير قابل عام ١٤٨٣ فى إستانبول صعلوكا من نابلس، زار الرجل الحبشة وقدم أمامه هذه الاقتراحات بخصوص النيل :

"ويقولون: إن النهر الذى يمر بالقاهرة والذى يسمونه النيل وهم " الأحباش يسمونه جيون، وأنه ينبع من هذا البلد من بين جبلين"... "وما هو إلا نهر صغير"، "وعند المر الكاهن يوحنا شيد برجين كبيرين وسلسلة كبيرة لماذا ؟

أخبرنى أنهم يقولون: إن داخله غناء ورقيقًا لدرجة أنهم لا يريدون الرحيل إطلاقا، وقيل: إنه مستمر حتى ما يسمى بالمر، وقيل: إنهم جرءوا على القول بوجود غناء وأنه يسعد الكاهن يوحنا الذى سوف يجعل النهر يجرى فى مكان آخر، ولكنه يتركه لأن به مسيحيين كثيرين سوف يحيون على ما يسمى بالنيل"(١٦٥).

الرحلة البرتغالية الأولى فى البحر الأحمر

بعد أن فشل أمام عدن قرر ألبوكرك الدخول فى البحر الأحمر. القبطان الهندى، أكد له أنه سيعثر بالماء على جزيرة كماران، وبناء على هذه النصائح أسرعوا، وكانت السفينة الوحيدة هى سفينة جون جوميز التى سوف تبحث أولا عن قبطان بجزيرة روبونس، على الشاطئ الآسيوى لمضيق باب المندب.

دخل الأسطول بأكمله فى البحر الأحمر وسار بطول الساحل الآسيوى. موكا، ميناء القهوة فى القرن الثامن عشر، وكانت آنذاك لا يعتد بها ولكن طبقا للمؤرخين العرب سوف يتوقفون بها، ثم يتوقفون بجزيرة سوكر (جبل سوكر) حيث توجد مركبان من زيلع وبربرة محمّلتان بالعبيد الأحباش، وسوف يتغلبون على صعاب يواجهها البحارة.

يجهل ألبوكرك الحديِّدة ولوحيا ووجد نفسه فى جزيرة كماران. وأمضى شهرى يونيه ويوليو عام ١٥١٣ يصلح سفنه بهذا الموقع(١٦٦). السكان القلائل وعمال المراكب هربوا لأقرب يابسة. أثناء إقامته أرسل ألبوكرك جون جوميز بمركب اكتشاف إلى أرخبيل دحاليك، على شاطئ الحبشة مكان آخر للنفى استخدمه الخلفاء. ازدهر هذا

المأوى الذى يلجأ إليه القراصنة وصيادو اللؤلؤ ولا سيما بسبب مرور العبيد الأحباش به. ولم يجد به جوميز إلا نحو مائة من السكان ولا يمارسون أية تجارة، وعلم بوجود ميناء مصوع لكنه لم يزرها(١٦٧).

طور ألبوكرك مشروع مهاجمة جدة، ثم أخذ ميناء يامبو (جامبو البحر) لمد يد المساعدة ضد المدينة ويأخذ جثة محمد. وانظرا لتأخره حيث رياح الشمال العاتية ترك مشروعه. بعث برسالة إلى ملك البرتغال عبر وسيط مسلم من مصر ارتد للمسيحية، وحاول تبادل معدات سفينة برتغالية ألقتها العاصفة على ساحل عدن عام ١٥٠٥ ويقال: إن السلطان الطاهر الزبيدى قام بأسر هذا الوسيط ولم يجبه إلى مطلبه، ومات قبطان السفينة دوارت دو ليموس، كما مات كل رفاقه فيما عدا واحد من بينهم هو ج. دو قادرا الذى استطاع الوصول إلى هرموز عن طريق باسورا(١٦٨).

١٥ يونيه ١٥١٣ أبحر الأسطول جنوبا وتعرف على جزيرة بريم عند عبوره، ورأى أن خليجها الداخلى قد يستوعب نحو مائتى سفينة، ولكن عدم وجود الماء يجعل أى احتلال عديم الفائدة. ورفع البرتغاليون صليباً فوقها ولقبوها: جزيرة فيرا كروز.

وصلت سفينتان تحت قيادة جون جوميز ورى جالفاو إلى زيلع وتجنبا الفخ الذى أعده السكان ورفضا الإنزال وأحرقا زوارق الميناء. أعد جوميز تقريرا لألبوكرك عن زيلع، وقد اعتمد على هذا التقرير يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٥١٤(١٦٩)، حين اقترح على الملك احتلالها وكذلك احتلال مصوع.

وجرت محاولة ثانية أمام عدن لكنها لم تلق نفس نجاح المحاولة الأولى. واستولى على جزيرة سيراح الصغيرة ثم تركها، وأحرقَتْ طلقاتُ مدفع صغير بعض السفن وعدل ألبوكرك عنها.

يوم ٤ أغسطس عام ١٥١٣، أبحر إلى جاردافوى ولأنه كان يعرف هذه الرأس، سوف يرى منها الهند.

والواقع أن إخفاقه فى الاستيلاء على عدن كان له صداه فى العالم العـــربى، وقد رأت " كـرونيك دو ياحـا " فى ذلك انتــصــارا : " أراد الله أن يغـادر مـدن اليــمن مدحورا"(١٧٠).

المحاولة الأخيرة لألبوكرك ضد هرموز وعدن

نفد صبر لشبونة ورأت أن ألبوكرك غير قادر على الاستيلاء على عدن ولكنه فى خطابين يوم ٢٠، ٢٥ أكتوبر ١٥١٤، اقترح استـثمـار عدن بتكريس قوة مكونة من خمسة آلاف رجل، وطور خطتها حيث أوضح ألبوكرك أنه يهدف لاحتلال جزيرة كماران ومؤقتا جزر فرازان، ولكنه سيستولى أولاً على مصوع، واستخلص أنه بعد هذه المرحلة الأولى سيتفرغ للقيام بعمل ضد جدة ومكة والسويس.

أمام التدخل فى هرموز حيث تدهور الوضع ألغى هذه الضرورة بإيعاز واضح من عاهله، وجمع أسطولا مكونًا من خمس وعشرين سفينة وألف وخمسمائة رجل، وعهد بها إلى ابنى أخيه بدرو وفانسان دالبوكرك، وكانت مهمتهما الاستيلاء على هرموز ثم عدن والتقدم فى البحر الأحمر. ورغم مرضه اصطحب الحملة، والملابسات أبت إلا أن ينفذ الجزء الأول من هذه الخطة.

عند الخروج من الهند يوم ٢١ فبراير ١٥١٥، وصل البرتغاليون أمام هرموز. أفاد ألبوكرك من فتنة داخلية واغتال الوزير الكبير حامد على يد ابن أخيه بدرو، ووضع مكانه سيف الدين وهو عاهل شاب يبلغ من العمر تسعة عشر عاما. عن طريق اتفاق وقعوه يوم ١ إبريل عام ١٥١٥، قبل الملك الجديد " بحماية " البرتغاليين، وتم بناء القلعة أخيرا، وأوقف ألبوكرك الممارسات الوطنية المنتشرة بين السكان".

وانظرا لتدهور حالة قوات ألبوكرك اضطروا لترك الجزيرة فى حراسة بدرو دالبوكرك الذى أبحر يوم ٨ نوفمبر ١٥١٥، عائدا إلى جوا وتلقى علاجا يوم ١٠

أغسطس، وأرسل من جديد إلى البرتغال ابنا آخر من أبناء شقيقه وهو جارسيا دو نورونا ليعلم الملك بالوضع، وفى عرض البحر أمام كالات على ساحل عمان وصله نبأ غضب الملك عليه عن طريق مركب شراعية تحمل البريد قادمة من الهند، فقد عزله الملك مانويل من القيادة وكذلك كل رفاقه دون سابق إنذار، خليفته لوبوسوارس دو ألبرجاريا كان قد وصل منذ يوم ٨ سبتمبر إلى جوا. ألبوكرك شعر بالإحباط وكتب :

" هكذا، ساءت علاقتى بالملك بسبب حب الناس، ساءت علاقتى بالناس بسبب حب الملك، فلتتجه أيها العجوز إلى الكنيسة، منتظرا الموت. يشرفك أن تموت ولن ينكروا أبدا ما فعلته بشرف"(١٧١).

وطبقا لباروس : " أسرع الحزن به إلى الموت " يوم ٦ ديسمبر ١٥١٥ كتب رجاء إلى الملك استرحاما أن يوصى به ابنه، وأضاف: " بالنسبة لمهام الهند لن أتحدث عنها، فسوف تتحدث عن نفسها وعنى"(١٧٢).

ومات ألبوكرك أمام متاريس جوا يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥١٥، بعد أن تأمل المدينة للمرة الأخيرة من كوة فى السفينة، مات عن عمر يناهز الثالثة والستين، مطرودا من عطف ملكه بعد ستة أعوام من الحكم "لزهرة جميلة زيَّنت تاج سيده(١٧٣).

استمرت قضية الاستيلاء على عدن أحد هموم ملك البرتغال، وعلى الرغم من أنه استبدله، فإنه كان يريد أن يتم هذا الأمر بواسطة ألبوكرك. ربما كان هناك بعض من تأنيب الضمير أحس به الملك فى هذا الشأن وشأن ألبوكرك. يوم ١١ مارس عام ١٥١٦ أخبر دوم مانويل رسميا ألبوكرك - الذى يجهل موته- أنه وجد خلفا له متمثلا فى شخص لوبوسوارس دو ألبرجاريا. وحدد أنه يرغب أن يعتبر نفسه مستقلا عن هذا الأخير وأن يؤسس حيا عاما فى عدن " أو فى مكان آخر بالمضيق ". وأضاف الملك أن النبأ - الخطأ - بالاستيلاء على عدن وصله من البندقية(١٧٤). هذا الموقف من دوم مانويل يوضح تماما الأهمية التى كان يحلم بها وتلمع فى عيونه، وهى أهمية الاستيلاء

على هذه المدينة. وذكَّره " كم تحمل من تأكيد السيطرة البرتغالية على البحر الأحمر من أجل الاحتفاظ بالهند ".

الأسطول المصرى فى البحر الأحمر

فشل ألبوكرك على أعتاب عدن عام ١٥١٣، واستقبله بحماسه فى القاهرة السلطان قنصوه الغورى، الذى باشر بالفعل تشييد أسطول جديد بالسويس عهد به إلى الريس سليمان، عبد تركى قديم، وقرصان قديم بالبحر المتوسط، راهب فرنسى، اسمه جون تينو شهد ذلك عام ١٥١٢، عند زيارته لدير سانت كاترين:

" فى ميناء السويس شيد سلطان القاهرة ثلاثين سفينة ليحول بين ملك البرتغال والوصول إلى الهند؛ لأنه يسبب قلاقل لمرور البضائع من التوابل والبهارات وكذلك رحلات الحج إلى مكة: ست سفن منها تم تشييدها وكثير من المسيحيين مقيدون لكى يقوموا بالتجديف والإبحار "(١٧٥).

فى الواقع تكوّن الأسطول المصرى من أربع عشرة سفينة(١٧٦)، ووصل جدة، حيث توجد سفن الأمير حسين، وأفاد من هذه المناسبة المواتية ليعود مكللا بالنجاح، والتحق هذا بسليمان باشا ومعه عدة سفن، وعادت السفن المصرية لترسو فى يوليو ١٥١٥ أمام جزيرة كاماران التى احتلها البرتغاليون قبل ذلك بعامين. باشر الأمير حسين تشييد قلعة، كما فعل أعداؤه، وانظرا لحاجته لمواد البناء نهب كل موانئ الساحل وأطلق عملية غزو طيباما- الجزء الجنوبى من اليمن- مشعلا حربا أهلية بهذا البلد. كما نهبت الحديدة على يد الأمير حسين، وأخذت زبيد ونهبت يوم ٢٥ يونيه ١٥١٦، ناسيا مهمته الأساسية ترك نفسه يتذوق طعم المغامرة وأصبح له اهتمام مشترك مع الأمير حسين أثناء مقابلة بالميناء الصغيرة فى لبوكا، بمدخل وادى زبيد تم غزو جنوب اليمن على يد بارسابك (الدين بارسباى) مملوك من أصول جركسية فى خدمة سليمان باشا.

تركوا كماران وقرروا نهب الساحل الصومالى للتزود والاستيلاء على عدن كى تصبح لديهم قاعدة صلبة للعمليات ضد البرتغال.

بذلت زيلع كل ما فى وسعها لكى تفى باحتياجات الأسطول المصرى كى تراه يغادر مياهها فى أسرع وقت، ولكن بلا شك إلى عدن؛ لأن المصريين وجدوا ميناء خالية. ورغم المطاردة لم يستولوا إلا على سفينة تجارية. خمسة عشر يوما من ضربات المدافع ولم تهزم وأبحروا إلى جدة.

خلال هذه الفترة استولى بارسابك على زبيد وموسى وتايز ثم ساجار الحيب، وأسقط أسرة الطاهريين لمدة عامين. وفى يوم ٧ إبريل عام ١٥١٧ آلت إليه صنعاء بعد أسر الملك الظافر وإعدامه(١٧٧). موت السلطان الغورى وغزو العثمانيين لمصر فى إبريل عام ١٥١٧، سوف يغير الموقف تماما لصالح هؤلاء العثمانيين(١٧٨).

بعد اغتيال بارسابك على يد قواته فى يوليو عام ١٥١٧، نصبوا إسكندر بن محمد قائداً لهم، وهو الذى اختاره سليم الأول حاكمًا على زبيد. الإمام الشريف الدين أدخل فى الصراع واستولى على صنعاء وفقد جنوب اليمن واغتيل إسكندر. كلف سليم الأول مسيحيا مرتدا (ترك المسيحية واعتنق الإسلام)، هو حسين الرومى بإعادة النظام، وهو ما أدى به إلى السيطرة على زبيد وتعز ثانية. ومات عام ١٥٢٥ وعين خلفا له مسيحيا آخر مرتدا عن المسيحية معتنقا للإسلام هو مصطفى الرومى.

أما سليمان الذى اغتال الأمير حسين بإغراقه فى البحر أمام جدة(١٧٩)، فقد استطاع أن يستعيد النظام لمصلحته لدى العثمانيين، حتى إنهم منحوه لقب الكابتن باشا وجعلوه مسئولا عن مباشرة الهجوم ضد البرتغال فى الهند(١٨٠). وعلم هؤلاء من مقرهم فى عدن عام ١٥١٦، ولم يبقوا هكذا مكتوفى فى الأيدى فاستعدوا بنشاط لمعركة تدور رحاها فى البحر الأحمر.

وفى عام ١٥١٧ حشد لوبيز سوارس دو ألبرجاريا خليفة ألبوكرك، بوصفه حاكما للهند، أسطولا من أربعين سفينة على متنه ألفا رجل ليحقق ثلاثة أهداف ألح فى طلبها ملك البرتغال :

١- تدمير ميناء جدة.

٢- النيْل من قوة المماليك ثم العثمانيين بالسويس.

٣- إقامة اتصال مع مملكة يوحنا، وهو الأمر الذى طلبه ماتيو مبعوث الملكة هلين.

وغادر لوبو سوارس جوا يوم ٨ فبراير ١٥١٧، بينما احتدمت المعركة فى مصر بين المماليك والعثمانيين وسقطت أسرة الطاهريين باليمن.

ووصل يوم ٣٠ أمام سوقطرة وتأكد من تدمير القلعة. وفى يوم ٤ مارس تخطى الأسطول جاردافوى واستقر أمام عدن، وعرقلهم نجاح المصريين باليمن، ورغب سكان عدن فى حماية البرتغاليين ولكن ألبرجاريا ليس هو ألبوكرك، فقد كان يعوزه الحس السياسى، فقد رفض مفاتيح المدينة التى قدمها له الأمير مرجان الذى طالما قاومه، وترك هكذا بسهولة هذه الفرصة الثمينة للاستيلاء على عدن دون طلقة مدفع واحدة تتفلت من بين يديه؛ ربما لأنه كان يفكر بالمقارنة مع ألبوكرك، فرفض نصرا بلا مجد. وربما اعتقد أن باستطاعته النهوض بذلك إثر عودته، فلا داعى لإضعاف قواته الآن بترك حامية هنا :

وكان هذا خطأ جسيما؛ لأن احتلال عدن على يد البرتغاليين كان سيغير تاريخ الإقليم.

عبر الأسطول البرتغالى مضيق باب المندب يوم ١٧ مارس ١٥١٧، وعلى متنه عدة قباطنة ووصل جدة. أخذت الرياح جزءا كبيرا من السفن على بعد أقل من خمسة وعشرين ميلا، والسفن المتبقية بقيت فى البحر خمسة عشر يوما أمام جدة وهى عاجزة عن الإنزال. كان لدى سليمان ما يكفى من الوقت لتنظيم نفسه. لوبو سوارس سار

بغباء بعرض البحر فى حين أن الدفاع لم يكن يتعدى ثلاثمائة رجل وأن ستين عبداً من العبيد المسيحيين فى المدينة كانوا على استعداد لمباغتة المدافعين.

أفادوا من ذلك للاستيلاء على مركبين والتحقوا بأركيكو لكى يكونوا فى خدمة الأحباش(١٨١).

خلال هذا الوقت وجد الجزء الأخير من الأسطول نفسه فى كماران، ثم وبخطأ من قبطان عدن وصل الساحل الإثيوبى، وبحث عبثا عن سواكن المختبئة فى عمق بوغاز طويل. وصل بعد ذلك إلى جزر دحاليك حيث أراد ماتيو أن يلتحق بأركيكو القريبة جدا والتى تتبع الحبشة، لكن لم يثقوا فيه ورفض البرتغاليون، وأحدث نقص الماء غضباً بين فرق السفن، ولكن سفن لوبو سوارس التى أتت أخيرا من كماران أنقذت الموقف.

جالفن- السفير البرتغالى العجوز- مات من الإعياء، لكن ماتيو ألح طيلة الوقت للعودة للأحباش، وبعث إليه لوبو سوارس بسفينتين للقيام بما يريد. وقد أراد بعض البرتغاليين رغم نصائح ماتيو النزول بجزيرة دحاليك فذبحوا، والآخرون تركوا البعثة، ورغم اقتراب ماتيو من الوصول إلى مصوع، عاد للهند حيث ظل بها ولم يرحل عنها إلا عام ١٥٢٠(١٨٢).

حاصر لوبو سوارس، الذى رفض عدن بدون قتال، جدة بلا جدوى فألحق الضرر بالبعثة لدى الكاهن يوحنا حيث كانت تنتقل من فشل إلى فشل. غادر كماران يوم ١٢ يونيه عام ١٥١٧، بعد ما دمر القلعة التى شيدها سليمان لينتقم من زيلع الخالية من الدفاع، وفعل ما أراد على الطريقة البرتغالية؛ حيث ذبح السكان بالسيف عام ١٥١٧، واستبقى بعض الفتيات. وهكذا أصبحت المدينة بين يدى حبشى اعتنق الإسلام، قريب للنيجوس لبنا دنجل، سليل وخليفة زعيم زيلع(١٨٣).

بعد هذا العمل السهل، استقر البرتغاليون أمام عدن وهم يعتقدون قدرتهم على الاستيلاء على المدينة بسهولة. لكن الأمر لم يكن كذلك وغدر السلطان، فهم يعرفون أن

قوات لوبو سوارس ضعفت جدا، ولم يلح هذا كثيرا، وبعد خمسة أيام من التحركات، حاول التزود بالماء والطعام الذى قدم له ثم أقلع.

أراد تدمير بربرة لكنه لم يعثر على المدينة(١٨٤)، فأراد أن يقضى الشتاء ووصل هرموز، وهناك علم بوصول أسطول مهم من البرتغال إلى كالكتا، ومن ثم أبحر ووصل هذه المدينة فى شهر ديسمبر.

هزمته كذلك الدسائس، وحل محله فى العام التالى دييجو لوبيز دو سكيرا، ثم غادر لوبو سوارس الهند يوم ٢٠ ديسمبر ١٥١٨.

دييجو لوبيز دو سكيرا يقود الهجوم

ظلت المشكلة المنغصة – وهى مشكلة حصار تجارة العرب فى البحر الأحمر– تقض مضاجع البرتغاليين. وكانت لدى الحاكم الجديد أوامر دقيقة فى استرداد السلطة من العثمانيين بمصر، فحشد ستا وعشرين سفينة حربية وأبحر فى بداية عام ١٥٢٠. وسفينته الخاصة غرقت أمام عدن، ولكنه وصل يوم ١٣ فبراير عام ١٥٢٠ مصوع ومعه ألف ومائتان من الرجال.

كانت الجزيرة خالية من السكان واستطاع سكيرا الذى كان يملك كثيراً من المدافع أن ينزل بها ويبقى بها حامية، وكان يستطيع أن يشيد حصنا لكنه لم يفعل ولكنه حوَّل مسجدا إلى كنيسة.

اختاروا أركيكو القرية المسيحية لتنزل بها البعثة الدبلوماسية التى يترأسها رودريجو دو ليما، وسهل من هذا وجود بحار نجاش وهو حليف حبشى كبير، كان ينتظر البرتغاليين ومعه ألفان من رجاله. وتمت مقابلة بين الزعيمين يوم ١٠ إبريل عام ١٥٢٠(١٨٥). وخلال هذا اللقاء تقرر أن تتم حراسة البعثة البرتغالية حتى بلاط الكاهن يوحنا.

كان اختيار المبشرين غير موفق، لأن رودريجو دوليما صديق سكيرا، لم يكن دبلوماسيا ساعده بوحشية وبدون حكمة جورج دابرو " شخصية محبة للأبهة ومشهور بمهارته فى البهرجة[١٨٦]. وكاهن هو فرانسيسكو ألفارس، وشخصان آخران صحبا البعثة، جواو سكولار ولويودا جاما، وكذلك التعس سفير الحبشة ماتيو الأرمنى، وأخيرا اعترف بها هكذا بحار نجاش.

أبحر سكيرا وأحرق مدينة دحلك، وعاد إلى عدن التى لم يجرؤ على مهاجمتها، وعن طريق هرموز عاد للهند، ومرة أخرى نقول: تمخض الجبل فولد فأرًا ومع ذلك لم يكن لدى الاتراك ما يخشونه من البرتغاليين فى البحر الأحمر.

ولقى حاكم الهند نفس مصير سابقيه، وأبلغ رفاقه بتجاوزات جواو الثالث خليفة دوم مانويل فى ديسمبر عام ١٥٢١. وحل محله يوم ٢٢ يناير عام ١٥٢٢ دوم دوارت دومنيزس، وكان جشعا شرها من هؤلاء الجشعين الذين سيجلبون وصمة العار للبرتغال[١٨٧].

البعثة البرتغالية فى الحبشة

بدلا من تتبع بحار نجاش نحو عاصمته ديباروه، اختار البرتغاليون طريقا آخر يعرفه ماتيو. فى مايو ١٥٢٠ وصلوا ديربيزن متأثرين جدا بالدوسنتاريا، وتوفى الأرمنى بها فى ٢٤ مايو ١٥٢٠. تجنب رفاقه أسمرة القريبة ووصلوا ديباروه. ومنها رحل بحار نجاش، وسمح لهم بمواصلة رحلتهم فعبروا نهر مأرب ليدخلوا تيجريه، وصل البرتغال أكسوم التى كانوا يسمونها أكواكسوما، ووصلوا أمام كنيسة سان مارى دوسيون، وجمعوا أسطورة ملكة سبأ مؤسسة المملكة، ومروا بعد ذلك عن طريق كوركورة ومنادلى إلى بلاد نوياس ووصلوا مدينة أمهرا وتوقفوا فى لا ليبلا، حيث

وجدوا كنائس كبيرة. وبعد رحلة كبيرة عبروا فيها أمهرة إلى أسمرة. ودخلوا شوا بعد المرور بدير دبرا ليبانوس بالقرب من أكوبار.

يوم ٢٠ أكتوبر ١٥٢٠، وبعد توقيع بروتوكول صارم، رأت البعثة البرتغالية أخيرا داود الثانى الذى يحكم الحبشة، ولم يكن محبا للأجانب ولم يتكرم باستقبال ليما إلا بعد شهر من الانتظار. يوم ١٩نوفمبر ١٥٢٠، تمت المقابلة وجها لوجه، وأسفرت عن دعوة النيجوس ملك البرتغال " لعلنا نستطيع تشييد قلاع فى مصوع وسواكن قادرة على منع الأتراك الذين يحكمون مصر منذ ثلاثة أعوام ويتقدمون جنوبا ". والتزم بتقديم مواد البناء اللازمة وتوفير اليد العاملة، وطلب أن يستولى على زيلع، وكانت زيلع هى النقطة الرئيسية للإمدادات المتجهة إلى عدن وجدة ومكة والطور والقاهرة".

وقد طمأن السفير النيجوس أن الاستيلاء على زيلع سيكون سهلاً؛ انطلاقًا من القلاع المشيدة، وبالتالى فإنه من الممكن الاستيلاء على جدة ومكة(١٨٨).

سيصبح البحر الأحمر ممنوعا على الأساطيل الرومية (المملوكية) وعلى الأتراك بالجزيرة العربية.

وكانت العودة السريعة إلى الهند أمرًا مطلوبًا لكى يوضع موضع التنفيذ البرنامج الذى اقترحه للنيجوس، لكن البعثة انتظرت عودة لوبيز سكيرا فى الربيع التالى. تحملوا الانتظار على ملل، وتشاجر ليمار أبرو. أعد النيجوس خطابات لملك البرتغال ترجمها بدرو دو كوفيلا الذى يوجد فى البلاط على غير رضاه. أدخلت مراتب من الذهب وخيطت الأكياس التى تحتوى الرسائل وضعت لدى البرتغاليين فى فبراير عام ١٥٢١، وغادرت البلاط يوم عيد الفصح عام ١٥٢١، فى مجموعتين منفصلتين وصلتا يوميا يدا بيد. وتفاقم الوضع، عندما وجدوا بحار نجاش فى ديباروه، حيث حددت إقامته ووضع تحت الحراسة، ولكن بعد الموافقة المسبقة التى يريدها داود الثانى لملك البرتغال(١٨٩).

فشل لويس دو منيزس

في يوليو ١٥٢٣ وأثناء عملية في عمان، رجع لويس دو منيزس إلى البحر الأحمر؛ لكي يتصل بالبعثة الدبلوماسية لماتيو دو ليما، فوصل مصوع وبعث برسله إلى البلاط موضحا أنه لن يستطيع الانتظار لأكثر من عدة أيام بسبب هبوب الرياح الموسمية، وعلى البرتغاليين أن يلحوا في طلب موافقة النيجوس على الحرب ضد العدو، وانتظروا الإجابة طويلا، وعندما جاءتهم كان الأسطول البرتغالي قد غادر، وكانت إمدادات وعبوات من الفلفل في انتظارهم في أركيكو، وكان منيزس بعيدا وأحرق عفار بالقرب من رأس فارتاك.

عودة البرتغاليين للحبشة

بالعودة لبلاط النيجوس تغيرت الصلات بين الأحباش والبرتغاليين الذين كان عليهم أن يقبلوا بوجود سفير إثيوبي يحمل رسالة إلى ملك البرتغال امتدحت هذه الرسالة البعثة البرتغالية وجددت طلب تشييد قلعة، وأضافت رجاء يتعلق بإرسال حرفيين " صاغة وطبَّاعين وعمال ذهب والذين لن يبعثوا على غير رغبتهم ". وفي خطاب آخر مؤرخ بعام ١٥٢٤ طلب النيجوس تبادل السفراء محددا أن الإقامة الطويلة لبعثة ليما لا لشيء إلا لتأخر وصول الأسطول البرتغالي. وأرسل خطابين للبابا ليكملا رسالة البعثة الدبلوماسية الأول تعترف فيه: البعثة له برعاية الإيمان الكاثوليكي ضد غير المؤمنين ويحيونه لكونه[١٩٠] " نائبا عن المسيح، والثاني: تُعترف به بابا وتذكر بأسماء أربعة مندوبين، أحباشاً في مجلس فلورنسا، وطلبت كذلك إرسال حرفيين، ثم أخيرا خطاب إلى نائب الملك في الهند تتمنى أن يكون في البحر الأحمر قباطنة بالقلاع وكهنة بالكنائس، وعد وتكرم بالذهب ومواد البناء والرجال اللازمين من أجل

بنــــاء القــلاع فى مـصـوع ودحـاليك وزيلع[١٩١]. وعلى البعثة البرتغالية أن تعود الآن للهند وهذا ليس أمرا سهلا.

- المحاولة الأولى لهايتور دو سيلفيرا

حاول قبطان برتغالى وهو هـايتور دو سيلفيرا، عام ١٥٢٤ استرجاع بعثة ليما. عندما مر بعدن حمل المدينة على دفع جزية سنوية للتاج البرتغالى مصحوبة باعتراف بسيادة هذه الأخيرة.

وعند عودة دورات دو منيزس للهند تم عزله وحل محله فاسكو دو جاما[١٩٢]. نائب الملك الثانى بالهند، والاتفاق الذى توصل إليه مع عدن لم يتأكد، حقا أن هذه المعاهدات التى توقع عند مرور الأسطول البرتغالى هنا أو هناك سرعان ما تنسى وتبقى ورقة ميتة بعد رحيل البرتغاليين.

- المحاولة الثانية لأنطوان دو ميراندا

نبه رسول ليما الجميع بعد أن وصل هرموز بعد التغلب على كثير من المؤامرات، وحاول البرتغاليون إنقاذ بعثة إثيوبيا.

مات فاسكو دو جاما يوم ٢٤ ديسمبر عام ١٥٢٤، بعد وصوله بثلاثة أشهر فحل محله مؤقتا لوبو فاز دو سامبايو الذى شارك، فى حملة فى البحر الأحمر فى ربيع عام ١٥٢٥، أسطولاً مكونًا من خمس سفن على متنه خمسمائة وخمسون رجلا تحت قيادة أنطوان دو ميراندا. ولإبحاره متأخرا جدا لم يستطع بسبب الرياح الموسمية أن يصل مـصـوع. ولغـيظه ضـرب عـدن بالمدافع لدى مـروره بهـا ثم عـاد للهند حـيث ينتظر دوليما[١٩٣].

المحاولة الثانية لهيتور دو سيلفيرا

ما إن عين حاكما فى ربيع عام ١٥٢٥، بعث إنريك دو منيزس مرة أخرى هيتور دو سيلفيرا فى البحر الأحمر، رحل فى بداية يناير ١٥٢٦ بوقت قليل قبل وفاة منيزس الذى مات فى ديو فى ٢١ فبراير ١٥٢٦، ووصل هرموز وسار بطول ساحل عمان وسواحل حضر موت ودمر تماما غفار، وضرب بالمدافع مدينة دحاليك واستولى على مصوع، وضرب بالمدافع الامتداد الأرضى من المدينة وأخضعه للجزية التى استمرت سنين طويلة.

وقد أخبر بوجود ليما ورفاقه ملاحظون على الساحل، واصطحبهم زجاذابا، السفير الحبشى، ووصلوا أركيكو سرا فى طرق أغار عليهم فيه قطاع طرق، واتخذوا مكانا على متن السفينة. ولم تكن القضية تشييد قلعة أيا كان لأن الرياح الموسمية هنا توجب الرحيل يوم ٢٦ إبريل عام ١٥٢٦[١٩٤]. وبعد توقف فى كماران يوم ١ مايو عام ١٥٢٦ حيث عثر على مقبرة السفير جالفان، ووصل الأسطول هرموز، ووجد بها لوبو فياز دو سمبايو الذى كان فيما سبق حاكما مؤقتا، والذى طرد بدرو ماسكاريناس خليفة إنريك دو منيزس ووصله خطاب النيجوس. واتخذت كل السفن طريقها تجاه جوا حيث وصلوت يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٥٢٩[١٩٥]. وقد أبحر ليما وزجاذابا للبرتغال يوم ٤ يناير عام ١٥٢٧، يتبعهما ألفارس يوم ١٨ يناير، وتوجه الجميع فى خليج سانت هلين، ثم أبحروا معا ليصلوا سانتارم يوم ٢٤ يوليو ١٥٢٧.

الجهود الأخيرة

سيطرت فكرة الاستيلاء على كماران واستبقاء حامية دائمة بها على فكر وتصور البرتغاليين، فى يناير عام ١٥٢٨، أُرْسِل أسطول مكون من عشرين سفينة ينقل ألف

شخص للبحر الأحمر لهذا الغرض، وقاده أنطوان دو ميراندا، وصدته رياح معاكسة، فكان الفشل الجديد وأحرق ثانية زيلع، وعاد بخفى حنين إلى ديو [١٩٦].

وصل الحاكم البرتغالى الجديد للهند وهو نينو داكونا إلى جوا فى أكتوبر ١٥٢٩. بعد ثلاثة أشهر أو أقل أرسل فى سرعة مدهشة من أجل المصلحة الكبرى للبحر الأحمر هيتور دو سيلفيرا فى بعثة للمرة الثالثة. بعد عدة مناوشات حول باب المندب وصل هنا أمام عدن فى فبراير ١٥٣٠، وأبرم معاهدة جديدة حلت محل معاهدة عام ١٥٢٤ التى لم يعترف بها فاسكو دو جاما، وفرض الجزية السنوية التى حصل منها جزءا فيما بعد. والوعد الذى تلقاه بمنع أى مرور تجارى مع جدة ظل حبراً على ورق مثل سابقه، ولكنه أرضى كرامة البرتغاليين[١٩٧].

وفى الحقيقة أن عدن لم تخضع أبدا للبرتغاليين[١٩٨]. فلم يستطع هذا لا ألبوكرك ولا خلفاؤه، وسوف يسيطر عليها الأتراك عام ١٥٣٨[١٩٩].

ومن ثم لم يستطع البرتغاليون القضاء على تجارة التوابل فى البحر المتوسط إلا أنهم قللوها بشكل ملحوظ، فالمراكب الصغيرة استمرت فى هذه التجارة.

فقد استقبلت ميناء السويس والقصير المراكب القادمة من سورات بالقماش الموصلى والأقمشة القادمة من الهند، وكانت القهوة العربية تمر فى جدة، وكانت قوافل دارفور تصل كما كانت فى الماضى عبر النيل حتى أسيوط، وأخيرا فإن عمل البرتغاليين لم يكن له سوى تأثير ضئيل على العبودية، فهناك العبيد البيض من جورجيا ومن سركسيا أو العبيد السودانيين[٢٠٠].

جرانى والبرتغاليون

منذ أسلمة الساحل الأفريقى للبحر الأحمر، أصبحت إثيوبيا دولة محاطة بدول مسلمة، فنشبت حالة من التوتر المستمر بين شعوب الشاطئ من مصوع حتى زيلع

وبربرة مؤقتا، يوجد الرعاة الدناكل وخلف زيلع وخليج تاجورة شعب محارب من المسلمين المتشددين الملقبين بالعدول الذين يهددون الحبشة، تجمعوا فى دولة مسلمة عاصمتها داكار.

مدينة مختفية اليوم واقعة شرق هرر ظلوا خلال ثلاثة قرون يقومون بالإغارة والهجوم من أعالى السهول، وهناك شعب آخر أسلم جزء منه هو الجالا، يشكل خطرا كبيرا على الحبشة التى تواجه أحيانا كل أعدائها فى نفس الوقت.

الصراعات بين العدول والأحباش استمرت لقرون، وفى القرن الثالث عشر، يتحدث مؤرخ عربى المفضال عن العدول بالساحل الصومالى، وهم مسلمون ويناديهم بأهل زيلع(٢٠١). وفى العصر نفسه استقدم الملك الحبشى لاليبلا العدول من زيلع حتى مصوع(٢٠٢)، وطلب الملك يشع(٢٠٣). ملك الحبشة نحو عام ١٤٢٠ من الملك الفونسى داراجون ومن ملك نابولى فى الصراع ضد المسلمين الذين يتسللون داخل مملكته عن طريق ساحل العدول(٢٠٤).

كان لزيلع دور متوار أكثر منذ أن قتل الأحباش سعد الدين قائدهم الأخير المهم عام ١٤٠٢، وتعرضت المدينة لمعاملة وحشية على يد البرتغال عام ١٥١٧، النيجوس أعطاها عام ١٥٢٠، الأهمية التى نعرفها، وأحرقت المدينة ثانية على يد البرتغال عام ١٥٢٨(٢٠٥).

عهد الإمام جرانى

نحو عام ١٥٢٥، وبينما العدول لا يزالون فى الفوضى، بزغ فى زيلع جندى ثرى يريد أن يحوز شعبية كبيرة، واتخذ لقب إمام يدعى جران أو جرانى أو جرانج الأعسر(٢٠٦).

حشد جرانى الدناكل والصوماليين فى هرر وأطلقهم فى إغارة على شوا، وعانت قواته من أول إخفاق، ولكن بعد ذلك بعدة شهور، وفى مارس ١٥٢٩ قام بمذبحة فى الجيش الإثيوبى الذى فقد عشرة آلاف رجل(٢٠٧).

وحملة أخرى عام ١٥٢١، وجهت لغزو الأقاليم الجنوبية، وبعد عدة نجاحات وصلت فى ٢٨ أكتوبر ١٥٣١، بفضل مساعدة جريئة أدت لهروب من هرب تاركا جيشه، وعاد جرانى منتصرا لهرر، وقرر أن يلتحق بوزير عدوليه وأن يستمر فى غزو الجنوب : دوارو وبالى وشارقة وهاديا وواجى وجانز ودامو :

" كل المقاطعات التى لم نغزها بعد والتى بقيت فى نظامها القديم، فى كل من هذه البلدان يوجد جنود إثيوبيون مع بطارقتهم قادة الجيوش وحكام المقاطعات، إذن فلنتجمع خلف وزير عدوليه ومعنا الجيش الذى تركناه فى فتاجار"(٢٠٨).

تم إخضاع الجنوب عمليا بعد معركة زالا يوم ١٣ يوليو عام ١٥٣٢، وبعد عدة شهور يتعجب جرانى :

"الحمد لله، فتحت الحبشة، ولم يتبق سوى تيجرى وبيجامدر وجوجام، فبم تنصحوننى ؟"(٢٠٩).

قرر جرانى أن يهاجم الشمال وانطلق على الطريق يوم ٩ إبريل عام ١٥٣٣. رغم الشجاعة التى أبداها الإثيوبيون فقد خسروا الحرب معركة بعد معركة. واستولى جرانى على أكسوم حيث حطم اللوحات الجنائزية(٢١٠) بالمدافع، ودمر كذلك كنيسة سانت - مارى دو سيون فى أكسوم، البازيليك التى شيدها إيزان أول ملك مسيحى فيما يبدو كانت سان - بيرد روما من أجل الأحباش(٢١١). وهرب النيجوس إلى جولام، وانتشر الوباء فى قوات جرانى التى عانت فى نفس الوقت من الجوع. بحثا عن السلب والغذاء مضت قوات جرانى فى طريقها تحرق، أينما حلت بلا توقف، وفى عام ١٥٣٧

هاجموا جزر بحيرة تانا وكانت الأديرة تستخدم ملاجئ للإثيوبيين الذين كانوا يخبئون بها ثرواتهم. وسقطت مدينة جاليلا ونهبت وأحرق الدير والكنيسة. وبعد الاستسلام، كان على جرانى أن يتزوج من ابنة النيجوس لكن النيجوس رفض تزويجها من غير مؤمن وفضل الهروب لبلد سلامة، وسوف يطاردونه، وآخر مأوى له جيشيه أمباناجاست التى أخذت ودمرت فى فبراير عام ١٥٤٠ "حيث أصبح الذهب مشاعا مثل الأحجار، والحرير كثيراً كالورق"(٢١٢).

تدخل البرتغاليين

إزاء تدهور الموقف، أرسل النيجوس لبنادنجل متخطيًا حاجز الشك، فى عام ١٥٣٥ إلى لشبونة جواو برموديز وهو برتغالى بقى فى إثيوبيا بعد رحيل السفارة عام ١٥٢٠. طالب مساعدة البرتغال بعد أن هذّه الصراع ضد الصومال على مدار ست سنوات، وتوفى يوم ٢ ديسمبر عام ١٥٤٠ أثناء هروبه بعد اثنين وثلاثين عاما من الحكم دون أن يتلقى إجابة من البرتغال على طلبه المساعدة.

كان البرتغاليون مدركين للخطر المزدوج المتمثل فى الأتراك من ناحية البحر والصوماليين فى إثيوبيا، وجه سليمان باشا من مقره فى ديو إنذاراً شديداً. منذ وصوله للسلطة عام ١٥٤٠بوصفه الحاكم الحادى عشر للهند، دوم إستيفاو دوجاما بن فاسكو دوجاما الشهير وهو يعد نفسه، نظم تدخلاً مزدوجًا، عن طريق البحر ليقدم الغوث للأحباش، وكذلك ليدمر أماكن تزود السفينة التركية فى الجزر وليدمر الترسانة البحرية بالسويس. غادر أسطول مكون من أربع وستين بارجة حربية جوا فى ديسمبر عام ١٥٤٠(٢١٣)، وعلى متنه السفير الحبشى زاجازابا وبرموديز رسول النيجوس لبنا-دنجل عائدين من لشبونة منذ فترة قصيرة. توقف فى سوقطرة، ومر أمام عدن يوم ٢٧

يناير عام ١٥٤١، دون أن يتوقف بها واحتمى فيما يعتقد فى خليج الشيخ سعيد على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية بعد باب المندب بقليل[٢١٤]. وفى ٣٠ يناير اتخذ طريقه نحو جزر دحاليك التى وصلها يوم ٨ فبراير، ومنها وصل إلى أركيكو يوم ١٢ فبراير ١٥٤١.

حملة السويس

بعد إنزال قوات فى أركيكو تابع الأسطول البرتغالى إبحاره شمالاً ليصل مصوع يوم ١٩ فبراير عام ١٥٤١. وقد فرض جاما غرامة مقدارها عشرون ألف دينار على خليفة السلطان أحمد الذى قتل البرتغاليين من أتباع لوبو سوارس عام ١٥١٧. ولم يكن مع هذا البائس أى مليم من هذا المبلغ الضخم، فلم يكن أمامه إلا البحث عن طريق للفرار إلى سواكن.

لأن دوم استيفاو جاما قد اتخذ قرارا مهما منذ قليل، فإنه وبسبب من هذا ولوجود رياح الشمال التى على وشك الهبوب، أرسل السفن الشراعية فقط إلى السويس واستبقى الأسطول فى مصوع، فى ظل مناخ غير موات وسكون ثقيل، ومما زاد من تعقيد الموقف سوء التغذية الشديد الذى عانى منه طاقم ورجال الأسطول؛ مما أفقدهم الإحساس بالهدف المرجو.

وبحذر، قاد مانويل دوجاما عم الحاكم، السفن ذات المجاديف فى اتجاه الشمال، وكان على متن إحداها جواو دو كاسترو الأميرال القادم المشغول دومًا بتحرير التقارير. واستمرت خمسة أيام فى الإبحار حتى وصلت سواكن، وهنا فقد البرتغاليون وقتا ثمينا فى تعقب الزعيم المحلى ومنع الأتراك. ونهبت المدينة يوم ٨ مارس عام ١٥٤١، وكانت الغنيمة عظيمة، لكن طبقا لكونو فإن هذا التأخير المتتالى تسبب فى أن يفقد البرتغاليون معركة السويس.

وصلت السفن ذات المجاديف والأشرعة المكان الحالى فى بورسودان وجزيرة دارور. وبشكل غير مفهوم، لم يحتفظ مانويل دوجاما سوى خمس عشرة سفينة، ربما خشى أن يفقدها على الصخور البحرية الحادة، بينما أرسل الباقى إلى مصوع، ثم تابع طريقه حتى رأس دواير ثم رأس علبة يوم ٦ إبريل. وبشكل غريب أخطأت عيذاب المرسى الشهير فى العصور الوسطى والذى كان فى كامل نشاطه. ولجهله حتى بوجوده لم يبحث عنه، وساعدت الظروف فى ألا يراه إطلاقًا. بل إن الأسطول رسا دون أن يعرفه أمام مدخل الميناء العتيقة فى برنيق، ووصل فيلاديلف رأس بيناس الحالية. وفى يوم ١٥ إبريل وصل القصير ولوكوس ليمن عند البطالمة، وأحرق البرتغاليون المدينة واستولوا على أسطول تجارى على متنه حمولة ثلاثمائة طن.

وباستيلائه على هذه الثروة الكبيرة وبأسره قبطانًا فى القصير، صعد الأسطول الصغير حتى الطور جاهلاً تمامًا خليج العقبة المعروف منذ العصور القديمة، ولم يتحدث عنه جواو دو كاسترو. واتصل البرتغاليون بالرهبان اليونانيين الأرثوذكس فى الدير الذى لم يستقبل بحفاوة هؤلاء الكاثوليك، وكان الطور ألعوبة البرتغاليين، وظل الشك يحيط بالمصير الذى كان ينتظر المدينة. فهل احتفظوا بها أم أحرقوها؟ قام استيفاو دوجاما بتسليح بعض المواطنين فى هذه الأرض المسلمة التى قام بغزوها، وهو ما كان له صدى كبير فى أوربا، فلم يكن هو الإمبراطور شارل كانت(٢١٥).

بدأ البرتغاليون يوم ٢٠ إبريل طريقهم إلى السويس التى وصلوها بعد ذلك بخمسة أيام، بينما كانت تكفيهم ثلاثة أيام كمدة معقولة بالنسبة لسفينة شراعية. رحل جواو دو كاسترو للاستكشاف، واعترته الدهشة عندما تيقن من وجود خمسين من السفن الحربية التركية الراسية التى تحميها المدفعية خلف هضاب من الأرض، ولم يروا شراعا واحدًا فى الهواء ولكن فرسانه يحتلون الساحل. وتخلصت فرقة استكشافية كانت قد نزلت بالساحل بصعوبة بالغة من هجوم ألفين من الأتراك. اقتربت

فقط ثلاث سفن لكى تضرب إحدى السفينتين والتى ردت بسرعة، وأما باقى الأسطول فكان بعيداً.

استيفاو دو جاما رأى أنه أصاب الهدف: لم تكن السويس موضع خوف، فلم يكن للبحرية التركية وجود إلا فى السويس، والتى نزلت على الأرض! رفع أشرعة سفنه ابتداء من الغد ٢٨ إبريل ١٥٤١، متجها نحو الجنوب تدفعه الرياح المعتادة، وأحرقوا كل الموانئ ونهبوها ووصل مصوع يوم ٢٢ مايو.

حملة البرتغاليين ضد جرانى

المناخ غير المواتى والقحط اضطرا أربعمائة رجل للرحيل. والمطامع غير الحكيمة لبرموديز جعلتهم يعتقدون أن الثروة كانت فى متناول أيديهم، فاتخذوا وجهتهم نحو الحبشة تحت قيادة شخص يدعى أنطونيو كوريا، فسقطوا فى كمين نصبه الدناكل وقوات جرانى الصومالية، ولم ينج سوى اثنين من المصابين.

لو أن مانويل دوجاما، حاكم الهند البرتغالية كان ضعيفا لدرجة لم يستطع معها أن يتحكم فى قواته، فلا أقل من أن يواجه هذه المذبحة. قاد حملة ضد المواطنين وأسر قائدهم واسمه نور واحتز رأسه، وتفشى الوباء فجأة بين صفوف القوات البرتغالية التى فقدت نحو تسعمائة رجل. وفى ظل هذه الملابسات السيئة التى أحاطت بالبرتغاليين تم طلب المساعدة من النيجوس الجديد للحبشة كلود جالا وديوس، وكان هذا هو الموقف لدى عودة استيفاو دو جاما من السويس.

قرأ مانويل دوجاما خطاب النيجوس علنا؛ مما يدل على أن ملك البرتغال أعطاه مسئولية اتخاذ القرار بحسب الظروف[٢١٦]، فعين أخاه الأصغر كريستيفاو دوجاما رئيسا للبعثة، وهو الأمر الذى استثار بعض الحسد. وتجهزت البعثة بين يوم ٦ ويوم ٩

يونيه عام ١٥٤١. وفى يوم ٩ يوليو أبحر دوم استيفاو دوجاما. وأعلن عن تدمير زيلع عاصمة العدول والتوقف فى عدن بسبب العواصف الشديدة، ووصل جوا فى نهاية أغسطس عام ١٥٤١.

كان أمام الحملة الأرضية للبرتغاليين أن تختار من بين ثلاثة طرق: ذلك الذى يمر بالسهل الساحلى وهو خطر والموّصل إلى زولا، ومن هنا وعن طريق الوادى الجاف يمكن الوصول إلى أسمرة لكى يتجه من الجنوب الغربى نحو ديبارو وعبر مأرب ثم عدْوه حتى يصل أكسوم.

وحين علم بوجود البرتغاليين فى ديباروه والقوات الإثيوبية فى جبال سيمن، جعل قواته تتمركز فى ديزراجيبه كى يتفادى الصدام معهم. يوم ١٢ ديسمبر ١٥٤١ وبعد موسم المطر بدأ البرتغاليون فى التحرك لكنهم لم يبلغوا الاتصال بالصومال إلا يوم ٤ إبريل عام ١٥٤٢ فى أنازا. وقد أعطى دوم كريستيفاو دوجاما الابن الرابع لفاسكو دوجاما الذى يقود البرتغاليين أوامره بإطلاق نيران البنادق والمدافع وهرب جرانى الذى جرح فى فخذه.

يوم ١٦ إبريل انطلق البرتغاليون متأخرين قليلاً فى إثره يتعقبونه. أعاد الصومال تنظيم قواته وتلقى مساعدات ودعمًا سريعا من الحربية عن طريق زيلع، وهكذا تلقى سلطان زبيد ألف جندى تركى مزودين بالأسلحة النارية وعشرة مدافع. وفى يوم ٢٨ أغسطس عام ١٥٤٢، كان بإمكانه مهاجمة البرتغاليين الذين هزموا لقلة عددهم، وعذب جاما بشراسة وقطع جرانى رأسه وأرسلها إلى سلطان زبيد(٢١٧)، ونجا مائتان من البرتغاليين ولجأوا إلى قوات النيجوس. كانت هزيمة المسيحيين شبه تامة، وأعاد جرانى للجزيرة العربية الجيش التركى المرسل إليه، ولم يحتفظ منه سوى بمائتى رجل(٢١٨).

وكان هذا خطأ فادحًا، النيجوس الخائف أعاد تنظيم جيش من ثمانية آلاف رجل وخمسمائة فارس. ويوم ٦ فبراير عام ١٥٤٣ وصل عدد الإثيوبيين نحو ٣ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومائتين وخمسين فارس ونحو مائة من البرتغاليين، وتقدم الجميع باتجاه معسكر الإمام الواقع فى ديزراجيبه فى واجورا، وكان لدى جرانى ستة آلاف رجل وستمائة فارس ومائتان من البنادق التركية، ولكن البرتغاليين كانوا يهدفون إلى القبض على الإمام نفسه. وقد لمحه جندى يدعى لوجالسيان[٢١٩]، وحدد مكانه بدقة وبضربة سديدة قتله وكان الجدل عند المسلمين والهرج:

" تبددت القوات مثل الدخان ورماد الفرن"[٢٢٠]، هذا الوضع اللامعقول كلية انظرًا للحادث الصغير من الوجهة العسكرية يصور بوضوح العلاقة التى تربط جرانى بقواته، فقد اختفى، ولا أحد سوى امرأته حاول أن ينقذ أربعة عشر عامًا من الحرب. فلم تعد قوات الصومال فى الواقع سوى عصابات مسلحة تبحث عن النهب سريعة الحركة للمساعدة وشرسة فى القتال، ولكن دون تجانس وبلا رغبة حقيقية فى احتلال وتنظيم أراض محتلة.

إثيوبيا بعد جرانى

لم يكن تدخل البرتغال سوى حافز على المقاومة الإثيوبية الوليدة؛ لأن النيجوس الجديد جالاوديوس أعد خطة جديدة للمقاومة. وقد سمح وصول هذه القوات بتحسين الوضع، ولكن الذى أنقذ الإثيوبيين فقط هو الموت غير المتوقع لجرانى.

تركت الحرب إثيوبيا مدمرة تنزف دمًا، وأحرقت الكنائس ونهب كل شىء، واستولت العدول على أمبا قرن، مقر إقامة الأمراء المبعدين عن السلطة. مرة أولى فى عام ١٥٣١، كان كرسى حكم بلا نجاح ولكنهم استولوا على السلطة عام ١٥٣٩، وذهب مجاهد زعيم قوات جرانى وذبح الأسرى والحراس[٢٢١].

أما الأخطر، فقد كان تراجع المسيحية أمام الإسلام، وكان اعتناق الإسلام كان يتم بشكل جماعي ومكثف، ومزق جراني كل المخطوطات الحبشية التي اكتشفها، لدرجة أنه لم يتبق منها أية مخطوطة ترجع لما قبل القرن السادس عشر[٢٢٢].

كان على النيجوس أن يواصل القتال ويستولى على زيلع ليكون له منفذ على البحر، ولكنه لم يفعل، ربما لقلة الإمكانيات؛ ولهذا لم يعد الهدوء ثانية لأرجاء المملكة. رفقاء جراني تقودهم زوجته لجأوا إلى هرر ونصبوا خليفة له هو نور بن المجاهد الذى تلقب بلقب أمير عام ١٥٢٢، ونجح يوم الجمعة المقدس الموافق ٢٣ مارس ١٥٥٩، فى إلحاق الهزيمة بالإثيوبيين وقتل جلاوديوس، لكنه لم يستفد من انتصاره؛ لأن الوباء تفشى فى هرر وغزاها الجالا. توفى عام ١٠٦٨ ووضع موته نهاية للسيطرة الإسلامية باختفاء السلطة السياسية والعسكرية للعدول على سواحل البحر الأحمر، تركت هذه الجولة أثرها على هرر، حيث تعمق الإيمان الإسلامى الذى سوف تكون له عاقبته فى المستقبل. نتج عنه مقدم الإخوان المسلمين، القادرية الذين عضدوا تماسك شعوب القرن، وتولدت رغبة قوية فى الانتقام استمرت حتى أيامنا هذه.

الهجوم التركى المضاد

كان من نتائج الحرب التى شنها جرانى ضد الإثيوبيين دخول جنود السلطان التركى فى زبيد إلى مشهد الأحداث. يكفى أن نرجع للوراء لعدة سنوات لنرى تدخل مصر فى اليمن التى كانت على الرغم من استقلالها تمامًا عن القاهرة، جعلت سليمان العظيم يتدخل فى الصراع ضد المسيحيين ابتداء من هذا الوقت، والذين عينوا فى زبيد أحد أبناء النيجوس وهو ميناس، الذى ارتد عن المسيحية واعتنق الإسلام. كان ذلك عام ١٥٣٥، وكانت المناسبة مواتية لتدخل مصر التى أكدت مكانتها باليمن

وأعطتها إمكانية إغلاق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين، مما فتح الباب لكثير من المخاطر على إثيوبيا الضعيفة. أخيراً نعلم أن الولايات المسلمة بالهند طلبت غوث الأتراك ضـــد البرتغاليين.

حملة سليمان باشا فى البحر الأحمر

كانت الحجة طلب وزير اليمن أحد القبطان الذى يحكم السلطنة باسم أصغر أبناء إسكندر(٢٢٣)، فقد خشى أحمد أن يأخذ البرتغاليون عدن ويندم هو بوصفه بحاراً لعدم مساعدته جرانى على رأس الأسطول. ولم تجد مصر منافسين حقيقيين فى البحر عندما قررت الاستيلاء على كل المراكب الأجنبية الراسية فى مياهها. ونقلت قوة للسويس وشيدت مراكب وعهدت بقيادتها لسليمان الخادم العجوز والملقب بسليمان باشا، وهو انكشارى يونانى مفترس بشع(٢٢٤)، ولد فى موريه" وغادر الأسطول يوم ٢٢ يونيه عام ١٥٣٨، السويس وهو يضم ستا وسبعين مركبا وسبعة آلاف شخص، وتوقف فى جدة وفى جزيرة كماران، ورأى أحمد القبطان الأسطول المطلوب يقترب فزود سليمان بالمؤن. وقام هذا الأخير بالتقدم إلى عدن حيث يحكم عامر بن داود الذى خلف والده عبد الوهاب طاهر، وطلب هو أيضا التزود بالمؤن. وافق ملك عدن الأقل شكا من ملك يهوداء والذى لم تكن لديه معلومات عن سليمان أن يعطيه إياها، وما إن وصل ميناء عدن حتى بعث إليه بطعام وشراب كثير. بدأ سليمان فى إرسال بعض جنوده الأقوياء بين المرضى الذين يدخلون المدينة للعلاج وهم يخفون معهم الأسلحة، ثم يتسربون من أماكن العلاج ليندسوا بين السكان (دون أن يلحظ هؤلاء السكان هذه الخدعة) وصل عددهم نحو خمسمائة جندى ومعهم أسلحتهم، وإذا حانت اللحظة المناسبة أعطاهم سليمان إشارة متفقًا عليها، فيقومون من فورهم بحصار القصر ونهبه ثم نهب المدينة كلها بالتالى، وكان سليمان قد أخبر الملك أنه لا يستطيع أن ينزل على

الأرض، وطلب منه أن يأتى هو لسفينته ليراه وليبحثوا بعض القضايا، ورغم خشية الملك من الذهاب إلى سليمان نظراً لأسطوله القوى، فقد ذهب إليه مع كبار رجاله، ولما وصل شنق سليمان الجميع على عوارض صوراى المراكب(٢٢٤)، ثم أعطى الأمر للأتراك وأطلق الإشارة للخمسمائة جندى الذين دخلوا المدينة والذين ذبحوا السكان بحد السيف وبمساعدات جاءتهم نهبوا المدينة ثم جعل جنوده يخرجون وأخذهم وما معهم من الغنائم"(٢٢٦).

وعهد بالمدينة إلى ضابط تركى، وذهب سليمان باشا للاستيلاء على ديو، وبقى بها من ٣ سبتمبر حتى ٦ نوفمبر ١٥٣٨، واصطحب معه العديد من الأسرى. وعند عودته قوى مكانة عدن وترك بها سبعمائة انكشارى وسبع قطع مدفعية وبعض السفن الدفاعية. وأخضع موكا وتوقف فى جزيرة كماران فى يناير ١٥٣٩، ومنها وصل الساحل بالقرب من ساليف، وأخذ المدينة وغزا زبيد والتى احتز رأس ملكها رغم استسلامه يوم ٢٧ فبراير، وبالخيانة وصل سليمان لتجريد مائتين من الحراس الأحباش من أسلحتهم ثم ذبحهم، وواصل أعماله المسلحة فأعدم على متن السفن مائة وستة وأربعين من الأسرى البرتغاليين" وفرغت رؤوس الضباط وملئت بالقش"، والآخرين قطعت أنوفهم وآذانهم ليجعل من هذا الرعب هدية للسيد الكبير(٢٢٧). أدرك سليمان أنه لن يستطيع أن يخضع صنعاء فمضى نحو جدة وبقى فى مكة، ثم عن طريق يامبو وصل القلزم يوم ١٦ مايو ١٥٣٩، بعد أحد عشر شهراً أمضاها فى حملته هذه.

أكد الاستيلاء على عدن وموكا وزبيد الوجود التركى فى اليمن لنحو مائة عام، ولكنهم لم يسيطروا إلا على هذه المدن(٢٢٨)، وقضى النظام العسكرى القمعى المتبع على التجارة هنا لصالح جدة، وأدرك هذا الأتراك وبحثوا عام ١٥٤٢، عن سبل التعامل مع البرتغاليين. فقد قدموا القمح والذهب مقابل استلام التوابل فى عدن وانتهاء المضايقات فى البحر الأحمر، ورفض البرتغاليون، وجرت محاولة للتحرر عن طريق تهييج البلاد من

الداخل تحت قيادة شخص يدعى على بن سليمان[٢٢٩]، الذى بلغ به الأمر أن ذبح الحامية التركية فى عدن وقبول أى عرض للوصاية البرتغالية. وكان هناك أسطول يقوده دوم بايودو فورونها، يبحر قريبا عندما أبلغه مركب بما يحدث، فتقدم أمام المدينة يوم ١٥ نوفمبر ١٥٤٧، واستقبل استقبالاً طيباً، ولتخوفه لم ينزل، لكنه أمر بحضور رسول من جوا. وكان الحاكم جواو دو كاسترو مشغولا بقمع تمرد بين قواته، ولم يتوصل إلى اتفاق إلا يوم ١٢ فبراير. وعهد لابنه ألفارو بقوة بحرية صغيرة التقت فورونها بالقرب من رأس الكلب. وبعد شهرين ونصف الشهر من الانتظار، غادر عدن التى استغلها الأتراك. اعتراف سرى على حدود المدينة أكد انتصار الأتراك وموت على[٢٣٠] عام ١٥٦٩، طلبت عدن مرة أخرى من البرتغاليين أن يحرروهم من الأتراك، لكن التمرد ساد أرجاءها. وسوف يبقى الأتراك بها لعشرات من السنين ولا يملكون فعليا من اليمن إلا بعض المواقع القوية، وسوف يجلون عن البلاد عام ١٦٣٥ تاركين عدن أطلالاً[٢٣١].

الحملات ضد هرموز والساحل الشرقى لأفريقيا

انطلقت أربع حملات تركية أخرى ضد البرتغاليين لمحاولة تحرير التجارة نحو الهند، قاد الأولى عام ١٥٥١ بيرى رايس، الجغرافى التركى الشهير وابن شقيق الأميرال كمال رايس، فعبر البحر الأحمر ومعه ستة عشر ألف رجل، نزل بعضهم فى عدن. وفى عام ١٥٥٢ استولى على مسقط لكن تحطم أسطوله إثر عاصفة شديدة قبل وصوله حصون البرتغاليين. ورجع بيرى وحده على متن سفينتين شراعيتين محملتين بالغنائم إلى السويس، حيث عثر عليه مقطوع الرأس[٢٣٢]، وقاد الحملة الثانية مراد عام ١٥٥٣، ولكنها شهدت مصيراً مأساويا حيث هاجمها البرتغاليون كذلك، وسوف تلحق فى باسورا فى عمق الخليج الفارسى ببقايا الحملة السابقة[٢٣٣].

أما الحملة الثالثة فقد قادها سيدى على[٢٣٤]، وكانت مهمتها نقل السفن التركية المحاصرة فى باسورا إلى السويس، واستطاعت خمس عشرة سفينة تركية أن تخرج من الخليج الفارسى فى أغسطس عام ١٥٥٤، وهاجمها البرتغاليون وعانى سيدى على من عاصفة حتى الهند، وأصبحت سفنه غير صالحة للاستخدام، ولجأ لعدة سنوات إلى ميناء داماو. واستطاع أن يصل إلى تركيا بالطريق البرى مع خمسين رجلاً من أتباعه فى يونيه ١٥٥٧، وجرت محاولة أخرى ضد البحرين انطلاقا من باسورا أحبطها وتصدى لها البرتغاليون[٢٣٥]. وأما الحملة الأخيرة (١٥٨٥- ١٥٨٦) فقد قادها على بك وهو قرصان بحرى تركى وربما كان مرتدا (عن المسيحية) فانطلق من جدة مع سفينتين فقط، لم تتعد إحداهما باب المندوب وقام بحرب قصيرة ناجحة ضد السفن البرتغالية المعزولة، وأشاع الرعب فى كل الساحل الشرقى لأفريقيا حتى مومباسا، ولم تقاومه سوى ماليذى الحليف المخلص للبرتغاليين. وجردت حملتان برتغاليتان للتخلص من هذا الخصم العنيد استخدمت فيهما ثمانى عشرة سفينة عام ١٥٨٧، ولجأ على بك إلى مومباسا التى هاجمها فى نفس الوقت يوم ٨ مارس ١٥٨٩ أسطول برتغالى مكون من عشرين سفينة شراعية قادم من برافا بالصومال، وجزر لامو وقبيلة من أكلة لحوم البشر فى بانتوس دمرت كل الساحل، وأسره البرتغاليون وأرسلوه إلى البرتغال. ومنذ ذلك التاريخ توقف البرتغاليون عن إرسال الحملات إلى البحر الأحمر الذى يسيطر عليه الأتراك تماما واكتفوا بإرساليات يسوعية إلى النقاط الساحلية التى رأوا أنها لا تزال فى المتناول، وكان هذا الحكم غالبًا مجانبًا للصواب، فقد انتهت، بيريرا فى زيلع عام ١٦٢٣، أو باءت بالفشل كما حدث فى مقديشيو وماليندى؛ لأن المعرفة بجغرافية القرن الأفريقى محدودة وغالبا خاطئة. لن يعود البحر الأحمر مجالاً مقصوراً على سفن الغزاة، وسوف يعود سيرته الأولى ومجالاً للتجارة تشارك فيها الأمم الأوربية ببطء.

الهوامش

(١) استشهادات لمؤلفين برتغاليين قدماء، ج، روباروس ودى. كوتر ترجمت مؤلفاتها مباشرة من البرتغالية القديمة فى طبعة سام كارلوس فى لشبونة والمنشورة عام ٧٧٦٠ ولم يأخذوا إلا الاستثناء أى ترجمة سابقة.

(٢) حانون القرطاجى عام ٤٧٠ ق.م رحل للاتجاه الآخر ومر بستعمرات هرقل لكنه لم يتخط سواحل الكاميرون.

(٣) تميل أبحاث حديثة لمؤرخ برتغالي للتقليل بشكل طفيف من دور ردم هزيل. تلقى هذه النظريات المخفقة مزيد ضوء على دور هذا الأمير وشخصيته، ولكنها بدت لنا حديثة جداً لدرجة لم تستطع معها أن تغير بشكل جذرى صورته المستقرة حتى الآن فى الأذهان.

(٤) G. Granzotto, Christophe Colomb. P.197.

(٥) عودة مساعدة سباستيان رل كانو لإسبانيا عام ١٥٢٣، على السفينة الناجية، بعد استكمال الدوران الأول حول الأرض على متن مركب.

(٦) D. Preres,Historia dos descobrimentos Portuguess.

(٧) A.A. Bourdon, Histoire du Portugal, P: 34

(٨) أزوارا كان على صلة واسعة بأفونسو سرفيرا الذى صاحب الحملات الأولى، ومخطوطه مفقود. يوام رو باروس نفسه الذى حرر المؤلفات الثلاثة الأول من عام ١٥٢٢ حتى عام ١٥٦٣، لا يعرف عنها شىء، انظر Cf.F.Denis,Portugal,p.70

(٩) F. Denis, op., cit, PP. 70-71.

(١٠) CF. Infra, p. 233.

(١١) G. Granzotto, Op, Cit., P. 68.

(١٢) F. Denis, Op. Cit., P. 69.

(١٣) G. Granzotto, Op. Cit., P. 55.

(١٤) Ibid, P.77.

(١٥) رحلات الطفل دوم بدرو يخبرنا بها فرديناند دنيس، أنها جنحت للأساطير الشعبية البرتغالية ويجب تحقيق الكتاب المزور الذى يقصهما انظر: le Monde enchante, consomgraphie et histoire naturelle fantastique du Moyen Age, P.314.

(١٦) Descobrimentos em diversos annos de Litteratura.

(١٧) اختار لاجوس لموقعه الجغرافى والتمكن من بناء سفن صيد ولكنه كانت لديه فرق بحارة ذات خبرة ولكنهم لا يعلمون بوجود قراصنة على هذا الساحل الذى قدم الكثير من الكباتن الشجعان.

(١٨) إنه روم وو براكامونت أميرال قديم لفرنسا، الذى حصل لوالده من تبنكورت على هذه الجزر، بالتماس لدى دون كارتينا والدة يوحنا الثانى، ملك كاستيل، انظر: F.denis,op.cit.,p68 et note 1,col.2.

(١٩) يقلل المؤخون البرتغاليون المعاصرون من دور هذه المدرسة. فى الواقع لا يوجد تعليم ولكن بعض الرجال يقومون بأعمال فى البحث الجغرافى والبحرى.

(٢٠) تسمى أولاً "ترسا- نابال" بال شك تحريف من "ترسانا نال " تسمية هى نفسها تحريف واشتقاق من الجذع الفينيسى "دارسانا" والذى عنى "ترسانة السفن"، انظر F.denis op.ut; p.75، طبقًا لبعض العلماء البرتغاليين المعاصرين، كانت القلعة موجودة قبل روم هزيك وأصبحت موضع قرصنة إنجليزية.

(٢١) رممت القلعة حديثًا وغطوها بطبقة حديثة من الأسمنت الرمادى الردىء جدا، وداخل أسوارها شيدوا مبانى حديثة غيرت من طبيعة المكان تمامًا. تبقت من آثار عصرها مقصورة صغيرة وتركوا نصبًا تذكارية تكريمًا وتخليدًا لذكرى البحارة الأمريكيين وبحارة جنوب إفريقيا.

(٢٢) J. De Barros, Op. cit., Liv. ler, Cap. XVI.

(٢٣) أمريجو فسبوسى عمل نسخة منها فرفلوينسا حيث عثر عليها واشتراها أنطونيو دسبويسج، قسيس كاتدرائية مايوركا، انظر: Memorias de Litteratura, t. VIII, P. 218.

(٢٤) F. Denis, op. cit., P. 75, Note 3.

(٢٥) إذا كان أصل الكلمة "بوجادرو" قد انقلبت، فلا تشكل مع ذلك أدنى شك، لأن بوجار تعنى بالبرتغالية "ينتخ" "يبرز". جواد روبارس لم يترك مكانًا لأى لبس فى المعنى: "Porque commo este cabo" comeca de incurvar a terra de mui longe, e ao respecto da costa qua atras tinham descuberta, lanca e boja pera al oese perto de quarenta legoas donde deste muito bojar lhe chamarao Bojador era para elles cousa mui nova a partase do rumo que levavao., CF. Primeria decada, fol.5.

(٢٦) Chroncia de Guine d' Azurara, Cite Par . F denis dans Portugal, P. 72.

(٢٧) وهذا خطأ؛ لأن الإدريسى يذكر سفينة فرنسية غرقت فى مياه السنغال.

(٢٨) Navigation des Normands Par M. Estancelin, cite Par F. Denis, Op. cit, P. 74.

(٢٩) انظر Les Voyages du baron How de Rozmitale, 1465 reimpression brunn, 1824

(٣٠) نذكر أن كل الاستشهادات لنصوص باروس وكوتو مستخرجة من العاشريا المنشورة عام ١٧٧٦، فى مطبعة سام كارلوس فى لشبونة، وترجمت مباشرة من البرتغالية القديمة فى هذا العمل، ونشكر هنا البروفيسور جون روش لمساعدته الذى سمح لنا بالرجوع لمصادر هذا القصاص البرتغالى.

(٣١) سيد وليس ملكًا لأنه لم يمارس أية سلطات وتشريعات هذه البلاد، ولكن هناك فقط سيادة على بلد وقبول السكان لهذا الوضع بدون سلاح، انظر V. Vasconcellos, Histoire de la vie et des actions de Dom Joao II.

(٣٢) J. de Barros, Op. cit., et F. Denis, Op. cit., P. 114.

(٣٣) يدعى أيضًا براسون أو براكسو أو براكسون.

(٣٤) يمكننا الإشارة لرأس براسون أو براسو فى الطرف الجنوبى لجزيرة رودس، بحار العصر ربما أخذوا هذا الاسم رمزًا لآخر رأس مرئية.

(٣٥) G.E. Azuarra, Chronica de Guine.

(٣٦) Garcia de Resende, Chroniquer Portugais, cite Par. F. Denis, Op., cit., P. 119.

(٣٧) طبقًا ل F.Enis عاد الرجلان معًا من السويس إلى طورو، حيث عبرا البحر الأحمر ليصلا ميناء سواكن، ومن هنا فقط أبحرا لعدن، ولم يفترقا فى هذه المدينة؛ وهذا أيضًا رأى كامرير ولكنه ليس رأى بيريس D.PERES , OP. cut., P. 110.

(٣٨) Fernand lopes de Castabheda, traduction de Nicolas de Grouchy. CF. F. Denis. Op., cit, P.120.

(٣٩) Ibid.

(٤٠) J. de Barros, Op. cit., I, iv. III, fol 45, edit. De 1629. F. Denis, op. cit., 120.

(٤١) Ibid.

(٤٢) Ibid.

(٤٣) CF. Fernand Lopes de Casn't Heda.

(٤٤) عام ١٥١٥ فى عهد داود بن نوت خليفة إسكندر، كان دى. رودريجو دوليما سفيرًا لدى النيجوس من قبل روم مانويل، ألح على مواطنه يعود لبلده ورفض داود هذا الإلحاح كضيف، لأن الفارس البرتغالى ينبغى أن يستهلك فى البلد بهدوء مع زوجة وأولاده المخصصات التى أرسلها له والداه، كان بين البرتغاليين

الذين كانوا في صحبة دوم رودريجو عام ١٥١٥ كاهن يدعى فرانشيسكو الفارس، الذي أصبحت صلته به مشهورة، وكان له صلات معرفية مع بيرو دو كوفيلهام، يقصها علينا باروس. الطبعة الأولى من فرانشيسكو الفارس، لم تظهر إلا عام ١٥٤٠، انظر Denis, Op.cit., P.121.

(٤٥) J. Cuoq J., Op. Cit., Pp. 208-209.

(٤٦) جعله راميو بيريس خطأ يرحل عام ١٤٩٧. F.Demis, Op. city تثبيت عام ١٤٨٦، P.115 وكذلك S.Chantal,Histoire du portuhal,p.170.

(٤٧) J. de Barros, op.cit, III, fol, 42, cite par F. Denis P. 116.

(٤٨) Ibid.

(٤٩) D. Peres, Historia dos descobrimentos, collecao Henriquina, Lis boa, 1959, P. 103.

(٥٠) F. Denis, Op. cit. P. 117, Citation de J. de Barrors.

(٥١) Ibid.

(٥٢) Ibid., p. 118.

(٥٣) J. de Barros, Cite par Denis, Op. cit., p. 127.

(٥٤) G. Granzotto, op. cit., pp.198-199.

(٥٥) Ibid.

(٥٦) F. Denis, Op. cit., p. 127.

(٥٧) J. de Barros, Op. cit., l'liv. III, fol. 56.

(٥٨) J. de Barros, Cite par F. Denis, Op. cit., P. 127.

(٥٩) أي نحو ٩٠٠ كيلو متر. Soit 900 Kilometers

(٦٠) التكالب البرتغالي للتوسع على ثماني درجات غربًا لا يوضحه سوى الاكتشاف السابق للبرازيل والذي ظل سرا. وربما كان دوارت باشيكو باريرا مؤلف AA. Bourdon, op. cit., 39. الذي قام بهذا الاكتشاف، انظر A.ABourdon.op.cit.,p.39.

(٦١) CF. Barreto de Resende, Tratado dos Vizo reys da India, Cite Par F. Denis, Op. cit., P. 135.

(٦٢) Pacheco, Esmerald de situ orbis, cite par F. Denis., Op. cit., P. 136.

(٦٣) Ibid.

(٦٤) A. Kammerer. Op. cit., t. II, vol.III. p. 63.

(٦٥) J. de Barrors, cite par F. Denis, Op. cit., P. 141.

(٦٦) Ibid

(٦٧) ibid

(٦٨) Ibid

(٦٩) Ibid., P. 142

(٧٠) J. de Barros, cite Par F. Denis, Op. cit., p. 143.

(٧١) Ibid.

(٧٢) نقلهم البرتغاليون إلى مالیندی.

(٧٣) J. de Barros, cite par F. Denis, op. cit., p. 144.

(٧٤) Ibid.

(٧٥) Ibid.

(٧٦) J. de Barros, I, Liv. IV, Fol. 72 et 74, cite par F. Denis, op. cit, p.144.

(٧٧) Ibid.

(٧٨) لا يهتم المؤرخون البرتغاليون بهذا القبطان وبخاصة باروس، الذى يجعله من أصول هندية، ويتجاهلون بلا شك شخصيته الحقيقية التى اكتشفها فيراند. لكنهم لم يرغبوا فى إبراز دوره لكى لا يتسببوا فى إنهاء مهمة فاسكو دوجاما. كان معلم تكناك رمسيد الملاحة، يدعى أحمد بن ماجد، عربى من نجد بوسط الجزيرة العربية، كان شيعيًا يسكن دجلنار على خليج عمان، عثر على فاسكو دوجاما على الملاح الأمهر فى القرن السادس عشر، سليل عائلة عريقة فى الملاحة، وهو مؤلف موسوعة غربية كبيرة علمية بحرية تحتوى على ثلاثين كتاب وقصائد شهرية، وهذه الأخيرة لم تكن سوى مقاطع نثرية مسجوعة. انظر Kamrer, op.cit. it12 n، لكن البعض يرفض ما ذهب إليه شيراند رافضًا أن يكون بن مجاد بهذه المهارة الفائقة. Brasret- Grenge, op.cit., P. 15.

(٧٩) السهولة المحيرة التى عبر بها البرتغاليون المحيط الهندى لا يفسرها إلا أن ابن ماجد ساعدهم ومتعاون معهم، وهو الأمر الذى يسكت عنه البرتغاليون. وأيًا ما كان الثمن الذى تلقاه فما قام به أكبر من أى ثمن دفعه له البرتاليون. ربما أن ماجد تصر كبحار عرض مهاراته وعلمه فر من KAMAL. وهو وسيلة بسيطة تتكون من ثلاثة ألواح من الخشب مقطوعة بالسكين تسمح بقياس النجم القطبى من الأفق بـ "الأصابع المرفوعة" والإصبع مثل الإبهام معترف به منذ وقت طويل كوحدة قياس معتبرة، والذى يساوى أربع أصابع. عند تشييد الكمال Kamal فإنها تساوى أصابع غير متساوية بحسب ارتفاع الزراع.

دراسات دقيقة أوضحت توحيد القياس المستخدم ب ٣٥٠ أخر المتوسط للإصبع الممدودة أعلى الأول الذى يبلغ ٤٥ ١٠، والهامش المفيد للوسيلة يقع بين ثلاث أصابع أى نحـو ٠٥ ٠٦ (٥٤ ٢٠ + مرتين ٣٥ ١٠). واثنى عشر أصبعًا أى نحـو ٢٠٠ ٣٠ (٥٤ ٢٠ + إحدى عشـرة مـرة ٣٥ ١٠) الكمال Kamal، لاتتحكم فى العرض وتسمح بالملاحة من الثبات ومن مستوى إلى مستوى معادل. أفاد من ذلك البرتغاليون كما أفادوا من الخرائط البحرية ودروسها، انظر Gronset - Grenuge, OP. cit ., P. 14-23.

(٨٠) يأخذها كامرير على كوريا على أنها نقطة انطلاق فاسكو دوجاما يوم ٦ أغسطس ١٤٩٨، ووصوله إلى كالكتا كان يوم ٢٦ أغسطس. Op.cit. II 13. P 82.

(٨١) F. Denis, Op. cit., pp.153-155.

(٨٢) A. Kammerer, op.cit., t. II, vol. III, P. 88.

(٨٣) D. Peres, Op. cit., pp. 128-129.

(٨٤) A. Kammerer, op. cit., t. II, vol. III, p. 88.

(٨٥) F. Denis, op. cit., pp. 153-55.

(٨٦) G. Granzotto, op. cit., p. 154 et A.A. Bourdon, op. cit., p. 38.

(٨٧) D. perers, Op. cit., P. 137.

(٨٨) F. Denis, Op. cit., P. 155.

(٨٩) الإثبات ممكن بالتقريب، نحو ٧٥٠ ميلاً بحريًا.

(٩٠) لم تقدم مقديشيو إمدادًا أو ماء سرعان ما يتسرب ماء البحر إليه؛ الماء العذب يأتى من جوف الأرض الذى يغذيه بلا شك نهر شبيللى الذى يجرى فى أفجوى، على بعد نحو عشرين كيلو متر إلى الداخل. هذه الشبكة من المياه تصل إلى نقطة تسمى "الكيلو متر الرابع" الواقع على هذا الطريق. المؤلف تردد على هذا المكان شخصيًا وحضر بئرًا أخرجت ماءً عذبًا على عمق ٨٠ م، وهناك آبار مجاورة أقدم، ربما كانت هى الآبار التى اصطحبت الصوماليين البرتغاليين إليها.

(٩١) J. de Barros, Op. cit., I, Liv. IV, Cap. XI, T1- P1 pp. 460-463.

(٩٢) F. Denis, op. cit., p. 157

(٩٣) J. De Barros, Op. cit., I, Liv. IV, Cap. XI, t1- P1, pp. 460-463.

(٩٤) Ibid.

(٩٥) Ibid.

(٩٦) غالبًا ما يخطئ البرتغاليون، فقد خلطوا بين الطقوس البوذية والمسيحية، فقد اعتبرو أمها - مادجا وابنه ساكيا على أنه العذراء وابنها يسوع.

(٩٧) Bien Souvent les Portugais se meprient. Confondant des rites bouddhiques avec le christianisme, ils, prirent Maha Madja et son fils Sakya pour la Vierge Marie et son fils Jesus.

(٩٨) Aenis,p.255 ملاحظة العمود الثاني، وفيه استشهاد مقتبس من Marreca, Intitule "Joao de Barros, Luiz endez de Vasconcellos e o commerico da India article pulie a=dans panormama 1 re annee , 2 serile, p. 370. Aenis,p.225.

(٩٩) Demis. P. 225 F. Denis, op. cit., p. 160.

(١٠٠) Demis, P. 226 اقتباس من Martin Affnsode souza

(١٠١) أخذوا بتاريخ ٢ مارس١٥٠٢، انظر. A . .Kammerer, op. cit., t. II, Vol. III. P. 96.

(١٠٢) J. de Barros, Op. cit. I, Liv. VI, cap. III, I1- P2, pp. 29-31.

(١٠٣) المثقال يساوى ٤ جرامات ذهب فى ممكلة مالى فى القرن الرابع عشر، ويعطى على أنه القيمة المساوية للسنتيم من الجنيه الإنجليزى أى ٤,٥ جرام تبلغ هذه الجزية إذن نحو ٢ كجم ذهبًا.

(١٠٤) المثقال يعطى على أنه مساو للدوقة أى نحو ١,٦٦ دراخمة انظر .Menosial, P. 282

(١٠٥) Ibid.

(١٠٦) كانت بناء على قرار السلطان فى مصر الذى أراد التدخل، انظر ما يلى ص ٢٤٤.

(١٠٧) F. Denis, op. cit., pp. 158-159.

(١٠٨) A.Mammere,op.cit.,II,3,p.104.

(١٠٩) CF. Infra, "L'invincible Aden", P. 247.

(١١٠) Ibid., P. 105.

(١١١) تلميح لحوادث عنف واجهت البرتغاليين والعرب فى كالكتا عام ١٥٠٠ لدى حملة بدرو ألفارس كابرال.الساموران، سيد المدينة ترك العرب يتحركون،انظر: .F.Dènis,op.cit.,p.154-55

(١١٢) F. Denis, op. cit., p. 174.، اقتباس من Histoire de la dècouverte et de la conquête des Indes les portugais.

(١١٣) A. Kammerer, op. cit, t. II, VOl. III, p. 94.

(١١٤) حاوجى الشكل التركى من حاج العربية، الاسم المعطى للمؤمنين الذين قاموا بأداة فريضة الحج بمكة.

(١١٥) الصلات مع مالندى تستبعد حدوث أى اتفاق مع مومباسا فالمدينتان عدوان وهناك مثل يقول: "عدو مومباسا صديق مالندى"؟ كان يحكم مومباسا أحف، مهاجرى حضرموت. بينما كانت مالندى فى يد فارس من شيراز.

(١١٦) A. Kammerer, op. cit., p. 108.

(١١٧) بعد أخرى منها ديجو دياز عام ١٥٠٠ وأنطونيو سالهاندا عام ١٥٠٤ .

(١١٨) A. Kammerer, op. cit., p. 113.

(١١٩) Ibid.

(١٢٠) F. Denis, Op. cit., p. 169.

(١٢١) A. Kammerer, Op. cit., t> II, Vol. III, pp. 124- 125.

(١٢٢) Ibid., p. 170.

(١٢٣) F. Denis, op. cit., p. 171.

(١٢٤) رأس موسوهام أو ماسادام.

(١٢٥) Ibid.

(١٢٦) اسم هرموز مشتق من هارموزيا، وهو اسم ميناء قديم ينزل فيه نيارك، أميرال الإسكندر الأكبر. يسميه الفرس أورا مازدا، من أهور بمعنى "حى" ومازدا بمعنى "حكيم" فى لغة فارسية قريبة من السنسكريتية. فى ديانة زرواستر، هرموز مخلوق خير وظاهر بامتياز وهو النور والكلمة الخالقة.

(١٢٧) ybid.

(١٢٨) فراسخ برتغالية تبلغ ٥٤٠كم.

(١٢٩) Ibid. اقتباس من باروس لم يشر إليه دونيس.

(١٣٠) F. Denis, op. cit., p. 187.

(١٣١) Ibid.

(١٣٢) Ibid.,p.189.

(١٣٣) تزايدت التوابل فى فينيسيا حتى مائة دوقة، ثم هبطت حتى عشرين فى لشبونة عام ١٥٠٥ .

(١٣٤) A. Kammerer, op. cit., t. II. Vol. III. Pp. 139-144.

(١٣٥) Ibid., p. 145.

(١٣٦) F. Denis, pp. 175-178.

(١٣٧) Ibid.

(١٣٨) A. Kammerer, oip. Cito., II vol. III. P. 157.

(١٣٩) F. Denis, op. cit., pp. 179-180,

(١٤٠) A. Kammerer, op. cit., t.II, vol. III, pp. 174-175.

(١٤١) A. Kammerer, Op. cit., t. II, vol. III, pp. 157-158.

(١٤٢) Ibid.,pp..175-176.

(١٤٣) لم يكن هذا التدمير تماماً بالتأكيد لأننا نعتقد أن البرتغاليين استخدموا سوقطرة نقطة ضغط عام ١٦٠٠ .

(١٤٤) مولستى السفير الحبشى القادم استقبله البرتغال ثم بعث للهند، عملياً لم يعد لبلده الإمام ١٥٢٠، ومات قبل أن يلتحق ببلاط النيجوس.

(١٤٥) فانسان سودريه كان عم فاسكو دو جاما، وكانت مبادرته غير محظوظة لأنه فى ظل غيابه البرتغاليون فى الهند وهلك فى البحر مثل أخيه براز ومعظم بحارته.

(١٤٦) Ibid., pp. 175-176.

(١٤٧) A. Kammerer, Op. cit., t. II, vol. III, p. 98.

(١٤٨) Ibid., p. 104.

(١٤٩) عهدوا للمبشرين، فرناند جومير ومغربى موثوق به فى خدمة البرتغاليين بمهمة الاتصال بالكاهن يوحنا بهدف تحويل مياه النيل.

(١٥٠) Ibid. p. 112.

(١٥١) A. Kammerer, op. cit., t. II, vol. III, PP. 135 a 139.

(١٥٢) سكان سلطنة ماهرا بالقرب من رأس فارتاك.

(١٥٣) ربما ماييت.

(١٥٤) نحو عشرين ميلا من عدن على نفس الساحل.

(١٥٥) Ibid., 109.

(١٥٦) Ibid.

(١٥٧) أمير تعنى قائداً، أميراً .Ibid

(١٥٨) يوجد غموض أحيانًا حول هذا المصطلح (Roumes أو rumes) الذى جعلناه Roumis، وتغطى عند المسلمين مجموع البحر المتوسط المسيحى، وتشير بامتداد المعنى للقوات المصرية التى تشكل قسمًا من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ويسمون فى هذا العصر "الانكشارية" الذين بعث بهم الحكام لكل أرجاء الشرق F. Deins, op.cit., p175 نذكر بأن قوة الانكشارية تكونت فى القرن الرابع عشر لخدمة السلاطين الأتراك ونشأوا من أطفال لدى سكان خاضعين للعثمانيين.

(١٥٩) جزيرة ساره البركانية طبقا للأسطورة العربية تستخدم للجوء الكايين وأدين بالتشريد بعد مقتل عبل.

(١٦٠) يبدو أنها حشو، لأن جمل (dramadein)، مشتقة من كلمة يونانية هى: dramas، التى تعنى بدقة عداء.

(١٦١) يقول دنيس إن ألبوكيرك لم يصل عدن بسبب رياح غير مواتية، وهذا غير دقيق.,.F. Defnis, op. cit pp. 183-184.

(١٦٢) كان فقط ١٦١٨ وبالمصادفة أن الأب بيبر النيجوس الذى اصطحب النيجوس اكتشف على ارتفاع ٢٩٠٠ م منابع النيل الأرزق، المكون من حوضين صغيرين متقاربين جدا، فيما قال فى بلدة آجوس جنوب غرب بحيرة تسانا انظر A. Kammerer, op. cit. III, vol. VI, p. 343.

(١٦٣) A.Kammerer,op.cit.,t.II,vol.p.138. F.Denis,op.cit.,p.196.

(١٦٤) Ibid., p. 109.

(١٦٥) Ibid. 109

(١٦٦) جزيرة كماران مكان لنفى السجناء وبخاصة على أيام الأتراك.

(١٦٧) يبدو أنه إبان هذه الرحلة الأولى، أن جوميز لم يكن يدرى بوجود ميناء أن كيلو الصغير الواقع على بعد عدة كيلو مترات جنوبا، وبعد تدمير عام ٦٤٠ كان ميناء مسيحيا يسيطر عليه الأحباش.

(١٦٨) A. Kammerer, op. cit., t. II,vol.III,pp.188-199.

(١٦٩) Ibid, p. 200, citation de Cartas, Note 1.

(١٧٠) Ibid., p. 205.

(١٧١) Bernardes Floresls cité par F. Denis, op.cit., p. 194

(١٧٢) Kammerer, II/3, P. 210

(١٧٣) Ibid.

(١٧٤) F.Demis, op.cit., p.195 ، يستشهد المؤلف بخطاب دوم مانويلى المكتشف فى أرشيف دير الكوباسا، والذى ربما لم يرسل للهند.

(١٧٥) A. Kammerer, op. cit., t. II, vol III,p.232.

(١٧٦) اقتباس من كورسالي. كانت هذه السفن ذات المجادين مزودة كذلك بأشرعة مسلحة، كل واحدة على مشهاتلي شون قطعة مدفعية وستة أخرى أصغر حجما، ومدفعان وستة مدافع من النمط القديم المسمى بالحنشية، نقلت ستة آلاف رجل.

(١٧٧) كانت عدن فقط هي المستقلة والتي ظلت تقاوم حتى عام ١٥٢٨.

(١٧٨) A. Kammerer, op. cit., t. II/3, p. 231-238.

(١٧٩) Ibid., vol, IV, p. 268.

(١٨٠) لم يقل شيئا إلا أنه بادر بالهجوم على اليمن ليقتطع سلطنة، وحدث أن اغتيل عام ١٥٢٦.

(١٨١) اقتباس من قصة راع لكنيسة الفارس وأخـــذ بـــها C. de le Ronciére, op.cit., t. II, vol. IV, P. 272.

(١٨٢) توفى فى الطريق ولم يعد أبدا لبلاط النيجوس.

(١٨٣) Kammerer, t.II, vol.IV, P. 17.

(١٨٤) دمر أسطول أنطوان روسالدانها فى صيف العام التالى بربرة.

(١٨٥) A. Kammerer, Op. cit., t. II, Vol. III. P. 297.

(١٨٦) Ibid.,p.299.

(١٨٧) A. Kammerer, Op. cit., t. II, Vol. IV, PP. 232.

(١٨٨) Ibid, p. 308-326.

(١٨٩) Ibid.,p.329.

(١٩٠) Ibid.

(١٩١) لم تعرف هذه الرسائل إلا من خلال الترجمات اللاتينية أو الفرنسية التى تعتبر عموما محل شك. ويبدو أن الأصول قد قضى عليها زلزال ضرب لشبونة عام ١٧٥٦.

(١٩٢) وصل فاسكو دو جاما جوا ٢٣ سبتمبر ١٥٢٤.

(١٩٣) A. Kammerer, op. cit., t. II, vol. IV, pp. 283-284.

(١٩٤) Ibid.,p. 285.

(١٩٥) Ibid, vol. III, p. 333.

(١٩٦) Ibid.

(١٩٧) Ibid., p. 287.

(١٩٨) bid, p. 288.

(١٩٩) التأكيد الذى طبقا له دانت عدن للمسيحيين بالطاعة انظر J.Doresse,op.cit.,p.218.

(٢٠٠) F. Denis, op, cit., p. 203 et J. Serrao, Dicionario de historia de Portugal, pp.27-29.

(٢٠١) H,Deherain,l'Egypte torque,t.V,p.30.

(٢٠٢) A. Kammerer, op. cit., t. I, vol. II. PP. 285.

(٢٠٣) Ibid., p. 337.

(٢٠٤) لا نخلطه مع بشال الذى مات ١٣ ديسمبر ١٥٧٨.

(٢٠٥) A. Kammerer, op.cit, I/II, P. 310.، استشهاد مستقى من أرشيف أرجون فى برشلونة.أعمال تشكك فيها كامرير.

(٢٠٦) جعلوا من جرانى صوماليا والذى رمز فى الصومال المستقل بعد عام ١٩٦٠، لأول وطنى ناضل من أجل الصومال الكبرى، فعند الأصل لم يثبت بالدليل، وهو محل نقاش جاد ربما كان جراتر من أصول ترجع لقبيلة تيجرى والذى مؤسسها بالا، وزوج ابنته لسلطان زيلع سعد الدين جرانى، بالفعل هو سبيل أمير هرر.

(٢٠٧) J.Cuoq,op.cit.,p.244.

(٢٠٨) Ibid., p. 248.

(٢٠٩) Ibid.

(٢١٠) Kammerer, I/II, P. 226

(٢١١) Ibid., p. 258-59.

(٢١٢) Ib.d., Cuoq, op. cit., p. 253

(٢١٣) قصة هذه الحملة مقتبسة من مصدرين مختلفين: Da Asia, decadav (parte terceira) de Diogado Coutoet Le Roteiro. – كانت أول ما كتبه كاملا قوتر الذى نشر سلفا العشرية – IV decada – والذى طبقا لها نجد الملاحظات التى ذكرها بروس بعد موته وقصة جواد دو كاسترو الذى لم يكن سوى ضابط بسيط بالأسطول البرتغالى تحت قيادة دو جاما ونشره كارفالو فى باريس عام ١٨٣٣.

(٢١٤) الشيخ سعيد أوسيليس القديمة، اشترته عام ١٨٦٨ بمبلغ ٥٠٠٠ فرانك الشركة المرسيلية رابوا بازات يوم ٧ يوليو ١٨٧٠، أكدت تركيا قيمة الشراء ولكنها امتلكتها عام ١٨٥٥، وفى عام ١٩١٨ بعد الحرب العالمية الأولى تركت الشركة للرحيل إلى فرنسا التى أعلنت امتلاكها حتى عام ١٩٢٠. فى عام ١٩٣٩ اعترفت فرنسا باليمن وبسيادته للشيخ سعيد.

(٢١٥) Kammerer, III/V, p. 126.

(٢١٦) ترك برموديز قصة كاذبة وجدت من يصدقها أن بطريرك البشرية وملك البرتغال نصباه رسميا قائد الحملة، وهذا ما تكذبه الأحداث والروايات.

(٢١٧) عام ١٦٢٧، اكتشفت حملة برتغالية بقايا الجسد ورأساً يؤكد ثلاثة شهود كهول وجودها في نافورة.

(٢١٨) على الأقل كما وصفه ميجل دو كوستا نوفوزو، الكابتن الشجاع لدى كريستفو وفضل الأتراك العودة لليمن حاملين رأس دوجاما.

(٢١٩) A. Kammerer, op. cit., t. III, vol V. p. 156.

(٢٢٠) J.Cuoq,op.cit.,p258.

(٢٢١) Kammerer, I/II, P. 268

(٢٢٢) Ibid., p. 239.

(٢٢٣) يتعلق هنا الأمر بالإسكندر نور وليس إسكندر بن أحمد الذى اختاره سليم الأول حاكما على زبير منذ ٢٠ عاما سبقت.

(٢٢٤) A. Kammerer, op. cit., t. I, vol. ii. P. 73.

(٢٢٥) ديجو روكوتو كتب أن باكسيا وصل عدن وأمطره الملك بالهدايا والمؤن، وأرسل باكسيا من أجل أن يلتقيه على متن المركب، ورفض الملك فأمر باكسيا بإنزال الانكشارية والذين طمأنوا الملك الذينرغب فى الحل، وذهب الملك فى صحبة كبار رجاله وذهب لاستقباله واستقبله بحب وحرارة، ثم قبض عليه الانكشارية وشنق على أعواد صوارى المركب ومعه أربعه من أصحابه.

(٢٢٦) J. de Barros, op. cit., IV, liv. X, cap. III, T4-P2, PP. 514-15.

(٢٢٧) Kammerer, III/V, P. 85

(٢٢٨) وغالبا ما يكون قليلا خيرا لأن عدن عام ١٥٤٠ كان بها الحاكم التركى الذى عزله السكان الذين جوعهم.

(٢٢٩) ليست لهذا القائد العربى أية صلة بسليمان باشا. وهذا التشابه يؤدى أحيانا للخلط. فليس الدم الانكشارى هو ما يعجب البرتغالية.

(٢٣٠) Kammerer, III/V, pp. 80-85.

(٢٣١) لم يعد الأتراك سادة عدن منذ ١٦٢٦، ولكنهم احتفظوا فى جزيرة سارة بقلعة كبيرة محصنة يحكمها برتغالى والذى فى عهده لم تتصل إلا عن طريق البحر من موكا، وهو الأمر الذى أوضح عام ١٦٣٣ فى أغسطس أن آباء البرنية والميدا وجزويتا فى الطريق لجوا - A. Kammerer, op. cit., t. III, vol. VI, p. 397.

(٢٣٢) Ibid.t.III,vol.Vp.91.

(٢٣٣) Ibid.

(٢٣٤) سيدى على، كان كذلك شاعرا ناجحا معروفًا باسم الكاتب الرومى.

(٢٣٥) Ibid. 92-93.

الفصل التاسع

البحر الأحمر التركى

بعد تقدمهم النهائى ووصولهم حتى السويس وانتصار الأحباش على جرانى، غيَّر البرتغاليون سياستهم فى البحر الأحمر. الغياب الكامل للأسطول التركى بالبحر الأحمر من باب المندب حتى السويس عام ١٥٤١، ومشهد خمسين سفينة صغيرة مسحوبة على الأرض بهذا المكان الأخير، أعطاهم انطباعًا كبيرا بأنهم لن يتعرضوا ثانية لهجمات تركية بالهند، وفى هذا الصدد كان التحليل صائبًا.

لكن هناك أسبابًا أخرى لهذا التحول، برغم الفشل فى البحر الأحمر والذى لم يتح الفرصة لاستنزاف التجارة العربية – التركية المتجهة نحو البحر الأحمر، فإن تجارة الهند قد ازدهرت وضمنت تأكيد ثراء البرتغال وسيادتها فى الهند. وأخيراً، فإن منافسات أوربية أخرى: هولندية و إنجليزية وفرنسية سوف تدخل المشهد لتفرض على البرتغال قصر جهودها على استثمار ما جنته. وأخيراً وليس آخراً" استيلاء الإسبانيين على السلطة فى لشبونة عام ١٥٨٠، لم يكن ليشجع الروح الهجومية للبرتغاليين الموجودين فى الهند. هذا الهجر الكلى للبحر الأحمر جعل التفكير يتجه لنشاط مكثف على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى سوقطرة ومايت. احتفظت البرتغال لنفسها كذلك بنقاط ارتكاز على سواحل حضر موت وعمان وبخاصة فى خالفات وتايوا ومسقط ومطارا وسوهار وخوفا كام[١]. وقد أتاح هذا الوضع للأتراك المجال رحبًا فى كل مكان من عدن حتى السويس، وأفادوا منه على مستويات متعددة بدون معارضة البرتغاليين.

هجوم الأتراك فى البحر الأحمر

إذا كانت المساعدة الخاطفة بالسويس قد طمأنت البرتغاليين، فقد أعطت فى نفس الوقت الضمان للأتراك بأن مصر غير قلقة كثيراً منهم، فلم يحدث أكثر من ضربات مدافع وبعض المناوشات على الأرض. بعيداً عن قواعدهم أصبح واضحا أن أى إنزال للقوات البرتغالية غير مرغوب فيه، وكذلك أى احتلال للأراضى لأى فترة وبأى شكل. الأتراك يمتلكون أسطولا بحريا ضعيفا لكنهم استخلصوا من هذا الموقف الدرس المنطقى، وهو أن البحر الأحمر ستؤول السيطرة عليه إليهم إذا ما امتلكوا ضفتيه.

الهدف التركى: الحبشة

رأى السلطان العثمانى أنه بعد انتهائه من اليمن سوف يقوم باحتلال كل الموانئ والجزر التى لا تزال حرة وغير خاضعة لأحد. وسوف تبقى أمامه الحبشة التى يعنى احتلالها حرمان البرتغال من نقطة ارتكاز مهمة.

الأتراك فى مصوع

عهد السلطان سليمان المعروف باسم سليمان العظيم[٢]، بهذه المهمة إلى زيمور باشا وهو جركسى أصبح سيد أعالى اليمن، والتى اقتطعت منه منذ فترة قصيرة البشليك. عبر البحر الأحمر من جدة على رأس ثلاثة آلاف رجل، وغزا سواكن فى أبريل ١٥٥٥، وكان لدى الأسقف أوفيدو وبعض اليسوعيين الوقت لينزلوا فى أركيكو قبل أن يحتلها زيمور. احتل من ثم مصوع وانطلق لغزو واحتلال الداخل، فوصل بلا عائق ديباروه وديبرادامو وذبح الرهبان ونهب الأديرة[٣].

وبعد عامين من المعارك لاحقهم فيها الأحباش بقيادة بحار نجاش يشاك القائد الاتحادى للإقليم، وعاد زيمور لمصوع. والحامية المكونة من الآسيويين والبوسنيين المعروفين بكسلهم وانسياقهم للشهوات والتميُّع كانت تضم نساء محليين، ومع مرور السنين زاد عددهن وأصبحت أجورهن الضعيفة تشكل عبئًا على الأتراك. تفاقمت المشكلة عندما قرر أحد باشاواته ذات يوم أن يجعل منها باشليكًا وراثيًا، وكل محاولة لإلغاء أجر تتحول لمال خاص يؤدى للتمرد(٤). والقصة التالية أوردها بروس وهى مؤرخة بعام ١٧٦٨، وهى تلخص بدقة النظام الذى فرضه الأتراك على ممتلكاتهم فى البحر الأحمر:

" انتعشت تجارة الهند فى سواكن ومصوع فى فترات ازدهار إمبراطورية الخلفاء. كان البانيون وحدهم، من بين كل الهنود، هم الذين حصلوا بالتفاوض مع المحمديين على الدفاع عنهم ودخول الأرض المقدسة بالحجاز، ومن ثم يدخلون بسفنهم كنفودا فى اليمن، ويستخرجون من سواكن ومصوع اللؤلؤ والصدف ويبادلونه فى الصين مقابل وزن نفس الكمية ذهبًا. التبر وهو الذهب الخالص فى سنار (لأن ذهب الحبشة كان أقل منه نقاء) وسن الفيل وقرون الوعول وكثير من الصمغ العربى والعنبر والمر والبخور والكثير من البضائع الأخرى الثمينة تباع فى مصوع وسواكن فى تجارة وتبادل مع الهند، ولكن فى ظل الظلم والعنف اللذين تمارسه الحكومة التركية لا شىء يبقى كما هو، الباشوات يدفعون لشراء أماكنهم أثمانًا باهظة لإستانبول وهم غير متأكدين من بقائهم مدة طويلة حتى يتمكنوا من استرداد ما دفعوه من المال، ومن ثم فهم لا يصبرون حتى التجارة بل سرعان ما يتحولون للصوص عموميين، ويستوقفون السفن التجارية فى مواقع تمكنهم من إحكام السيطرة عليها، ويمارسون الوحشية والعنف ضد ملاكها، ويأخذون رهائن ينضمون إليهم لاحقا هدايا من الهند.

وعجل هذا الرعب بهجر تجارة الهند وتوقف الدخل، فلا يفكر أحد فى التجارة مع مكان يعرض حياته للخطر. وأخيرًا سقطت دحاليك تحت سيطرة باشا جدة وبعث إليها

بأغا الذى دفع للباشا مقابلاً ماديًا متصاعداً على أن يمتلك ما بها كليًا أو جزئيا"(٥)، الآن، ضعف السلطة الحبشية المركزية المهلكة من القتال ضد الفلاشا، وهم سكان يهود دائما ما يقومون بالتآمر. اعتقد يشاك أن ساعته قد حانت وكل الجنود البرتغال وعددهم مائتان وخمسون أو مائتان وسبعون وقفوا بجانبه ضد ميناس، الذى انتصر على أخيه كلود. بل استمر يشاك حتى إنه عقد تحالفًا مع زيمور باشا الذى كان قد هزمه. ميناس وبعد انتظاره عبثا بعد مرور أسطول برتغالى على الساحل، اعتزل داخل كنيسة. وتقدم زيمور حتى ديباروه لكنه مات نهاية عام ١٥٦٢ ولم يعش بعده ميناس طويلاً فقد مات بدوره يوم ١٥ يناير ١٥٦٣.

الحرب التركية الحبشية

زادت الدسائس فى الحبشة بعد موت ميناس، وقاد يشاك لعبة خطرة مع الأتراك المتمركزين فى ديباروه، وربما فعل ذلك انتظاراً لإنقاذ يقوم به البرتغاليون الذين لم يأتوا. وفى جوًا ظلوا صماً تجاه ما يعد تمهيداً لاحتلال ذى صبغة دينية يقوده الأسقف أوفيروا بطريرك الحبشة، وحتى تدخل بورجيا لدى البابا لم يأت بنتيجة.من بقى مع كريستيفاو دو جاما بالسويس كانوا هم فقط البرتغاليين الموجودين فى المنطقة، وفيما عدا ذلك لم يعد للبرتغاليين تدخل فى البحر الأحمر، وتحول هؤلاء على قلتهم لمبشرين يسوعيين لا يكلون يدعون للكاثوليكية، وهو الإيمان المسيحى الحق طبقًا لهم، دخلوا الحبشة اليعقوبية(٦).

وقد هيأ تزايد القوات التركية باليمن والهدوء الذى تلا ذلك الجو لاحتلال الحبشة. حصون وقلاع سواكن ومصوع زادت من قواتها وتم غزو تيجريه عام ١٥٧٤. يشاك فى المقدمة من جديد وتخلى عنه النجوس سارسا ونجل، وعقد تحالفًا مع الأتراك وطلب من محمد، الإمام الثالث من خلفاء جرانى أن يقوم بهجوم جديد.

لما وجد نفسه يهاجم على ثلاث جبهات طلب النيجوس نجدة من البرتغاليين عام ١٥٧٦، لكنهم لم ينجدوه، فاضطر لمواجهة الموقف، وفى عام ١٥٧٧ هزم محمد الذى قطع رأسه. بدا يشاك الذى تزوده تركيا بالمدافع من الصعب هزيمته، وتم لقاء أول يوم ١٣ نوفمبر ١٥٧٨، بين الأتراك ويشاك مجتمعين ضد سارسا ونجل، والذى كان يجب أن ينتهى بتدمير هذا الأخير، ولكن كل المتحاربين استهلكوا وتقدم الجميع لعقد السلام. وفشلت المفاوضات واندلعت المعارك من جديد وقتل يشاك يوم ١٣ ديسمبر ١٥٧٨ فى معركة عدى كورو، واستولى الأتراك على ديباروه قبل نهاية العام[٧]، وكانت القاهرة متماسكة وقام الأتراك بمحاولة جديدة عام ١٥٨٩، وكانوا قد أخذ ديباروه النيجوس وطردهم من جديد، وأخذ أركيكو وسواحل مصوع عام ١٥٩٠ أو عام ١٥٩٢، ولكن لنقص فى المراكب لم يستطع أن يطردهم من الجزيرة.

الأتراك والحجاز

إذا كانت الحجاز قد قامت بدور مهم على الصعيد الدينى فى العالم الإسلامى فإنها حتى الآن لا دور لها فى الصراعات السياسية. ولم تستطع مصر فى عهد المماليك كما فى عهد الأتراك عند وصول البرتغاليين أن تتجاهل جدة وهى القاعدة المتقدمة للتصدى لهؤلاء المذكورين أخيراً. عينت مصر بها منذ وقت مبكر باشا، مسئولاً عن المرور البحرى ويتحكم فى رسوم المرور إلى مكة والأماكن المقدسة. وهذا الوضع سبب كثيراً من التجاوزات من قبل الأتراك. القلاع الثابتة بأقرب مدينة عسكرية تركية فى الطائف، وكذلك القوات التى تقوم بجمع الرسوم السنوية نهبوا المدينة المقدسة وأظهروا وقاحة وتعسفاً ضد العرب. وتحسن هذا الوضع عند جلاء الأتراك عن اليمن عام ١٩٣٥، حيث أصبح مرور القوات قليلاً وعددهم كذلك. وظل تدخل الأتراك عاملاً من عوامل عدم الاستقرار فى مكة، لدرجة أنهم أباحوا لأنفسهم الانتقام من الشيعة الفرس بها فى بداية القرن الثامن عشر[٨].

الغارات الأوربية بالبحر الأحمر

أبحر بعض الرحالة من غير البرتغاليين فى البحر الأحمر حتى بدون ممارسة نشاط تجارى، ونذكر من أوائلهم لودفيج دو فرماس، وهو مسيحى اعتنق الإسلام، من أصول إيطالية ويدعى كذلك برتما، قام عام ١٥٠٢ بالحج إلى مكة ووصل عدن، وقبض عليه فى صنعاء ثم أطلق سراحه.

الهولنديون

كان التكتيك التجارى لمدريد تجاه الهولنديين بعد الاستيلاء على البرتغال سيئًا، لشبونة ظلت لعقود مفتوحة أمام سفنهم التى تأتى لتتزود بالتوابل إلى أن توقف هذا الوضع عام ١٥٨٠، فقد صنعت لشبونة وقادش هذا. فلم يكن يجب عليهم تجاه البضائع الهولندية سوى تسليح السفن وتوجيهها إلى الهند ابتداء من عام ١٥٩٤، عندما تولدت النزعة الاستعمارية الهولندية.

تأسست شركة الهند الهولندية بناء على مبادرة شخص يدعى لنشوتن، وهو أمين سر قديم لأسقف جوا[٩]، وغادرت السفن الأربع الأول هولندا عام ١٥٩٦[١٠]، وكانت السفينة التى قادها القائد كورنيلس هوتمان هى أول سفينة أبحرت، وكان ذلك يوم ٢ إبريل ١٥٦٩.

فقام قبطان يدعى فان دين بروك عام ١٦١٤، بالتفاوض من أجل عقد اتفاق تجارى مع عدن، وزار مكة ومنها وصل صنعاء. وكانت هذه الرحلة التى قام بها الهولنديون فى البحر الأحمر سبب وصول القهوة إلى أوربا.

جنحت سفينته هولندية إلى تابل بيه عام ١٩٤٨، وهو مكان تقوم به حاليا مدينة كايب تون، وظل الناجون أحياء لمدة خمسة أشهر ووصلته عام ١٦٥٢ أول ثلاث سفن تحمل مهاجرين.

الإنجليز

كانت العلاقات بين البرتغاليين والإنجليز معقدة للغاية بسبب خلافة العرش فى لشبونة واحتلال إسبانيا للبرتغال.

خلافة العرش فى البرتغال

كان من نتائج أواخر عهد دوم هنريك الملك الحبر المقدس يوم ٢٨ أغسطس ١٥٧٨، أن فتحت مسألة خلافة العرش فى البرتغال، فقد طالب فيلى الثانى ملك إسبانيا بالعرش لكاستل، فهو حفيد الملك عمانويل عن طريق أمه إليزابيث، وهنا يعيد التاريخ نفسه عند موت الملك فرديناند عام ١٣٩٣، وتظاهر مطالبون آخرون بالعرش : كاترين دومدسيس وإليزابيث إنجلترا وعمانويل - فيليب دوق سانوا كاثرين دوقة برابانس ودوم أنطونيو رئيس ديركراتو، واعتبروه عمانويل وأخيرا رانوس أمير بارم الذى لم يكن يتعدى عمره تسع سنوات، ولكنهم غيروه حفيد دون دوارت الأكثر شرعية.

أمام الكورتيس (مجلس التشريع فى إسبانيا) يوم ١١ إبريل ١٩٧٩، شكَّل دون هنريك محكمة لكى تعين خليفته بعد موته، لكنه لم يعط إشارة تفصح عن اختياره؛ مما أثار بلبلة داخل ردهات المحكمة.

غادر المحكمة مع مجلس التشريع يوم ١١ يناير عام ١٥٨٠، رافضا أن يعين خليفة برتغاليا، وأوضح أنه يفضل توقيع اتفاق استسلام مع إسبانيا. إذا وافق المجلس الكنسى ومجلس النبلاء سوف يثور الشعب، أشعل موت دوم هنريك يوم ٣٠ يناير ١٥٨٠ الهجوم الإسباني، وقضى دوق الألب العجوز على المقاومة واستولى على لشبونة فى ٢٥ أغسطس ١٥٨٠، وسوف تدخل البرتغال ضمن أملاك إسبانيا ابتداء من عام ١٥٨٠ ولمدة ستين عاما قادمة.

ومنذ عام ١٥٨٥ تحالفت إليزابيث ملكة إنجلترا مع المقاطعات المتحدة المتمردة[١٢]. وعملت إسبانيا على إسقاط الملكة بالتمركز فى تاج عام ١٥٨٨ بـ" أسطول أرمادا الكبير الذى لا يقهر"، والذى نعلم أن عاصفة قد دمرته فى بحر المانش، وكذلك على يد الأميرال المتمرس مادينا سيدونيا. تسبب استخدام الإسبان لسفن الأسطول البرتغالى فى نشوب حادث غير مباشر على الصعيد السياسى فى المحيط الهندى. وكان الانهيار السريع للإمبراطورية البرتغالية بالهند والإعلان العام عن نية إسبانيا بيع ممتلكاتها هناك. نظرا لعدم تمكنها من أصولها، فإنها لم تستطع أن تفى باحتياجات قواتها، وكانت عاجزة عن تجهيز أسطولها، ولم يكن أمام نائب الملك الذى لم يكن يملك سلطة إلا الاختفاء الكامل من مشهد الأحداث.

يوم ١٥ ديسمبر ١٦٤٠، بينما يعلن عن أن دوق براجانس أصبح ملكًا باسم يوحنا الرابع، لم يكن لدى البرتغال الناهضة من أملاك فى أفريقيا سوى صوفالا وموزمبيق وقيلوا ومومباسا. وسقطت ملقة وتم الاستيلاء على الجال وأسرت جوا، وفى العام التالى استولى الهولنديون على مضيق ملقة تمهيدا لاحتلال كولومبو عام ١٦٥٤، وساحل مالابار عام ١٦٦٣، وسقطت مسقط نفسها عام ١٦٥٠.

شركة الهند

كان الاحتكار البرتغالى للتجارة فى الهند سببًا فى تقرب الإنجليز من الأتراك عام ١٥٨٠ للحد من تأثيره. وبعد غروب شمس البرتغال كأمة وتدمير الأسطول الإسبانى، نظمت إنجلترا نفسها وكان ذلك تنظيمًا على طريقتها الخاصة؛ حيث دفعت بتجارها، وكان أول رعايا جلالتها وصولا للسواحل الشرقية لأفريقيا فيما يبدو هو السير جيمس لانكاستر، الذى ترك فى زنجبار عام ١٥٩١ فى طريقه للهند[١٢]. وقد ترأس أول بعثة تجارية الكابتن ريموند ومعه ثلاث سفن فيما بين عام ١٥٩١ و ١٥٩٤.

نشأت شركة الهند الشرقية شركة ذات امتياز بمرسوم ملكى عام ١٦٠٠، وهى تتكون من تجار إنجليز سنراهم رسميا يحتكرون التجارة كلية مع الهنود،" وهناك تحديد غامض تضمن فى الواقع كل الأراضى الواقعة بين رأس الرجاء الصالح[١٣] ومضيق ماجلان.

سوف تصبح الشركة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر- وبشكل رسمى جدا- قوة إقليمية مهمة فى جنوب آسيا ومقرها العام فى كالكتا متخطية بذلك الأهداف التجارية الأصلية.

وكذلك ابتداء من عام ١٧٨٤، كونت حكومة إنجلترا فى لندن هيئة تفتيش هدفها مراقبة نشاط شركة الهند الشرقية، واستمر هذا الوضع حتى تفكك هذان التنظيمان عام ١٨٥٨.

الإنجليز الأوائل فى عدن

وصل أول إسطول إنجليزى عدن عام ١٩٠٩، وهو تابع لشركة الهند الشرقية بقيادة الكابتن شاربى، وذهب جون جوردان ممثل الشركة فى صنعاء للتفاوض لكى يطلقوا سراح شحنته المحجوزة فى الميناء[١٤].

واحتجزوا أسطولاً ثانيًا عام ١٦١٠، وكان بقيادة السير هنرى ميدلتون الذى استطاع بصعوبة أن يهرب من صنعاء ويلحق بأسطوله عن طريق الحيلة[١٥]. سواء بسبب الغيرة أو للحذر حاول ميدلتون أن يبعد عام ١٦١٢، سفينة أخرى بقيادة جون ساريس الذى أراد أن يدخل البحر الأحمر. ولم ينتبه هذا الأخير لهذا الأمر وقام بزيارة موكا، وهو الأمر الذى هدده بالغرق على يد ميدلتون[١٦].

اتسمت إذن الاتصالات الأولى للإنجليز مع عدن بالصدام والصراع، وظلت هكذا حتى تخلصوا منهم عام ١٨٣٩.

الفرنسيون

أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية عام ١٦٦٤، واستقروا فى نفس العام فى جزيرة بوربون[١٧]. وأطلق استيلاء الهولنديين على جزيرة موريس[١٨] عام ١٧٢١ النشاط نحو القرن الأفريقى.

الحملة الفرنسية الأولى فى البحر الأحمر

تم إطلاق عدد من الحملات الفرنسية فى المحيط الهندى فى بداية القرن الثامن عشر. يوم ٣ يناير ١٧٠٨ أبحرت ثلاث سفن منها " الكوريو والدليجانت " من سان – مالو تحت قيادة إم. إم. دولا مرفى وشامبلورية لوبرون، وعلى متنها تجار من سان – مالو للتجارة والشراء.

وكانت فرنسا آنذاك فى حرب مع هولندا، أنزلت السفن فى جزر القمر ووصلت سوقطرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٧٠٨، بعد أحد عشر شهرا من الإبحار، لكن نظرا لسوء حالة المياه رحلوا يوم ١٠ ديسمبر للبحث عن مكان آخر. تعرفوا يوم ١٣ على ساحل

يقع بالقرب من جاردافوى. انقلب اتصال أرضى مع بربرة إلى دراما، وقتل المتوحشون الصوماليون خمسة من البحارة، ومن ثم اتخذت السفن طريقها فى البحر إلى عدن للتزود بالماء.

كان إم. دو لامرفى يحمل خطاب توصية بأخيه الذى يشغل نفس الوظيفة فى موكا، وذلك عندما استقبل بشكل طيب من حكومة عدن، تزودت السفن الفرنسية بقباطنة عرب ورحلت يوم ٢٧ ديسمبر ١٧٠٨ إلى ناجورة، حيث استقبلهم أيضا السلطان محمد بشكل طيب، وهذا السلطان " ابن دينى"[١٩]. كانت الإقامة قصيرة لكنها مناسبة، ومن ثم نجد أن هذا الموقع قد حظى بثناء دولا مرفى، وكان هذا هو المكان الوحيد الذى امتدحه : "لن أترك خليج تاجورة دون بعض الأسف نظرا لجمال البلد وللمعارف المفيدة للتجارة والتى يمكن تحصيلها من هذا المكان، والذى يبدو لى أن الرحالة ورجال البحر لم يتحدثوا عنه بعد النزول فى راهيتا يوم ١ يناير ١٧٠٩، ورست السفن الفرنسية فى خليج موكا يوم ٣ يناير وبالمدينة عشرة آلاف من السكان التابعين لباشا تركى فى جدة، وفى نفس الوقت لملك اليمن "الحليف بشكل أو بآخر للباب العالى".

وكان الشيخ صالح الحربى متأثرا بتوصية دولا مرفى بأخيه، وأبدى تعاونا كبيرا، أدار هولندى وكالة لشراء القهوة[٢٠]. وكان هناك مبشران إيطاليان يقيمان بالمدينة.

أبرمت يوم ١٦ يناير معاهدة تجارية تعطى حق الإقامة على الأرض تحت المظلة الفرنسية، وكذلك حق الشراء وشحن بضائع بحرية ومنها القهوة بكميات غير محدودة، وخفضت الجمارك بشكل كبير فيما يتعلق بواردات البضائع الفرنسية التى لم تدفع سوى ٢,٥ فى المائة، وهكذا كانت حرية الحركة وحرية العبادة ملموسة.

على مدى إقامة طويلة امتدت لثمانية أشهر في موكا تمتع الفرنسيون خلالها بوضع قوى بسبب إمكاناتهم المادية القوية وما شيدوه على الأرض وأيضا لحجم سفنهم المعتبر. أبحر إم. دولامرفى يوم ٢٠ أغسطس ١٧٠٩، بعد ما أسس قواعد تجارية قوية من أجل المستقبل.

البعثة الفرنسية الثانية فى البحر الأحمر

بعد هذا النجاح الباهر، فرقة التجار في سان ماو " السلام والعمل " بعد ما دعمت نفسها من جديد غادرت الميناء يوم ٤ يناير ١٧١١. رغم الغزو الإنجليزى الهولندى لسواحلنا، أبحر إم. دولا مرفى والقباطنة دولا لاند ودو بريزلين بصعوبة حتى بونديشرى وأسروا سفينتين إنجليزية وهولندية.

عندما انقلبت الرياح الموسمية كانت السفن التى أبحرت غربا خمس سفن، وبعد الإنزال فى عدن يوم ١٨ نوفمبر، وصل الأسطول موكا يوم ٢ ديسمبر ١٧١١، واتصلت به الحكومة التى فى عدن منذ عام ١٧٠٩ وسهلت مهمته، إثر نداء للعناية بالملك العجوز جدا باليمن جاء جراح غرفة السلام والعمل " إلى مؤاب مقر إقامة الملك يقوده ضابط قلعة بونديشرى إم. دو لاجريلوديير الذى يرافق الحملة مترجما. حاكم موكا القديم الوزير الأول بالمين والذى أصبح رئيس وزراء اليمن استقبلهم وتم علاج الملك وقوى بذلك مركز الفرنسيين.

أثناء إقامتهم فى مؤاب لاحظ الفرنسيون تحركا تركيا بناء على طلب استانبول. يحتج الباب العالى على وجود الأساطيل الأجنبية فى البحر الأحمر وعلى التسهيلات التجارية التى حصلوا عليها فى موكا فيما يخص شراء وشحن القهوة. وكان الفرنسيون معنيين بهذا، كما أبدت تركيا عدم انزعاجها لفقدانها مصادر دخل بسبب تحويل التجارة التى كانت تتم فيما سبق فى جدة والسويس. لم يحافظ السلطان على

بنود معاهدة ١٦ يناير ١٧٠٩، وكذلك الأسعار. وأبحرت السفن الخمس محملة بكميات ضخمة من القهوة المهداة من الملك للملك لويس الرابع عشر. يشير هذا الحادث إلى قلة اعتماد اليمن على الأتراك فى بداية القرن الثامن عشر.

كانت هذه الحملة الفرنسية الثانية على موكا ناجحة تماما، وامتدت الإقامة بها حتى ١٠ يوليو ١٧١٢، وكانت العودة إلى سان - ماو يوم ١١يونيه ١٧١٣[٢١].

شركة الهند الشرقية باليمن

أسس كولبير عام ١٦٦٤، شركة الهند الشرقية التى استفادت باليمن من بنود معاهدة ١٧٠٩ ولكن مع مرور السنين تدهور موقف فرنسا.

لم يقبل الإنجليز إلا أن تتمتع بضائعهم بكل الامتيازات، وفى المقابل لا تتمتع بها البضائع الفرنسية، واقترحوا على ملك اليمن أن يحتفظ بالفوائد الكبيرة المفروضة على البضائع المستوردة حقيقة من فرنسا واستبعاد تلك القادمة من الهند. حصلت الشركة من لويس الرابع عشر على الإذن بالتدخل العسكرى، وكانت هناك إشارة بسيطة لذلك عندما أخذت قلعة كانت تحمى المدينة ناحية الشمال، أخيرا سمح وضع اليد هذا بمفاوضات جديدة.

قاد إم دو لاجارو- جازيير بن شقيق دوجاى - ثروات ثلاثمائة جندى من القوات البحرية على متن أربع سفن، وبعد التوقف فى سوقطرة ٢٧ نوفمبر ١٧٣٦، وصل موكا ٢٥ يناير ١٧٣٧، حالت الرياح العاتية بين الفرنسيين وبين إنزال قواتهم، وطالت العملية بالنظر للمفاوضات، وغير قائد الحملة خططه، فقرر أن يهاجم القلعة الجنوبية فى سكون النيل، وكان ذلك ليلة ١٤ إلى ١٥ فبراير وسقطت قلعة عبد الروت من أول هجوم وتفرقت القوات اليمنية. وذهب الحاكم إلى كانوسا وفوَّض كبير أمنائه الذى قبل

بالشروط الفرنسية: باسترداد تكاليف الحملة واستعادة الحقوق الجمركية ومبالغ أخرى تم دفعها وكذلك تزويد الأسطول الفرنسى بالمؤن.

أخذ جارد - جازيير كبير الأمناء رهينة وطلب من ملك اليمن فدية. لما تلقى الحاكم مساعدات قوات يقودها شقيق الملك داورع[٢٢]. ولكن الفرنسيين تحكموا فى الموقف، فقد جاء وزير الملك ليتفاوض باسمه وقبل كل البنود التى اشترطها الفرنسيون فيما عدا ما يتعلق بتكاليف الحملة، وعزل الحاكم أيضا. ووقعت معاهدة جديدة ٩ مايو ١٧٣٧، أكدت الحقوق الفرنسية وسمحت لهم بشراء الأراضى، وأنشئت قنصلية فرنسية عهد بها إلى إم. إنجراند ممثل شركة الهند الشرقية، وأبحرت البعثة الفرنسية ٢١ يونيو لتلحق ببوديشرى. ومنذ هذا اليوم دخلت التجارة الفرنسية عصر ازدهار فى البحر الأحمر[٢٣].

الحاجة للأيدى العامة والرق

يوجد العبيد ومنذ القدم فى كل مكان، فى البحر الأحمر على الساحل الشرقى لأفريقيا، لدى العرب والفرس والمانيين، سورات ومالابار وحتى الصين.

لم ير البرتغاليون ضرورة لنقل العمال الأفريقيين للهند أو لعمان. لا يبدو أنه كان بإمكانهم المشاركة بشكل ما. أما الإنجليز فقد وجدوا فى العمالة الهندية ما كانوا يحتاجونه[٢٤].

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للهولنديين فى الجزيرة الفرنسية (جزيرة موريس) سرعان ما أخذوا عبيدا من سواحل مدغشقر وموزمبيق. وعندما سيطر الفرنسيون على جزيرة عام ١٧٢١، واجهوا نفس المشكلة واتجهوا نحو المصادر نفسها، وعندما عين ماشيه دولا بوردونيه حاكما زادت الحاجة إلى العبيد مع تطور زراعة قصب السكر.

نحو عام ١٧٧٥، بدأ شخص فرنسي يدعى موريس في شراء العبيد من كلوة لدرجة أنه أراد أنْ يجعل تجارة العبيد ونقلهم عملاً رسميا تعترف به الحكومة، وضمن بتعاقده مع ملك كلوة احتكار تجارة العبيد على أن يدفع للعبيد ٢٠ قرشا. وفي غضون ثلاثة أعوام جلب نحو ٤١٩٣ عبدا، بلغ ثمن الأخيرين منهم: ٤٠ قرشا للواحد، ولم تتوقف الحركة وجزيرة فرسنا في أواخر القرن الثامن عشر احتوت على مائة ألف عبد بين مائتي ألف من الأحرار. نؤكد في هذا العصر الحاجات السنوية الوحيدة للجزيرة والتي تقدر بعشرة آلاف عبد[٢٥].

سيخلق تطور مشابه في جزيرة بوربون نفس الحاجات، والقضاء على تجارة العبيد وإحلال العمال الأحرار بشكل أو بآخر مكانهم، وقاد الفرنسيون في رينيون والإنجليز في جزيرة موريس بعد عام ١٨١٠ أعمال بحث، وصلت حتى عدن وتاجورة والبحر الأحمر- عن أيد عاملة أصبحت مع مرور الوقت أكثر ندرة.

الحملة الفرنسية على مصر

كان الفيلسوف الألماني جوتفريد فيلهلم ليبنيتز أول من دعا إلى القيام بعمل فرنسي ألماني مشترك ضد الأتراك، وكان ذلك نحو عام ١٦٧٠. في مشروعه، كانت القوات الفرنسية التي تهدد الراين، يمكنها القيام باحتلال مصر. ونوقش المشروع بجدية بالغة لدرجة أنه أخبر أن الملك لويس الرابع عشر استعد لاستقباله يوم ١٢ فبراير ١٦٧٢، لكن لم يأت بجديد فتجاهل الملك لبنتز لكن لم يتجاهل مصر. فقد كلف سفراءه المتتابعين لدى الباب العالي بالتفاوض من أجل السماح بحرية المرور من الإسكندرية إلى السويس؛ لفتح طريق تجاري نحو الهند عن طريق البحر الأحمر وكان الإخفاق.

فكشفت هزيمة الأتراك الذين تحدوا كاترين الثانية عام ١٧٦٨، لدوق شوازل وزير خارجية لويس الخامس عشر " تدهور حالتهم فى كل المجالات"[٢٦]. وأكدت تقارير السفراء ضعف الإمبراطورية العثمانية، ولكن شارك جرافييه، كونت فرجين وزير خارجية لويس السادس عشر من عام ١٧٧٤ حتى عام ١٧٨٧، وكان هو نفسه سفيرا قديما فى إستانبول اختار الوقوف ضد المؤيدين لتقطيع أوصالها.

تاليراند الذى قابل الدوق عام ١٧٨٤، أى العام السابق على وفاته فى عزلته بعد تقاعده فى شانتلو، ونقل رؤاه يوم ٣ يوليو ١٧٩٧ أمام أعضاء المعهد الوطنى للعلوم والفنون:

"مسيو دوق شوازل واحد من الرجال ذوى الروح العالية، وقد تنبأ عام ١٧٦٩ بانفصال أمريكا عن إنجلترا وخشى من تقسيم بولندا، وبحث ابتداء من هذا العصر التمهيد عن طريق المفاوضات من أجل أن تؤول مصر إلى فرنسا، فتسير حاجتنا من المنتجات والتجارة التى قد تفقدها فى اليوم الذى تفقد فيه المستعمرات الأمريكية"[٢٧].

إذا كانت الفكرة قد حظيت بقبول لدى الإدارة، فإن عليها أن تصادف مصلحة سياسية وأن يجدوا ذريعة مناسبة، فكانت التظلمات الكثيرة التى قدمها الفرنسيون المتحركون بالقاهرة من سوء معاملة الأتراك لهم أسبق من غيرها. ويقال: إن الرغبة فى استبعاد جنرال الجيش الإيطالى الشهير جدا كانت الثانية[٢٨]. شارك مجالون، وهو تاجر فرنسى بالقاهرة كان قد تم تعيينه قنصلا فى فبراير ١٧٩٣ أعلن عنه فى ١٧ يونيه ١٧٩٥، فى فرنيناك ممثلا لفرنسا فى إستانبول، ووجهة نظره " أن الجمهورية قوية وتستطيع أن تخضع أشخاصا بالقوة، أولئك الذين لا يشاركون إلا فى العجرفة، وأرجوك أيها المواطن ألا تتجاهل الوسائل التى تؤدى لإعطاء مصر لفرنسا"[٢٩].

فى الأول من أكتوبر عام ١٧٩٥، أرسل مجالون إلى كلوشن المفتش على العلاقات الخارجية مذكرة تشير لإمكانية احتلال الهند بعد الفراغ من مصر.

"كل تجارة قهوة اليمن وتجارة الهند يمكن أن تتم عن طريق السويس، الإنتاج الزراعى لمصر متنوع : الأرز والقطن وقصب السكر والقمح المزدهر، ويمكنها أن تكون مخزن القمح لفرنسا يجعلها مصدرا فى السنين العجاف التى قد تواجهها فرنسا عندما تسوء محاصيلها، يعامل السكان بشكل جيد ويحتفظون بثمار عملهم، ثم يستهلكون إنتاج مصانعنا، وبعيدا عن قيمتها الأصلية هذه، يمكن لمصر أن تكون موضع تزويد الجيش الفرنسى بالسلاح الذى يسافر من السويس ليصل الهند فى خمسة وأربعين يوما، عشرة آلاف فرنسيا يهزمون الإنجليز الموجودين فى البنجال"[٣٠].

كان مجالون فى إجازة فى فرنسا فى اللحظة التى أعلن فيها على الملأ تاليراند فكرته عن التدخل فى مصر، وبعد خطابه بثلاثة عشر يوما فقط، عينه باراس تدفعه مدام دوستايل، وزيرا للشئون الخارجية، وفى الحال يضمن صداقة الجنرال بونابرت عن طريق خطاب ملىء بالثناء، حتى دون ذكر مشروعه الخاص بمصر.

القرار والإعداد للحملة

فى مقره بساريانو بالقرب من أودين، أخذ الجنرال بونابرت يفكر بعمق فى الشرق. احتل الجزر الإيونية بواسطة الجنرال جنتلى وكتب يوم ١٦أغسطس ١٧٩٧ للإدارة : "الوقت ليس ببعيد؛ حيث نشعر أنه لكى نتمكن حقا من تدمير إنجلترا يجب علينا الاستيلاء على مصر"[٣١]. شىء لا يصدق تماما، فقد أبلغ الأسطول الموجود فى المتوسط يوم ١٦ سبتمبر ١٧٩٧ معلنا: "معك سوف نعبر البحار وسوف يشمل المجد الوطنى الأقاليم البعيدة "كل شىء تم كما لو كان برغم أنف الإدارة".

يوم ٦ ديسمبر ١٧٩٧ قابل بونابرت تاليراند في باريس، وأرسل هذا الأخير إلى الإدارة يوم ٢٧ يناير ١٧٩٨، رسالة عن مصر مفادها أنه: "لن تستمر الإمبراطورية العثمانية سوى خمسة وعشرين عاما ومقاطعاتها في أوربا ستكون نهبا لبيتين استعماريين. وعلى الجمهورية أن تتخذ استعداداتها ليكون لها نصيب من بقايا الإمبراطورية، وأوضح أن في مقدمتها وبدون تردد مصر وجزيرة كاندى وجزيرة ليمنوس"(٣٢).

وضع أمام الإدارة يوم ١٤ فبراير مذكرة بعنوان "تقرير للإدارة التنفيذية حول غزو مصر" ولم تكد كلمات مجالون التي كتبها حول إشارات الوزير لا تزال باقية بل وعلت النغمة التي تمدح الذات الجمهورية الفرنسية وسيادتها على الذات الرومانية.

"مصر كانت مقاطعة في الجمهورية الرومانية، آن الأوان لأن تصبح مقاطعة في الجمهورية الفرنسية، احتلال الرومان كان عصر تدهور لهذا البلد الجميل، أما احتلال فرنسا فسوف يشكل عصر ازدهار"(٣٣).

كان المديرون يعدون للحرب ضد إنجلترا، وكان على بونابرت أن يقود الأحداث على الأرض. أشار تاليراند لضعف أسطولنا، وشكه في قدرته على إنجاز هذا المشروع(٣٤). لكن الإدارة أخيرا قررت إطلاق الحملة يوم ٢ مارس ١٧٩٨، بعد يومين من المناقشات.

كان بونابرات مستعدا بمشروع مفصل وصله يوم ٥ مارس طلب خمسة وعشرين ألف رجل وثلاثة آلاف فارس. يوم ٧ مارس أرسل تعليماته للجنة، سواحل المتوسط، تتلاحق الأحداث بسرعة مدهشة، غادر الأسطول طولون ١٩ مايو بعد ستة وسبعين يوما فقط من الإعداد وبدون أن يعرف وجهته، كان يشتمل على ثلاث عشرة سفينة حربية، واحدة بها ١١٨ مدفعًا وثلاث بها ٨٠ مدفعًا، واشتملت الحراسة على ٢٨٠ سفينة تنقل خمسة مدافع ليصل الإجمالي إلى ٣٨٠٠٠ رجل.

غزو مصر

يوم ١٠ يونيه ١٧٩٨ استولى الفرنسيون على جزيرة مالطة فى طريقهم، وفى يوم ٢٨ يونيو وزع نداء نابليون على القوات يعلنهم فيه عن مقصدهم وغايتهم، وكان الإنزال١ يوليو أثناء الليل، واستولوا على الإسكندرية بعد أن غادرها النبلاء على متن سفينة تركية أعدت لهذا الغرض.

وقد قدم نابليون لهذا الحدث الكبير على أنه تحرير لمصر من قهر المماليك، وأعلم الباب العالى أنه جاء ليعاقب البكوات وليدمر تجارة الإنجليز. للقضاء على المماليك يجب الاستيلاء على القاهرة. وكان عبور الصحراء مأساويا بحق: منتحرون وموتى وهجوم البدو، والوصول إلى النيل أعاد الروح إلى القوات، بعد المعركة الأولى فى شبرا، كانت موقعة الأهرام ٢١ يوليو ١٧٩٨، التى قضت على قوات المماليك، وفى اليوم التالى قدم النبلاء والكبار القاهرة للفرنسيين.

بدت الدلتا صعبة الغزو، فقد أجبرت عداوة السكان على اتباع أساليب لا شفقة فيها، وكان عليهم بعد ذلك مطاردة مراد بك الذى لجأ إلى بلبيس والذى تراجع أمام تقدم القوات الفرنسية التى لحقت به، ولكنه هرب إلى سوريا، قوبلت قافلة الحج العائدة إلى مصر بمعاملة حسنة للغاية :

" من المهم إقناع شريف مكة وعرب اليمن وجدة أن وجود الفرنسيين فى طريق القوافل لن يضر بمصادر ثرائهم المقدسة، ولن يتأثر التبادل التجارى مع مصر وسوف يتم توفير الأمان".[٣٥]

تدمير الأسطول الفرنسى فى أبو قير

غادر الأسطول الفرنسى الإسكندرية ليصل خليج أبو قير يوم ٧ يوليو ١٧٩٨، وقد أظهر الضباط فيما يبدو شعوراً بعدم الأمان أدى لعدم الانضباط لدرجة لا يمكن أن

نتصورها. أول أغسطس وبينما تلوح فى الأفق أشرعة الأسطول الإنجليزى، كان تردد الأميرال يضيف ارتباكا إلى ارتباك.

كان فى مواجهته نلسون ومعه ثلاث عشرة سفينة بحرية، وبأسلوب متقدم هاجم نلسون الأسطول الفرنسى من الجانبين، وغرق بعيداً عن الساحل بمسافة كبيرة وعلى عمق غير معلوم. وكانت موقعة مرعبة وزاد من الخسارة سوء حالة السفن الفرنسية. وفى اليوم التالى لم يعد لأسطول بونابرت أثر وسفينتان إنجليزيتان فقط لا تزالان صالحتين، وذهب ضحية هذه المذبحة ألف وسبعمائة فرنسى ومائتان وثمانية من الإنجليز، وأما الجرحى فكانوا من الفرنسيين ألفًا وخمسمائة، ومن الإنجليز ستمائة وسبعة وسبعين، وهكذا أمست الحملة الفرنسية التى علقت عليها الإدارة آمالاً عريضة أسيرة بمصر.

التحالف الإنجليزى - الروسى - التركى

على الرغم الجهود الدبلوماسية التى بذلها بونابرت فإن موقعة أبى قير تركت بصماتها على العلاقات بين فرنسا وتركيا. بيير روفان المسئول عن الشئون الفرنسية فى إستانبول، استوقف يوم ٢ سبتمبر ١٧٩٨ وجرد من كل مهامه، وفى نفس اليوم حوَّل إعلان الباب العالى الحرب على فرنسا من عملية بسيطة ضد مماليك مصر إلى حرب أوربية فى القاهرة، وسبب فرمان السلطان الذى أعلن فى المدينة ثورة دموية بين السكان يوم ٢١ أكتوبر، فخلال يوم ونصف اليوم تلقى الفرنسيون الضربات فى شوارع المدينة، الجنرال دوبوى حاكم القاهرة والجراحون العسكريون ومهندسو الطرق والكبارى والفرنسيون المدنيون العزل وذبح الجميع.

وقَّعت تركيا معاهدة تحالف مع روسيا يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٩٨، ومعاهدة أخرى مع إنجلترا يوم ٥ يناير ١٧٩٩. جردت وحدها جيشا مكونا من مائة ألف رجل، لكنها لم تستطع أن تعتمد إلا على الأسطول الإنجليزى فى نقلهم.

اتخذ بونابرت احتياطات دفاعية، فأنشأ "الفرق الأجنبية" المكونة من الأقباط واليونان وأدمج فتيان المماليك داخل الوحدات.

وشيد تحصينات بسيطة بالقاهرة، وفى خليج السويس وعلى ساحل المتوسط وعلى ساحل البحر الأحمر.

الحملات الداخلية بمصر

عهد بونابرت إلى الجنرال ديسايى دو فيجو يوم ٢٥ أغسطس ١٧٩٨، بمهمة تهدئة مصر فيما وراء الدلتا.

حاول هذا الجنرال أولا أن يخضع مراد بك الذى أفلت منه فى المرة الأولى، لكن فى يوم ٧ أكتوبر هزمه فى سدمن بالفيوم، وتابع المطاردة فى صعيد مصر، مر على طيبة ٢٦ يناير ١٧٩٩ ووصل أسوان.

يوم ٢ فبراير. وعندما عاد للقاهرة عهد بمتابعة المطاردة إلى الجنرال بيارد. توغل هذا فى النوبة لكنه لم يجد هناك أثرًا للمماليك الذين لم يتحملوا المعيشة هناك فتسللوا ثانية عبر الصحراء إلى مصر. ورجع الفرنسيون إلى إسنا، باتجاه الأقصر[٣٦]، وخاضوا غمار أربع عشرة معركة فى أربعة أشهر دون تحقيق نتيجة حاسمة.

عند اقتراب منعطف النيل على البحر الأحمر يقلق بونابرت، فهنا وفيما بين كينية وقفط القديمة وميناء القصير، ليكوس ليمن القديمة، حدث هجوم إنجليزى قادم من الهند ودخل مصر. حاول من ثم أن يسيطر على القصير. أربعة مدافع غادرت السويس لتقف أمام الميناء يوم ٧ فبراير ١٧٩٩، كان اختيار الوقت غير موفق، فحملة العرب القادمين من مكة تحركت، وفجرت إحدى سفن الفرنسيين وذبح البحارة على الأرض. حاول بونابرت أن يقنع ديسايى بغزو الميناء من الداخل.

وأصبحت المهمة عاجلة للغاية؛ فقد علموا أن الجنرال الإنجليزى بوفن سوف يدخل مياه البحر الأحمر فى مايو ١٧٩٩، فقد احتل بريم وأبرم اتفاقا مع عدن وضرب السويس بالمدافع. اعترى القلق الجنرال ديسايى وحرص الجنرال بيار ديسايى على احتلال القصير:

"باسم سلام الجمهورية، أنقذنا من هذه الهواجس وانطلق بالقوات اللازمة، باسم السماء قم باحتلال القصير"[٢٧] تلقى بيار التوصية بشكل سيئ وهدد بالاستقالة. ومع ذلك وبعد انتهاء الاستعدادات سار باتجاه القصير يوم ٢٦ مايو ١٧٩٩ ووصلها بعد ذلك بثلاثة أيام، وخضعت المدينة بلا معارك وعهد بحراستها إلى دونزيلوه بعد ما طلب من بونابرت يوم ٣٠ مايو أن يعين هذا الأخير جنرالاً.

حَصَّن أو دونزيلوه المدينة ونظم قواته على الطريقة العربية؛ فقام بتزويدهم بالجمال، ونظراً لقلة المترجمين، فقد لجأ لخدمات المبشرين اليسوعيين الإيطاليين، وكان منهم الأب أنطونيو الذى هرب. يوم ١٤ أغسطس ١٧٩٩، وشاهد دونزيلوه وصول فرقاطتين إنجليزيتين يقودهما بلاتكت، وجرت ثلاث محاولات إنزال تصدى لها دونزيلوه، لكن ضربات المدافع الإنجليزية ألحقت بالمدينة خسائر كبيرة وبالقلعة كذلك. وانسحب الإنجليز يوم ١٧ أغسطس. انهمك دونزيلوه فى إصلاح ما تم تدميره، ولكن بعد اتفاق العريش تلقى الأمر بالجلاء عن المدينة، فامتثل للأمر وكله حزن وأسف نهاية فبراير ١٨٠٠.

الفرنسيون فى سوريا

ظل بونابرت مقتنعا بوجوب الانصياع والقيام بغزو سوريا التى تحرك السادة القدامى لمصر، فأعطى الأمر بالقيام بهذه الخطوة الأولى على طريق الهند الذى ظل هدفه. بدأ ثلاثة عشر ألف رجل فى التحرك شرقًا يوم ٦ فبراير ١٧٩٩، سالكين الطرق الجبلية القديمة التى كان يسلكها الفراعنة، وقمبيز والإسكندر والعرب القدامى. وكانت

فلسطين الهدف الأول، فاستولى على العريش يوم ٢٠ فبراير بعد ضربات مدفعية موجعة، وكان الدور على غزة يوم ١٤ فبراير، ويوم ٣ مارس وصل الجيش أمام يافا واستولى عليها يوم ٨ مارس بعد مقتلة مروعة، وارتكبت الفظائع من كلا الجانبين.لم يستطع الإمداد بالطعام ولا الجلاء، فأمر نابليون بإعمال القتل الذى تم غالبا بالسلاح الأبيض، حيث وضع المقاتلون الأخيرون أسلحتهم وذُبح بهذا الشكل ألفان وأربعمائة رجل.

وكان أن فشا الطاعون فى يافا، وكانت كارثة الشرق التى نالت من الجيش بشكل كبير، ورغم ذلك واصل الجيش طريقه ليصل أمام سان- جون- دارك يوم ١٨ مارس، وكان أحمد باشا الجزار وهو جندى ثرى من أصل بوسنى يحكم المكان. وكان قد قطع رأس المبعوث التركى الذى أرسله بونابرت للتفاوض واستنجد بالإنجليز، وقدم الأتراك أيضًا لنجدة الجزار فى حملة من رجال المدفعية الذين دربهم فيما سبق الفرنسيون. وهكذا كان فى استقبال بونابرت مدافع فرنسية ورجال مدفعية إنجليز وأتراكًا تحت قيادة مهاجر فرنسى وهو أنطوان لوبيكارد دوفيليبو[٢٨]، زميل قديم لبونابرت بالمدرسة الحربية فى برين - لو - شاتو[٢٩].

قام نابليون وقواته بمحاولة التآمر مع السكان الذين يعانون من استبداد الجزار يستطيع التزود بالماء والطعام مقابل دنانير من الذهب يدفعها الدروز. أعطى نابليون أمره بالهجوم على سان - جون - دارك، لكن المدفعية المصاحبة كانت غير كافية، فلم تستطع القيام بعمل فتحة كافية فى جدران القلعة، فكان الفشل وبحور الدماء السيالة. جمع الجزار من جديد كل القادة الوطنيين، وأخبر المسيحيون بونابرت ونصحوه بألا يتيح لهم الفرصة، فأطلق جينوت وموارت فى الجليل، احتل الأول الناصرة يوم ٢١ مارس وتصدى لهجمات شرسة من العدو وساعده كليبر الذى هزم حشوداً أخرى فيما حول كنعا. أما مورات فقد أبعد صافد وكذلك طرد قوات الأعداء من الضفة اليسرى لنهر الأردن.

نعلم أن كليبر كان فى صراع مع تجمع المماليك تساندهم قوات قادمة من دمشق ونابلس، فتولى نابليون بنفسه قيادة الفيلق "بوت: Bon" واقترب من سهل إسدرون وهو يضرب بالمدفعية. فهم كليبر أن القوات المساندة وصلت وتفرقت حشود الأعداء ١٦ إبريل ١٧٩٩، وكان نصر جبل طابور، أما سان - جون - دارك، فلم تتلق المساعدات المنتظرة.

استرد بونابرت بطريقة مدروسة مرة ثانية مقر حكم المدينة "بالمنجل والمدفع"[٤٠]، وكل المحاولات للتقدم للداخل كانت لفترات قصيرة. حتى سيدنى سميث لم يخف إعجابه، رغم مغالطته لنفسه فيما يتعلق بأهداف الجنود الفرنسيين:

"كان يجب أن يحل اليأس فى قلوبهم وهم يحاولون الاقتحام من خلال سلالم تحت نيران المدفعية التى نطلقها عليهم، ومن المستحيل أن نرى بلا أسف أرواحا ولو كانت أرواح أعدائنا تزهق هكذا[٤١].

أمام هذه التضحيات الكبيرة بلا طائل، انخفضت الروح المعنوية للقوات، لدرجة أن ضابطا لعن بونابرت وسبَّه. فقد كانت الخسائر الفرنسية ثقيلة جدا أكثر بكثير من خسائر الإنجليز الذين لم يفقدوا إلا قليلاً من الرجال والضباط أثناء الخروج. أ. فيليبو المهاجر الذى يخدم فى صفوف الإنجليز مات من الإعياء، تضاف إلى ذلك قسوة الأتراك الذين قاموا بذبح واحتزاز رؤوس الجرحى والموتى على الفور[٤٢]. والطاعون يقسو على الجميع.

تمت محاولتان للقيام بهجومين يوم ١٠ مايو، قامت بهما قوات جديدة، لكنهما لم تسفرا عن شىء بل أضيف للمذبحة مئات الموتى. اقترح سيدنى سميث على بونابرت أن يرحل عن مصر، لكنه تجاهل هذا الاقتراح وفى نفس الوقت أمر بفك الحصار وتيميوا كل ما لا يمكن نقله من الأشياء فى مكانها. اعتنوا جداً بالجرحى. نشبت حادثة عارضة بين كبير الجراحين ديجنت وبونابرت إثر مطالبة بونابرت بوضع حد لآلام

المرضى الذين أصابهم الطاعون. وعاد الجيش لنظامه يوم ٢٠ مايو ١٧٩٩، وأقام فى يافا من ٢٤ إلى ٢٨ مايو. هنا وبلا اعتراض تقريباً أجهزوا على الحالات الشديدة من الجرحى والمصابين بالطاعون عن طريق عقار ممزوج بالأفيون[٤٣]، أما الحالات الخفيفة من الجرحى و المرضى فقد نقلوا للخليج ثم إلى دمياط.

وكان التراجع حتى العريش ثم كان الوصول للقاهرة يوم ١٤ يونيه. كان بونابرت حريصا على إخفاء هزيمته، وأشاع أنه " محا الجزار من على ظهر الأرض ولم يترك حجراً على حجر فى سان - جون- دارك"، وكثير من الشهود يمكنهم تأكيد نقيض هذا، وهدد من يتمرد ويفشى السر بإطلاق النار عليه كائناً من كان.

إذا كان نابليون قد أخفق أمام هذه المدينة فقد دمر تماماً الجيش التركى الذى كان يمكنه أن يهزمه فى مصر، واصطحب معه تأكيدا بعدم إمكانية مهاجمته من جهة بوغاز السويس، وهذا قد يبرر القيام بتلك الحملة لكن يا له من ثمن! الجيش النازف فقد ألفين ومائتين قتلوا وألفين وثلاثمائة جرحوا، أى نحو خمسة آلاف وأربعمائة من خيرة أفراده من مجموع نحو ثلاثة عشر ألفا.

انتصار بونابرت فى أبو قير

بالنسبة لسيدنى سميث، كان السبب مفهوماً، فالقوات الفرنسية مهزومة وهاربة، وحانت اللحظة. لإطلاق القوات التركية المتجمعة فى رودس للهجوم على مصر.

يوم ١١ يوليو ١٧٩٩، نقل الأسطول التركى عشرين ألفا من رجاله تحت قيادة حسين مصطفى باشا من الأناضول، رسا الأسطول فى خليج أبو قير، وهوجم المعقل الجنوبى يوم ١٥ بواسطة عشرة آلاف وتم إغراق آخر المدافعين وإن بقى ستمائة رجل على قيد الحياة، لكن عندما وقعت القلعة فى الأسر يوم ١٧ لم يكن بها سوى ثلاثين

رجلاً أحياء! قرر بونابرت الهجوم يوم ٣٠ يوليو صباحا، وتخندقت القوات التركية فى حفرة تحيط بالجزيرة، وأوقفوا الفرنسيين. أغرى الأتراك بدفع مكافأة عن كل رأس تقطع واندفعوا خارجين من الحفرة لاحتزاز رءوس الجرحى. أطلق الجنرال لانس فرسانه على مواقعهم التى تفككت، استمرت المعركة سبع ساعات طوال، لكن هزم الأتراك وأسر مصطفى باشا وكل ضباطه. وأما الاستيلاء على القلعة فقد تطلب عدة أيام أخر وتضحيات كبيرة، وفى يوم ٢ أغسطس استسلم آخر المدافعين، ولم يبق أحد من الجنود الأتراك الذين بلغ عددهم عشرين ألفًا.

كليبر يخلف بونابرت

يوم استسلام الأتراك مساء، علم بونابرت من الجرائد الفرنسية- التى حملها متعمد برلمانى بريطانى- بنيّات فرنسا فى إيطاليا وألمانيا. أمام الشعور بالقهر لرؤيته ثمار انتصاراته تذهب أدراج الرياح، قرر العودة إلى فرنسا؛ فغادر الإسكندرية - سرا يوم ٢٣ أغسطس ووصل فريجوس يوم ٩ أكتوبر، ومنها وصل إلى باريس حيث كان على موعد مع التاريخ، ولن يعود ثانية لمصر. وعهد بقيادة الجيش إلى كليبر، دون أن يخبره مسبقًا، وهو اختيار صائب من الناحية العسكرية، لكنه مدمر على الصعيد السياسى؛ فلم تكن لدى كليبر أدنى معرفة بالشرق والقيمة الإستراتيجية لمصر؛ نظرًا لوقوعها على طريق الهند، مما جعله لا يوليها اهتمامًا. ولقدراته التقنية فى استخدام السلاح فقد رأى أن وجود الجيش سيكون مفيدًا أكثر من وجوده فى بلد لا يجتذبه. ابتداء من يوم ٨ أكتوبر ١٧٩٩، بدأ كليبر التمهيد لدى الإدارة للقبول بفكرة الجلاء، كما تابع مفاوضاته من أجل السلام مع الباب العالى، محادثات تدخل فيها سيدنى سميث مقترحا على كليبر انسحاب القوات الفرنسية وقبل كليبر وحدد مفاوضين: ديزايى وبوسيلج.

خسائر عسكرية جديدة

كان على كليبر أن يواجه إنذارين: فقد عثر الجنرال ديزايي على مراد بك زعيم المماليك الذى كان يبحث عنه فى كل مكان وعثر عليه أخيراً فى الفيوم، وهزمه ثانية لكنه تمكن من الهروب. وأنزل الأتراك مرة أخرى أربعة آلاف رجل بالقرب من دمياط وهزموا ثانية. ولدى عودته للقاهرة أصبح الجنرال ديزايى معارضًا للمفاوضات مع سيدنى سميث، لكنه لم يتمكن من تغيير رأى كليبر الذى يرغب فى مغادرة مصر.

تقدم الأتراك فى فلسطين وأطلقوا غارة انطلاقًا من الحى العام لهم فى غزة تجاه العريش مركز الفرنسيين المتقدم، كان يقود الكتيبة كولونيل إنجليزى، جون دوجلاس، واندلع تمرد فى القلعة وجاءها الجنود ليسهلوا عملية دخول الأتراك الذين سرعان ما ذبحوهم، وهاجم رجال مدفعية القلعة دفاعا عن شرف فرنسا.

مفاوضات العريش

اختار سيدنى سميث العريش تحديداً لتكون مقرا للمفاوضات، وهكذا غدا مكان الهزيمة مقر المفاوضين الفرنسيين ديزايى وبوسليج. بين وقت وآخر تزعج أخبار فرنسا وخسارة العريش كليبر، فكشف للإنجليز صراحة عن نيّته فى إنهاء هذا الوضع فى أسرع وقت ممكن، بل إنه أكد هذه الرغبة قائلاً: " خلال ست ساعات كل (المفاوضات) سوف تنتهى"[٤٤]، رغم كل رسائل ديزايى التى تخبره بأن الجيش التركى الذى رآه" لم يعد سوى جيش بائس ممزق "و" أنه من الواجب الاحتفاظ بمصر"[٤٥]. وأصر كليبر على خطئه وأدان بونابرت لهروبه: لا يجب أن نشك فى ذلك، لقد ضحى بونابرت بهذا البلد طويلاً قبل مغادرته، ولكن كان يجب عليه البحث عن مناسبة للهروب ولم يهرب منه إلا لتفادى كارثة محاصرته. إذا ما كان قلبك لا يزال مفتوحا للأمل، سوف تتأكد من

حسن قيادتى وسوف تشرح ذلك بصراحة، سأضع تحت يديك قيادة كنت مسئولاً عنها رغمًا عنى، وسوف تجدنى خاضعا لك بحماسة أعترف أنك ستبديها فى الواقع(٤٦).

لم تكن لدى كليبر الشجاعة لاتخاذ القرار بمفرده أو أن يأمر كتابة أو أن يوقع وأخيراً طلب منه ديزايى أن يجمع مجلس الحرب ويبسط المعلومات عن حقيقة القوات التركية، ووضع أمام الضباط الحاضرين تصورا مجملاً للموقف، ولن يتسامح مع أى نقاش حتى مع الجنرالين مينو ودافو اللذين أرادا تنظيم ندوة. ونظرًا لتعب الجميع فقد وافقوا على التراجع. وقع على معاهدة العريش الفرنسيون والأتراك ونظرًا لقلة الخبرة السياسية فلم يطلب كليبر ولا ديزايى التزام الإنجليز و الروس الذين كانوا حاضرين، وهو الأمر الذى أثمر عواقب خطيرة.

خيانة الإنجليز وانتصار هليوبوليس

علم الإنجليز بالحالة المعنوية السيئة التى عليها كليبر من خطاب أرسل إلى الإدارة أمسكوا به فى البحر، فلم تتوان الحكومة البريطانية فى طلب مغادرة الجيش الفرنسى مصر إلى فرنسا، ولم يرد الأميرال نيلسون أن يترك فريسته وأعلمها بكلمات حادة:

" أكون مجنونا حقا إذا ما تركت هذه العصابة من اللصوص ترجع إلى أوربا. لا فقد جاءوا لمصر من أجل مصيرهم وهنا سوف يبقون يقودهم نيلسون. أبدًا، أبدًا، لن ترجع سفينة ولن يرجع ولو فرنسى واحد"(٤٧).

إن سيدنى سميث المهموم ربما من تصرف حكومته التى حذرت بوسيلج فى رسالة بتاريخ ٨ مارس ١٨٠٠ عن "خدعة حرب" تعد: الجيش الفرنسى سوف يقع فى الأسر بعد إعطائه مصر إلى تركيا!".

يوم ١١ مارس تأكد كليبر أنه قد خدع ووضع جيشه فى حالة تأهب وسلم كل القلاع واستدعى إلى القاهرة كل القوات من صعيد مصر، وسلمه رسول إنجليزى إنذاراً يدعوه للاستسلام بدون شروط، وكان هذا كثيراً بالنسبة لكليبر الجندى الشجاع الدبلوماسى السيئ.

يوم ٢٠ مارس توجه الجيش الفرنسى إلى معسكر الأتراك، ولقيهم عند مسلة هليوبوليس وطاردوهم ولجأ الوزير الأكبر إلى يافا وأزعج البدو من بقى حيا. وتجمع المماليك بالآلاف ووصلوا القاهرة وكان الهرج والمرج، وتأخرت كتيبة بالجيش الفرنسى فى الوصول للقاهرة، حيث أعمل القتل والتذبيح فى صفوف المسيحيين من كل الجنسيات وظلت المدينة متمردة.

غزا كليبر الدلتا فى إبريل، وتفاوض مع الأتراك يوم ٢٥ من نفس الشهر من أجل الجلاء عن القاهرة، بل وقع اتفاقًا مع مراد بك، غير مهتم برؤية هذا مستقراً فى منطقة نفوذ بكويّته! لكن الإنجليز كانوا يحتلون السويس. وفى يوم ١٤ يونيه تم قتل كليبر بطعنة خنجر وجهها له متعصب " أراد أن يشارك فى الجهاد ضد الكفار"[٤٨]، وهكذا هزم الاغتيال جنرالاً لم يهزم فى ساحة القتال.

مينو يخلف كليبر

كان أول عمل قام به جاك فرانسوا دو بوساى، الجنرال البارون دومينو، الذى خلف كليبر، أن رفض الاقتراح المقدم باسم الحكومة الإنجليزية الذى أعلنه سيدنى سميث، ويشتمل على ضمان مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا وطلب تصديقًا مسبقًا على ذلك من باريس. ولم تحظ جهوده لإعادة تنظيم مصر داخليا بقبول أحد، وجرت محاولة لعزله بينما كان يقوى قيادته بإيقاف بونابرت، القنصل الأول يوم ٦ سبتمبر ١٨٠٠، بعد انتصار هليوبوليس باشر كليبر احتلال مصر الوسطى والعليا بواسطة

الجنرال دونزيلوه. وكان مراد بك منذ اتفاقه مع كليبر يعد" حاكما للصعيد لصالح الجمهورية الفرنسية"[٤٩]، وقد تراجع لـ"جرجا" حيث كان يسيطر عليها فيما سبق حاكم مصر العليا وأقام علاقات طيبة مع دونزيلوه، بل إنه تدخل لإيقاف تسلل المماليك إلى الصعيد. في ظل هذا المناخ الذى يسوده السلام رغب دونزيلوه في تنفيذ أعمال طبوغرافية وجغرافية بإقليم غير معروف تقريبا فى أوربا.

التدخل الإنجليزي - التركى فى مصر

فى سبتمبر ١٨٠٠ عهدوا بقيادة القوات البريطانية فى البحر المتوسط إلى السير رالف أبركرومبى. خمسة عشر ألف رجل وصلوا ساحل الأناضول، أمام رودس ويوم ٢ مارس ١٨٠١، رسا الأسطول فى خليج أبو قير.

برهن مينو على قلة خبرته عندما وزع قواته فى دمياط وفر تجاه سوريا بدلاً من حشدها فى مواجهة الإنجليز. وفى يوم ٨ مارس نزلت القوات الإنجليزية على الأرض المصرية للمرة الأولى وعرقلت القوات الفرنسية. وصل مينو إلى الإسكندرية وحشد القوات الفرنسية أخيراً للمواجهة فى أبو قير، وكانت أوامره كارثية، حيث أفضت إلى تذبيح الفرسان الفرنسيين وإلى الانسحاب، واستفاد الإنجليز من ذلك واستولوا على رشيد. وتتابعت الأحداث منذ تلك اللحظة، عادت قوة تركية إلى يافا، وجاء مراد بك لنجدة مينو لكنه مات بالطاعون فى الطريق وانضم رجاله للإنجليز أخيراً، ووصل عشرة آلاف رجل من الهند وألف ومائتان من الرأس نزلوا فى القصير نهاية مايو. وقد أدى تخاذل الضباط الفرنسيين بقيادة بيار إلى انتصار الإنجليز أكثر من العمل العسكرى الذى قام به الإنجليز على أرض الواقع. كل شىء يوحى بمغادرة مصر. يوم ٢٢ يونيه اتخذ قرار المفاوضات وكان الجلاء عن القاهرة يوم ٩ يوليو، أما مينو فقد ظل فى الإسكندرية انتظاراً للمدد والعون[٥٠].

يوم ٢٨ أغسطس حل الجنرال محل مينو الذى أصبح بمعزل عن الأحداث ولا يستطيع حيلة[٥١]، واتخذ رامبو قرار اجتماع مجلس الحرب، وتقرر فتح المفاوضات التى انتهت سريعا، وفى يوم ٢ سبتمبر غادرو الفرنسيون قلاع القاهرة وحصنوها ثم كان الجلاء عن الإسكندرية يوم ١٢ سبتمبر .

حجم الهزيمة

هزيمة لا تقبل الجدال على الصعيد العسكرى، لكن حملة مصر سوف تظهر فوائد كبيرة على الصعيدين الثقافى والعلمى؛ فوصول الفرنسيين حدد الفجوة الزمنية الفارقة فى التطور بين الشرق والغرب، لتنطلق بمصر الحركات العربية الأولى نحو التحديث[٥٢].

العمل الضخم للعلماء الفرنسيين اتضح فى: تأسيس معهد العلوم والفنون، وبداية علم المصريات ووضع منهج علمى لمعرفة الآثار المصرية القديمة، واكتشاف الهيروغليفية وحجر رشيد، وبفضله سوف يكتشف شامبليون الأسرار عام ١٨٢٢، وعمل الكثير من الخرائط والأبحاث المائية والزراعية والحيوانية والطبية، القيمة العسكرية للفرنسيين ليست محل شك واختارت مصر بعد سقوط الإمبراطورية ضباطا فرنسيين للقيام بأعمال التدريب العسكرية. كما أن اللغة الفرنسية غزت مصر واستمرت بها حتى أيامنا هذه. عرف بونابرت بوغاز السويس باختصار، وأول دراسة نفذت على الأرض تمثلت فى مشروع حفر قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وقدم لوبير أول تقرير فى باريس للقنصل الأول يوم ٢٤ أغسطس ١٨٠٣. وثار جدل علمى حول المشروع وكانت أعماله موضع تشكيك تزعمه كلٌ من لابلاس وفوريير، لكن الأسس الكبيرة للمشروع الذى سوف يحمل اسم فرديناند ديلسبس، كانت قد أرسيت وهكذا كان العمل الكبير لفرنسا فى القرن التاسع عشر فتح البحر الأحمر أخيراً أمام الملاحة القادمة من أوربا، فإن لم يكن للحملة إلا هذا المشروع لكان كافياً.

الهوامش

(١) حصون ضعيفة كانت عموماً تأوى بداخلها نساء وطنيات. والصلات مع البرتغاليين تتضح عبر الأجيال.

(٢) حاكم مصر من عام ١٥٢٠حتى١٥٦٦.

(٣) A.Kammerer,op.cit..t.III,vol.pp.166et suivantes.

(٤) حتى عند إعادة غزو محمد على حتى القرن التاسع عشر بعد أن قضى عليها عام ١٨٢٦ إلا أنه أعادها ثانية.

(٥) J. Bruce, Travels to Discover the Source of the Nil, 1790.

(٦) هذا التعصب المذهبى للكاثوليكية الذى رأيناه يصب فى اتجاه غزو مصر على يد المسلمين، ولكنه مع ذلك لم يختف. واستمر من خلال مرحلتين فى القرن السابع عشر، تحولات رسمية مختصرة سياسية أكثر منها دينية، حتى فى القرن التاسع عشر لم تتسلح روما والتى أيدت نيجوسيه ضد ثيودورس. وموقعها هذا مستند لمعايير دينية.

(٧) A.Kammerer,op.cit.,t. III, vol.pp.176 et suivantes.

(٨) Ibid.,pp.216 et suivantes.

(٩) K.M.panikar,Histoire de l'Inde,P.275.

(١٠) إنجليز وفرنسيون، وكانوا متأخرين. تأسست الشركة الإنجليزية بالهند الشرقية عام ١٦٠٣، إلا أنها لم تهتم إلا عام١٦٢٣ بجزر إندونيسيا، ثم قدم الفرنسيون متأخرين جداً على متن أسطول يعقوب دولاهاى عام ١٦٧٠.

(١١) لم يكن يوجد سوى ١٠٠٠عام ١٦٨٧، ونحو عام ١٧٠٠ التحق بهم فرنسيون كان الفراست حينها منطقة خارجية تتبع الشركة الهولندية للهند الشرقية، ولم يمتلكها الإنجليز إلا فى عام ١٨٠٦.

(١٢) تسمية قديمة للمقاطعات السبع لهولندا المتحدة للنضال ضد فيليب الثانى دوق بورجونى وزوج مارجريت الثالثة كونتيسة فلاندر. ولم تشهد المقاطعة المتحدة استقلالها إلا فى عام ١٦٠٩ حيث كونت الجمهورية.

(١٣) Freeman-Grenville, The Cote 1498-1840,in History of East Africa,vol.I,Oxford,5e edition,1976,p.151.

(١٤) نظرًا لاهتمامهم الجديد بإقصاء الهولنديين وتأكيد قاعدتهم الفريدة فى كيب تاون، فإن الإنجليز حاولوا السيطرة عليها عام ١٧٨٠، ولكن جاء الأسطول الفرنسى لمساعدة الهولنديين، ثم جرت محاولة ناجحة عام ١٨٠٦.

(١٥) W.Foster,The Journal of John Jordain,Londres,1905.

(١٦) A.Kammerer,op.ct.,t.I,vol.1,p.90.

(١٧) Ibid.,III/IV, p.503 اقتباس من إرنست إى. ساتو فى كتابه:

Ernest E. Satow, in The Voyage of

Captain John Sari to Japan. Londres,1905

(١٨) جزيرة رينيون الحالية.

(١٩) مشهورة الآن باسم جزيرة فرنسا.

(٢٠) عام ١٨٦٢ قدم وحتى محمد سليل قس العائلة إلى فرنسا مع كابتن الأسطول فلوريوبولا نجل، ووقع عقد امتياز تاجورة لفرنسا: R.Joint-Daguenet,Auxorrigines de l'implantation fraçaise Djibouti.

(٢١) سفينة هولندية تأتى كل عام لتأخذ حمولتها من القهوة حتى موكا ولاشك أن ذلك كان معلومًا فى سان-مالو، ونعلم كذلك أن التجار الفينيقيين والمارسيليين حصلوا على شحنات مماثلة من الأتراك فى مصر.

(٢٢) مجمل الأعمال الخاصة بالبعثات الفرنسية فى موكا مستقاة من:

Expéditions maritimes francaises du XVIIIe siècle enmer Rouge de l'amiral H.Labrousse,in pount,no6,1962.

(٢٣) تم حل هذه المشكلة، هذه الشخصية، أمير جايز اقترح ببساطة جدًا على جارو-جازييه أن يلحق قواته بقواته وأن يستولى على عرش أخيه.

(٢٤) مجمل الأعمال الخاصة بالحملات الفرنسية فى موكا مقتبسة من:

Expedition maritimes françaises du XVIIIe siècle en Rouge de l'amiral H.Labrousse,art.act.

(٢٥) البعض فى القرن التاسع عشر، ساعد الإنجليز فى أعمال الرق عام ١٨٠٧، والفرص الأسوأ بالرغبة فى منع المستعمرات الأوربية الأخرى من الأيدى العاملة الخاصة بها والكثير بالمكان.

(٢٦) Freeman-Grenvill,op.,pp.154-155.

(٢٧) H.Deherain,op.cit,p.202.

(٢٨) Ibid,p.203.

(٢٩) إذا كان هذا الدوق نفسه فى شوازل لم يمتلك عام ١٧٦٨، الفكرة المدهشة بشراء كورسيكا من أهل جنوة، نابليون بونابرت، لم يكن أبدًا سيولى فرنسا عام ١٧٦٩، ولم يكن ليقود أبدًا الحملة على مصر.

(٣٠) H.Deherain,op.cit.,p.218.

(٣١) Ibid.

(٣٢) Ibid.

(٣٣) Ibid.,p.226.

(٣٤) Ibid.

(٣٥) لم يذكر ضعف أسطولنا فى البحر المتوسط. تاليراند تصرف بقصد تفادى الصدام مع الإنجليزوهو ما كان فيما يبدو حكيمًا، ولكن لماذا نفس الأسباب لم توضع كذلك نصب الأعين عند القيام بالحملة على الأكثر بعدًا والتى تتطلب سيطرة على البحر التى لم تكن لفرنسا؟

(٣٦) تقرير رئيس لواء موراند استشهد به: H.Deherain, op. cit., p.274.

(٣٧) من قوص بالقرب من الأقصر يسافر الحجاج المسلمون الذين يعبرون الصحراء ليركبوا السفن حتى القصير أو عيذاب حتى يصلوا جدة.. H.Deherain,op.cit.,p.274

(٣٨) H.Deherain,op.cit.,p.394.

(٣٩) كان يقود الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط القائد البحرى وليام سيدنى سميث، شقيق جون سبنسر سميث، وزير بريطانيا العظمى فى استانبول. هرب وليام من المعبد بالحيلة بمساعدة الضابط الفرنسى الذى مريخدمة الإنجليز كولونيل مدفعية، وهو فليبو الذى بعث به لاستانبول ثم إلى سان-جون- دارك، بالنسبة للمدافع التى تنقض فى سان-جون-دارك، كان على الفرنسيين أن يستكملوا ليدافعوا عن قواتهم. غادر أسطول من سفينتين دمياط يوم ١٧٩٩ حاملاً إلى بونابرت الأحياء والمؤن والمدافع التى كان فى حاجة إليها. سيدنى سميث الذى خمن المهمة اعترض كل وسائل النقل وفيليبوا وضع المدفعية فى استعداد ضد بونابرت.

(٤٠) H.Deherain,op.cit.,pp.302 et 410.

(٤١) Ibid.,p.418.

(٤٢) خطاب سيدنى سميث إلى كونت سان-فانسان بتاريخ مايو ١٧٩٩ واستشهد به:

H.Deherain,op.cit.,p.419.

(٤٣) اقتباس من كراسات كليبر H.Deherain,op.cit.,p.427.

(٤٤) Ibid.,p.472.

(٤٥) Ibid.

(٤٦) Ibid.,p.475.

(٤٧) خطاب نلسون لوليام ويندهام، وزير بريطانيا فى فلورانس، بتاريخ ٢٢مارس ١٧٩٩.

(٤٨) I.ibid.,p.495.

(٤٩) p.510. Ibid.,

(٥٠) بونابرت، القنصل الأول، حشد ٥٠٠٠ رجل ومؤنًا وغذاء لجند مصر، ولكن تبعًا للحذر الشديد لقائد الأسطول جانتام، لم يصلوا مصر أبدًا.

(٥١) لم يكن ربما يرى البارون مينو مواصفات القائد، ولكن لا ننسى أنه اعتنق الإسلام وتسمى باسم عبد الله وتزوج من مصرية يوم ٢مارس ١٧٩٩، وربما يمكن هنا تفسير موقفه.

(٥٢) F.Hoveyda,Que veulent les Arabes, paris,First,1991,p.250.

الفصل العاشر

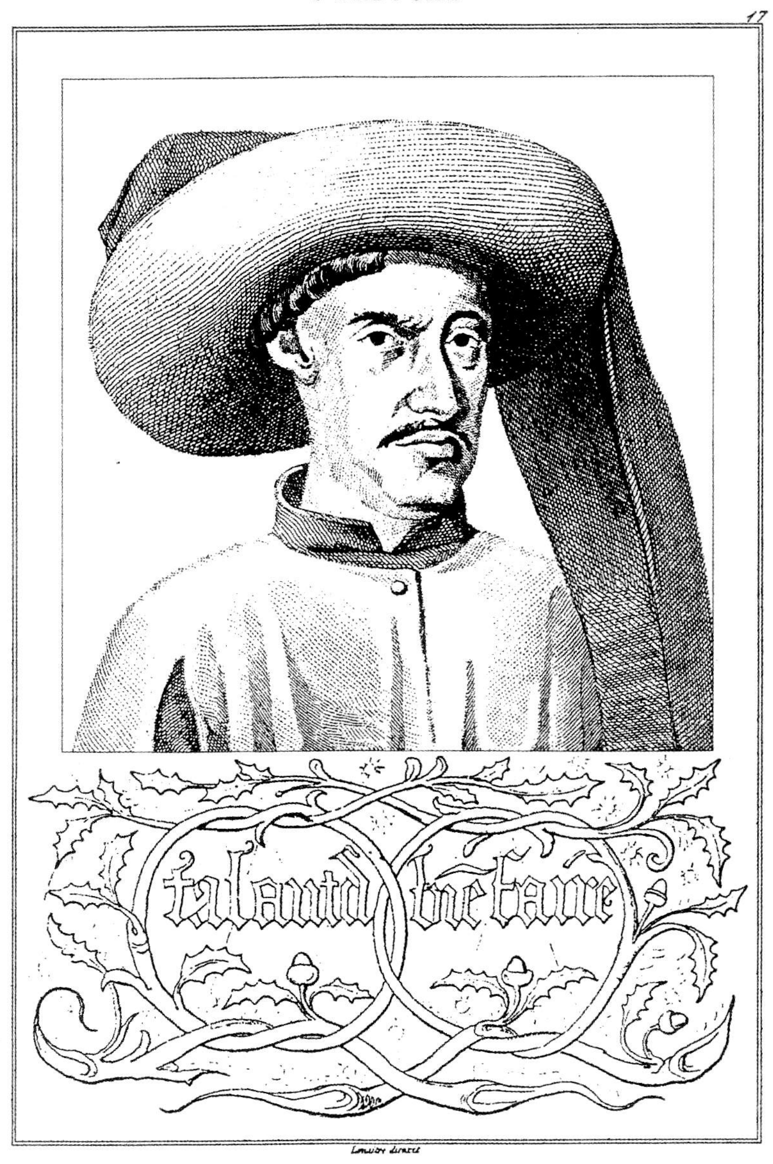
النتائج

كان الطريق البحرى طويلاً قبل أن يقوم البحر الأحمر بدوره الذى لم يكن واضحا تماما فى العصور القديمة، فالمصريون القدماء لم يستخدموه إلا قليلاً وبغرض الحصول على البخور. والفينيقيون فى خدمة سليمان لم يستخدموه إلا للانتقال إلى أوفير كل ثلاث أو أربع سنوات. كان العرب السبئيون فى حضر موت ثم يونانيو مصر أول من استخدم البحر الأحمر كطريق مرور للتجارة المنتظمة المستمرة. ولكن هذه التجارة- رغم أهميتها- لم تنافس الطرق الأرضية فى حضر موت والطرق التى توصل إلى البحر المتوسط عن طريق الخليج الفارسى. وهذا ما تحقق منه البرتغاليون، فكانوا أول من اهتم بالخليج الفارسى والبحر الأحمر بشكل واضح وكبير.

ومن الناحية العسكرية استخدم الفرس البحر الأحمر بشكل مكثف عندما قاموا بغزو مصر عام ٣٤٤ . أول "عملية معقدة" لأرتاكسركسيس الثالث، كانت تجميع أسطول مكون من ثلاثمائة سفينة فى البحر الأحمر، وهو الشىء الذى لم يقم به أبداً لا البرتغاليون ولا الأتراك. أدرك الإسكندر بشكل جيد دوره الإستراتيجى أو دليل الاحتلال الذى أمر به لجزيرة سوقطرة، ومعرفة أحد جنرالاته بسواحل الهند والخليج الفارسى، ولكن بموته عاد البحر الأحمر لدوره التجارى المعتاد. وبعد أن هجر البرتغال سواحله تماماً، لم يتخط الهولنديون والإنجليز والفرنسيون موكا، كان اهتمامهم منصبا على القهوة فقط. بلا شك كان البحر الأحمر سيظل فى حالة خمول ممتدة، إذ لم يحاول

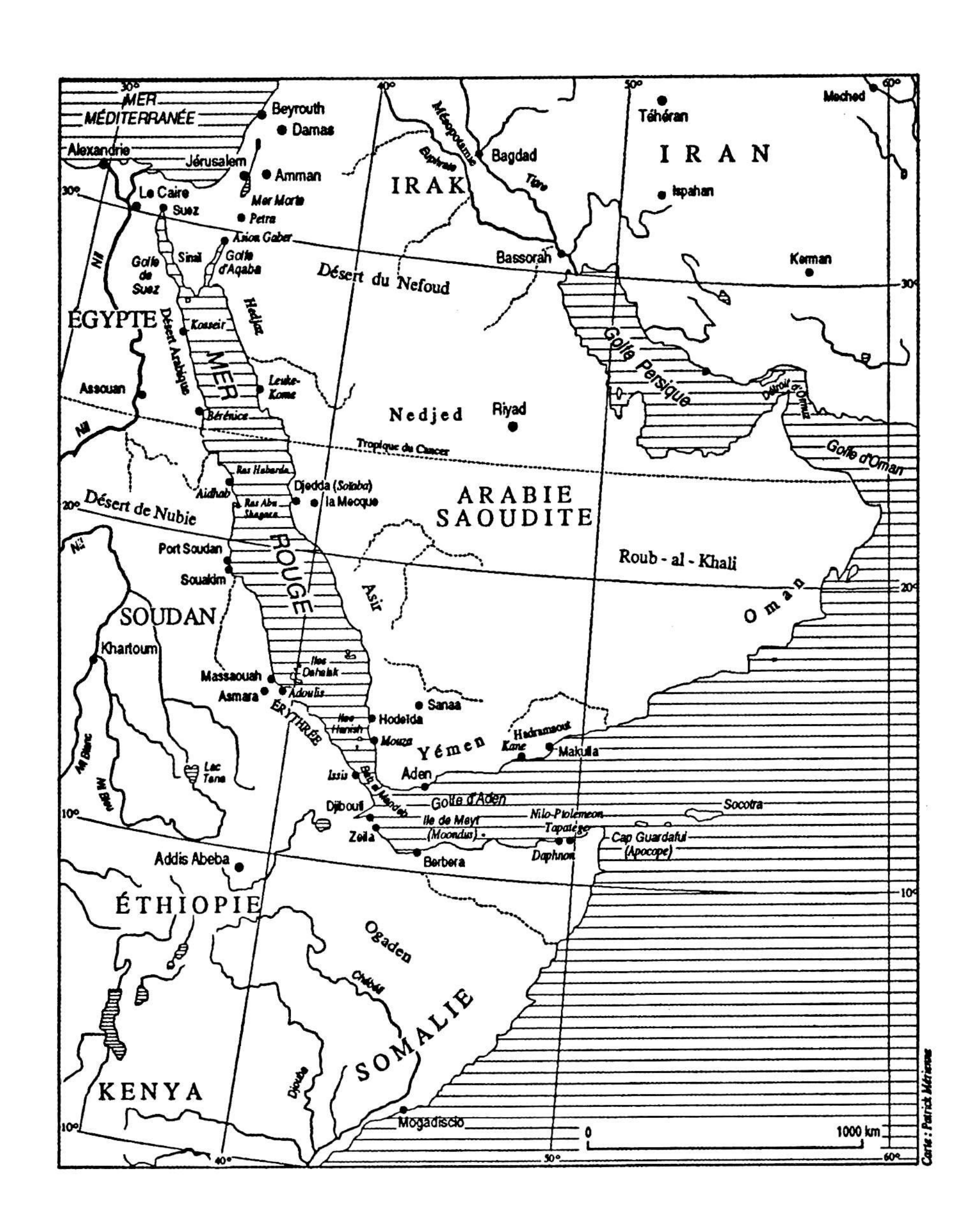
نابليون أن ينطلق على خطى الإسكندر وينزل يومًا بقواته مصر. فهم الإنجليز الأهمية الإستراتيجية لهذا الطريق البحرى بشكل جيد كالفرنسيين الذين أطلقوا فكرة ربطه بالبحر المتوسط. هذا التشابك العنيف فى المصالح السياسية والإستراتيجية والتجارية غيَّر بشكل كلى دور البحر الأحمر. فقد تحول من طريق ثانوى إلى طريق إستراتيجى واعد وساد الهياج الفرنسيين والإنجليز بعد انتهاء الحروب النابليونية. يبقى أمر تقوية وتأكيد هذه الحالة الجديدة للبحر الأحمر، فجاء عمل فرديناند ديلسبس الذى افتتح بقناة السويس العصر الحديث فى تاريخ البحر الأحمر الذى سوف نتناول قصته فى الجزء الثانى من هذا العمل، تحت عنوان: " من فرديناند ديلسبس حتى يومنا هذا".

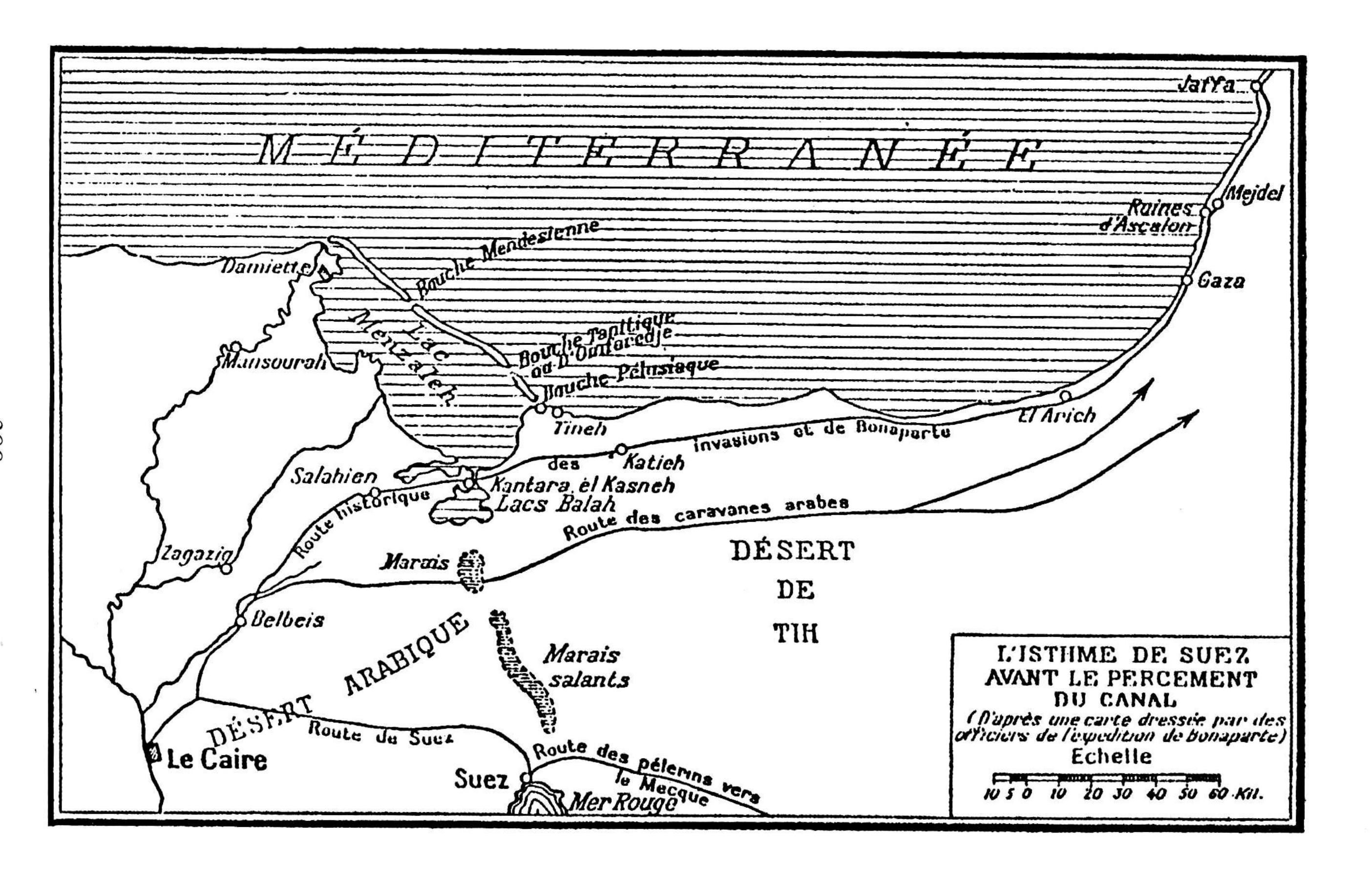
ملحق الصور والخرائط



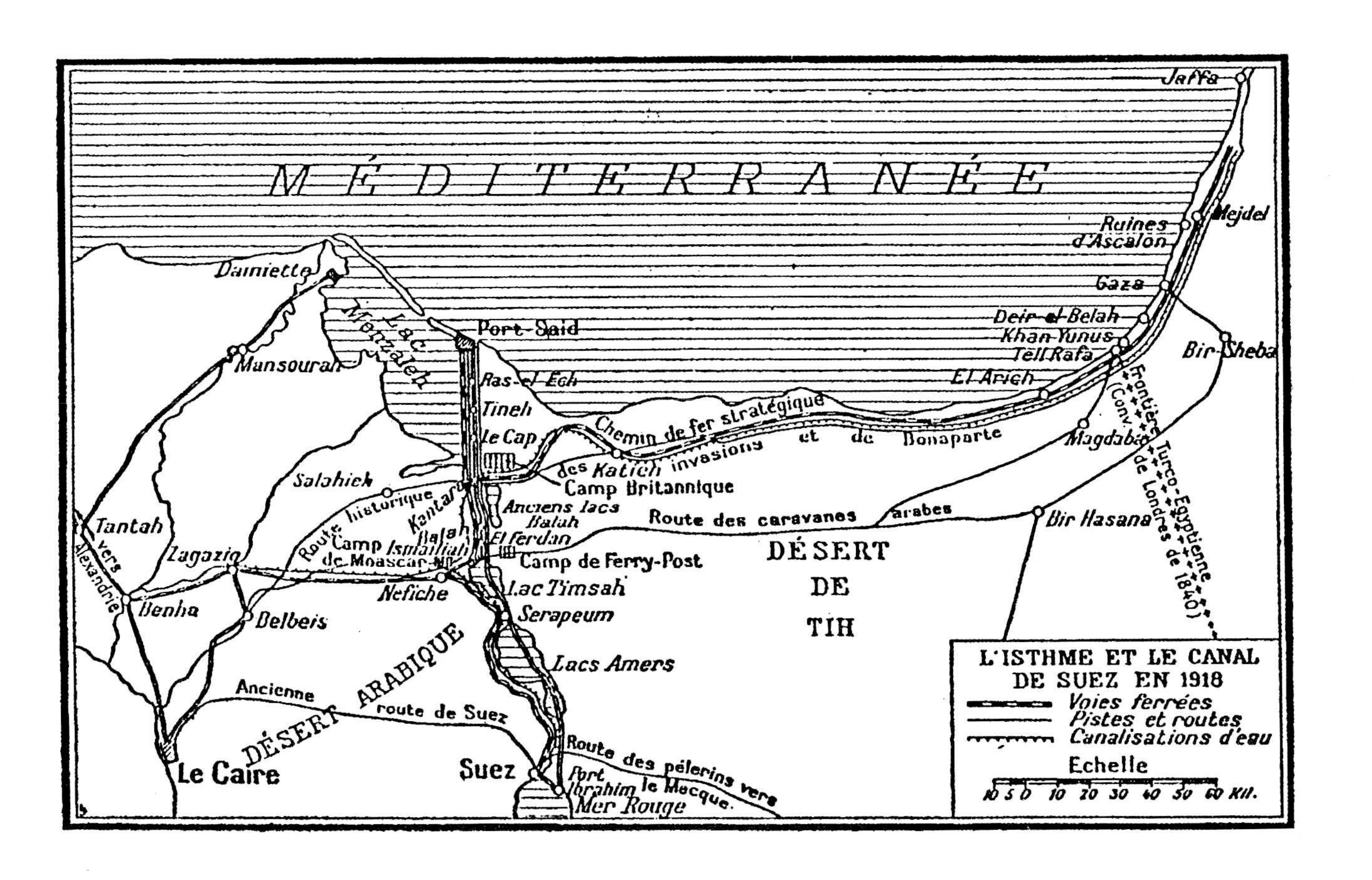
Don Henrique

(Chronique de Gomez Eannez de Azurara, M. S. de la Bib. Roy.)


MER MÉDITERRANÉE
Beyrouth
Damas
Alexandrie
Jérusalem
Amman
Le Caire
Suez
Mer Morte
Petra
Golfe de Suez
Sinaï
Golfe d'Aqaba
ÉGYPTE
Désert Arabique
Hedjaz
Kosseir
MER
Assouan
Bérénice
Nil
Désert de Nubie
Djedda (Soiaba)
la Mecque
Port Soudan
Souakim
ROUGE
SOUDAN
Khartoum
Massaouah
Asmara
Adoulis
ERYTHRÉE
Lac Tana
Nil Blanc
Nil Bleu
Djibouti
Zeila
Addis Abeba
ÉTHIOPIE
KENYA
SOMALIE
Ogaden
Mogadiscio
Berbera
IRAK
Bagdad
Mésopotamie
Euphrate
Tigre
Bassorah
Désert du Nefoud
Nedjed
Riyad
Tropique du Cancer
ARABIE SAOUDITE
Asir
Roub - al - Khali
Oman
Sanaa
Hodeïda
Mouza
Yémen
Aden
Hadramaout
Kane
Makulla
Golfe d'Aden
Socotra
Ile de Meyt (Moondus)
Nilo-Ptolemeon
Tapatège
Daphnon
Cap Guardafui (Apocope)
IRAN
Téhéran
Ispahan
Meched
Kerman
Golfe Persique
Détroit d'Ormuz
Golfe d'Oman
Leuke-Kome
Aidhab
Ras Abu Shagara
Iles Dahalak
Iles Hanish
Issis
Bab el Mandeb
0
1000 km
Carte : Patrick Mérienne



L'ISTHME DE SUEZ
AVANT LE PERCEMENT
DU CANAL
(D'après une carte dressée par des officiers de l'expédition de Bonaparte)
Echelle
10 5 0 10 20 30 40 50 60 Kil.
MÉDITERRANÉE
Jaffa
Mejdel
Ruines d'Ascalon
Gaza
El Arich
Bouche Mendesienne
Damiette
Lac Menzaleh
Bouche Tanitique ou d'Oumfaredje
Bouche Pélusiaque
Mansourah
Tineh
Invasions et de Bonaparte
des
Katieh
Salahien
Kantara el Kasneh
Lacs Balah
Route historique
Route des caravanes arabes
Zagazig
Marais
DÉSERT
DE
TIH
Belbeis
ARABIQUE
Marais salants
DÉSERT
Route de Suez
Le Caire
Route des pélerins vers la Mecque
Suez
Mer Rouge


L'ISTHME ET LE CANAL
DE SUEZ EN 1918
Voies ferrées
Pistes et routes
Canalisations d'eau
Echelle
10 5 0 10 20 30 40 50 60 Kil.
MÉDITERRANÉE
Jaffa
Mejdel
Ruines d'Ascalon
Gaza
Deir-el-Belah
Khan-Yunus
Tell Rafa
El Arich
Bir Sheba
Frontière Turco-Egyptienne
(Conv. de Londres de 1840)
Magdaba
Bir Hasana
Chemin de fer stratégique
des Katieh
invasions et de Bonaparte
Camp Britannique
Route des caravanes arabes
DÉSERT
DE
TIH
Damiette
Lac Menzaleh
Port-Saïd
Ras-el-Ech
Tineh
Le Cap
Mansourah
Salahieh
Route historique
Kantara
Anciens lacs
Balah
Balah
El Ferdan
Camp Ismaïlia
de Moascar
Camp de Ferry-Post
Tantah
vers Alexandrie
Zagazig
Benha
Belbeis
Nefiche
Lac Timsah
Serapeum
Lacs Amers
Ancienne route de Suez
DÉSERT ARABIQUE
Le Caire
Suez
Route des pèlerins vers le Mecque.
Port Ibrahim
Mer Rouge

BIBLIOGRAPHIE

AMBELAIN R., *Jésus et le mortel secret des Templiers*, Robert Laffont, Paris, 1970.

ALBRIGHT W. F., *l'Archéologie de la Palestine*, PARIS, Cerf, 1955.

ANDREW C. et GORDIEVSKY O., *le KGB dans le monde*, Fayard, 1990.

ANDRZEJEWSKI B.W. et LEWIS I.M., *Somali poetry*, Oxford Library, 1964.

ARON R., *Mémoires*, PARIS, Julliard, 1983.

AZURARA G.E. de, *Chronica de Guiné*, cité par Denis.

BADOGLIO P., *Commentaires sur la campagne d'Ethiopie*, PARIS, Grasset, 1937.

BANCA NAZIONALE SOMALA, RELAZIONE E BILANCIO, MOGADISCIO, 1962.

BARRE M., *Voyageurs et Explorateurs provençaux*, Marseille, 1906.

BARROS J. de, *Da Asia Decada I, decada II, decada III*, 1552-1563 ; *Decada IV*, posthume, notes publiées par Couto Diagodo LISBOA : Livraria Sam Carlos, 1776.

BEAUMIER J., *les Maîtres du pétrole*, PARIS, Julliard, 1969.

BELACHEMI J.L., *les Frères Barberousse*, Fayard, 1984.

BERGE M., *les Arabes*, PARIS, Lidis, 1981.

BERTAUD C., *Dayan*, PARIS, Ed. Atlas, 1977.

BITETTO C.C. de, *Méditerranée - Mer Rouge, Routes Impériales* PARIS, Grasset, 1937.

BOURDON A. A., *Histoire du Portugal*, PUF, 1970.

BRUNSCHWIG H., « Une colonie inutile : Obock », in *Cahiers d'études africaines*, PARIS, vol. VIII, 1er cahier, 1968.

BURROWS M., *les Manuscrits de la mer Morte*, Laffont, Paris, 1971.

CERVEIRA A., chroniqueur des premières expéditions portugaises. Manuscrit perdu, cité par AZURARA.

CAIMPENIA U., *Il Maresciallo Graziani*, MILANO, Ed. Aurora, 1936.

CAMBRIDGE, *History of Africa*, CAMBRIDGE, Flint, 1976.

CASSANELLI Lee V., *The shaping of Somali Society*, PHILADELPHIE, University of Pensylvania Press, 1882.

CASTRIES duc de, *les Rencontres de Stanley*, PARIS, France Empire, 1960.

CELARIE H., *Ethiopie* XXe *siècle*, PARIS, Hachette, 1934.

CHANTAL S. *Historia de Portugal*, traduction espagnole de M.L. Morales, BARCELONE, Ed. Surcot, 1960.

CHURCHILL, W.S., *la Deuxième Guerre mondiale, l'orage approche*, PARIS, Plon, 1948.
COLBY W., *Honorable men. My life in CIA*, NEW YORK, Simon and Schuster, 1978.
COLONIAL REPORTS, Somaliland Protectorat e, 1950 and 1951, Her Majesty's Stationnery Office, London, 1952.
CONFÉRENCES, *les Empires coloniaux*, textes des conférences à l'École libre des sciences politiques de Paris, PARIS, PUF, 1939.
CUOQ J., *l'Islam en Ethiopie*, PARIS, Nouvelles éditions latines, 1981.
DAN B., *Mirage contre Mig*, PARIS, Laffont, 1967.
DENIS F., *Portugal*, PARIS, Firmin Didot, 1846.
DENIS de RIVOYRE, *Obock, Mascate, Bouchire Bassorah*, PARIS, Plon, 1883.
DESPLANCHES H., *les Français face à l'Afrique orientale italienne : 1938-1940. L'action subversive en pays abyssin*, maîtrise d'histoire contemporaine, Université d'Aix-en-Provence, 1991.
DEUX-MONDES (Annuaire des), *Histoire générale des divers États*, PARIS, 1853.
DORESSE J., *Histoire sommaire de la Corne orientale de l'Afrique*, PARIS, Paul Geuthner, 1971.
DUMONT d'URVILLE, *Voyage autour du monde*, t. 2, PARIS, L. Tenré, 1835.
ESME J. d', *A travers l'empire de Ménélik*, PARIS, Plon, 1928.
FARER T.J., *War clouds on the Horn of Africa*, NEW YORK, Carnegie endowment, 1979.
FLINT J., *The Wider Background to Partition and Colonial Occupation, History of East Africa*, vol. I, LONDON, 1963.
FRUSCI L., *Truppe coloniale italiani in Somalia*, Mogadiscio, 1936.
GAULIS G., *la Ruine d'un empire*, PARIS, Armand Collin, 1913.
GHIKA prince N.D., *Cinq mois au pays des Somalis*, GENÈVE, Georg et Co., 1898.
GILLES, O.F.M., *les Croisés pacifiques*, PARIS, Procure des Missions franciscaines, 1933.
GRANCLEMENT D., *l'Incroyable Henry de Monfreid*, PARIS, Grasset, 1990.
GRANZOTTO G., *Christophe Colomb*, MILAN : Mondadori 1984, traduction de Sybille Zavriew, PARIS, Lattès, 1985.
GRIN F., *Charles Gordon, un héros*, PARIS, Librairie Fischbacher, 1893.
GROSSET-GRANGE H., *Glossaire nautique arabe de l'océan Indien*, PARIS, CTHS, 1993.
GROUSSET R., *Bilan de l'Histoire*, PARIS, Plon, 1946.
GROTANELLI V.L., *Pescatori dell'oceano Indiano*, ROMA, Edizioni cremonese, 1955.
GUILLEMIN J.J., *Histoire ancienne de l'Orient*, PARIS, Hachette, 1869.
HANOTAUX G., *l'Égypte de 1801 à 1882, histoire de la nation égyptienne*, t. I, PARIS, Plon, 1931, t. VI, PARIS, Plon, 1936.
HELFRITZ H., *Guckliches Arabien*, ZURICH, Fretz und Wasmuth Verlag A.G., 1956.

HERM G., *Die Phönizier*, Düsseldorf, Econ Verlag, 1973. Traduit chez Fayard, 1976.
HEYKAL M., *l'Affaire de Suez, un regard égyptien*, PARIS, Ramsay 1987.
HISTORY *of East Africa*, OXFORD University, 1963.
HOROWITZ W.L., *l'Histoire humaine par la plus ancienne race du monde*, Bourg-la-Reine, Ed. du foyer nouveau, date inconnue.
HOUBART J. et RANKOVITCH J.M., *Guerres sans drapeaux*, PARIS, Julliard, 1966.
HOURSEL R., *Pèlerins du Moyen Âge*, Fayard, PARIS, 1978.
HUE F., *Voyage à travers nos petites colonies*, PARIS, Lecène et Houdin, 1887.
ITALIE (Gvt), Rapport du gouvernement italien à l'Assemblée générale des Nations-unies, ROMA, 1960.
JOINT-DAGUENET R., *Aux origines de l'implantation française en mer Rouge, vie et mort d'Henri Lambert, consul de France à Aden*, 1859, PARIS, L'Harmattan, 1992.
—, *Histoire moderne de la Somalie*, PARIS, L'Harmattan, 1994.
JOSÈPHE F., *Histoire ancienne des Juifs* et *la Guerre des Juifs contre les Romains*, traduction d'Arnauld d'Andilly, PARIS, Lidis, 1982.
JOUIN Yves, « La côte française des Somalis de 1936 à 1940 » *in Revue historique de l'Armée*, 1963, 4.
KAMMERER A., *la Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité*, LE CAIRE : Société royale de géographie d'Égypte ; t. I[er] : vol. 1 et 2, 1934 ; t. II : vol. 3 et 4, 1935 ; t. III : vol. 5, 6 et 7, 1947.
KOCH P. et HERMANN K., *Assault at Mogadishu*, LONDRES, Corgi, 1977.
KOTKER N. et abbé R. GALMARD, *En Terre sainte aux siècles de Jésus*, American Heritage Publishing. New York, 1967. Traduit par Éditions RST, Paris, 1968.
LAITIN D.D. et SAMANTAR S.S., *Somalia, a Nation in Search of a State*, BOULDER, Colorado, Westview Press, 1987.
LAOUST H., *les Schismes dans l'Islam*, PARIS, Payot, 1977.
LE BON, G., *la Civilisation des Arabes*
LECUYER N., SAMANTAR, *Mohamed Abdulle Hassan*, PARIS, ABC, 1979.
LEWIS I.M., *A Modern History of Somalia*, LONDON, Longman, 1965.
LIVRE *bleu anglais N° 1*, Documents concernant le début des hostilités entre la Grande-Bretagne et l'Allemagne, PARIS, 1939.
LIVRE *jaune français*, Documents diplomatiques, PARIS, Imp. Nat., 1939.
MALECOT G., *les Voyageurs français et les relations entre la France et l'Abyssinie de 1835 à 1870.*, PARIS, SFHOM, 1972.
MANGIN, général, *Regards sur la France d'Afrique*, PARIS, Plon, 1924.
MASPERO G, *Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique*, Hachette, PARIS ; t. I : *les Origines, Égypte et Chaldée*, 1895 ; t. II : *les Premières Mêlées des peuples*, 1897 ; t. III : *les Empires*, 1908.
MASSON P., *Marseille et la colonisation française*, Marseille, 1906.
— Encyclopédie départementale des Bouches-du-Rhône, t. XI, 1922.
—, *la Crise de Suez, novembre 1956-avril 1957*, Section historique de la marine, PARIS, 1966.

MERCILLON, P.H., *Ismaël-Israël, 100 ans de guerre pour la Terre sainte* Paris EPA, 1979.
MONFREID H. de, *le Roi des Abeilles*, PARIS, Grasset, 1937.
—, *le Drame éthiopien*, PARIS, Grasset, 1935.
—, *le Lépreux*, PARIS, Grasset, 1935.
—, *les Secrets de la mer Rouge*, PARIS, Grasset, 1931.
—, *les Derniers Jours de l'Arabie Heureuse*, PARIS, Gallimard, 1935.
MORET A., *Histoire de l'Orient*, PARIS : PUF, 1941.
MOSCATI S., *Histoire et civilisation des peuples sémitiques*, PARIS, Payot 1955.
NFD (The issue of the), Gouvernement somali, MOGADISCIO, mai 1963
NORDEN H., *le Dernier Empire africain*, Paris, Payot, 1935.
PICCIOLI A., *La Nuova Italia d'Oltre mare*, Verona, 1934.
OLIVER R., MATHEW G., *History of East Africa*, vol. 1, Oxford Universit Press, 5e éd., 1976.
OUANOU J. et J., *l'Ethiopie, pilote de l'Afrique*, PARIS, Maisonneuve e Larose, 1962.
OURSEL R., *Pèlerins du Moyen Âge*, Fayard, Paris, 1978.
PANIKAR K.M., *Histoire de l'Inde*, PARIS, Fayard, 1958.
PANKHURST E.S., *Ex-Italian Somaliland*, LONDON, 1951.
PERES D., *Historia dos descobrimentos portugueses*, Colecçao Henri quina, LISBOA, 1959
—, *Historia de Portugal*, vol. II, *O século dos descobrimentos*, PORTC Portucalense editoria, 1952.
PETIT E., *Histoire universelle illustrée des pays et des peuples*, t. I, Paris Quillet, 1913.
PICHON J., *Sur la route des Indes*, PARIS, Sté d'édit. géog. mariti. et colo 1932.
PIRONE M., *Appunti di storia dell'africa*, ROMA, Edizioni Richerche, 1961
PHILLIPS W., *Qataban et Saba*, traduction de Gabrielle RIVES, PARIS, Jul liard, 1956.
ROUX J.P., *Histoire des Turcs*, PARIS, Fayard, 1984.
SAMANTAR S.S., *Orali Poetry and Somali Nationalism*, Cambridge Uni versity Press, Cambridge, 1982.
SERRAO J.V., *Historia de Portugal*, vol. III, *O século de ouro (1495-1580,* LISBOA, Verbo, 1978.
SERRAO L.V., *Historiografia portuguesa*, LISBOA, Verbo, 1962.
SERRAO J., *Dicionario de historia de Portugal*, LISBOA, Iniciativas Editc riais, s.d.
SIMONIN L.L. « La presqu'île d'ADEN et la politique anglaise dans le mers arabiques », *Revue des Deux-Mondes*, 15 décembre 1861.
—, *les Voyages de M. Henri Lambert*, Le tour du Monde, Paris, 1862
SOMALI PENINSULA (The), MOGADISCIO, Stationery Office, 1962.
SOMALI Republic, *The Danot incidents*, MOGADISCIO, 1961.
—, (and african unity), Publication du ministère somali de l'Informa tion, NAIROBI, Quality publications, septembre 1962.

SOUSTELLE J., *Envers et contre tout. De Londres à Alger (1940-1942)*, PARIS, Robert Laffont, 1947.

—, *Envers et contre tout. D'Alger à Paris (1942-1944)*, PARIS, Robert Laffont, 1950.

THARAUD, J., *le Passant d'Ethiopie*, PARIS, Plon, 1936.

TERUZZI A., « Incontro di due imperi », *in* : *Gli annali dell'Africa Italiane*, Anno I, vol. I, 9 mai 1938.

THOMAS Lowell, *la Campagne du colonel Lawrence*, PARIS, Payot, 1933.

TOURNOUX J.R., *Secrets d'État*, PARIS, Plon, 1960.

WILHELMSTRASSE, *les Archives secrètes de la Wilhelmstrasse*, PARIS, Plon, 1954, t. 5, livre II.

ZEGHIBOUR S., *la Vie quotidienne à La Mecque, de Mahomet à nos jours*, PARIS, Hachette, 1989.

المؤلف فى سطور:

روجيه جوانت داجنت

دبلوماسى متمرس، خدم بلاده فى لندن من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٥، وفى الصومال من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٣ كما عمل بسفارة فرنسا فى نيودلهى، وبالإضافة إلى ذلك حصل على عديد من الشهادات الأكاديمية من مدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية، كما حصل على درجة دكتوراه الدولة من معهد تاريخ بلاد ما وراء البحار، وله العديد من المؤلفات الخاصة ببلاد القرن الأفريقى والبحر الأحمر.

المترجم فى سطور

حسن نصر الدين حسن

حصل على الليسانس ثم الماجستير فى الآثار المصرية من كلية الآثار بجامعة القاهرة ، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ليل - شارل ديجول بفرنسا، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠٩ .

ومن أهم أنشطته العلمية: التدريس بكلية الآثار جامعة القاهرة، وأقسام الآثار والإرشاد السياحى بالجامعات والمعاهد المصرية، والمشاركة فى المؤتمرات العلمية فى الداخل والخارج، وكذلك المشاركة فى الحفائر الأثرية فى مصر فى سيناء وسقَّارة، وحفائر تونة الجبل، ومع الجانب الفرنسى فى شمال فرنسا .

ومن أعماله المترجمة: آلهة مصر القديمة، وولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام، والجيزة فى الألفية الثانية (عن الفرنسية). وجبانة الأسرة السادسة والعشرين بالجيزة (عن الإنجليزية).

ومن أهم مؤلفاته: الآثار المصرية فى العصر المتأخر فى سقارة والجيزة، والأجانب فى الجامعة المصرية، من منشورات المجلس الأعلى للثقافة.

المراجع فى سطور:

محمد عفيفى

- أستاذ دكتور ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية لعام ٢٠٠٤، وكذلك جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٩ .
- عضو العديد من اللجان العلمية: لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، ولجنة الترجمة بفرع التاريخ بالمركز القومى للترجمة، واللجنة العلمية للمتحف المصرى الكبير، وكذلك متحف جمال عبد الناصر، وله العديد من المؤلفات العلمية ما بين كتب مؤلفة ومترجمة.

التصحيح اللغـوى : **وجيه فاروق**
الإشــراف الفنــى : **حسن كامـل**